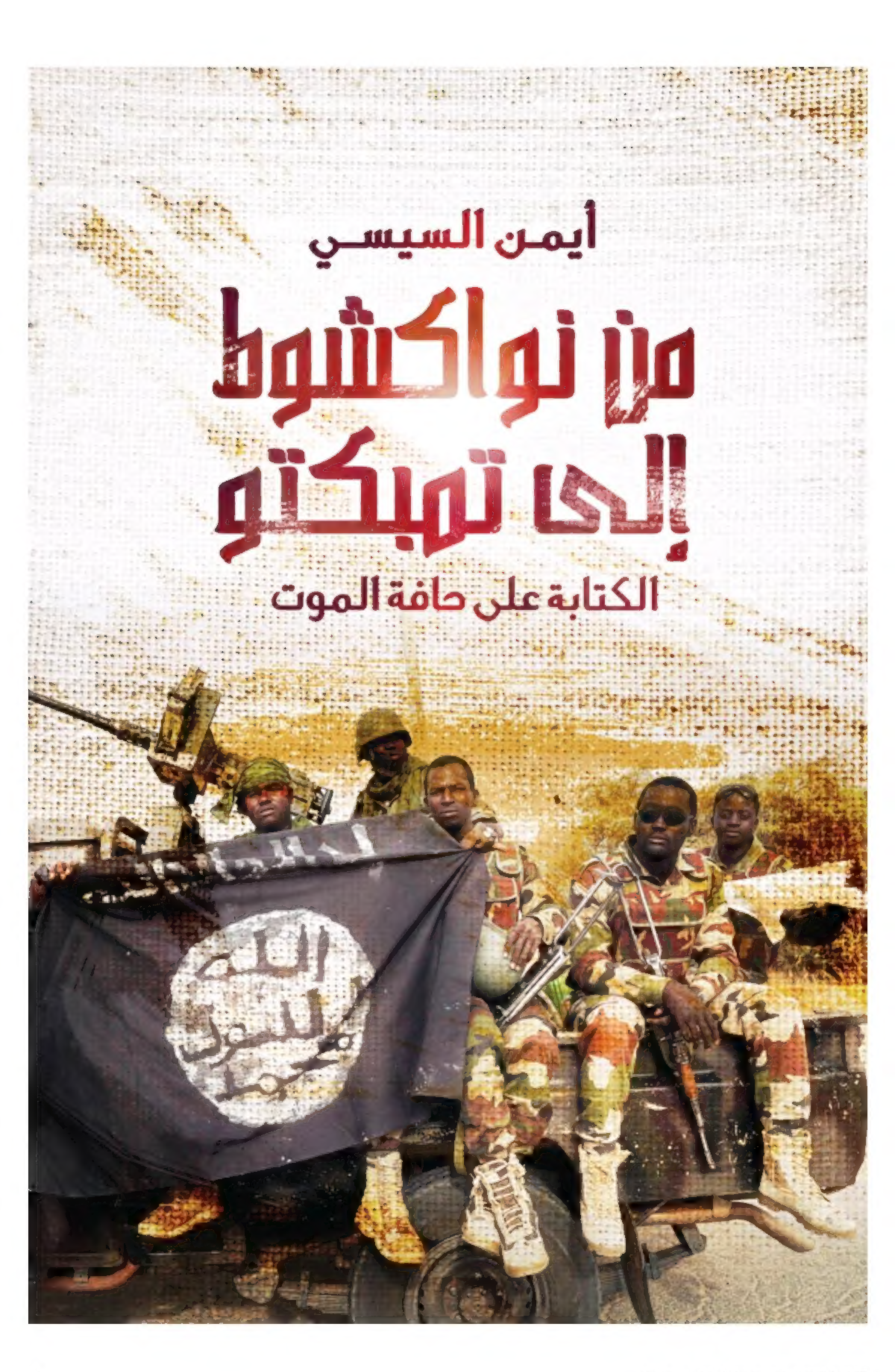

أيمن السيسي
من نواكشوط
إلى تمبكتو
الكتابة على حافة الموت

أيمن السيسي

من نواكشوط إلى تمبكتو: الكتابة على حافة الموت

نشر الكتاب الإلكتروني في 2017

نشر بواسطة دار نهضة مصر للنشر

حق النشر

أيمن السيسي

من نواكشوط إلى تمبكتو

الكتابة على حافة الموت

إشراف عام: داليا محمد إبراهيم

الترقيم الدولي: 978-977-14-5311-6

رقم الإيداع: 2015/17931

طبعة يناير 2016



21 شارع أحمد عرابي - المهندسين - الجيزة

تليفـون: 33466434 - 33472864 02

فاكــس: 33462576 02

خدمة العملاء: 16766

Website: www.nahdetmisr.com

E-mail: publishing@nahdetmisr.com

إهداء

إليه .. ابني الذي وُلِدَ في 30 يونية 2013 عندما هَبَّ الشعبُ المصريُّ في ثورتِه ليتخلَّص من عناصر التكفير والتقسيم.

فأسْميتُه عبدَ الفتاح ليكون مثل سَميِّه البطل عبد الفتاح السيسي أحرص على مصر من حرصه على الحياة..

وإلى مصر التي أمانها غاية المنى وهي الحياة.

أيمن السيسي

شُكْرٌ

تستوجبُ إحاطتي بالعناية والمساعدة والتأمين شكرَ مَنْ قاموا بها من أهلي وأحِبَّـتي فـي البلد الطيب المبارك «موريتـانيا»... الدكتور محمد ولد أحظانا، والـدكتور محمـد ولـد البرنـاوي، والمسـتشار محمـد ولـد أحمـد شـيخ سـيديا، والصحفي الباحث جمال عمر، والمدون والصحفي أحمد بن جدو، والصحفي الزميل محمد محمود شياخ، والفاضل «الأمير» عبد الله ولد سيدي حننا، وسفير مصـر في موريتانيا أثناء الرحلة محمد فاضل يعقوب، والقنصل السابق بها حاتم ماجد، والدكتور خالد غريب المدير السابق للمركز الثقافي المصري.

والشكر موصول للزميلة الصحفية والكاتبة نشوى الحوفي لتحمسها لإصدار هذا الكتاب.

المقدمة

اكتوت الدول العربية منذ عقود بنيران الإرهاب الذي تسرب من كتب قديمة وفقه الاتباع والطاعة وجحور العشوائيات وقرى الفقر، وفساد الأنظمة، ونظرنا في أقطارنا العربية - كل على حدة - إلى الأمر كمأساة ولكن في إطارها القُطري الضيق حيث انعدمت النظرة الشاملة للمنطقة العربية «الواحدة» تغليبًا للذاتية والانفرادية في معالجة كل دولة لهمومها وانكفائها على ذاتها رغم اشتعال النيران في الأقطار الشقيقة بداية من أزمة الصومال وتفككها إلى السودان وتمزقها.. غِبْنَا عن بعضنا، فالتهمنا الذئب واحدًا بعد واحد وما زال يلتهم!! وما زلنا في غيبة بلهاء، لا إعلام واحد ولا ثقافة واحدة ولا رؤية ممتدة وإن تغنينا بوحدتنا في اللغة والدين.

ووحدتنا الجغرافية الممتدة، تلك أولًا مسئولية الثقافة والإعلام المصريين اللذين فشلا في تبني القضايا والهموم العربية - وهي نفس هموم مصر - والذي كان يجب عليهما بحكم الريادة والتأثير.. ولكنه نفسه الفشل الذي سمح - داخليًا بالتخلي عن جسد مصر «الكسيح» في أقاليمها أو محافظاتها المختلفة لصالح «الرأس الكاسح» القاهرة المحروسة، كما قال جمال حمدان، رغم إن غالبية إعلامييها وصحفييها من هذه الأقاليم، ولكنها عقدة القاهرة، وهو نفس العجز الذي توطن في الإعلام البترولي ضيق الأفق، قصير النظر في حين دأبت فيه آلة الشيطان في الغرب على تنمية الفكر التكفيري مرة في أفغانستان بحجة دعم «المجاهدين» باستخدام الأطراف العربية «مصر والسعودية» ومرة في سوريا بحجة التخلص من نظام دموي فاسد، ومرات بدعم هذه الجماعات التكفيرية إعلاميًا وماديًا وحقوقيًا.

فبتنا على تمنياتنا السعيدة، وأصبحنا وقد تفجرت بلادنا بقنابل التكفير لتتشظى به المنطقة كلها، وحتى الآن تعالج كل دولة ما لديها من أزمة منفردة وهو خطأ وخطيئة، إذا استمرت ولم ننتبه، فسنمسي وكل بلادنا «داعش»!! فإن

العالم تعاد صياغته الآن.

ولا يحسبن حاسب أن ما أسهمت به ثورة 30 يونية في مصر قد أنهى المخطط، عرقله فقط، وأربك حساباته وأنهك منفذيه ولكنهم ما يفتئون يعيدون إنتاج خطط بديلة ستستمر حتى منتصف العقد القادم.. فإما أن يعي العرب ويوحدوا جهودهم لدرء خطر التقسيم والتدمير بمواجهة الإرهاب وحماية الفقراء بعدالة اجتماعية حقيقية، تجعلهم حراسًا على تماسك بلادهم وحماة لها، وتغيير خطاب التوجيه الإعلامي والتعليمي الساذج الذي أُنفقت من أجله المليارات على مدى عقود من خلال إمعات بشرية وتوافه تحكموا في الإعلام والتعليم، سطحت عقول الشباب فالتقطتهم قوى الظلام؛ لأن الذي قدمته الدول لأبنائها كان يشبه العلف الجاف لمواشٍ ليس لها إلا أن تؤكل التهامًا، فلما غص حلق النخبة بما أهملته بدأ الصراخ ولكن دون سعي لحل، فإما أن ننتبه، وإما أن يغيب العرب لقرون أخرى خلف الجهل والتكفير والكلام.. فهل من منتبه؟!!

مدينة نصر - ديسمبر 2014

* * *

إلى سورية... سفرٌ قبل السفر

لم تكن وقائع الانقلاب في «باماكو» عاصمة مالي غريبة، وكذلك أحداث انفصال شمال مالي وإعلان قيام دولة جديدة فيها - مفاجئًا لي حيث تكثر في إفريقيا الانقلابات العسكرية ومحاولات الانفصال، وما استرعى انتباهي فيه هو ظهور تنظيم «القاعدة في بلاد المغرب الإسلامي» كلاعب أساسي في الأحداث بما يضم من عناصر من كثير من الدول العربية سعودية ومصرية وليبية، ولمتابعتي لمثل هذه الجماعات واهتمامي الصحفي بها في الصومال واليمن ومصر وسوريا، توجست من انتشار هذا الفكر وتمدده على مساحة العالم العربي كلِّه، خصوصًا والبيئات الحاضنة في جميع دوله توفر له النمو الآمن العفي، وهو ما كان يواجهنا صباح مساء بعد أحداث 25 يناير في مصر و17 فبراير في ليبيا ومارس في سوريا، تلك المتواليات الكاشفة عن حجم الانهيار الأمني والاجتماعي والفقهي والعقائدي في منطقتنا العربية المنكوبة.

وحينما أهلَّت «الجمعة اليتيمة» في رمضان قبيل نهاية عام 2012 كان عليَّ أن أكون في الطائرة إلى نواكشوط التي أحببتها كثيرًا وأحببت أهلها، وقد زرتها قبل اثني عشر عامًا، تعرفت فيها إلى الكاتب الكبير الدكتور محمد ولد أحظانا الذي استضافني لأسبوع في منزله، كانت نواكشوط وقتها لا تعرف الفنادق إلا على نطاق ضيق، فكان الغرباء أمثالي ينعمون بدفء الكرم العربي بين الأسر الموريتانية كما في السودان، خصوصًا في منطقتي سِنَّار وكَسَلا، وفي اليمن الذي لم يعد سعيدًا! كان بفضل هذه الاستضافة في منزل «ولد أحظانا» أن تعرفت إلى المجتمع الموريتاني بشكل معقول من الداخل وإلى مثقفيه، ولهذا أردت أن أبدأ منها رحلتي إلى مالي وقد كان يمكنني السفر إلى باماكو دون المرور على نواكشوط، وبعد أن قررت السفر تلكأت قليلًا متحججًا بتأخر موافقة السفر في مكتب رئيس مجلس الإدارة، وانشغالي بموضوعات أخرى كان عليَّ الانتهاء منها وتسليمها للنشر قبل السفر، وكذلك السفر إلى سوريا لإعداد عدة تحقيقات صحفية عن أحداث الثورة وأحوال الثوار لنصرتهم، فقد

كانت «الثورة السورية» في أوج اشتعالها.. رأيتُ أن عليَّ واجبًا تجاه شعب آخر أحببته، وعشت بينه وعلى أرضه، في طريق عودتي لمنزلي عصرًا أخذني التفكير فيما سأفعل ولكني انشغلت عن السفر بالنظر إلى أسفلت الشارع وحركة المرور، شكل رمضان في شوارع القاهرة، رائحة الأسفلت في العصر، حركة الباعة في محلات الفول والمخللات، لمعة عيون الشباب الذين يستوقفون المارة والسيارات لمنحهم علب العصائر وحبات التمر، وقت أذان المغرب، للإفطار - ذكرتني برمضان في دمشق فجذبتني إلى رائحة البارود المنتشرة منذ شهور في شوارعها مما هيج شوقي أكثر للسفر وزادت رغبتي فيه.

تجذبني إليها ذكرياتي فيها مع أحبتي الذين أخاف عليهم من الاعتقال، أو «القتل» بالرصاص، أو الفرم تحت عجلات المجنزرات التي أصبحت البديل عن عسكري حفظ النظام، أو عسكري الدرك في المرور أمام البنايات، رائحة البارود و«كلاحة» تصنيفات الشعب ما بين سُنة وشيعة ومسيحيين وعلويين وشركس وأكراد ودروز، مفردات لم أسمع بها قبل ذلك في سوريا، ولكنها أصبحت الآن أصواتًا تطقطق في ذاكرتي بأيام الحرب الأهلية في لبنان التي كانت أيضًا بين كيانات مشابهة وفصائل متشابهة من نفس الشاكلة وبنفس مفردات الحروب وإن اختلفت شيئًا ما.. تذكرتُ «سنا» صديقتي الحلبية الجميلة التي اصطحبتني من شارع بالجميلية، إلى ميدان سعد الله الجابر في حلب، ثم إلى العزيزية؛ لتنتقي حسب ذوقي - كما قالت لي - فستان السهرة الذي سترتديه في سهرة عزمتني عليها وفيها ستعلن هي وحبيبها «ياسر» خبر ارتباطهما. والكاتب زهير جبور الذي استضافني في منزله يوم أن أردت التعرف إلى حيدر حيدر لإجراء مقابلة صحفية معه عندما أشعلت روايته «وليمة لأعشاب البحر» مظاهرات طلاب جامعة الأزهر ضمن خطة الإخوان وقتها عام 2000 لإثارة الرأي العام ضد وزير الثقافة المصري آنذاك فاروق حسني.

والأديب محمد الحاج صالح طبيب العيون والمخترع الذي لازم سنواتي العشر

الأخيرة بكل آلامها الخاصة وأفراحها، نجاحًا وفشلًا، وأسرته الطيبة، وصديقي الراحل الشيخ محمد يوسف أبو صبحي إمام مسجد «غانية» بجسر الشغور. وصديقي عبد القادر جابر الذي ظل في مصر مقيمًا رافضًا العودة إلى سوريا هربًا من ديكتاتورية الأب والابن ولم يزر قريته «حور النهر» القريبة من «مرج دابق» التي بويع فيها عمر بن عبد العزيز بالخلافة داخل مسجدها الصغير ولكنها اكتسبت شهرتها في العالم العربي بمعركة انهزام العرب أمام الترك فيها عام 1516 لتكبل مصر وسوريا وسائر بلاد العرب بعدها بقيد «العثمانلية» الذي أعمى الأبصار، وخرب البصائر وجفف البلاد من خيراتها، وستعود - دابق - إلى شهرتها مرة أخرى باتخاذ داعش لها كموطن لسفك الدماء وإسالته في مرجها الأخضر.

فكرت في السفر إلى تركيا للتسلل منها إلى حلب «الشهباء» موطن العشق الأبدي لي وراحة النفس في باحاتها وأسواقها ومسجدها الأموي الذي شهدتُ عمليات ترميمه عام 2000 ودمرته الحرب، وبناياتها التي نزلت بها ضيفًا في بيوت الكثير من الأصدقاء، وفي فنادقها الرخيصة.

طرطوس.. ومعرّة النعمان والسويداء وإدلب[1] وجسر الشغور كلها مدن شهدت بعضًا من ذكرياتي وشهدتُ فيها أيامًا جميلة.

قبل أن أنهي يوم العمل أسررت إلى مدير التحرير المرحوم محمد السعدني «توفي يوليو2014» برغبتي في السفر إلى سوريا، رفض بحسم خوفًا على حياتي، وحجته أن الأرض هناك مشتعلة والأمان مفتقد، قال لي: كفاك المغامرة في مواطن الخطر حفاظًا على حياتك، ولكن رفضه ضاعف رغبة التصميم داخلي، ودائمًا تكون مثل هذه التحذيرات زادًا في مخيلتي وحجاب شجاعة، لا أدري لماذا.. ربما لحبي للمغامرة التي أستكشف فيها مجهولًا، حدث هذا عندما فكرتُ في السفر إلى الصومال لاختراق أوكار القراصنة[2]، وعندما تسللت عبر الحدود إلى ليبيا وأمضيت أسابيع مع الثوار من «طبرق» إلى «رأس لانوف» وسجلت وقائع انتصاراتهم وهزائمهم، واستمعت إلى كلمات أمهات الشهداء

الشباب، وقتها كنت بسذاجة الراغب في الخلاص من الفساد والظلم، كعشرات الآلاف الذين خرجوا على حكامهم في مصر وليبيا[3] وسوريا وتونس.. دائمًا ما كان الفرح داخلي بالمغامرة عندما أعود بحكايات وتحقيقات ولقاءات صحفية جريئة.. أو هكذا أظن.

فاتحت صديقي الصحفي المنشق والثائر السوري محمد أمين في رغبتي في السفر، تعجبت أن يكون رده متفقًا مع رفض المرحوم الأستاذ محمد السعدني، ولكنه أمام إصراري وافق على أن يرتب لي من يستقبلني في أنطاكية من عناصر الجيش السوري الحر مؤكدًا ضرورة التكتم وعدم إعلان موضوع سفري خصوصًا أمام السوريين في القاهرة إلا من أثق فيهم كثيرًا!!

ظللت على هذه الرغبة بعض الوقت.. حتى استبدلت بها السفر إلى الأردن لعدة أيام تمكنت فيها بمساعدة «الثوار» من دخول «درعا» و«الحراك» وبعض مدن الجنوب من محافظة الحدود الأردنية، زُرتُ مخيم اللاجئين السوريين في صحراء «الزعتري».. هالتني الخلفية العقائدية المتشددة بين الجرحى الذين التقيتهم في مستشفى الملك عبد الله بن الحسين، والحديث عن الثورة كحرب شيعية سنية، وعمليات السرقة التي سمعت عنها من بعض السوريين للمعونات المالية التي تخصص للمساعدة من الدول الخليجية، وهالني حجم الدعم الكبير الذي رأيته يتواصل من قطر والسعودية والكويت وبأرقام كانت قادرة على بناء سوريا ومساعدة الفقراء فيها، رأيت الاختلافات الحادة بين الثوار ومدعي الثورية الذين يأكلون لحم الفقراء.. وقتها آمنت أن ما يحدث في سوريا ليس ثورة، بل انتفاضة التقطتها بعض الأجهزة لتُسخِّر المال العربي لهدم الدولة.. كما حاولوا أن يحدث في مصر.

بعد العودة تلكأت لأسابيع لمعاودة الاغتراف من نهر حكايات «تمبكتو» وفيض أسرارها من بطون الكتب القديمة وحكاياتها المنسية، ثم عزمت السفر في اليوم الثاني لعيد الأضحى، وهو ما حدث، فكان السفر عبر مطار كازابلانكا.

* * *

تمبكتو.. مدينة الذهب

لم يكن لغير مدينتي - القاهرة - سحر يأسر العقول ويلهب خيال الكُتّاب، ويستدعي بهاؤها الموت في سبيل الوصول إليها سوى المدينة العجيبة «تمبكتو» مدينة الأسرار وبوابة الصحراء التي ترقد بمحاذاة نهر النيجر ليبدو في تعرجه حولها من جهة الجنوب كعجوز تحتضن وليدها الذي تكون من «نطفة» شريفة، هي خيمة السيدة «بكتو» المنتمية لقبيلة «إمقشرن» الطارقية التي كانت خيمتها مقرًّا دأب الطوارق على الراحة حوله أثناء رحلاتهم في الصحراء، كانوا يخزنون محاصيلهم وغذاءهم، ويقضون فيه أيام الجفاف، ثم يعودون في الشتاء إلى «أروان»[4]، وشيئًا فشيئًا نمت النطفة حتى صارت قرية اعتادها الطوارق في غدوهم ورواحهم وأقاموا سُوقًا فيها وعرفت بالاسم «تين بكتو» المكون من «تين» وتعني ياء النسب في اللغة الطارقية، و«بكتو» اسم المرأة، واستمدت المدينة شهرتها من العلم والفقه والذهب الذي حمل منه اثنان من ملوكها القدامى أطنانًا أنفقاها في رحلتيهما للحج.

وإن كان الطمع في الذهب هو الذي ساق سلطان مراكش «المغربي» أحمد المنصور السعدي إلى غزو مملكة «صنغي» ودخول «تمبكتو» ونهبها، فإن الملح، والذي كان أيضًا من أندر السلع، كان الحجة التي بها تحرش السلطان «مولاي محمد الكبير» بصنغي، فأرسل عام 1543م إلى «أسكيا إسحاق» يطالبه بالتنازل عن مناجم «تغازة» لوقوعها داخل نطاق دولته، فرد عليه «إسحاق» ردًّا خشنًا أعقبه بجيش «طارقي» مؤلف من عشرة آلاف فارس، نهب «درعة» أول حدود دولة مراكش المغربية للتعريف بقدرته على حماية حدود بلاده، ثم عاد «مولاي عبد الله» للتحرش بـ«صنغي»، فأرسل إلى «أسكيا إسحاق» مدعيًا ملكيته لمناجم «تغازة» من «تكدا»، طالبًا دفع الإيجار عن استغلالها فلم يقبل إسحاق، ورد عليه بسفارة تصالحية تحمل عشرة آلاف مثقال من الذهب، كهدية أبهرت السلطان وحفزته لمعاودة التحرش بصورة فعلية، توطئة لاحتلال «بلاد الذهب» فأرسل عام 1557م غارة إلى «تغازة» هاجمت الطوارق المشتغلين باستخراج

الملح، وقتلت حاكمها مما دفع الطوارق للبحث عن مناطق جديدة لعملهم إلى أن استقروا على منطقة «تاودني»، ولم يطل صمت المغاربة حيث أرسل سلطانهم الجديد «أحمد المنصور السعدي»، بسفارة جديدة عام 1583م تحمل هدايا قيمة، ولكن المنصور كان يُمني نفسه بالسودان، وكان هدف سفارته الحقيقي هو التعرف إلى الطرق والمدن الرئيسية في «صنغي» ودراسة أحوال جيشها، ورد عليه أسكيا إسحاق بهدايا أفخم، قال المؤرخون إنها كانت وقود النار لفكرته التي أغراها بريق الذهب في الهدايا، فجهز جيشًا من 20 ألفًا احتل بألف منهم مناجم الملح في «تكدا»، واحتل آخرون المناجم الجديدة في «تاوذْني»[5]، وحصل على ما يريد من الملح، وبكميات كبيرة، ولكنه كان يريد الذهب فعاود طلب الإيجار عن مناجم الملح، بل وطالب بالجزية مثقال ذهب عن كل حمل من الملح يدخل السودان، فرفض «أسكيا إسحاق».

كانت نظرة السعديين حكام مراكش لحكام مملكة «صنغي» ملؤها الشك والريبة خصوصًا بعد أن اتخذ «أسكيا محمد توري»[6] لقب خليفة أو أمير المؤمنين، والسعديون يرون أن هذه الصفة حقٌّ معلومٌ لهم دون غيرهم في شمال وغرب إفريقيا، ولذا لا حق لاسكيا محمد لكونه غير قرشي، وقد رسَّخ الخلفاء الأُول في أذهان المسلمين شرط قرشية الخليفة، وهي إحدى إشكاليات العنصرية القرشية العربية التي فرضت نفسها بقوة السلاح تارة، وباستسلام الأمم الخاضعة لشرف النسب تارة أخرى، وعلى ذلك فإن «أسكيا محمد» لم تكتمل فيه شروط الخلافة، ولذلك ظلت فكرة غزو هذا الإقليم تعتمل في أذهان حكام مراكش السعديين، أججتها أطماعهم في موارد مملكة صنغي العظمى، الملح والذهب لكونها أغنى المناطق بهما، وهو في رأي المؤرخين السبب الأهم، وتحدث به أحمد المنصور السعدي نفسه صراحة في مجالسه بقوله: «إن تجار الصحراء لا ينقطعون ذهابًا وإيابًا منها محملين بكميات كبيرة من التجارات المحمولة على الإبل، ولم يحدث أن انقطع».. وتماثلت أطماع فرنسا وأمريكا في عصرنا الحالي مع أطماع أحمد الملك المغربي في الذهب[7].

وأكدت مصادر التاريخ الأحداث، بذكر تفاصيل حملة أحمد المنصور إلى صنغي المكونة من ثلاثة آلاف رامٍ، وذكر آخرون أن عددهم كان أربعة آلاف، وفي مصدر ثالث 23 ألفًا، وضمت معها المدفعية والأسلحة النارية والبارود والقنابل والرصاص، وفي هذه المعركة كانت أول معرفة لأهل السودان الغربي بمثل هذه الأسلحة، وتلك كانت المفاجأة الثانية لأهل صنغي، أما الأولى فإن الحملة جاءت من الشمال عبر الصحراء الكبرى بدلًا من مجيئها من ناحية الغرب كما توقعوا، وعندما دخلت الجيوش المغربية «تمبكتو» دارت حرب ضارية غير متكافئة لتعيش «المدينة العجيبة» واحدة من نكباتها المتكررة فرغم ثبات أهلها في الدفاع عنها فإن أسلحتهم القديمة: الرماح والسيوف والسهام، لم تساعدهم على صد الغزو، ويرى الدكتور ماهر عطية شعبان[8] أن ذنب التمبكتيين الذي عرَّضهم لغزو مسلمين مثلهم لم يكن سوى ثرواتهم من الملح والذهب، حتى إن العلماء والفقهاء ورجال الدين كانوا يقولون لهم: نحن أهل الكتاب والعلم وليس لنا صلة بالحرب أو المنازلة[9].

وعندما دخل جوادر باشا على رأس جيش السعدي قدَّم له أسكيا إسحاق الثاني مائة ألف مثقال من الذهب فضلًا عن مائة من العبيد، وطلب قبول دفعه الجزية السنوية، فاعتبر جوادر ذلك شرطًا غير مقبول، وإن أخذ الهدية وأرسلها إلى السلطان، واتجه إلى «تمبكتو» فدخلها دون مقاومة.

وذكر المؤرخون أن أحمد المنصور السعدي حصل على الكثير من تبر الذهب فأصدر عملة ذهبية صاغها 14 ألفًا من الحدادين مكثوا في قصره يحولونها من ذهب إلى عملة وحوَّل الصاغة جزءًا آخر إلى عقود وحلي، ومن ذلك حصل على لقبه أحمد المنصور الذهبي.

ولا تزال الذاكرة الجمعية تحتفظ ببعض تفاصيل غنى الملوك ونثرهم لخالص الذهب الأصفر في طرقاتهم أيام الأعياد والاحتفالات[10].

وقد قدر الرحالة «بارث» تجارة الذهب القادمة من «تمبكتو» في نهاية القرن

التاسع عشر بعشرين ألفًا من الجنيهات الإسترلينية وهو رقم عظيم؛ إذ قدر سعر الجنيه الإسترليني وقتها بـ 12 ألف ودعة في حين كان الريال «الجنيه» الإسباني[11] لا يزيد سعره في «تمبكتو» على 4 آلاف ودعة.. وكانت هذه الرحلة من العوامل التي زادت من اهتمام أوروبا بالغرب الإفريقي.

وفي زيارته لها عام «1352م/753هـ» وصف ابن بطوطة قصر سلطان مالي وطبقاته المغشاة بصفائح الذهب، ووصف مجلسه فقال: «تُرفع عليه - أي السلطان - قبة من الحرير، يعلوها طائر من ذهب على شكل البازي، وعلى رأسه شاسيه من ذهب مشدود بعصابة من ذهب، وكذلك يأتي أحد الأمراء بنساء السلطان الأربع وجواريه مرتديات الملابس الجميلة، وعلى رءوسهنَّ عصابات من الذهب والفضة، فيوزع عليهنَّ السلطان هداياه أو عطاياه لهم مثاقيل من الذهب على حسب مراتبهن».

ولفت إليها «منسا موسى»[12] الأنظار بعد رحلته الشهيرة للحج، والتي يمكن أن نسميها بـ«رحلة الذهب» أو الرحلة الذهبية، وكان أول حاكم من حكام «إمبراطورية مالي» يضمها إلى مملكته وابتنى فيها دارًا لحكمه«مع دك» أي دار السلطنة، حتى توسع حولها فضم «ولاتة»[13]، «وامتدت رقعة إمبراطوريته من بلاد التكرور غربًا إلى «دندي» شرقًا ومن «ولاتة» في الصحراء إلى مرتفعات فوتاجالون «السنغال حاليًا» جنوبًا أسهم في ازدهارها هجرة مسلمي «غانة» بعد غزو ملك «الصوصو» لبلادهم وضمها إلى إمبراطوريته، فأسهموا أيضًا في النمو الفقهي والتجاري.. وكان الذهب قد أصبح أكثر وفرة. كانت تخرج من «تمبكتو» أربع طرق رئيسية للقوافل المتجهة إلى مصر وتمر بـ«كانم» ثم «جاوا» والثانية إلى تونس وتمر بـ«هقار» والثالثة إلى المغرب الأقصى عبر طريق «سجلماسة» و«توات» والرابعة وتمر بـ«مالي».

وبذلك أصبحت «تمبكتو» ملتقى القوافل وسوقًا مهمة تلتقي فيها بضائع العالم سواء من الشرق حيث كان يؤمها تجار مصر ومن شمال إفريقيا من «غدامس» و«فاس» و«السوس» و«تغازة» حيث منجم الملح المشهور وكان الملح سلعةً

نادرةً ومهمةً عند الزنوج.

وكذلك تجار جنوب الصحراء خصوصًا «غانة» التي كانت مصدرًا للذهب، وفيها كان يقايض الملح بوزنه من الذهب، فقد كان الملح في هذه الأزمنة العملة الأكثر قبولًا واحتياجًا، فـ«ليس من الضروري عند السفر إلى السودان الغربي حمل أي نقود بل يكتفى ببعض الملح وبه يمكن الحصول على كل ضرورات الحياة[14]». وكان الملح يستخرج من منجم «تغازة» الواقعة شمال شرق «تاودني» التي يصفها ابن بطوطة بأن مسجدها وبيوتها بنيت من حجارة الملح، وسقوفها من جلود الإبل، وملح «تاودني» مكون من5 طبقات أفضلها هي الطبقة الرابعة التي يظهر فيها خليط من الأسود والأبيض، وفي تمبكتو كان يصل ثمن لوح الملح إلى ستة آلاف ودعة[15] وهي إحدى العملات التي كانت متداولة في نطاق الغرب الإفريقي.

ولم يكن بيع الملح بالذهب لندرة الملح بل لكثرة الذهب في هذه البلاد، وهو الذي دفع «منسا موسى» إلى التندر به سخرية من المندهشين في مصر من كثرة ما معه من ذهب في رحلته الشهيرة إلى الحج حيث قال للسلطان الناصر محمد بن قلاوون عندما سأله: من أين لكم بالذهب؟ - فقال كما سجل العمري في كتابه[16] «أن لديهم نباتًا ينمو في الصحراء أعقاب سقوط المطر ويزهر في الربيع فيرصدونه ذهبًا».

ونوع آخر منه ينمو على ضفة النهر «النيجر» ويزدهر طوال العام وينضج عند اشتداد الحرارة في أغسطس، وعندما يفيض النهر يحفر الناس فيحصلون عليه، أما اندهاش المصريين الذي دفعهم لسؤال «منسا موسى» عن الذهب فسببه كثرة ما حمل معه منه على مائة جمل وصل وزنه إلى ثمانين حملًا وقيل مائة حمل[17] وزن الواحد ثلاثمائة رطل وقدرت في مصادر أخرى بخمسين ألف أوقية، وتحدثت مواقع الذهب الحالية بحساب التضخم الزمني أن منسا موسى يعد بذلك أغنى رجل في تاريخ البشرية، وقدرت ثروته بحسابات الزمن الحالي بـ400مليار دولار، فقد كان يمتلك منه أطنانًا خرافية، وتسببت كثرة ما

وزع من الذهب في القاهرة في هبوط سعره داخل القطر المصري لما يقرب من اثني عشر عامًا إلى 22 درهمًا للمثقال بعد أن كان سعره يزيد على 25 درهمًا، وحدثت «رحلة الذهب» في أكتوبر عام 1324م /ذي القعدة 724هـ، واصطحب منسا موسى معه خمسمائة خادم وستة آلاف حارس، ووزع «منسا» ذهبًا كهدايا وعطيات لكل من التقاه في البلاط السلطاني، بداية من الناصر محمد بن قلاوون إلى حُجَّابه ووزرائه وغيرهم«غير ما وزع من صدقات ومساعدات للفقراء»، وأمر السلطان أمير الحج سيف الدين أيتمش بمصاحبة «منسا موسى» والسهر على راحته طوال الرحلة، وهو ما حدث.. وفي مكة منح موسى أهلها مائة ألف قطعة من الذهب.

وكان لبذخه الشديد أثره على نفاد حمولته منه، فاحتاج أثناء توقفه في مصر في طريق العودة، مما اضطره للاقتراض من سراج الدين بن الكويك أحد كبار تجار الإسكندرية، الذي كان له منزل بـ«بركة الحبش» في القاهرة، نزل «منسا» ضيفًا عليه فيه، أقرضه خمسين ألفًا بضمان الملك وضمان مشايخ الأزهر، وأقرض أمراءه أيضًا، على أن يرسل «سراج بن الكويك» وكيلًا له مع منسا موسى إلى بلاده لاسترداد القرض، ولكن الوكيل لم يصل، حيث مات في الطريق، فأرسل الملك رسالة إلى سراج ليبعث رسولًا آخر ففضل سراج الدين السفر بنفسه مصطحبًا معه ابنه، فلما وصلا إلى «تمبكتو» استضافهما أبو إسحاق الساحلي في منزله، ولكن سراج الدين مات في نفس ليلة وصولهما، فتحدث الناس بذلك واتهموه بتسميم «الدائن المصري» في العشاء، فنفى ابن سراج ذلك مؤكدًا أنه أكل معه «من نفس الطعام فلو كان فيه سمٌّ لقتلنا جميعًا».

قال السعدي: واقتضى الولد مال أبيه وانصرف إلى ديار مصر بعد تمضية عدة أيام في بيت «أبو إسحاق الساحلي»[18].. الذي اصطحبه منسا موسى من الحجاز بعد أن تعرَّف إليه في الحج، فبنى له قاعة القبة في قصره وزينها بنقوش زخرفية جديدة لم تكن تعرفها بلاد السودان الغربي فمنحه اثني عشر ألف مثقال من الذهب، وهو الذي صمم وشيد مسجد «جنغري بير» والتي تعني

في لغة الصنغي «المسجد الكبير» الذي لا يزال أهم معالم تمبكتو.

ولكثرة الذهب في هذه البلاد جاءت رحلة ذهبية أخرى من رحلات الحج بعد ما يقرب من مائة وخمسين عامًا عندما حج «أسكيا محمد» مؤسس دولة «صنغي» على أنقاض دولة «مالي» 1494م، وكان برفقته في رحلته تلك عام 1497م ألف جندي من المشاة وخمسة آلاف من الفرسان، وحمل معه ثلاثمائة ألف مثقال من الذهب، وأسرف أيضًا في المنح منه سواء في مصر أو في الحجاز، وإن كان أهل مكة قد اعتبروه بخيلًا لأنه منحهم وأهل المدينة عشرين ألف قطعة فقط من الذهب، في حين أن «منسا موسى» منحهم خمسة أضعاف ذلك.

أما مصدر الذهب في الغرب الإفريقي فكان مملكة «غانة» وعرفت به قديمًا وكان عماد ما وصفه المؤرخون، منهم «هيرودوت»، التجارة الصامتة - فكان التجار القادمون إلى «غانة» يضعون بضاعتهم على شاطئ النهر ثم يتوارون عن الأنظار، ويتقدم أهل «غانة» أصحاب التبر «الذهب» ويضعون قيمة السلع تبرًا - فيما قدروه - ثم ينسحبون، فيظهر التجار، فإذا رضوا بكمية الذهب كقيمة مناسبة للبضاعة أخذوها ومضوا، وإن لم يرضوا اختفوا مرة أخرى، فيعود أصحاب الذهب ويزيدون منه - إن أرادوا إتمام البيع - حتى تزداد الكمية، وإذا قبل بها التجار أخذوها وتركوا البضاعة وانصرفوا.

أما كيف كان أصحاب الذهب يعلمون بقدوم البضائع فإن التجار كانوا إذا وصلوا ضربوا طبولًا عظيمة تُسمع من بعيد ووضعوا ما معهم من بضائع على الشاطئ ويختفون، وعند انصرافهم أيضًا كانوا يضربون طبولهم إعلانًا بالرحيل.

وأرجع بعض المؤرخين الصمت في هذه التجارة إلى رغبة السكان المحليين - أصحاب الذهب - في عدم الكشف عن مصدر ثروتهم، وأن هذه هي أفضل طريقة اعتقدوا أنها تحقق لهم الهدف بتجنب كل اتصال، ولهذا قاموا بقطع

علاقاتهم التجارية مع «الونقارة» عندما أسروا اثنين منهم واصطحبوهما معهم إلى مالي[19].

وتجرعت تمبكتو من الغزو السعدي كأس المرارة كاملة، مما جعل القاضي «أبو حفص عمر بن محمود بن محمد أقيت» يرسل بشكوى إلى المنصور سلطان مراكش، فأعاد السلطان الرسل مع جيش من ألف ومائتي مقاتل، ما إن حلوا حتى قبضوا على العلماء، ومنهم القاضي عمر وأحمد بابا «التمبكتي» وصفدوه في الأغلال مع أفراد أسرته، وسيقوا مكبلين إلى مراكش، وسقط أحمد بابا[20] من فوق ظهر الجمل فكسرت ساقه، ومات القاضي عمر أثناء رحلة النفي إلى مراكش بعد أن أنهكه المرض والتعب، وكان مرافقوه إلى المنفى من العلماء قد طلبوا من قائد الرحلة أن يتوقفوا يومًا للراحة حرصًا على القاضي، فلم يقبل، وقال لهم: «إما أن تتركوه أو تحملوه على بعيره فأينما أدركه الموت نطرحه».

ولكن ما يهمنا هنا أن «تمبكتو» خبت مرة أخرى، وانطفأ وهجها تحت تلال الحزن، فصارت بعد أن ارتحل العلماء عنها جسدًا بلا روح، وتغير حالها وتبدلت عوائدها.

***

أزمة الطوارق في مالي

تمثل منطقة الغرب الإفريقي أكثر مناطق إفريقيا تخلفًا وجهلًا في مستوى التعليم والصحة فضلًا عن سوء الإدارة وفسادها، وقد ظلت الانقلابات العسكرية سمة واضحة في الغرب الإفريقي منذ حصول دولها على الاستقلال، نتيجة النسخ الإفريقي المشوه لنفس النظم الاستعمارية الغربية القائمة على سيطرة نخبة عميلة أهم سماتها الفساد والجشع حكمت بنفس الانتهازية والاستعلاء مما أسهم في استمرار انتشار الفساد السياسي والمالي.

يزيد على ذلك استمرار التهميش للعرقيات المختلفة للنخب الحاكمة الذي أسهم في شبه انعدام سيطرة الحكم المركزي على أجزاء من البلاد خصوصًا في مناطق هذه العرقيات، مع عدم الفصل بين الحاكم والدولة لا في الشخصية ولا الذمة المالية، ويزيد التعقيد تفجر الخلافات الجهوية أو العرقية الإثنية أو اللغوية بين آن وآخر، نتيجة إهمال المستعمر القديم والمجتمع الدولي الحالي لمساعدة هذه الدول في تطوير مؤسساتها بشكل فعلي خروجًا من التشكل القبلي إلى الدولة الحديثة، مما أسهم في استعادة كثير من الأطر الحياتية القديمة سياسيًّا واجتماعيًّا كرابط لمعيشة وحياة بقايا الممالك والسلطنات القديمة، وولّد حساسيات شديدة التعقيد والتأثير بين العرقيات المختلفة، مع حدوث حراك مجتمعي على صعيد المهارات التقنية والتعليم والاقتصاد، وإن كان بسيطًا ومتخلفًا لكنه يميز عن الأكثر تخلفًا فظهرت شخصيات من قبائل وإثنيات كانت تعد قديمًا من الطبقات الدنيا والعبيد كمتعلمين أو تجار أو ضباط في الجيش والشرطة المدنية.

وتحمل الذاكرة الصنغية الشعبية كثيرًا من حكايات الرق، ومنها ما صار علامة على بعض القبائل، مثل عائلة «المايغا أو المايجا»، والتي تعني بلغة التماشق «أين هو» وتحكي القصة التي سمعتها من طوارق تمبكتو أن جد قبيلة «المايغا» كان عبدًا لأحد أعيان الطوارق، وهرب منه فأرسل مولاه في البحث عنه، وكان

يسأل:مايغا - أين هو - بلغة التماشق وأصبح يعرف بـ«المايغا» وحمل أبناؤه وأحفاده هذا الاسم، وأصبحوا من أكبر عائلات الصنغي بـ«تمبكتو»، وإن كانت العبودية قد سببت ثأرًا فإن ترك العبودية أو تحرير الرق وتسريحهم فترة السبعينيات إبان أزمة الجفاف، صارت أيضًا مفجرة للغضب في نفوس العبيد السابقين لأن ساداتهم ما سرحوهم وحرروا آباءهم إلا تخلصًا من عبء كفاية مؤنتهم ومأكلهم.

واستمر ذلك حتى التسعينيات في ظل التردي الاقتصادي للمنطقة فكان أحيانًا يعود أبناء أحد العبيد - السابقين - إلى أولاد سادتهم الأولين وعادة ما يكونون قد انتهجوا التجارة بعد ترك البوادي نتيجة هلاك مواشيهم، ويطلبون تكفلهم ومساعدتهم بالعمل ولكن السيد ابن السيد السابق لم يعد يستطيع ذلك لضيق ذات اليد، فضلًا عما ترسخ في المجتمع «الأزوادي» في التسعينيات نتيجة الحراك الثوري، والذي حمل في جانب مهم منه أفكار اليسار التي كانت تنبذ العبودية وتحض على التخلص منها.. ولذلك فمن الطبيعي والمنطقي أن تكون دولة فاشلة وهشة، بما تعج من صراعات وتوترات عرقية ولغوية وجهوية، تمنع سيطرة الحكومة على أغلب حدودها مع تنامي العنف الإجرامي واتساع رقعة المخالفات القانونية، سواء على المستوى الفردي أو الجماعي القبلي ولفساد الدولة أسهمت عناصر من الإدارة فيها - مثل حالات تهريب المخدرات - مما ساعد على التآكل التدريجي لقدرة الدولة وهيبتها وشرعيتها.

لم تكن مشكلة شمال مالي إلا تعبيرًا عن التوتر الإفريقي العام الممتد على كل مساحات الدول التي صنعها الاستعمار دون النظر إلى تجانس لغوي أو عرقي أو حدودي بناء على لم الشمل للإثنيات والعرقيات المنتشرة أو احتوائهم، لأن النخبة الزنجية التي كافحت الاستعمار للاستقلال ببلادها وحصلت عليه حكمت بعدها بنفس نظرة الاستعلاء الاستعماري فكانت نظرتها إلى المكونات العرقية واللغوية في «أزواد» من عرب وطوارق سطحية وهامشية وفي جزء منها عدائية نتيجة استرقاقهم للزنوج ومنهم الصنغي وشذوذ تجار الرقيق

«عرب وطوارق» في التعْذيب والتنكيل بالعبيد الذين كانوا يأسرونهم عندما يسطون على قراهم - الوادعة - ويسوقونهم إلى أسواق النخاسة.

ونتيجة العلاقات التاريخية المرتبكة تولدت لدى الصنغي مرارة مستمرة وعقدة كراهية الجنوب الزنجي للبيض.. غذَّاها بيض آخرون هم السادة الجدد من المحتلين «الفرنسيين» الذين زادوا من رقعة العقدة التاريخية بالتذكير الدائم عبر محاضرات وكتابات وأحاديث استرقاق الزنوج.

وتعمدت حكومات مالي منذ استقلالها عن فرنسا فرض الوضع الاقتصادي على سكان الشمال خصوصًا «تمبكتو» والتهميش المعنوي والتنموي والإقليمي فلم يحظ بأي مشاريع تنموية أو إقامة بنى تحتية.

وأظهرت انحيازًا ثقافيًّا واجتماعيًّا للطبقة الزنجية التي شكلت نخبة حاكمة مُعادية بشكل سافر للهوية الأزوادية والثقافة الإسلامية بوجهها العربي في «أزواد» فبدأ الطوارق - نتيجة شعورهم بالخطر الذي يتهدد وجودهم وثقافاتهم وشموخهم الذي اشتهروا به - ثورتهم عام 1961انطلاقًا من كيدال..

وساعدت نظرة العداء الكامن وما أدت إليه من فكر انتقامي بالتهميش والتسطيح زيادة على تمثل النخب الحاكمة الجديدة - في «باماكو» الزنجية - بالسادة المحتلين البيض السابقين في نظرتهم العنصرية إلى جميع من دونهم ومنهم الطوارق والعرب فضلًا عن نزوع التمرد لدى الطوارق وهو إرث تاريخي يؤجج حراكهم «الاستقلالي» الدائم نتيجة التهميش وعدم الاعتراف بأي من حقوقهم الدستورية والثقافية واللغوية وما زاد عليه من معطيات الماضي أصبح حاضرًا بقوة في كل تحركاتهم «الاستقلالية» ضمن إطار السياق التاريخي العام لحركة الطوارق في الصحراء، وهم كانوا - إبان مملكة مالي القديمة - من ألد أعدائها.

واستقلت مالي عن فرنسا عام1959 ضمن اتحاد مع دولة السنجال تحت اسم «جمهورية السودان الفرنسي». وفي عام 1961 انسحبت «السنجال» لتتخذ

مالي هذا الاسم المستمد من إمبراطورية مالي القديمة التي كانت حدود الدولة الحالية «ومساحتها 1.240 مليون كم2»، جزءًا منها ومن إمبراطوريتين أخريين عظميين هما «غانة» و«صنغي»، وقيدت منطقة الشمال «أزواد» ضمن هذه الدولة تحت حكم الحزب الواحد حتى عام 1991 برئيسين «موديبو كيتا»، ثم «موسى تراوري» اللذين مارسا ضد سكان أزواد من العرب والطوارق أبشع صنوف القهر والإذلال فضلًا عن التهميش والإفقار، وفي عام 1991 قام قائد سلاح المظلات «أمادو توماني توري» بانقلاب على «موسى تراوري» إثر مظاهرات عارمة، ثم انسحب من الحياة السياسية بعد عام، وتسلم السلطة «ألفا عمر كوناري» في انتخابات ديمقراطية عام 1992، ثم ترشح «أمادو توماني توري» للانتخابات الرئاسية بعد تقاعده من الجيش عام 2002 وفاز بها إلى أن قام النقيب «أمادو صونكو» بقيادة انقلاب عليه في 22 مارس 2012 على غير توقع وقبل أربعين يومًا فقط من انتخابات رئاسية كان مقررًا إجراؤها يوم 29 إبريل من نفس العام وإعلان «توماني توري» احترامه للدستور، ورغبته في ترك الرئاسة بعد انتهاء مدته وعدم الترشح لفترة أخرى، وهو ما يضع علامات استفهام وتوجس ممن كانوا خلف الانقلابيين الجدد ولأي أمر يهدفون.. خصوصًا بعدما جرت الأحداث في الشمال «أزواد» ولجأ «توماني توري» إلى «السنجال» بتدخل دولي وضغط من مجموعة «إيكواس» - تجمع دول غرب إفريقيا - التي أعلنت رفضها للانقلاب ليضطر «صونوكو» للتواري خلف ستار مدني وعملية لها الشكل الدستوري بتعيين السيد «جاكوندا تراوري» رئيس الجمعية الوطنية رئيسًا انتقاليًا وعين «موديبوجارا» صهر الرئيس الأسبق موسى تراوري - رئيسًا للوزراء، ولكنهما لم يكونا سوى بديل علني اضطراري للحاكم الفعلي «صونوكو» قائد الانقلاب الذي أوعز للجماهير بالاعتداء الجسدي البشع على الرئيس المؤقت «جاكوندا» داخل القصر الجمهوري بحجة رفضهم - كمتظاهرين مدنيين - لخطته أو خريطته للمرحلة الانتقالية، ولتتعطل الحلول طوال فترة علاج «جاكوندا» في باريس - حتى عودته بعد شهرين معلنًا خطته في خطاب علني 29 يوليو 2012.

ومثلت مالي أكثر الدول في غرب إفريقيا تلقيًا للمساعدات والمنح الأجنبية - قياسًا على عدد السكان - ولكن نسبة كبيرة منها كانت تخصص إما لسداد الديون وإما لتدفئة جيوب الفاسدين من النخب الحاكمة، وبالتالي فإن ما تحقق على سبيل الزعم بأنه تقدم سياسي، لم يطل الطوارق في الشمال، ولم يشعروا بتحسن اقتصادي كما نصت اتفاقية تمنراست التي عبرت عن احتدام الصراعات الإثنية والعرقية والقبلية وهي إحدى أهم علامات الدولة الفاشلة، وكانت مطالب الطوارق فيها تكرارًا لنفس ما طالبوا ببعضه في أعوام الثورات والتمردات منذ عام 1963، فضلًا عن المطلب الأعز وهو الاستقلال الذي تخلوا عنه - إلى حين - بعد ضغوط قوية من قبل الحكومة الجزائرية والعقيد القذافي وإبداء بعض زعماء الطوارق، ومنهم «أياد أج غالي» والشيخ «أوسا»، قبولهم بالتفاوض - فيما بعد - حوله، وجاءت هذه الاتفاقية بالنص على القيام بخطوات محددة - من قبل الدولة - نحو إقرار الحكم الذاتي وتكوين جهاز إداري جديد، وإجابة الطوارق إلى مطلبهم بإشراكهم في الحكم المحلي، وتحميل أبناء «أزواد» المسئولية الإدارية في بلادهم وإبعاد الإداريين الجنوبيين، ووقف العمليات العسكرية والعدائية المتبادلة بينهم وبين الدولة مع دمج مقاتليهم في القوات المسلحة للدولة ونزع أسلحتهم، وإقامة بناء إداري خاص للشمال أو أقاليمه الثلاثة وكان ذلك شبه حكم ذاتي محدود وهو ما كان أقل كثيرًا من طموحات الطوارق.

ولم يطبق من اتفاقية «تمنراست» إلا النزر اليسير من البنود تجاوزًا عن البنود الأهم، مما أسهم في استمرار وضع الإقليم كمصدر للخوف ومنبع للفقر، وكان أهم ما تم تطبيقه هو: توظيف قيادات التمرد في وظائف اعتبرها الطوارق والعرب هامشية، كانت أعلاها التي مُنحت لأياد - قنصل لمالي في جدة - وتلك كانت المقايضات على المواقف - وعدم محاسبة المجرمين في حق الأزواديين التي اتخذها بعض الزعامات العربية؛ مثل محمد بن همني والذهبي ولد سيدي محمد، مدعاة للذهاب إلى المحكمة الدولية في لاهاي للتحقيق مع الرئيس أمادو توماني توري في جرائم إبادة ومجازر ضد العرب والطوارق وتأسيسه

لميليشيا «الجندكوي» التي قامت بالمجازر وحماية مرتكبيها.

ولم توجه المنح التي خصصها المجتمع الدولي للمشروعات التنموية في الشمال، بل كانت حكومة «باماكو» عائقًا أمام بعض الجهات الدولية التي تريد إعمار مناطق العرب والطوارق ليستقروا فيها بعد التهجير والتشتيت[21]، فكانت الحكومة في «باماكو» تتحايل على الجهات المانحة لتوجيه المساعدات إلى مناطق «السود» في الوسط والغرب.

وبلغ من قسوتها في تنفيذ مخطط التهميش والإفقار أن أحجمت عن تعبيد الطرق لتزيد الصعوبة أمام تنقل الناس وحركة التجارة بين المدن، وهو ما لمسته خلال رحلتي، فالطرق سيئة بالدرجة التي تحسرت فيها على حياة البشر في هذه المناطق.. فالطريق الرئيسي بين تمبكتو وجاوا أسوأ كثيرًا من الطريق التي كنت أتخيل ألا أجد مثيلًا لها في سوئها بين تمبكتو وليرا أو طونكي.

وإن كانت بعض بوادر تحولات ديمقراطية شهدتها البلاد بعد التخلص من المركزية لصالح تمكين مجالس محلية منتخبة من تخطيط وتنفيذ مشروعات تنموية أو السيطرة الإدارية والمالية - وفقًا للقانون - على قطاعات الصحة والتعليم وعدد آخر من مشروعات البنية الأساسية، لكن ذلك تم ببطء شديد بعد انتخابات المجالس المحلية عام 1997، فقامت هذه المجالس المحلية المنتخبة بوضع وإقرار الضرائب وموازنات التعليم والصحة والتنمية.

ولم يكن ذلك إلا استجابة للضغوط الدولية، خاصة من قِبل المؤسسات المانحة مثل البنك الدولي وصندوق النقد الدولي[22] ضمانًا لتطبيق برامج التكيف الهيكلي والتخلص من المركزية.. وإن جاء توافقًا مع التخلص من أزمات التمرد بنقل الأعباء الإدارية والاقتصادية من الحكومة المركزية إلى مكونات حكومية محلية يمكن لها العمل على امتصاص الغضب لدى الشعب، أو على الأقل تحويله صوب زعامات محلية منهم فتخفف عبء المسئولية عن كاهل حكومة «باماكو» خصوصًا وقد سجلت تقارير الأمم المتحدة و«الفاو» تدني مستوى

معيشة السكان ونصيب الفرد من الدخل إلى أقل من دولارين في اليوم - تحت خط الفقر - رغم استفادة الدولة من تاريخ «تمبكتو» وشهرتها الدولية كـ«جوهرة الصحراء» من خلال النشاط السياحي الذي جلل المدينة وصب في مصلحة الدولة وفي يد الزنوج الذين أغرقتها بهم من البمبارا والصنغي الذين هجَّرتهم إليها، وتركز هذا النشاط السياحي في أيديهم خصوصًا الفنادق «13فندقًا» وحانات الخمر «23حانة» وبيوت الدعارة «24بيتًا» لا سيما أن العرب والطوارق ينأون بأنفسهم عن ممارسة مثل هذه الأنشطة التي يحرم الإسلام بعضها، كما استغلت البعض منهم من ذوي الثقافة الفرنسية الذين تعلموا في المدارس الفرنسية في الجنوب، والتحموا بالدولة كأنها حققت «اتفاق تمنراست» بدمج الطوارق والعرب في الإدارة، وإن كانت نسبتهم غير غالبة.

وفي كل الأحوال لم تكن تجربة دمج الطوارق في مالي على قدر طموحهم حيث إن مشكلتهم الرئيسية هي الحفاظ على الهوية الذاتية والثقافة العرقية التي هددتها خطط الحكومة بنقل كثيف لأعداد من البمبارا وتوطينهم في «أزواد» كمحاولة للتغيير الديموغرافي للمكان بتذويبهم في المكونات الأخرى للشعب المالي مما أحدث تغييرًا في التركيب السكاني وجعلهم يبدون كأقلية في موطنهم، وهو ما أسهم مع الأسباب الأخرى في عدم تحسن الأوضاع بل تحدث البعض عن ترديها، خصوصًا وقد استمرت سياسة الدولة المالية فاشلة في التعامل مع الطوارق وكل الأزواديين واستمرت العنصرية المقيتة ليقابلها الإحساس الشديد بالغبن وضياع الهوية، ساهم في ذلك تهجير العناصر السوداء وتوطينها في تمبكتو، وهي رمز الثقافة والسيادة الطارقية، مما أدى إلى تحويلها من مدينة أولياء وفقهاء، إلى وكر لأنواع الفجور والدعارة والمخدرات والإجرام، وكذلك إلى مركز للتعذيب والقتل الممنهج، مع إثارة الفجوات والخلافات بين عنصري الأمة الأزوادية «العرب والطوارق»، بمحاباة فريق على آخر وتخصيص خدمات وبنية أساسية لمنطقة دون أخرى، ودعم العرب - الانتهازيين كما يقول الطوارق - وتمييزهم، كما حدث في انتخابات 2010 المحلية وشقاق في الطوارق بين مؤيدين للاتفاقات مع الدولة

ومعارضين لها مطالبين بالاستقلال، أحدث خلافات بينهم دفعت فصائل منهم إلى إنشاء لجنة تنسيق تتبنى المطالب الرئيسية عند التفاوض مع الحكومة، وأنتج «الميثاق الوطني» للتوصل إلى استقرار في «أزواد» وتحقيق مصالحة وطنية، والدمج الكامل للمتمردين في قوات الدفاع الوطني مع اعترافه بالتهميش والمعاناة الاقتصادية للمواطنين وتحديد عشر سنوات كخطة للتعافي الاقتصادي للإقليم للتغلب على الفجوة الاقتصادية والتنموية بين الشمال والجنوب، ولكنه للأسف افتقر للموارد المالية اللازمة لتطبيقه خاصة فيما يتعلق بمسألة الإدماج، وبالتالي تم تأجيل التطبيق؛ مما أدى إلى بروز مواقف عنيفة لميليشيا الجندكوي الرافضة لكل هذه الترتيبات التي تصف الطوارق بالبدو.

مما أسهم في تفجير النزاع مرة أخرى في صورة عنف مجتمعي وصراع عنصري عرقي ومجازر للعرب والطوارق خاصة في جاوا بين عامي 1994 و1996 لتبدأ ثورات تمردية جديدة، آخرها - قبل الأحداث - في مايو 2006 ومراجعة بعض نصوص الميثاق الوطني خصوصًا المشير إلى تكوين قوات أمن خاصة في الشمال «وحدات الأمن الصحراوية» وإلغائه، مما أدى إلى بدء مرحلة جديدة من الصراع المسلح قاده «إبراهيم أج باهنجا» تمكن من خلالها من تكبيد قوات الجيش المالي خسائر، وكذلك ممالئوها من مهربي المخدرات وحماة طرقهم من كتائب تنظيم القاعدة، لكن الجميع حكومة وخونة من الطوارق و«قاعدة» ومهربين اتحدوا ضده مما أجبره في النهاية إلى اللجوء إلى ليبيا عام 2009 تحت رعاية القذافي الذي تعهد بإيواء الرافضين للاتفاق «2006»، وأمر بدمجهم في نسيج كتائبه العسكرية، وإغراق بعض وحداتها بهم زيادة عمن كانوا لديه من قبل مثل العقيد محمد ناجم الذي لعب دورًا مهمًّا فيما بعد في تهريب السلاح الليبي إلى «أزواد».

وباشتداد الصراع سنة 2006 عملت الجزائر - مع حلفائها - على توقيع اتفاق سلام بين الدولة والطوارق «تحالف 23 مايو من أجل التغيير» الذي نص على

تنظيم «منتدى كيدال» للتنمية بعد أشهر من توقيعه ليفضي إلى إنشاء صندوق خـاص للاسـتثمار، وتسـريع الإصلاحات من خـلال منح قروض شخصية وجماعية لإقامة مشروعات تنموية، ووضع نظام صحي يلائم طبيعة الطوارق البدو الرحل مع العمل على إنهاء عزلة «كيدال» و«أدرار» بتطوير أو بالأحرى إنشاء شبكة طرق رئيسية إلى تمبكتو وإلى مدن الحدود الجزائرية.

وفـي ظـل ذلـك فشـل «توماني توري» وحكومته في إدارة المنطقة الشمالية خصوصًا فيما اصطلح بتسميته بـ«الوضع الأمني والتنموي في الشمال» من خـلال البرنـامج الخـاص للسـلام والأمـن والتنمية، وهو الذي تم تدشينه في أغسطس 2011، وخصـص لـه قرابـة 50 مليون يـورو مـن «شركاء التنميـة» والمانحين فرنسا وكندا والاتحاد الأوروبي، والذي اقتصر على المراكز الأمنية في 11 موقعًا استراتيجيًّا وواجه عقبات نتيجة عدم تلبيته - كالعادة - للحد الأدنى من المطالب السياسية والاجتماعية للطوارق، مما أدى إلى تعليق العمل بـه - كمـا أن قيـام شـقاق فـي الطـوارق بيـن مؤيـدين للاتفـاقات مـع الـدولة ومعارضين لها مطالبين بالاستقلال أحدث خلافات بينهم دفعت فصائل منهم إلى إنشاء لجنة تنسيق تتبنى المطالب الرئيسية عند التفاوض مع الحكومة.

كان الاهتمام الجزائري بالقضية - حفاظًا على أمنها القومي - بمحاولة وضع خارطة طريق في قمة جمعت فيها الدول الإفريقية المحيطة بمالي والمعنية بأمن الصحراء في مارس 2011 للتنسيق على المستوى المخابراتي والأمني والمشاركة في تفعيل مشروعات التنمية لكن كل ذلك توقف تحت وطأة التوتر وتسـارع الأحـداث، ثـم إعـلان حركـة «مـانيلا» اسـتقلال «أزواد»، وأكـد بيـان الاستقلال الذي أعلنته الحركة الوطنية لتحرير أزواد كدولة اعتبارًا من يوم 6 إبريل 2012 مع اعترافها بحدود دول الجوار، مما يعني طمأنة هذه الدول إلى عدم الرغبة في تمدد الدولة الطارقية على المساحات التاريخية للطوارق في ليبيا والنيجر والجزائر وموريتانيا، ولكن هذا الإعلان قوبل برفض دولي مع تحذير من ظهور توتر في أرض أصبحت خارجة على القانون الدولي وتعد تربة

خصبة للجماعات الإرهابية التي نزحت من الجزائر «تنظيم القاعدة في بلاد المغرب الإسلامي».

وشكلت «مانيلا» من القوميين والليبراليين والمستقلين العرب والطوارق الفُلاَّن والصنغي وروجت لانعدام التصور العرقي أو الإثني واللغوي داخلها لإسباغ البعد القومي.

وإن شكل الطوارق النسبة الأغلب لا سيما في المقاتلين المنتمي أكثريتهم إلى قبائل «إيدنان» ومنها القائد العسكري للحركة محمد ناجم العقيد السابق في الجيش الليبي «كتيبة 32 معزز تحت قيادة المعتصم القذافي».

نتيجة حراك شعبي التهب بفعل عقود من التهميش والظلم من قبل حكام «باماكو» واستياء شبابي من سياسة التمييز العنصري وبدأ الشباب في المطالبة بتوفير فرص للتنمية تساعد على تحسن الظروف المعيشية وتوفير خدمات البنية التحتية للشمال أسوة بما تم في الجنوب.. وارتفع الصوت الذي خبا مع السنوات الأولى للقرن الحالي بعد إخماد تمردي التسعينيات، وبدأ النشطاء من الشباب في إعلان سخطهم ومطالبهم من خلال ندوات وكتابات ورسوم على الجدران. وفي 30 أكتوبر 2010 عقدوا مؤتمرًا لهم في قاعة بلدية «تمبكتو» لمناقشة آلية لإيجاد تنمية لتحسين ظروف المواطنين، اتفقوا فيه على تأسيس حركة شبابية للمطالبة بحقوق الأزواديين، نتج عنها إعلان «الحركة الوطنية لتحرير أزواد»، واختيار «بلال أج شريف» أمينًا عامًّا للحركة، وكان من أنشط مجموعات الشباب مع محمود علي ومحمد الأمين ولد أحمد، ومعهم خليط من زنوج الصنغي والبمبارا والفُلّان - وإن كانوا قليلين - وخلال ثلاثة أشهر كانوا يمهدون لمؤتمرعام للحركة بإشراك ممثلين من مناطق «مينكا» و«جاوا» و«كيدال» وإقليم «تمبكتو» الغربي، عقدوا بعدها مؤتمرًا في «كيدال» اتفق فيه على نظام أساسي يراعي مصالح الأزواديين في هذه الأقاليم دون تمييز، ورسم خطة عمل ووضع تصور للخطاب السياسي الذي ستنتهجه الحركة كخطة نضال سلمية، وتم تكليف لجنة برسم خريطة إقليم «أزواد» [23] تستند

إلى ترسيم حدود الإمارات والسلطنات القديمة قبل الاستعمار الفرنسي، وهي «البرابيش» في المنطقة الغربية والشمال عرب خُلّص «كل انصر»، في المنطقة الغربية والجنوبية، وهم خليط من الأشراف العرب والطوارق، «الميدن» ما وراء نهر النيجر في المنطقة الجنوبية، وتضم قبائل «الموشاق» الأمازيغية، «سلطنة كنته» في الوسط وهم من العرب الخُلّص، «سلطنة الإيفوقاص» في المنطقة الشرقية، وهم طوارق من أصول عربية، وانتهت اللجنة إلى رسم حدود «أزواد» وسلمتها للمكتب التنفيذي للحركة وتحديد نقاط الحدود ورسم العلم واتخاذ الشعار: «سيفان متقاطعان على الخريطة يتوسطهما قلم»، ثم تشكيل مكاتب لها في أقاليم «أزواد» الأربعة بدأت تعمل على جمع تبرعات مالية و... معلومات عن وجود وأنشطة الجيش المالي والشركات العاملة في هذه الأقاليم، أما حكومة «باماكو» فلم تبد اهتمامًا أو انتباهًا لذلك، فقامت الحركة بتوجيه رسائل للحكومة ثلاث مرات للمطالبة بحوار حول قضية «أزواد» وتطبيق اتفاقية «تمنراست» بشكل دقيق.

ولما وجد شباب الحركة تجاهل الحكومة اتفقوا على مواصلة النضال، ولكن بصيغة «الاستقلال» ورحيل الجيش المالي، فبدأت الحكومة تعزز وجودها العسكري بإمدادات في نفس توقيت وصول إمدادات عسكرية إلى «ثوار أزواد»، أو بالأحرى عودة الطوارق الهاربين من ليبيا بعد سقوط القذافي، بسبب غضب الليبيين عليهم وعلى آخرين من الأفارقة نعتوا بـ«مرتزقة القذافي» أصحاب القبعات الصفر الذين أطلقهم «الساعدي القذافي» للقضاء على الثوار بالقتل في بنغازي، وطبرق والبيضاء وباقي مدن الشرق مع الأيام الأولى لثورة 17 فبراير، بسبب أن طوارق أزواد مع بعض بني وطنهم من العرب قد شكلوا العمد الرئيسية لبعض كتائب القذافي مثل «المغاوير» ولواء «32معزز».

وانعقد المؤتمر الرابع للحركة في «جاوا» في 27 مارس2011 لمراجعة نشاطها ونتائج عمل مكاتبها الإقليمية، والضغط على الحكومة للإصغاء إلى مطالب الأزواديين، بالإعلان عن احتمالية اللجوء للمظاهرات في المدن، أو حمل

السلاح مباشرة، فكان قرار أغلب المؤتمرين اتخاذ الكفاح المسلح لنيل الاستقلال، بعد أن توافرت لهم حسابات القوة من تعاطف ضباط أزواديين في الجيش واستعدادهم للانشقاق، وانضمام «إبراهيم أج باهنجا» وعودة الجنود والضباط الأزواديين في الجيش الليبي واستعدادهم لإنشاء معسكرات لتدريب المتطوعين بعد وضع آلية لجمع السلاح وتلقي التبرعات.

وهو ما تم بإعلان فتح مكاتب للحركة في مدن الأقاليم للتجنيد فتقدم في الشهر الأول 450 شابًا، تم إرسالهم إلى معسكر «زاكل» في «أدرار إيفوقاص»، وانضم 340 من عناصر «أج باهنجا» بعتادهم ومعداتهم.

وكان لـ«إبراهيم أج باهنجا» صلات مع ضباط أزواديين من الطوارق في صفوف الجيش المالي، قام بالاتصال بهم واتفق معهم على الانشقاق بما يستطيعون من عتاد ورجال، بل والترتيب للاستيلاء على ما يمكن من قواعد الجيش في الأقاليم الأربعة حتى قرروا التحرك العسكري الذي بدأ في 17 يناير 2012بحصار معسكر «مينكا» وحاميتها العسكرية المؤلفة من 3 آلاف عسكري والهجوم عليها وإسقاطها وسمح لمن أراد من الضباط والجنود الزنوج بالانسحاب دون عتاد أو سلاح ومغادرة المدينة، وكانت غنيمة جيدة للحركة من دبابات وحاملات صواريخ جراد وراجمات صواريخ.

واستجاب بعض الضباط الطوارق من أصحاب الرتب الوسطية والعليا حيث انضم بعضهم بجنوده وعتاده مما وفر للحركة في البداية عتادًا يقترب من 100سيارة بعناصرها من 9 - 10جنود.

بعض الضباط قام قبل العمل العسكري بمنح أغلب الزنوج من أبناء الجنوب إجازات لتفريغ المعسكرات منهم، ومن بقي حتى هجوم الحركة استسلم وتم شحنهم في سيارات - بعد مصادرة أسلحتهم - إلى الجنوب، وبدأ اهتزاز ركائز الجيش المالي في الشمال بانهيار معنوياته.

في نفس الوقت الذي كان مخطط الانقلاب العسكري للإطاحة بالرئيس

«توماني توري» يجري في أروقة الجيش في العاصمة «باماكو»، وقبل اكتمال تحرير الأقاليم، وقبل دخول «تمبكتو» أعلن «أياد أج غالي» إنشاء جماعة «أنصار الدين» وتواصل مع «مانيلا» للتنسيق معها، والذي كانت أولى نتائجه الاستيلاء على معسكر «أماشش»، ويمثل أكبر القواعد العسكرية في البلاد؛ فبها كتيبتا دفاع جوي وطيران، وسقط بعد 35 يومًا من الحصار، وكان به بعض الضباط الأزواديين؛ اثنان برتبة عقيد وثالثهما برتبة رائد انضموا لقوات الحركة، وأبلغوها بما يدور في الداخل من تدريبات يقوم بها بعض الضباط الأجانب وبعضهم من جنسيات عربية، فأُبلغت الدول التابعة لها، فأصدرت أوامرها لهم بالانسحاب بعدها، ثم مهاجمة المعسكر ومن نجا من القتل من جنودها ولم يستسلم فرَّ عبر الصحراء إلى الجزائر أو إلى النيجر، وتقدمت بعدها قوات الحركة مع قوات أنصار الدين إلى «كيدال» التي سقطت في أيديهم، ثم إلى «تمبكتو» المدينة الأهم في الشمال المالي.

وشاركت الحركة العربية لتحرير أزواد بزعامة قائدها «أحمد ولد سيدي محمد» في الهجوم عليها وكان لها الدور الأكبر في إسقاطها، وبعد إسقاطها ظهرت فيها سيارات ترفع علم القاعدة وأعلن بعض العناصر فيها وفي «جاوا» عن انتمائهم لتنظيم «القاعدة في بلاد المغرب الإسلامي»، وظهرت في «جاوا» حركة «التوحيد والجهاد»، وفوجئت «مانيلا» من حديث الشيخ «أياد» بوجوب تطبيق الشريعة، بعد إتمام السيطرة على الأقاليم وطرد الإدارة المالية، وبدأت اللقاءات بين قيادات الجماعة والحركة للاتفاق على صيغة استمرار التحالف وإعلان الاستقلال، مثَّل «أياد» وجماعته فيها «العباس أنتالا» والشيخ «أوسا»، ومثَّل «مانيلا» «سيد بن بلا»، و«محمد أج إبراهيم» النائب السابق في البرلمان المالي - وتم التوصل إلى صيغة الاتفاق على «دولة إسلامية» على غرار النموذج الموريتاني، ولكن متشددي الجماعة رفضوها ووصل الحوار إلى طريق مسدود بعد أن تعقدت أطرافه لينتهي بالفشل، وفي 13 إبريل غزا مقاتلوها «تمبكتو» وعلى رأسهم «أياد أج غالي» ومعه ثلاثة من زعماء تنظيم القاعدة في بلاد المغرب الإسلامي وهم: «خالد أبو العباس» المكنى مختار بلمختار «الأعور»،

و«يحيى أبو الهمام» الذي عينه «أياد» واليًا على «تمبكتو».

وقد رضخ الناس في «أزواد» للتنظيمات «الإسلاموية» المسلحة، إما اقتناعًا بهم على اعتبار أنهم جاءوا بالإسلام ضد حكومة مالي العلمانية الكافرة في نظر البعض، وإما انتقامًا من هذه الحكومة نظرًا لتراث تاريخي طوال عقود من الإذلال والقهر والقتل.

وإما خوفًا من هذه الجماعات لما تمتلك من سلاح وقوة مماثلة لرموز مذابح موديبو كيتا وموسى تراوري وقدرة على الذبح السريع والقتل بقلب جامد.

وطوردت الحركة من كل المدن الرئيسية من قبل «أنصار الدين» في «كيدال» و«تمبكتو».. وطاردتها «التوحيد والجهاد» في «جاوا» حتى لم يبق لها إلا مدن الأطراف «ليرا» و«مينكا» أو «السوق» التي طردت منها أيضًا قبل ثلاثة أيام من بداية الضربات الفرنسية.

ولا نقول إن المجتمع الدولي سئم الانقلابات العسكرية في إفريقيا لكنه يتحرك حين تضار مصالحه لذلك أصدر قرار مجلس الأمن رقم 2071 رافضًا الاعتراف بالانقلاب محددًا صيغ التدخل الدولي، وتبعه مجلس الأمن الإفريقي - التابع للاتحاد الإفريقي - بتكليف دول «إيكواس» غرب إفريقيا - بالتدخل العسكري.

وحين وصلت إلى «تمبكتو» بدأ طمس ألوان سيارات الدفع الرباعي التي وضعت عليها المدافع بطين الأرض المخلوط بالماء والسكر، وشيوع مفردات الحرب و«الجهاد» في أحاديث عناصر «القاعدة» معي في «تمبكتو»، وفي أحاديث العامة المتوجسين.

وكان القادة في الجماعات «الإسلاموية» يؤكدون أن هذه الحرب لن تنتهي سريعًا وستطال جميع شعوب المنطقة من المحيط الأطلنطي حتى البحر الأحمر!

وقاموا بطرد حركة تحرير أزواد «مانيلا» العلمانية الليبرالية من المدن الرئيسية

«جاوا» و«كيدال» و«تمبكتو» لتتمركز قواتها في المدن الحدودية الصغيرة مثل «ليرا».

ولتبدأ مرحلة جديدة وعنيفة من وأد التمرد «الاستقلالي» وسحق هذه الجماعات «الإسلاموية» القاعدية.

* * *

هشاشة دول الجوار

وكانت «مانيلا» الحركة الوطنية لتحرير أزواد قد أبدت استعدادًا خلال «موسى أج الطاهر» المتحدث الرسمي باسمها لمقاتلة «تنظيم القاعدة» وأنها تمد يدها للدول المعنية بهذا التهديد الإرهابي فضلًا عن «الجبهة الوطنية لتحرير أزواد» المكونة من عرب قطاع تمبكتو قد أبدت نفس الاستعداد لرفضها حكم هذه الجماعات من خلال طوارق كيدال أو متطرفين أعضاء في تنظيم القاعدة.

وجاء الموقف الرسمي المغربي متجانسًا مع منهجية الحكم فيه رافضًا قبول إعلان انفصال أزواد من جانب واحد في نفس الوقت الذي أعلنت فيه الحركة الأمازيغية بالريف - المغربي - دعمها المطلق غير المشروط لمشروع الحركة الوطنية «مانيلا» بالاستقلال بأزواد كدولة مستقلة، وأنها تزف الخبر السار إلى كل الحركات التحررية الأمازيغية والعالمية.

أما الجزائر؛ فلأنها تعد كل من يتطرق لعدالة قضية الطوارق في مالي مساسًا بالأمن القومي الجزائري نتيجة الحساسية الشديدة والمعقدة للتركيبة الجيو سياسية والديموغرافية فيها حيث يزيد المدى الترابي أو المناطقي للطوارق على 50 % من مساحة البلاد وهي نسبة تقريبية أيضًا لتعداد الطوارق والأمازيغ فيها، ومحاولات الطوارق فيه إثارة النعرة الإثنية، وإن لم تصل إلى الحد القوي الذي وصل إليه طوارق مالي بحكم قوة الجيش الجزائري وهو الحاكم الفعلي في الجزائر من خلال جبهة التحرير الوطنية ذات المرجعية القومية التي دفعتها إلى حصر الطوارق منذ الاستقلال في المناطق الجنوبية وانتهاج الحل الأمني لمواجهة فوضى وإرهاب وتخريب جبهة الإنقاذ وما تفرخ منها من جماعات إرهابية، خصوصًا أن قادة الجبهة من البربر الأمازيغ اتخذوا الرداء الإسلامي والمطالبة بتحقيق الشريعة ستارًا لعنصريتهم الإثنية مثل علي بلحاج[24] الذي قاد وشارك عام 1980 في مظاهرات تطالب بالاعتراف بالأمازيغية كجزء من الشخصية الوطنية وكذلك المشاركة في مسيرة عنصرية

في «تيزي أوزو» 110كم شرق الجزائر العاصمة، دعا إليها حزب التجمع من أجل الثقافة والديمقراطية - والذي يمثل المعارضة الراديكالية - للمطالبة بانفصال مناطق القبائل، وكانت المطالب الإثنية لأمازيغ وطوارق الجزائر قد بدأت في الظهور الواضح منذ هذا العام، وظهور قيادات أمازيغية مماثلة ضمن النشاط الديني للجماعات الإسلامية، منهم علي آيت الذي أفتى في مايو 1994 بذبح الأسرى من الجيش الذين اختطفتهم جماعة إسلاموية ترتدي الزي الأفغاني[25] وأخذت المطالب الأمازيغية الطارقية بعدًا علنيًا ومميزًا ضمن حراك اجتماعي وسياسي في مناطق القبائل، وفر الحماية والدعم المعنوي والمادي لمظاهرات الطلاب في جامعة «تيزي أوزو» التي تطورت إلى مظاهرات شعبية مما دفع الأمن إلى اعتقال عدد من نشطاء الأمازيغ، ورغم ذلك شهدت منطقة القبائل موجات احتجاجية أهمها إضراب أطفال المدارس للمطالبة بالاعتراف بالأمازيغية جزءًا رئيسيًا من الشخصية الجزائرية وبلغتهم وثقافتهم، وهذا المنطلق العرقي يفسر لماذا عندما غيرت «الجماعة السلفية للدعوة والقتال» اسمها لم يضم الاسم الجديد كلمة العربي «القاعدة في بلاد المغرب الإسلامي» رغم اشتهار شمال إفريقيا في كل الأدبيات ببلاد المغرب العربي!!

واستغل زعماء الأمازيغ المحدثون الذين وجدوا في الدعوة الإسلامية مجالًا لاختراق المجتمع بحجة مواجهة التدهور الاقتصادي في نهاية ثمانينيات القرن العشرين، وبسبب انخفاض سعر النفط والفساد الإداري مع ارتفاع أعداد البطالة وزيادة الأسعار لإحداث توترات في الشارع الجزائري الذي هب من خلال اضطرابات طلابية وعمالية كانت منددة بهذا الوضع - وكان لهم الحق بسبب الأوضاع المعيشية للسكان.

أما الجارة اللصيقة «غربًا» والمشتركة في نفس أزمة أزواد - بالامتداد الجغرافي والعرقي - فهي النيجر التي باتت تتحرك في تلك القضية وفق حسابات دقيقة نتيجة انتشار الطوارق في شمالها مع تركز شديد للفكر الجهادي القاعدي في

«أجاديس» وتنتشر عدوى رغبة الانفصال بين طوارق النيجر نتيجة وحدة الحال والموضوع؛ ولذا فقد بدت حكومة «نيامي» أكثر انتباهًا وحذرًا فضلًا عن كونها أكثر تنظيمًا من نظيرتها في «باماكو» ونواكشوط خصوصًا أن طوارق النيجر الذين يمثلون امتدادًا لطوارق مالي سبق أن رفعوا السلاح في وجه الجيش للمطالبة بحقوقهم التي أهدرت أيضًا، وتعرضوا لنفس التمييز العنصري في عهد الرئيس حسين كونشي الذي يمثل لهم - كما موديبو كيتا في مالي - جزارًا عنصريًّا، كما أن مشكلتهم الرئيسية أن حكومتهم ظلت لفترة طويلة «لا تعترف بالعلاقات بين مناطقهم والشمال الإفريقي وكان نظام حسين كونشي يرفض تمامًا أن تكون هناك أية علاقات للطوارئ لديه بشمال إفريقيا في المغرب القصي وليبيا والجزائر، وكان يعتبر أن مثل هذه العلاقات تشكل تهديدًا للأمن القومي لبلاده في حين أن علاقات القبائل جنوب النيجر ببقية القبائل في الدول المجاورة كانت طبيعية تمامًا، وهو الأمر الذي ضاعف من إحساس طوارق النيجر بالعزلة وعدم الاندماج، وحدثت توترات عرقية كبيرة عندما أقدمت حكومة النيجر على توطين قبائل المحاميد العربية النازحة من تشاد في المناطق التي يعيش فيها الطوارق بعد الحرب الأهلية في تشاد في ثمانينيات القرن العشرين»[26].

ويشترك طوارق مالي مع امتدادهم العرقي داخل البلاد المجاورة في التهميش الذي عانوه والقهر، بل اشتركوا في النزعة الاستقلالية داخل دول اشتركت أيضًا في هشاشتها وضعف بنيانها الاقتصادي والأمني والعسكري وانتشار الفساد بشكل كبير مما جعله محفزًا لهم على القيام بحركتهم الاستقلالية؛ وهو ما أكده «سو ميلو بوبيي مايجا» وزير الدفاع الأسبق في مالي بقوله: «إن تنظيم القاعدة استمد قوته من ضعف الدول».

وطبعًا هذا الضعف تُستثنى منه الجزائر التي كان الهدوء الذي تتمتع به في حقيقته هدوءًا نسبيًّا مؤقتًا فوق رماد تحته نار؛ ولذا لم يبق لقادتها بعده سوى غض الطرف عما يحدث جنوب حدودها خصوصًا أنهم يطمئنون إلى قدرتهم

على اختراق جهازهم الأمني لبعض كتائب تنظيم القاعدة في بلاد المغرب الإسلامي وقادتها مثل «بلمختار» و«أياد» والسيطرة عليهم.

أما في موريتانيا فإن ضعف الدولة وهشاشتها العسكرية وأنينها الدائم من مشكلات داخلية اقتصادية وعرقية «حراطين وزنوج»، من العوامل التي ساهمت في قوة القاعدة وغض الطرف عنها مع وجود أسباب أخرى. وكانت جهات «مالية» عديدة قد اتهمت موريتانيا بالسعي لدعم الأزواديين بهدف نقل الصراع بينها وبين تنظيم القاعدة إلى مستوى أعقد من خلال إنشاء وتسليح دولة مستقلة في «أزواد» تكون تابعة لموريتانيا وتتولى نيابة عنها تطهير المنطقة من مقاتلي القاعدة[27].

وكانت معلومات قد تسربت من موريتانيا حول استقبالها ديسمبر 2011 «حمه أج محمود» الوزير المالي السابق ووعدته برئاسة دولة «أزواد» المزمع تكوينها وقدمت له المساعدات التي تساعده على الدعاية بتجسيد الحلم الطارقي وسهلت ودعمت له اتصالات بشخصيات مؤثرة في «أزواد» خصوصًا العرب المرتبطين لغويًّا وعرقيًّا بالموريتان، ومنهم «أحمد ولد سيدي محمد» أحد القياديين البارزين في تمرد التسعينيات مع الوعد بضمان النجاح في التأثير على «أياد أج غالي» وكذلك قيادات عسكرية أزوادية كانت في ليبيا.

ولذلك جاء التوجه الموريتاني خلال قمة الاتحاد الإفريقي في «أديس أبابا» يناير 2012 قبل الحرب الفرنسية مباشرة على لسان وزير خارجيتها ينفي وجود تحالف بين الحركات الطارقية وتنظيم القاعدة، وأن الطوارق في حربهم ضد الحكومة المالية يدافعون عن هويتهم، وهو تصريح غريب، فقد عجت حركتا «أنصار الدين» و «التوحيد والجهاد» بالوجود الطارقي الذي شاهدته في أزواد.. مثل «حلي تكنا» قائد إحدى كتائب القاعدة التي ترتدي ثوب «أنصار الدين»، و«العباس أج أنتالا» و«أحمد أج أبيي» اللذين مثَّلا «أنصار الدين» قبل شهر ونصف فقط من هذا التصريح في المفاوضات مع «حركة أزواد» في بوركينا فاسو، والتي كانت موريتانيا على علم بكل تفاصيلها، وكذلك كتيبة

طارق بن زياد، والتي يرأسها «أبو زيد»، وضمت 460 مقاتلًا، وكان لها كتيبة أخرى في «تغرغر» 200كم شمال «كيدال» و70 كم شرق مدينة «تسليت»، وكتيبة أخرى على بعد 25كم من مدينة «تيماوين» الجزائرية، وكتيبة أخرى في مدينة «تمنغين» 200كم جنوب «برج باجي المختار» الجزائرية، وهي كتيبة «الملثمين» التي كان ولاؤها المعلن لـ«أنصار الدين» ويقودها «يحيى أبو الهمام» وكتيبة «الفرقان» وكان يقودها «خالد أبو العباس بلمختار».

واستضافت موريتانيا عددًا من رموز «حركة التمرد الاستقلالية» «أج محمود» والعقيد «أج الطيب»، كما اشتبهت مالي في اشتراك ضباط موريتانيين في الإشراف على معركة «مانيلا» لدخول «ليرا»[28] مع مراعاة أن تطور معالجة موريتانيا لهذا الأمر ظل بالغ التأثر بتأرجح موازين العلاقات الدولية والإقليمية المتشابكة شديدة التعقيد.

مع التشابك المعقد للجمهورية الصحراوية «بوليساريو» مع جميع الأطراف والدعم الجزائري والليبي السابق لهم والتعاطف الموريتاني، كل ذلك ساهم في حصول تغييرات جيو سياسية مهمة أدخلت المنطقة في حالة من الاهتزاز والتوتر لن تتخلص منها - إن تخلصت - إلا بعد ما يقرب، حسب تقديرنا من 20 عامًا بعد أن تتخلص من القوى الإسلامية.

وتأتي هشاشة جيوش دول المنطقة وافتقارها إلى وسائل المراقبة والرصد، والتجسس التكنولوجية والقدرات اللوجستية وانعدام شبكات قواعد البيانات ومنظومات التحليل المعلوماتي وأجهزة التنصت أو التجسس الإلكتروني فضلًا عن الأقمار الصناعية لمراقبة الحدود مع اتساع المدى العشوائي للحياة وتفاقم الفقر الذي أدى إلى ضعف البنى الاجتماعية، وأيضًا ما تشير إليه الإحصائيات المتخصصة من وجود نقص حاد في البنية التحتية والمعدات مع محدودية الموارد المالية، وبالتالي تقل مخصصات الإنفاق العسكري، ففي موريتانيا مثلًا عام 2003 بلغت هذه المخصصات 4,9 % من الناتج الداخلي للدولة، انخفضت بعد 6 سنوات إلى 3,9 %، وحدد مبلغ الإنفاق العسكري عام 2005 بـ19 مليون

دولار، وفي 2013 وصل إلى 150 مليونًا.

أما في مالي فبلغ 50 مليونًا، وفي النيجر 45، وفي السنجال 11مليونًا.

وبالتالي فإن تشخيص الأوضاع العسكرية والاستراتيجية لهذه الدول يؤكد معاناتها من الخلل البنائي الحقيقي على مستوى الهياكل التنظيمية القادرة في الأمن والدفاع وفي موريتانيا تظهر تباينات استراتيجية مهمة ما بين المكون السكاني، وعدده أقل من 3 ملايين نسمة في مليون كم وطبيعة الأرض ومعطيات الجغرافيا، وامتداد مسافات الحدود، سواء البحرية على الأطلسي 754 كم والنهرية مع السنغال 850 كم والبرية مع البوليساريو.. والمغرب.. ومالي.

يقابلها خلل في البنية الهيكلية للأمن الضابط على الأقل للحدود، وأذكر دخولي وخروجي إليها ثلاث مرات عبر الحدود البرية، والذي لم تصادفني فيه إجراءات حدودية حقيقية، المرة الأولى عند دخولي إليها من منطقة «الجيرجرات» مع حدود المغرب إلى «نواذيبو» عام 2000 فوجئت وقد أصبحت داخل المدينة وفي الصباح اتجهت بنفسي - حسب توصية السائق أربانا - إلى مركز الأمن لختم جواز السفر، المرة الثانية عند خروجي من «باسكنو» الحدود مع مالي - باتجاه تمبكتو، ذهبت برفقة «الأمير» «عبد الله ولد سيدي حننا» ليلة السفر إلى مكتب الشرطة داخل المدينة لختم الجواز، المرة الثالثة عند عودتي من «تمبكتو»، وقضائي يومين آخرين في «باسكنو» في ضيافته، وختمت الجواز أثناء انطلاق السيارة باتجاه النعمة، حتى إننا - الركاب - انتظرنا أمام المكتب الواقع خارج البلدة، لحين حضور ضابط الأمن، وهو ما يؤكد إمكانية تسلل أي عناصر إجرامية، أو إرهابية إلى نواكشوط ذاتها، أو أي مدينة موريتانية، أو عبور الحدود مع أي من دول الجوار منها أو إليها، وهو ما يفسر حركة انتقال مهربي المخدرات ببضائعهم، سواء من الحدود البرية، أو البحرية.

وهذا ليس في موريتانيا وحدها بل في كل دول الغرب الإفريقي تقريبًا،

وحالات تهريب البشر الذي أصبح مؤرقًا لأوروبا حيث يتسللون عبر الصحراء إلى البحر المتوسط ومنه إلى شواطئ أوروبا، بل تهريب الرقيق والسلاح والمخدرات إلى مصر.

ولم نعلم فيما أفضنا في الحديث عنه، أو النقاش أو القراءات - أو نتبين - وجود خطة استراتيجية أمنية لمواجهة ذلك، أو الاهتمام بإنشاء مركز بحث علمي واستراتيجي وأمني متخصص في هذه الدول، وذلك كله ضمن غياب كامل للإرادة السياسية الحقيقية الواعية بضرورة الحماية الحدودية والاجتماعية للدولة.

وهذا بالطبع لكثرة الانقلابات فيها وقصر النظر سواء من الحكومة أو المعارضة بتركيز آليات العمل وطموح النخبة في إشعال الفتن أو الخلافات أو العراك السياسي على الحكم، دون التفكير في حماية الدولة كدولة يجب أن تكون آمنة، وغير مشتتة فضلًا عن التباعد البيني للمكونات العرقية والثقافية وامتلاء حقائب أو جحور هذه الدول بثعابين الحواة الأوروبيين والأمريكيين، والقنابل الموقوتة الممثلة في أزمة الرق والفساد والتهميش، وشعور الزنوج في بعضها بالدونية والاضطهاد، وفي البعض الآخر بالاستعلاء ضد المكونات الأدنى وفي غيرها بتهميش البربر الصنهاجيين سكان البلاد الأصليين كما في موريتانيا. أما في مالي فقد جاء انهيار دفاعات الدولة المالية أمام هجمات «مانيلا» و «أنصار الدين» و «التوحيد والجهاد» وسيطرتهم على معسكراتها وآلياتها العسكرية ومبانيها الإدارية دون محاولات جدية لصد هذا الاعتداء أو وقفه، ثم الخلافات التي حدثت بين المهاجمين لاختلاف المنازع والأيديولوجيات.

وسبب الانهيار السريع للحركة العلمانية «مانيلا» أمام كتائب «القاعدة» إرباكًا للدول المحيطة ومنها الموريتانية التي كانت أولى القوى الإقليمية اندفاعًا إلى مطاردة هذه الكتائب والميليشيات عسكريًا، خصوصًا أنها كانت الدولة الوحيدة التي دفعت بقواتها المسلحة لمطاردتها داخل العمق المالي ثأرًا من انتهاكات

قامت بها القاعدة في أراضيها، ولكن انهيار «مانيلا» التي كانت تراهن عليها للوصول إلى حل سلمي وتحتضن عددًا من قادتها على أراضيها - جعلها تتراجع مطالبة بالحل السياسي نائية بقواتها عن المشاركة في أعمال عسكرية؛ خشية انتفاض الداخل «التكفيري» عليها مع وجود رأس الدولة في فرنسا للعلاج، وقتها، والاقتراب النسبي للانتخابات الرئاسية «أجريت بعد عام ونصف العام تقريبًا» وأيضًا ما دام «التكفيريون» بقُوا بعيدًا عن الحدود الموريتانية، وتلك كانت صفقة استطاع الأمن الموريتاني إبرامها مع عدد من الموريتانيين داخل تنظيمي «أنصار الدين» و«التوحيد والجهاد» بمباركة فرنسية مع محاولة مراقبة الحدود ومخيم «امبرا» لاصطياد العناصر الخطرة المطلوبة لفرنسا بمعاونة «مانيلا» التي كانت جزءًا من قواتها تتمركز في ليرا - 70 كم شرق الحدود الموريتانية.

وبالتأكيد لم يكن بينهم «أياد أج غالي» الذي استطاع الوصول إلى نواكشوط بعد اتفاق قاده 12 من أعيان قبيلته وصلوا إلى «باسكنو» بالتنسيق مع الرائد أكلي ماني وأخيه محمد المقيم في «باسكنو» منذ التسعينيات.

***

اختفاء بائع الشاي من مطار نواكشوط

كنت أسترجع بعض التفاصيل الجيوسياسية لدول المنطقة وأنا في الطائرة، إلى أن أُعلن الاقتراب من المطار فانشغلت بالنظر إلى شكل العاصمة الموريتانية من النافذة، وكانت كلما اقتربت إلى الأرض أثناء دورانها الأخير بدت نواكشوط.. شاحبة.. هزيلة.. أضواؤها خافتة.. عكس الجزائر العاصمة التي بدت متلألئة عن بعد أكثر من 25 ألف قدم.. عندما فتحت الطائرة بابها في مطار نواكشوط هبت رائحة «البحر» المحيط، سألت نفسي هل سأجد بائع «الأتاي»[29] أمام سلم الطائرة كما رأيته قبل اثني عشر عامًا... وقتها ظننت ذلك صورة من صور استقبال السائحين، إلا أن مطالبة الرجل الملتحي الذي كان يحمل صينية الشاي والإبريق لي بثمن ما شربت من رشفات الكوب الصغير نبهتني أنه ليس على سبيل الضيافة.. فدفعت وانصرفت.

عندما التقط أنفي رائحة اليود بعد هذا السفر الطويل تنبهت حواسي للمكان، كانت الصالة الضيقة متواضعة الأثاث في المطار الصغير.. تقريبًا. كما شاهدتها قبل سنوات، اصطف المسافرون القادمون في طابور أمام الكشك الزجاجي الصغير المتواضع الذي يجلس فيه ضابط الجوازات، ظللت لأكثر من عشرين دقيقة في الطابور، أحيانًا يدخل أحد الرجال من باب المطار فينتزع أحد الواقفين في الطابور ويأخذ جوازه ليقدمه إلى الضابط ليختمه ويرحل به.. تكرر ذلك أكثر من مرة مما أزعجني من زيادة وقت الانتظار، وقد أمضيت في رحلة السفر من القاهرة ما يقرب من عشر ساعات، ومن رائحة دخان السجائر التي انتشرت في المكان، فكرت في إشعال سيجارة مثل الموجودين وبينهم أجانب ولكنني فضلت احترام «النظام».

عندما وصلت أمام الضابط لختم الجواز.. أعطاني استمارة لملئها وبها خانة العنوان الذي سأنزل فيه، كان هاتفي مطفأ في جيبي، تناولته لإخراج رقم تليفون صديقي محمد ولد أحظانا ولكن استعجال الضابط لي جعلني أفكر في

تدوين اسم فندق أتذكره، ولكنني لم أنزل في فندق فيها من قبل، ومعرفتي السابقة أن الفنادق نادرة وقليلة، ولكن السنوات بالتأكيد والانفتاح ربما زاد من عددها.. فكرت في اسم «شنقيط» باعتباره الاسم القديم الذي كان يطلق على البلاد. لا بد أن أحدًا استخدمه كعنوان لفندق، فسجلته. كان أحد رجال الأمن يرقبني خلف الكشك الزجاجي. سألني: هل ينتظرك أحد في الخارج؟ قلت: لا. فخرج معي الرجل متطوعًا ليساعدني في استئجار سيارة تقلني إلى الفندق. وأوصى السائق قائلًا: فندق شنقيط بلازا... إذن هناك فندق بهذا الاسم. لا بأس، الفندق بسيط ذو ثلاثة نجوم. هكذا قيل، وإن كانت الحقيقة أنه متواضع، ولكن الأهم فيه هو الود الموريتاني الذي أحاطني به موظفوه الشباب، كان الود الذي استُقبلتُ به بترحاب أتوقعه من أهل هذي البلاد. كما تعودت، منحني موظف الفندق الشاب شريحة موريتانية لهاتفي المحمول مجانًا عندما سألت عن شرائها. بثُّ مؤرقًا رغم طول ساعات السفر.

في الصباح هاتفت صديقي الدكتور محمد ولد أحظانا الذي رحب بي وواعدني على اللقاء سريعًا، وبالفعل حضر بعد ساعة ومعه ابنه أيمن الذي بلغ سن الصبا. كان وليدًا حين قضيتُ بينهم أسبوعًا. وكعادة محمد وبطيبته الشديدة ومودته الرائعة حمل إليّ حقيبة كبيرة بها الكثير من علب العصائر والبسكويت والفاكهة، وزجاجات الماء. حاول إعطائي جهاز هاتف محمول قائلًا: هذا هدية أيمن لك، وبه شريحة موريتانية.. شكرته سائلًا عن أخباره التي انقطعت عني لسنوات، فرحت بتقدمه العلمي والأدبي وانتقاله إلى منزل أوسع وتحسن أحواله، فهو إنسان رائع ومثقف كبير يستحق كل الخير.. وهو كذلك.

***

من نواكشوط.. البحث عن طريق

كان تلهفي على معلومة تقودني لطريق السفر إلى «أزواد» شغلي الشاغل منذ أن وطئت قدماي أرض نواكشوط، وعدني «ولد أحظانا» بتوفير من يساعدني على إتمام رحلتي التي رغم صعوبتها ومخاطرها عليّ فإنه يراني كفئًا ومجتهدًا قادرًا على تخطيها وإنجازها، كان يضحك وينعتني بالصعلوك المغامر، وكان هذا الرأي دافعًا لي، ومحفزًا للإلحاح عليه بضرورة مساعدتي. في اليوم التالي وأثناء انتظاري له في مكتب مدير الفندق، دخل علينا شاب نحيل يسأل عن محمد سعيد محفوظ الصحفي المصري الذي حضر لتدريب بعض هواة السينما والمشاركة في هيئة تحكيم مهرجان نواكشوط السينمائي.. وكان الشاب هو «أبي زيدان» - مذيع التليفزيون - عرفني عليه عبد الرحمن مدير الفندق فأخبرني «أبي» بأنه يشترك في تغطية مهرجان نواكشوط للفيلم القصير ودعاني لزيارة المهرجان والالتقاء بأعضائه وشباب السينمائيين الموريتانيين، سألته إن كان يعرف أحدًا في «باماكو» عاصمة مالي يساعدني للوصول إلى «أزواد». ستسافر إليها من «باماكو»؟! سألني وهو متعجب من جهل الغريب، فأجبته: بعد عدة أيام. أخبرني أن الوصول إليها من «باماكو» شبه مستحيل، فالحدود مغلقة، وحالة الحرب تفرض التوجس في أي إنسان، خصوصًا إن كان عربيًا.. فضلًا عن تهور الجيش المالي بقتل البعض، كما حدث قبل أيام، وعليّ إن أردت الوصول إلى شمال مالي اتخاذ الطريق إلى «النعمة» في الحوض الشرقي ومنها إلى «باسكنو» أو «فصالة» «أكثر من ألف ومائتي كيلو متر من نواكشوط»، نصفها فقط مرصوف والباقي «مدقات»، ويفتقر إلى الأمان.. سألته: هل تعرف أحدًا هناك؟ فطمأنني بأنه سيتحدث لي مع «ساندا ولد بو عمامه» من قيادات جماعة «أنصار الدين» الذي سيسهل لي الأمر، هوَّن الأمر عليّ، فاطمأن قلبي وشعرت ببعض الارتياح، ومضيتُ بقية النهار أحاول التعرف إلى من سيساعدني في ذلك السفر، وبتُّ على أمل لقاء «أحظانا» في الصباح.

وأصبحت.. طال انتظاري له، لكنه اعتذر عن عدم الحضور بعد أن أنهكني

التوتر، فلم أر بدًّا من الاتصال بالمذيع «أبي زيدان» ليعرفني على الزميل «أحمد ولد الطالب» الذي حدثني عن رحلته المرتقبة إلى تمبكتو فاستمهلني ساعة حتى يمر عليَّ في الفندق، بعد ساعة من الانتظار الثقيل جاء ليصطحبني في سيارته إلى دار السينمائيين، حيث كانت ندوات مهرجان نواكشوط السينمائي، بشرني «أبي» بأنه اتفق مع «أحمد ولد الطالب» على مساعدتي، فهو يمتلك علاقات جيدة مع بعض قادة تنظيم «القاعدة»، و«أنصار الدين»، وأنه ربما يسافر خلال يومين إلى «أزواد» فيصطحبني معه، وحدد «أبي» لي موعدًا لمقابلته، ولكن انشغاله - أو ما ظننت أنه انشغال - فرض عليَّ ألا أواصل ضغطي عليه. في الليلة التالية كان حفل ختام مهرجان السينما وصحبني فيها الصحفي الشاب والمدون النازع للحرية باندفاع غير محسوب «أحمد بن جدو».

مضى الوقت بي بين الشباب المتحمس الذين يمثلون طليعة من المثقفين التنويريين الجدد الأكثر انفتاحًا على العالم من سابقيهم من مثقفي موريتانيا.. أظلم الجو بانسدال الليل، وانتظم حضور الحفل الختامي على مقاعدهم، وأضاءت الأنوار الشاشة لعرض لقطات من الأفلام الفائزة، جلست مستمتعًا بهذا الجو الاحتفالي، أشار لي أحمد بن جدو فقمت إليه لينتحي بي جانبًا ويعرِّفني بمذيع التليفزيون الوطني الموريتاني الصحفي «جمال بن عمر» المتخصص في الجماعات الدينية.. وفي جانب من الحفل جلسنا نحن الثلاثة، تحدثت عن رغبتي في ولوج هذا العالم.. أشفق عليَّ جمال مبينًا لي أن صعوبة الرحلة ليست في الخطر على حياتي فقط، ولكن لطولها ووعورة طرقها، ولكن حاجتي لاكتشاف هذا العالم وولوج المغامرة كانت أكثر تأثيرًا عليَّ من كلمات جمال عن مشاق الرحلة التي تمتد لأكثر من ألف ومائتي كيلو متر داخل حدود موريتانيا فقط وخطورتها القاتلة، وقد سئمتُ كثرة التحذيرات والشفقة، قلتُ إن كان الموت يترصدني في الطريق فلا تستخسروه فيَّ فإن أجري على الله.

ولما وجدني مُصِرًّا عليها طمأنني بوعده بالمساعدة، تواعدنا على لقاء مساء الغد على المقهى التونسي وسط العاصمة نواكشوط.

عدتُ إلى الفندق وأنا أُمَنِّي النفس وأتخيل اكتمال الرحلة والعودة بموضوعات مهمة، لم أكن راغبًا في تصور غير ذلك، حتى ولا صعوبة العودة، وأنا الغريب الوحيد.. بثَّ ليلتي وأنا أحلم بـ«تمبكتو».

ظللت طوال النهار التالي مشغولًا بموعد جمال، ذهبت إلى «محمد ولد أحظانا» في مكتبه بوزارة الثقافة، كنت أستغل الفرصة بسؤال كل من ألتقيه لديه عن معارف له في فصالة أو النعمة، ومنهم القاضي الشاب «محمد ولد شيخ سيديا» الذي قدمه محمد لي على أنه حفيد لأحد أهم شيوخ وعلماء الفقه الموريتاني[30].. فوعدني أيضًا بأن يسأل عمن يمكنه استقبالي، ومساعدتي في النعمة أو باسكنو.

قبعت في الفندق مساء أنتظر اتصالًا من جمال، ولكنه أخلف موعده. فهاتفت «أحمد ولد الطالب» وطلبت منه اللقاء إن استطاع، فحضر لي في منتصف الليل بالفندق، وأيضًا طمأنني على مساعدته لي في ترتيب كل شيء لصلته الوثيقة بجميع أطراف النزاع الانفصالي في «شمال مالي»، وأن ذلك ضروري حتى أكون بمأمن من الاغتيال أو الاختطاف أو الملاحقة، أو على الأقل لتوفير سبل الاطمئنان لي وعدم الشك في طبيعة مهمتي الصحفية، عدَّد لي أحمد ولد الطالب مزايا اتباعي لتوجيهاته وفضل مصاحبتي له.

لمحتُ في كلماته بعض التوثب للاستفادة أو على الأقل المقايضة، وهي طريقة مقيتة للتعامل صادفتها في كثير من البلاد التي زرتها للعمل، وغالبًا توقف نمو صداقة تلوح في الأفق وتُفشِل العلاقات، ولا يصل أي الطرفين إلى نجاح يذكر؛ مما جعلني أعلن له تفكيري في إلغاء الرحلة من الأساس بحجة عدم كفاية ما معي من مال، وعندما أخبرته بذلك، وجدته يحاول الاستفادة بشكل آخر من تقديمه لبعض القنوات التليفزيونية أو الصحف الراغبة في تغطية هذه الأحداث. لم يُدرك أن منطقته بعيدة عن اهتمامات الصحافة في المشرق العربي والمحطات التليفزيونية فيها، وأن أي خبر عن دول غرب إفريقيا ليس سوى كلمات في شريط الأخبار أسفل الشاشات أو خبر من بضع كلمات في

صفحة الأخبار العالمية.

شعرت بأن تمام الرحلة أصبح عسيرًا، فكرتُ بالفعل في إلغائها، على الأقل إلى حين أتمكن من العودة في ظروف أكثر أمنًا وبتخطيط أفضل وأكثر إحكامًا، ولكن ظروف الارتباك السياسي والانفلات الأمني في أي مكان هي الأفضل لإنجاز موضوعات صحفية وعادة ذلك ما يهم القارئ، كان ولد الطالب يعيد ويزيد في «فضائل» رفقته، وأنا أفكر في إنهاء اللقاء، فوعدته أن أساعده فيما طلب ما استطعت، فخاطبني في لهجة شبه آمرة أن أفعل ذلك غدًا قبل الزوال «الثانية عشرة ظهرًا»، حتى يمكن أن يرتب لي مكانًا معه في سيارته بإرجاء سفر أحد مساعديه معه، واستأذن في الانصراف.

...أسفت على ما ضيعته من وقت معه، ومن قرب ضياع الفكرة من ذهني، واستبعاد السفر إلى «مالي»، بتُّ مؤرقًا لا أدري ماذا أفعل!!

في الصباح قررت مهاتفة جمال عمر للمرة الأخيرة حتى أكون قد استنفدت كل السبل؛ فأنصرف إلى استبدال الرحلة بالقيام بعدة تحقيقات ولقاءات صحفية عن موريتانيا، ولن يكون الخوف من القتل هو السبب ولكن عدم السماح بالدخول إلى تمبكتو حتى لا أقطع كل المسافات وأرد خائبًا فأكون كالمُنْبَت لا أرضًا قطع ولا ظهرًا أبقى، رد جمال على مهاتفتي معتذرًا لي عن موعد الأمس لانشغاله المفاجئ، وأنه سيتجه إليَّ فورًا، فعاودني الأمل مرة أخرى، جلس جمال معي ضعف الوقت الذي قدَّرته، شرح لي الأوضاع في «شمال مالي» وموازين القوى فيها، ونقل لي من «الكمبيوتر» الخاص به بعض الصور وبعض الكتابات، وجدته أكثر كرمًا وأوفى وعدًا، وأكد مساعدته لي إن ظل تصميمي على السفر، وعدَّد لي طرق الوصول ونوعيات المواصلات خاصة وعامة وتكلفة كل منها، قررت أن يكون بالمواصلات العامة متنقلًا بين المدن، لم يكن الهدف تقليل التكاليف فمعي ما يكفي ولكن المواصلات العامة مع الناس ستوفر لي أمنًا وقراءة مشاهد حركة الحياة في موريتانيا أكثر.. بعيدًا عن زخارف العواصم، وفي كل ذلك أرغب في أن تتاح لي فرصة من الوقت لمعرفة الناس،

ربما يسوق لي القدر من يساعدني فيما جئت له.

اتصل جمال بـ«عبد الله ولد سيدي حننا» صديقه في باسكنو، وأخبره عن رحلتي وأوصاه بي فوعده الرجل خيرًا ورحب بي، ووعده بتقديم كل المساعدات حتى إيصالي إلى الجانب المالي، واتصل أيضًا بزميلنا الصحفي محمد محمود «شياخ» في مدينة النعمة، وأيضًا رحب بي مما أعاد إليّ بعض الأمل في إتمام الرحلة، ولكن عليّ أن أتحمل طول السفر وعناء الرحلة ومخاطرها. طاوعت نفسي في الوثوب على الخطر وأزمعت المسير.

في الصباح بدا الطقس في نواكشوط حارًا، لم أجد ما أفعله سوى أن أتجه إلى الدكتور خالد غريب مدير المركز الثقافي المصري؛ لأتناول قهوتي التي اعتدت أن أتناولها كل صباح لديه لعدم مصادفتي «بُن» في نواكشوط.. تركت لديه جواز سفري لكي يرسله إلى القنصل لوضع تأشيرة دخول جديدة، حيث سيكون عليّ العودة إلى نواكشوط مرة أخرى، فوعدني بالاتصال بالسفير والقنصل، وكذلك الحصول على خطاب من وزارة الداخلية للسماح لي بالمرور حتى باسكنو.. وهو أهم خطوات الرحلة، وهذا الخطاب لا بد أن يكون ردًا على خطاب من السفارة المصرية بالموافقة على السفر حتى لا تتحمل موريتانيا مسئوليتي في حالة قتلي أو خطفي، المؤكد حدوث أحدهما، فالموريتانيون أنفسهم يُقتلون ويُختطف بعضهم على هذا الطريق، فطلبت من الدكتور خالد أن يزكي طلبي لدى السفير والقنصل حتى يوافقا لمعرفتي بعقلية الدبلوماسيين المصريين في إيثار السلامة، وهو ما وعدني به.. هاتفني محمد ولد أحظانا ليطلب مني الحضور إليه في مكتبه في وزارة الثقافة، عرفني الدكتور محمد ولد أحظانا على زميله «نامي صالحي» مدير التراث في الوزارة وهو يخبره أنه استصدر أمرًا من الوزيرة بمساعدتي لزيارة النعمة وسيكون مرافقًا لي في سيارة جهزتها الوزارة لتقلنا إلى «ولاتة»، «ومعط مولانا» لمساعدتي لإنجاز عدد من التحقيقات الصحفية.. وجدتها فرصة جيدة لكتابة عدة موضوعات عن التراث والثقافة والحياة الاجتماعية في موريتانيا، هذا

البلد الذي أحببته وعشقت ناسه الطيبين.

وتعرفت لديه بالدكتور محمد البرناوي أستاذ علم الاجتماع بجامعة نواكشوط وأحد مثقفيها الذي ما إن علم هدف رحلتي حتى اتفق معي أن يمدني بمصادر تاريخية عنها، وكذلك مناقشتي ومساعدتي في اختيار موضوع كعنوان لرسالة الدكتوراه التي نويت تسجيلها، وتوفير مصادر البحث، وكان من أطيب وأنبل من التقيتهم على مدى عمري كله، أمدني ببعض ما أحتاج إليه لإنجاز تحقيق عن المخطوطات، واشترى لي عددًا من الكتب كمراجع لتساعدني على فهم المنطقة وتاريخها وعلاقة أبناء أزواد بموريتانيا.

شعرتُ أن أموري قد استقرت، فبدأت أتهيأ للسفر بعد أن توافرت لي المساعدة، بعد العصر كنت أنتظر ولد أحظانا في الفندق لاصطحابي في جولة على المحيط مع زوجته لشراء السمك لغداء الغد، فما بقي لي بعد أن اكتملت الترتيبات إلا رؤية الأحبة، مرَّ عليَّ وذهبت معه إلى شاطئ المحيط. كانت معه زوجته السيدة جميلة أم أيمن التي لا أنسى كرمها وقت أن نزلث عليهما ضيفًا في منزلهما قبل اثنتي عشرة سنة عندما كنت في زيارة للمغرب، واصطحبني صديق مغربي للفسحة في مدينة «الداخلة»؛ وقتها التقيت أخاها التاجر سيدي محمد الذي أغراني بزيارة موريتانيا، ومنحني خطاب توصية لزوجها، لم تكن نواكشوط آنذاك تعرف الفنادق، فالغرباء ضيوف في منازل أصدقائهم، ومن ليس له صديق فيها فسرعان ما يجد مضيفًا.. استقبلني ولد أحظانا لأسبوع كشف فيه واكتشفت الأصالة الموريتانية والكرم العربي، مما حبب إلى قلبي البلد وساكنيه، ما برحوا من ذاكرتي.. فلما تهيأت للرحلة إلى مالي قررت المرور ترانزيت بنواكشوط لملاقاتهم، كان شاطئ المحيط في نواكشوط هادئًا.. أسماك كثيرة ميتة على الشاطئ.. عدد من الأشخاص يجلسون بعيدًا عن المياه.. كل شيء ساكن حتى حركة الموج هادئة ورتيبة.. فقط هي نوارس البحر قبيل غروب الشمس تلاعب ضوءها القرمزي.

أسرابها تقترب من الشاطئ، ثم تنحرف منطلقة في اتجاه الشمس ثم تستدير

لتعود إلى الشاطئ مارة أمامنا.. شعرتُ برومانسية المكان وكأنه خارج حدود هذه الدولة التي يستشعر المرء فيها خشونة الحياة وبداوتها.

أشارت لنا جميلة من بعيد أمام حلقة الأسماك أنها انتهت من شراء السمك لغداء اليوم التالي.

تباطأتُ في ترك الشاطئ وبديع منظره في لحظات المغيب والنوارس تحط على الماء ثم تطير.. ما إن عدت إلى الفندق حتى وجدت المستشار محمد شيخ سيديا يهاتفني معلنًا قدومه لاصطحابي إلى منزله للغداء ...

أصر على تناولي الغداء في منزله، شعرت بروح الصداقة واستشعرت وعيًا جديدًا في العقلية الموريتانية، من خلال حديثه المنظم المفيد والمضيء لجوانب مظلمة في هيكل معرفتي بموريتانيا. وإن حذرني أيضًا من سوء رحلتي ومصاعبها وطول الطريق إلى نهايتها، هذا إن قدّر لي الله الوصول.

* * *



أمام المركز الثقافي المغربي في نواكشوط مع جمال بن عمر



في نقابة الصحفيين مع نقيبهم السابق الدكتور حسين ولد مدو وجمال بن عمر



المستشار محمد ولد أحمد شيخ سيديا وبابا شيخ سيديا



مع السياسي الشاب عبد الرحمن ودادي



مع المثقف والمدون الشاب أحمد بن جدو



▲ مع السيدة مريم زوجة الرئيس المؤسس مختار ولد داداه

والدكتور ممادو هاديا كان مدير عام المكتب الوطني للمتاحف بموريتانيا



▲ مع الدكتور محمد ولد البرناوي المثقف الكبير

وأستاذ علم الاجتماع بجامعة نواكشوط

في منزل «أحظانا».. المرأة طارقية

في منزل «محمد ولد أحظانا» استعدت دفء الأسرة الذي استشعرته قبل اثني عشر عامًا، صحيح أن المنزل جديد غير الذي نزلت فيه ضيفًا وعدد الأولاد زاد ثلاثة، بعد أيمن الذي كان في عمر عام تقريبًا وقتها، صار الآن صبيًّا على مشارف الشباب، احتفى الأولاد بي قبل الغداء، يلاعبونني ويلاطفونني، لم يمنعهم من الفرحة اختلاف لهجتي وصعوبتها عليهم، عوّض ذلك القرب الإنساني والود باستثناء أيمن الذي يعي جيدًا ويشاهد المسلسلات والأفلام المصرية، ويعرف الحديث باللهجة المصرية.

شعرت بالجوع وغياب صديقي وزوجته، فناديتُهما أن يسرعا بالطعام، بدت «الخادمة» الزنجية الصغيرة كتمثال يتحرك وهي تحمل الطعام صامتة، كانت تتحرك كأنها جماد حتى عندما أحاول شكرها، كانت تنظر إليّ ولا تعلق، أو ترد، ظننتها خرساء، شعرت نحوها ببعض الشفقة.

عندما اجتمعت الأسرة على الغداء تذكرت ما كتبته صديقتي «جميلة بنت إيسلمو خليفة» الصحفية الموريتانية على صفحتها «فيس بوك».. تحية إجلال وتقدير للرجل الموريتاني.. نيابة عن كل النساء الموريتانيات: «نحن مدللات.. مبجلات.. وإن كان وراء كل عظيم امرأة.. فوراء كل امرأة ناجحة رجل طيب ومتفهم».

شعرت بذلك يتجسد في «محمد ولد أحظانا» على مائدة الغداء وهو يدلل زوجته «جميلة»، تذكرت زيارتي الأولى له وكيف كان ينتقي لها قطع اللحم، وكيف كان يدللها على نفس مائدة الغداء في منزله الأول تمامًا كما يفعل الآن في زيارتي الثانية، خجلت، تساءلت في نفسي: هل أنا مفجوع وشره في الأكل حتى بدوت غير محتاج لاهتمام مضيفي لي كضيف على مائدته؟ فقللت من لقيماتي.. لم أعِ وقتها أو أدرك حجم هذا التدليل وسلطان المرأة في المجتمع الموريتاني وكرامتها.. وحريتها الممتدة وتبجيل المجتمع العربي في غرب

الوطن الكبير للمرأة عن نفس المجتمع في شرقه.

تأكدت من تفاصيل رحلتي أن ذلك عائد إلى تشبع الموريتانيين بثقافة أهل البلاد الأصليين من الصنهاجيين والطوارق الذين تظهر عندهم بوضوح ملامح النظام الأمومي فتتمتع المرأة بمركز مهم ومتميز، وتمتلك حريتها في كل شيء، وأهمها حريتها في اختيار الزوج وحق الاختلاط، كان من علامات هذه المكانة لدى البربر أن الوراثة للأبناء تكون من جهة الأم، وكذا زمام القيادة.

وهو تراث تاريخي في الأمازيغ بداية من «الكاهنة» إلى الآن مرورًا بزوجة القائد العظيم «يوسف بن تاشفين» زينب النفراوية التي أسهمت في إدارة أمور دولة «المرابطين» الصنهاجية التي أسسها زوجها الأول أبو بكر وزاد توسعها زوجها الثاني ابن عمه يوسف بن تاشفين الذي شاركته بالرأي الحصيف في كل قراراته، ذكرت المصادر التاريخية أنها كانت زوجة لأمير المرابطين أبي بكر بن عمر وعندما أراد أن يلحق بقومه في الصحراء لوأد فتنة نشبت بينهم وفتح باب الجهاد لنشر الإسلام في السودان الغربي وسط الزنوج، قرر ترك ابن عمه يوسف نائبًا عنه في المغرب.

وقسَّم جيشه بينهما، فلما عزم المسير قال لزوجته زينب: إني مسافر عنك برسم الفتن والحروب، ولا يمكنني أن أمشي عنك، وأنت في عصمتي، فإن متُّ كنت مسئولًا عنك، والرأي أن أطلقك.. فقالت له: الرأي السديد ما ترى.. فطلقها، وقال لابن عمه يوسف: تزوجْها فإنها امرأة مسعودة.. وقيل إنها هي التي طلبت ذلك فطاوعها.

ولما أراد أبو بكر بعد سنوات أن يعود بعث إلى يوسف يُعلمه بوصوله. فأشارت زينب على زوجها أن يلاقيه في منتصف الطريق، وأن يُعد له متاع الصحراء وماعونها، وأن يُريه الاستبداد في أحواله. ففعل يوسف وسلم عليه راكبًا على دابته، ولم تكن تلك عادته، ثم نزل إليه وقعدا على الأرض، ففطن الأمير أبو بكر لما أراد يوسف، ولم يرغب في منازعته، فرجع إلى أرض صنهاجة «موريتانيا».

ومن سيدات الطوارق ورموزها «تينهنان» ملكة الطوارق، وقيل معناها «المرأة كثيرة الترحال والسفر» وهو أكثر الأسماء شهرة في ولاية «تمنراست» الجزائرية الآن، وتمثل «تينهنان» للأمازيغ والطوارق الأم أو الزعيمة الروحية وكان موطنها المغرب، وكانت تحكم «تافيلالت» ثم رحلت إلى «أبلسه» وأسست مركزًا هناك، واستقرت بمنطقة «الأهقار» وأسست سلالتها من ثلاث بنات أنجبتهن.. كما تقول الأسطورة.

واحدة تفرعت منها قبيلة «أوليمدن»، والثانية «كيل أغلال»، والثالثة خرجت منها قبائل «تيزي وزو»، وكانت لها خادمة تدعى «تكاما» من نسبها خرجت قبيلتان هما: «تك عالي» و«أيت لوايا»، وتذكر حكايات «تينهنان» أنها انحدرت من بوابة الصحراء من الغرب إلى الأرض المنيعة في الجنوب بعد أن حدثتها عنها ملكة الجن.. وهناك تنقّب الرجال باللثام خشية الأرواح الشريرة.

وأمرت النساء باتخاذ قلادة تضم خمس حبات من العاج في شكل جواهر تكفل لهن ردع الشياطين عنهن وخزي العين وحمايتهن من الحسد، ولحكاية هذه الملكة الأسطورية أصل[31] كشفته بعثة أثرية مشتركة فرنسية أمريكية عام 1925 من خلال هيكلها المدفون داخل قصر «ماف» في قرية «أبلا»[32] في ضريح مبني من الحجارة ذي شكل بيضاوي يبلغ سمك سوره 1.4 متر وينقسم إلى إحدى عشرة غرفة غير منتظمة الشكل باستثناء الغرفة الجنائزية التي تضم قبرها. وهي محاطة برواق دائري، ونُحت حول الضريح ثلاثة عشر معلمًا جنائزيًّا صغيرًا، ويعود بناء الضريح إلى القرن الرابع الميلادي. حسبما أسفرت عنه نتائج قياس عمر الحجارة والمجوهرات والأدوات والأواني التي وُجدت به ضمن الطقوس الجنائزية التي عُثر عليها.

وحسب الروايات المتداولة بين الطوارق عن أجدادهم فإن هذه الملكة تعرضت لمضايقات الأسرة الحاكمة آنذاك فقررت أن تسوق ماشيتها وتقطع الصحراء الكبرى لينتهي بها المطاف في «أبلسه» بـ«تمنراست» حيث تقاطع واديين مهمين للتزود بالمياه وكانت المنطقة ممرًّا إلى إفريقيا السوداء، وكانت هذه

الملكة فائقة الجمال وفاتنة ويعتبرونها الأم الأولى للطوارق النبلاء، وهي طبقة «أهقارن» نسبة إلى جبال «الأهقار» الشاهقة وسط الصحراء وهو المكان الذي تفرعت منه قبائلهم إلى الغرب والجنوب.

وإن هذه الطبقة جاءت من الشمال إلى الجنوب ولها مكانة مرموقة بين الناس، يعرفون بالثراء ويتميزون بالقوة والجرأة، كانوا لا يهتمون بأي نشاط سوى التعليم، وثراؤهم من نهب ممتلكات الطبقات الأخرى، وبكل الوسائل؛ خداعًا أو عنفًا، وتمثل الطبقة الأرستقراطية في أكثر قبائل الطوارق وتتمسك بالعادات والتقاليد.

أما طبقة «الأمغاد» فهي الطبقة التي تكونت من أسر وعشائر طارقية ولم تتمسك بالعادات والتقاليد ولم تُحافظ على الضوابط التي تمسكت بها «أهقارن».. ويعملون في الرعي والصيد وخدمة السلاطين والحكام وزوجاتهم وأبنائهم، أما طبقة «أغلوين» فهي طبقة العبيد ذوي البشرة السوداء الداكنة والأنوف العريضة امتزجت بالمجتمع الطارقي، وأصبح كل شخص ينتمي إلى سيده، وبعد أن تحرروا أصبحوا جزءًا من القبائل ينتسبون إليها، وإن لم ينس الجميع أصلهم وأنهم جاءوا من إفريقيا بالشراء أو الخطف أو الأسر.

أما الصاغة والحرفيون وأصحاب البشرة السوداء والملامح الزنجية فهم طبقة «أنيض» وهم الذين يجيدون حرف صناعة الحديد والنحاس والذهب والفضة والرماح وآلات الحرب وحلي النساء.

وفي «تمبكتو» يتحدث الطوارق لغة «تماشق» وينقسمون إلى مجموعتين:

الأولى: طوارق الغرب في إطار الحدود الجغرافية لولاية «تمبكتو».. أي بين «تمبكتو» و«ليرا» الواقعة قرب الحدود الموريتانية «70 كم شرق مدينة فصالة الحدودية الموريتانية» ويعرفون بقبائل «كل أنصر»، و«كل أفزاق»، و«كل أنتريمت»، و«كل انتهونت»، و«كل أنتيشق»، و«إزمات»، و«أهل أج أمزكوك»، وقيادة هذه المجموعة لقبيلة «كل أنصر»، وتحديدًا في أسرة الطاهر أج حمامه

وكان منها الزعيم البطل محمد علي الأنصاري.

الثانية: طوارق الشمال وتتألف من قبائل «أموشق» وتضم «إلمدن»، و«الأهقار»، وينتشرون قريبًا من حدود الجزائر والنيجر، وقبائل «إيفوقاص» الشرفاء وتنتشر في جبال كيدال الشمالية وتسكن الجبال والسهول، ومعنى «إيفوقاص» بالعربية «أشعل النار»، وهم من الطوارق العرب جاء جدهم الأكبر محمد المختار من المغرب وهو شريف ينتمي إلى الأدارسة من سلالة الحسن بن على بن أبي طالب عليهما السلام، واستقر بها هربًا من البطش الذي كان يطول الهاشميين من أبناء عمومتهم «العباسيين»، ومنهم «إيمغاط».

ودليل على التداخل العرقي أن أهل «سيد الصافي» في مدينة «أروان» هم بطن من بطون الطوارق يرجعون نسبهم إلى جدهم سيد الصافي الأنصاري الذي قدم من المدينة بقصد نشر الإسلام.

ويطلق عامة على العبيد، و«كيل أوللي» رعاة المعز، وبينها طبقة متوسطة بين الأحرار والأمغاط، وهي قبيلة إياك «كامارين» وتاهقت ملت وإمددقن المعروفة بزرقة العينين وأمكلكن وتسكن بين «هومبري» إلى «تمنراست»، و«تورغا» في الجزائر، ولكل هذه المجموعات قيادات منفصلة لكن طوارق الشمال يدينون بالولاء ويعترفون بالقيادة لمجموعة «إيفوقاص» وتحديدًا أسرة أنتالا أج الطاهر.

ومن كبار مشاهير المناضلين ابن باديس وعبد الكريم الخطابي وعمر المختار.

ويمتلك الأمازيغ لغة وطنية خاصة بهم وحروفها تسمى التيفيناغ، وهي تجعلهم أحد الشعوب الإفريقية النادرة التي تمتلك أبجدية «نظيفة» يرجع وجودها إلى ثلاثة آلاف عام قبل الميلاد، وتشهد بذلك الكتابات والنقوش الموجودة في الصحراء وشمال إفريقيا، ويذهب البعض إلى القول بأن بعض اللهجات السائدة في شمال إفريقيا هي تطوير للأمازيغية وأن القواعد اللغوية لهذه اللهجات الدارجة أمازيغية بحتة، ويتفرع من الأمازيغية «13 لهجة.. من

أهمها الطارقية المنتشرة في النيجر ومالي وبوركينا، والريفية والسوسية والأطلسية والتشليمية في المغرب، والقبائلية والشادية والميزابية في الجزائر إضافة إلى الطارقية في الجزائر، والزوارية والمالية والغدامسية في ليبيا، والجانشية في جزر الكناري، والسيوية في مصر.

ويقول محمد سعيد القشاط إن لغة الطوارق «تماشق» هي إحدى اللهجات العربية التي قضى عليها الإسلام عندما وحد لغة العرب في لهجة قريش التي نزل بها القرآن، والدليل على ذلك أن التماشق هي اللغة أو اللهجة الإفريقية الوحيدة التي بها حرف الضاد «سمة اللغة العربية» وينقسم الطوارق إلى قسمين رئيسيين هما: طوارق الساحل.. ويضم قبائل «كل آبير» بصحراء تينري و«كل يملدن» في غاوة بالنيجر، و«كل أدرار» من إيملدن لمتونة، و«كل تدمكت» حول تمبكتو ومنعطف نهر النيجر بمالي وقبائل أخرى مثل «كل أنصار» الأنصار، و«كل لغل» و«كل السوق» التجار، و«كل أغزاف» في أزواد وأدرار إيفوقاص.

أما طوارق الصحراء فهم في جنوب الجزائر وفزان بليبيا وأهم قبائلهم الهقار وكل «هقار» كما يسمونهم القبيلة دائمًا ببادته كل أي أهل «أوبنو» وأيضًا «كل آجر» في الجزائر في جبال الهقار، ثم إيمنغاس وأوراغن وكل آجر في فزان وسكان مدينة غدامس الليبية ينسب طوارقها إلى الصنهاجيين، وهم تجمع قبلي كان يضم جباله ولمطه ولمتونه وتارقة ومسوفة وهم مؤسسو دولة الطوارق.

ومعظم الطوارق مسلمون «سُنّة» على مذهب مالك لكن بينهم قلة «إباضية».. ومع أنهم يدينون بالإسلام، فإنه يلاحظ أن الثقافة الأمازيغية تعطي أولوية لموروثاتهم التشريعية إذا تعارضت مع النصوص الدينية، فمثلًا يرفض الأمازيغ تعدد الزوجات، ويساوون في المواريث بين الابن والابنة، ويعتمد المسلمون الأمازيغ «سُنّة، وإباضية» تفسير ابن كثير للقرآن، وقد تشيّع الطوارق في بداية ظهور حركة التشيُّع، لكنهم عادوا للسنّة بعد ذلك.

وحسب الميثولوجيا الأمازيغية، فإن أثينا ربة الحكمة والقوة والحرب هي ابنة بوصيدون إله الحرب الأمازيغي[33]، ويعزز ذلك قول بعض الباحثين بأن أثينا إفريقية الأصل وهو ما يذهب إليه هيرودوت بجعل أصلها ليبيًّا أو أمازيغيًّا.

وآمون الإله المصري، والذي يبرز في عدة ثقافات منها الثقافة الإغريقية والبونيقية والمصرية والأمازيغية واسم آمون هو مصري ويعني بالهيروغليفية «الخفي»، وإن كان البعض يرى أنه من المحتمل أن يكون اسمًا أمازيغيًّا مشتقًّا من الكلمة الأمازيغية «أمان»، وتعني «الماء»، ويشترك المصريون والأمازيغ في عبادته، وكذلك البونيقيون الذين عبدوه باسم «بعل آمون» في الديانة القرطاجية، وهذا الإله كان أيضًا موجودًا في الشرق العربي، والذي ورد اسمه في القرآن (أَتَدْعُونَ بَعْلًا وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ)[34] صدق الله العظيم.

وفي ذلك تأكيد على الأصل الواحد لهذين العنصرين البشريين أمازيغ وعربًا وبالتالي الأصل اللغوي الذي أكده علماء كثيرون في اللغات القديمة، مثل وليم مارس W. MARCAIS وتعرضه لأصول اللغة البونيقية.

* * *

أساطير وخرافات الطوارق

كان لانعزالهم في الصحراء تأثيره على احتياجهم لمعرفة ما خلف آفاق واقعهم، وما بعد أيامهم في أفق الغيب، مثل غارات القبائل الأخرى، أو وصول قادم بخبر، أو قافلة ينتظرونها، فكانوا يلجئون للريح ويستنبئونها، وكذلك السحب في تشكيلاتها في السماء وسرعة سيرها، وتفتتها أو تجمعها، أو معرفة أخبار الغائبين في غزوات أو في قوافل، أو بنظام الذبائح بعد أكل اللحم بقراءة خطوطها كفكرة قراءة خطوط الكف[35] وأحيانًا ما كانوا يستعينون في معرفة كل هذه الأخبار بأرواح الموتى.

فتعمد النساء إلى فتاة بكر، بعد أن يلبسنها أجمل الثياب، ويصطحبنها إلى مقابرهم القديمة «يدينيين»، وهي من آثار ما قبل التاريخ، وعبارة عن بعض أكوام الحجارة رصت فوق الميت، في شكل هرمي تحيط به دائرة من الحجارة، ويتركن الفتاة ليلة فوقها، وفي الصباح تقص على النساء ما رأته في منامها، ومن الطبيعي أن تتطابق الرؤيا أحيانًا مع الواقع نظرًا للعامل النفسي، وللانطباعات المتركزة في مخيلتها عن وقائع الحروب في الصحراء، وأحداث الغزو، وعادة - بالتالي - تكون الرؤى التي تقصها العذراء متفقة مع ما ينتظرن، مما قوّى اعتقادهن في هذه الأفكار منذ أزمان بعيدة.

وأحيانًا كانت القبيلة تلجأ إلى تكليف عدد من النساء ما بين 3و6 من المعروف عنهن الصدق، بالذهاب إلى قبر «أدبني» بلباس فاخر، على أن يكون معهن شيء من الحديد ولو إبرة، وألا يتحلين بأي نوع من حُلي الزينة، حتى ولو كانت خرزة، ويبتن ليلتهن أيضًا، وفي الصباح عند عودتهن يقصصن ما رأينه.

ويتولى المؤولون من القبيلة تفسير هذه الرؤى، وإن غامت الرؤيا، أو اختلطت مشاهدها عند إحداهن، أو غمض عليها بعضها، أو لم تتذكر، وحتى إذا لم تر شيئًا، فعليها أن تعود إلى القبر، وتجلب منه أحجارًا صغيرة تضعها بجوار رأسها عند النوم، في محاولة لاستيضاح الرؤيا، أو جلب مشاهدها، ولكن من الضروري

أن تعيد الحجارة بعدها إلى مكانها، ولديهم أيضًا شكل آخر لاستطلاع الغيب لمعرفة أخبار الغائبين بطريقة «اليكن»، وفيه تتجمع النساء، ويقمن خيمة صغيرة ضيقة لا تسع سوى واحدة فقط منهن يخترنها من بينهن على أساس الصدق، ويعطينها مرآة ويغلقن عليها الخيمة بإحكام بدرجة شديدة لا تسمح بنفاذ الضوء، وتضع المرأة وجهها في المرآة، وتقوم النساء خارج الخيمة بالعزف والغناء والرقص وإطلاق الزغاريد لمدة ساعة، ثم تخرج المرأة لتخبرهن بما رأته في المرآة، وإن لم تر شيئًا يعدن نفس العمل ليومين متتاليين حتى ترى، وعادة ما تكون هذه الرؤيا نوعًا من الاستجلاب من مخيلتها.

هناك أيضًا عملية مماثلة تسمى «تيبليغين»، وهو الاسم الذي يطلق على كرات مكونة من خليط رماد مسحوق عظام حيوان بحليب ناقة، أو شاة بيضاء يتناوله عدد من النسوة، بعد أن يكشفن أذرعتهن اليسرى، ويملأن أفواههن بالحليب المتبقي، ويصطحبن معهن صبيًّا دون البلوغ، ويسرن مسرعات حتى يصلن إلى مكان لا يصل إليهن فيه صوت، ولا ضوء نار، ويقفن صفًّا وتقذف كل واحدة بالكرة التي في يدها قذفة قوية، وتفرغ ما في فمها، وينكببن على الأرض لفترة حتى يكنَّ في حالة بين النوم واليقظة، فيرين ما عليه أحوال الغائبين، ومتى رجوعهم إلى الأهل، ومن منهم مريض، وإن كنَّ لا يميزن الوجوه جيدًا.

وتمثل حكايات وقصص وأساطير الشعب الطارقي جزءًا من كيانه الحي، متكئًا ومتداخلًا مع تفاصيل الحياة التي تحمل موروثه وتاريخه المتوارث، ولأن الصحراء دائمًا تفتقر إلى المطر، فإن الحاجة إليه كانت مفجرة لمثل طقوس الاستمطار، أو «تاسليت أونزار» إله المطر لديهم...

فتحكي القصة أنه في الزمان القديم الذي كانت الأشياء تتكلم فيه، كان «أونزار» إله المطر يظهر للناس في شكل قوس قزح.. قال قائل منهم: «غدًا إذا بقيت قلوبنا صافية فسوف ترونه في السماء». وفي يوم ظهر «أونزار» وشاهد على ضفة النهر فتاة رائعة الجمال تستحم فيه، فشغف قلبه حبها وهي تتألق

حُسنًا على الأرض كالقمر في السماء، وثوبها من الحرير المتلألئ. كان وجهها ساطعًا. وكانت عادة هذه الفتاة أن تستحم في النهر الفضي ذي البريق، وكان «أونزار» إله المطر كلما رآها هبط إلى الأرض، ودنا منها فتخاف ثم يعود إلى السماء، فقال لها يومًا: أنا سأشق عنان السماء من أجلك يا نجمة بين النجوم، فامنحيني من الكنز الذي وُهبته وإلا حرمتك من الماء.. فقالت: أتوسل إليك يا ملك الماء، يا مرصع الجبهة بالمرجان، وقد نذرت نفسي لك بيد أني أخشى الأقاويل، فقام أونزار من عليها وأدار خاتمه فنضب النهر على الفور، وجفت القنوات، فصرخت صرخة كبيرة وتفجرت عيناها بالدموع، فالماء روحها.. ثم خلعت ثوبها الحريري الشفاف وظلت عارية، وخاطبت السماء.. أونزار يا أونزار يا زهر السهول أعد إلى النهر جريانه، وتعال خذ بثأرك يا إله المطر، انهارت الأرض الأم، من أجلك تمسكت بالصبر، أنا والأرض ضرتان، تزوجنا برجل دون أن نراه، فكيف بإمكانها أن تفر يا أونزار؟ اختفت علامات الخضرة، عروسك تتوسل إليك، يا أونزار إنها ترغب فيك.. يا إله المطر كف عنّا الجفاف كي ينضج المحصول على الجبل، وينمو منتوج الحقل، يا سيد الماء امنحني الماء، إني أهب روحي لمن يريدها. وفي تلك اللحظة لمحت ملك المطر وقد عاد بهيئة شرارة برق ضخمة، وضم إليه الفتاة، فعاد النهر إلى سابق عهده في الجريان، فاكتست الأرض كلها اخضرارًا.

وهذه القصة الأسطورية وشخصية أونزار يتم الاحتفال بها في فترات الجفاف، والفتاة التي تختار كعروس كانت تقدم له عارية وفي ذلك تشابه مع قصة عروس النيل في مصر.

«أبيوغ» من الوسائل الأولى التي عرفها الإنسان الطارقي، وما زال، لتبريد المياه يصنع من جلد الماعز، يترك الجلد حتى يجف ثم يعاد وضعه في الماء، وبعض حبوب وأوراق شجر «تيكور ماس»، وبعدها يخاط خياطة أولية باستعمال أوراق سعف النخيل، ويتم وضع الماء فيه مرة أخرى ممزوجًا مع تيبت «وهي مادة مستخرجة من قشرة جذوع بعض الأشجار»، ويتم بعد ذلك تفريغها من

هذه المادة مع حكها وإظهار الجهة التي ليس بها الشعر حتى تجف، ثم تدفن في تل من الرمل المبتل، ويفرك حتى يصبح أملس، ثم يدهن بالزيت، أو أي مادة دهنية مع ربط الأطراف وخياطة ما بين الأرجل باستعمال الجلد، ثم يملأ كل يوم لمدة طويلة، ثم يفرغ حتى يُتأكد من ذهاب رائحة الأعشاب، ثم يصبح جاهزًا لتخزين الماء فيه، وهي تنتشر في منطقة الحوض الشرقي وموريتانيا وإقليم أزواد كما رأيتها.

***

الحمى تمنع السفر

اليوم «جمعة» لي فيه بعض المواعيد. أجلت بعضها إلى ما بعد صلاة العصر كي أُجيب دعوة «جمال عمر» إلى الغداء في منزله كي أكمل ما بدأه لي من حديث حول الوضع في شمال مالي. أخذني من الفندق ومعه زوجته إلى سوق شعبي تجولتُ فيه معه وابتاعت أم يونس «ابنه الصغير» سمكًا للغداء. أدينا «الجمعة» في مسجد قريب من منزله. كان مكتظًّا بالمصلين، الصفوف الأولى مكتملة، هنا لا تخطيَ للرقاب، استمر الخطيب في خطبته الأولى لأكثر من نصف ساعة بشتات الكلام والأحاديث، مواضيع شتى غير مترابطة، وفي خطبته الثانية ظل يدعو ويؤمن الناس لأكثر من خمس عشرة دقيقة وبينها دعاء كثير للرئيس محمد عبد العزيز بأن يعيده الله سالمًا معافًى، لاحظتُ أن بساط المسجد أحمر قانٍ. وجدرانه لا زخارف فيها. والمصلون كل يضع حذاءه أمامه.. سألت جمال بعد الصلاة: لماذا؟ قال: خوفًا من السرقة، أتم الناس الصلاة بالتسبيح قبل الانصراف دون أن يصلي أغلبهم ركعتي سنة... في المنزل كان الغداء «مرو الحوت» وهو أرز بالسمك فيما يشبه «المقلوبة». وأنا أسجل بعد الغداء ملاحظات جمال بدأت أشعر بغثيان ورغبة في التقيؤ ودوار وبعض السخونة في جسدي. أحضرت زوجته الطيبة شراب «مجت»، قال جمال إنه يمتص السخونة، شربته رغم غرابته، وبسرعة أنهيتُ جلستي كي ألحق بمواعيدي، وفي السيارة التي استأجرتها لتقلني إلى موعدي في «تفرغ زينة» بدأت أشعر بحمى البرد.. أحسست برعشة في جسدي وبرودة. أنهيت مواعيدي وطلبت من أحمد بن جدو الذي صاحبني فيها أن يعيدني إلى الفندق سريعًا فقد بدأت أشعر بالمرض واحتقان الحلق الذي جعلني أعاني بلع الريق، كابرتُ المرض وتناولت بعض حبات المسكن وغفوت من الألم متمنيًا النهوض لإكمال اللقاءات.. لكني لم أستطع وبالكاد أجبت مهاتفة الدكتور خالد غريب لحضور عشاء لديه واعتذرت بالمرض، فأسرع بالحضور إليّ.. كانت الحمى قد أمسكت بي وتصبب العرق من جسدي كله، والأغطية رغم ثقلها لم تدفئني...

أحضر لي بعض الأدوية وانصرف، هاتفني المستشار محمد شيخ سيديا حسب موعد اتفاقنا أن نسهر معًا. لم أشأ أن أفوت فرصة لقاء أستفيد فيه معرفة أتلمسها، فالوقت غالٍ وقليل، فكابرت الألم. ارتديت ملابس ثقيلة، نزلت إليه، كان يقف بسيارته أمام الفندق، ومعه زوجته، مد شاب يده أمامها حينما كان هو يحادث آخر يقف بجواره. ظننت أن الشاب الذي مد يده يخطف شيئًا من السيارة ولكن عدم وجود رد فعل منها جعلني لا أهتم فربما كان الشاب من الخدم أو المعارف، لكنه استدار فجأة وركض والزوجة تصرخ، ركضتُ وراءه، رمى من يده هاتفًا محمولًا، أيقنت أنها سرقة، نزل محمد وراء الشاب، اكتفيت بالتقاط الهاتف من الأرض، متذكرًا مرضي وعدم معرفتي بالدروب، أعطيتها الهاتف، قالت: سرق آخر، وحثت زوجها على البحث عنه، صرخت فيه أن يركض وراءه، بدت امرأة قوية أدارت مفتاح السيارة وأسرعت بها بنفس الاتجاه، لكنهما لم يلحقا بالسارق الذي ركض معه زميله. اختفيا في حي «السبخة» أو «الميناء»، وهما من أحياء الفقراء التي تعج باللصوص ومدمني المخدرات والفقراء من الزنوج والحراطين، هكذا قيل لي..

أسفتُ أن يحدث له ذلك بسبب حضوره إليّ فاعتذرت. لم تكن سهرتنا - التي انتهت سريعًا - كما أملتُ، فالحادث أرهق النفوس، في طريق عودتي إلى الفندق توقف محمد بنا عند «كمين» حاجز شرطة كان قد جمع عددًا من الصبية والشباب صغيري السن من السود المتسكعين واللصوص كما قال الجندي الحارس لهم بجوار سيارة الشرطة - تفحصهم محمد فلربما عثر على السارق، تفحص هواتفهم ولكنه لم يجد هاتفه معهم، كانوا جميعًا يشبه بعضهم بعضًا.

بتُّ ليلة شديدة العناء من الأسى والألم واحتقان الحلق وعدم القدرة حتى على بلع الماء. في الصباح لم أستطع تناول شربة لبن إلا بالكاد اضطررت إليها حتى أبتلع حبوب الدواء.. لم أستطع ارتداء ملابسي فارتميت على السرير، تلفحتُ بالأغطية وغبت في نوم المرض. لم أكن قادرًا على الرد على مهاتفات كثيرة على هاتفي المحمول ومنها مهاتفة الدكتور خالد غريب الذي قلق عليّ فأرسل

لي «عم عمر جدو» الموظف بالمركز الثقافي المصري ليخبرني أن الدكتور قلق عليّ، أخبرته أني سأتصل به ولكني لم أستطع، وواصلت النوم. في المساء حضر إليّ بعد أن ازداد قلقه هو والقنصل لعدم ردي على مهاتفاتهما. خشيا أن أكون قد أصبت بحمى الملاريا.. الدواء لم يجدِ نفعًا، كان جسدي ينتفض من الحُمَّى مع ارتفاع درجة الحرارة وتصبب العرق مني بغزارة. لم أعهد ذلك قط في إصاباتي بنزلات البرد. يا لهذا الحظ التعس!.. هل أنجو من الملاريا؟ وإذا نجوت فبعد كم من الأيام؟ وهل سأستطيع إنجاز رحلتي؟! أخشى أن تسوء الحال وهي على ما يبدو قد ساءت. إذن سأعود من حيث أتيت خاسرًا هذه الرحلة. ولكن كيف وقد تهيأت سبل الرحيل؟ آه لو كانت المسافة قريبة.. ولكنها تزيد على ألفي كيلو متر.

وقد كنت لم أزل أعاني بعض الألم وكثيرًا من العراقيل مما جعلني أعاود التفكير في إلغاء السفر.. فعلًا.

فكرت: هل يمكنني اختصار معاناتي في هذا السفر إلى الحدود الدنيا القابلة للاحتمال فأفوز ببعض الموضوعات النمطية وبعض التغطيات وأكتفي؟ فمن نواكشوط يمكنني التقاط كثير من المعلومات عن الحال في مالي من الزملاء الصحفيين، خصوصًا أن عددًا منهم على اتصال دائم بكل أطراف النزاع وجماعات تنظيم القاعدة فضلًا عن عدد من قيادات «مانيلا» بدلًا من السفر المُهلك والشك القاتل، وليس أمامي إن أردت إكمال الطريق سوى هذا السفر الطويل في أرض تشع منها رائحة الدم والموت. فأكثرت الدعاء بالشفاء حتى منّ الله به عليّ فاستعددت بالابتسام لما قد ألاقي، واستعنت بالله وأنا أردد آيات الموت: (وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ كِتَابًا مُؤَجَّلًا)[36].

اطمأننتُ، وتجهزتُ بشجاعة خبأتُها في القلب وبردودٍ حفظتها في خانات الذاكرة المخفية لأسئلة الاتهام والتوجس من أي غريب وهي دائمة في بلداننا الإفريقية، ولاقيت ذلك في ليبيا أثناء مرافقتي للثوار من «طبرق» حتى «رأس لانوف»... ريبة وشك... وأحيانًا اتهام بأني رجل أمن كما قال لي يومًا أكريميسا

الصاوي وهو يحدق في عيني بجرأة صاحب الأرض تحت إحدى شجرات الجداري حين توقف «ركب شيوخ المجاهدين» للغداء، أنقذني من توجسه وقتها عثمان إدريس أكريم عمدة القطعان في المنطقة الشرقية بليبيا بتأكيده معرفته الوثيقة بي وبعملي الصحفي، وكذلك الحاج طاهر الحرفة الذي اعتاد أن يستضيفنا في استراحة «نور الهدى» حيث نتناول فناجين من البن الممتاز - مما أزال عني الشبهة في ليبيا.

عندما علم المستشار محمد شيخ سيديا بمرضي حضر إليّ مسرعًا. اصطحبني إلى المستشفى المركزي فَبِه طبيب من أقاربه كشف عليّ. بوادر حمى ملاريا.. قال الطبيب: يا للمصيبة! لكنه طمأنني بتوافر العلاج، أنا لا أفكر في العلاج ولكن الوقت.. قبل أن ينهي الفحص لاحظ الطبيب احتقان اللوزتين، بدّل العلاج الذي سجله في «الروشتة» فليست ملاريا ولكنها حمى البرد، حمدت الله، حصلنا على الدواء الذي أصر محمد ألا أدفع ثمنه في الصيدلية المقابلة للمستشفى المضمون دواؤه وجودته، فالدواء المغشوش كثير، أعادني للفندق، ظل ليومين يعاودني صباحًا ومساءً، كان نعم الأخ، وكان اهتمامه واهتمام السفير، والدكتور خالد غريب، والقنصل الشاب السيد حاتم، هو العلاج الأنجع لمرضي الذي قضيت فيه أيامًا طريح الفراش غير قادر على الحركة.. برد شديد أنتفض منه وعرق غزير وانغلاق الحلق جعلني غير قادر حتى على الحديث، ونوم متواصل وكوابيس مفزعة، عادني «محمد ولد أحظانا» بعد أن أخبره شيخ سيديا. عاتبني وأبلغني غضب وعتاب زوجته لأنني لم أبلغهما.. عرض عليّ نقلي إلى منزله وشكرته، كانت أيام مرضي صعبة عليّ، بلغتُ فيها مبلغًا كبيرًا من الضعف.

كان الطبيب قد أوصى بتناول اللحم والمرق، حاول المستشار محمد شيخ سيديا نقلي إلى منزله أيضًا وشكرته. أوصاني بحنو بالغ بضرورة الأكل. حقيقة لم أعد أستطيع تناول «الطبخ» الموريتاني. طلبت من موظف الفندق شراء لحم لي على أن أطهوه بنفسي على طريقة أمي، كان ثمن الكيلو من لحم الضأن

1200 أوقية. أكثر من عشرين جنيهًا قليلًا «4 دولارات». تحاملت على جسدي، هبطتُ إلى مطبخ الفندق، الأواني غير مشجعة لكنني اجتهدتُ في غسلها، تعاون معي عمال الفندق، سلقت اللحم وبعض البطاطس والبصل وأكلت بشهية الجوع ورغبة الشفاء، فعلت ذلك مرارًا كي أتعجل الشفاء لإتمام الرحلة وكنت أفزع من مجرد التفكير في عدم إتمامها. تعافيت شيئًا قليلًا بعد أيام، وحجزت مقعدًا للسفر إلى «النعمة» في سيارة «المسافر» الميكروباص.

وصَادفني ذلك أيضًا في السودان عندما لاحقني رجال الأمن فيه مشدوهين من حركتي الواسعة بين الدمازين وسنار والفاشر وجنينة في دارفور. أصر أحدهم - بعد أن عرفتني عليه صحفية مصرية تزوجت سودانيًا - أن يقلني بسيارته إلى مكان مبيتي. ليعرفه، لا شك أنه فتش حقائبي وسأل الساحر «مضوي قدس» عما طلبت منه.

وفي الصومال عندما تتبعني رجال الأمن في «بونت لاند» قبل اعتقالي ومرة أخرى في هرجيسا وبربرا - صومالي لاند - عندما قدمت لي مؤسسة الرئاسة فيها مرافقًا وسيارة وسائقًا وكنت أوقن أنه مراقب لا مرافق.. وفي اليمن حين تتبعني رجال الأمن في عدن وحضرموت وصنعاء، وانتهى الأمر بتوقيفي في ميناء المكلا ومنعي من السفر، وإن كان اليمنيون الأطيب والأرق معاملة.. أما هنا في موريتانيا فقد كان الأمر غير ذلك.. لأنهم مثل اليمنيين طيبون جدًّا ودفعتهم هذه الطيبة إلى إحاطتي من جميع من صادفتهم بالتحذيرات من الشك والريبة واحتمالات القتل. لم أخف من كل ذلك، خفت فقط من الملاريا وحمى البرد ولسع حشرات الصحراء، مازلت متعبًا ونزلة البرد ألمت بي منذ ما قبل السفر، وضَجِرًا من كثرة ما أبتلع من حبات دواء لعلاجها، الساعات تتسارع والسفر غدًا.

* * *

طريق الأمل

استيقظت فجرًا استعدادًا للسفر، كان الجو مظلمًا تمامًا.. لا آمَنُ مطلقًا على نفسي في تلك العواصم البعيدة، خصوصًا في مثل هذه الساعات المبكرة، وبي بقايا مرض وبعض الوهن وما زال الظلام حالكًا في شوارع نواكشوط، بدا لي سائق السيارة الأسود الذي استوقفه لي موظف الفندق مريبًا في حركاته ودورانه في الشوارع التي لا أعرفها، استسلمت للصمت لأني لا أعرف الطريق فأدرك كيف تمضي السيارة، وإلى أين؟ تصورت أن يختطفني السائق أو يستولي مني بتهديد السلاح على ما معي، فحادثة سرقة المستشار محمد شيخ سيديا وزوجته ما زالت مشاهدها تتراءى أمام عينيّ، الموعد الذي حدده موظف شركة المسافر لانطلاق سيارتها السادسة صباحًا، قبلها بعشر دقائق وجدت نفسي أمام «الجراج»، شكرت السائق، منحته أكثر مما طلب، وكأنني أحمد له أنْ نجوت من حادثة كانت حتمية، نظرتُ لمكتب الشركة والجراج.. كل الأبواب مغلقة.. وبعض المسافرين نائمون أمام الأبواب، وبعضهم يجلس، سألت عن سيارة النعمة.. خشيت أن تكون قد انطلقت بدوني.. اطمأننت عندما أخبرني أحدهم أنها لا تزال في الجراج بالداخل.

لا يحترم الموريتانيون المواعيد في السفر، هكذا قال لي أحد المسافرين ضجِرًا من التأخر، وظل يسأل عن موعد السفر حتى عرف أن انطلاق السيارة سيكون بعد نصف ساعة، ولكن المكتب مغلق ولا يوجد أحد، فقط السيارة وبعض أفراد قلائل كلهم نائمون على حصير فُرِشَ في مخزن المحطة. مضت الدقائق بطيئة رتيبة إلى أن بدأ توافد باقي الركاب وبدءوا يؤدون صلواتهم، وكأي محطة ركاب في العالم، انتشر الباعة الجائلون يحملون بضائعهم المتواضعة وأغلبها مسابح وسجاجيد للصلاة وكتيبات قرآنية وأحاديث صغيرة يحملها بائعون بسطاء أطلقوا لحاهم.. لفت انتباهي بائع «كروت الشحن» لخطوط الهواتف المحمولة، شاب أسمر طويل قوي البنية طليق اللحية قصير الثوب يعلن عن بضاعته من خلال ميكروفون صغير علقه على كتفه «اليُمنى» معلنًا المتوافر

لديه من الكروت وفئاتها ولكن بعد البدء باسم الله والحمد لله والصلاة على الرسول الكريم وذكر آية قرآنية مسجلة في أسطوانة تعاد تلقائيًا، وهو يمر بين الركاب القلائل.. جلست أتابع حركة المحطة وروادها حتى اكتمل العدد وأوثق السائق متاعهم وحقائبهم فوق السيارة، وبدأنا الاستعداد للمسير ثم انطلقنا على «طريق الأمل» وهو الاسم الذي يطلق على المسافة بين «نواكشوط» و«النعمة»... اسم باعث على التفاؤل والأمل، كان في البداية سلسًا مُعبدًا[37].. بوادي الصحراء الموريتانية في الخريف منظرها بديع، ناس هذه البلاد طيبون، عرب خُلَّص، إسلام الكثير منهم على شكله في القرون الأولى، كما بدأ الدين، رجال الأمن على طول الطريق شاهرو أسلحتهم ومعها ابتساماتهم الودود.

تجمعات العمران كثيرة وهي عبارة عن خيام من أقمشة أو صاج، البناء فيها قليل تتشابه مع مدن وتجمعات بونت لاند في الصومال، لم أصادف بناءات طينية أو حجرية إلا عند مدينة «الآلاك» وهي أقرب الشبه بمدينة «البويطي»[38] الصغيرة.. عاصمة الواحات البحرية في مصر.. أدهشني احترام السائقين لرجال الشرطة وإشارات وتعليمات السير.

ما بين كل 10 - 20 كم نقطة أمن بجنود يفتشون العابرين بسياراتهم، يتأكدون من هوياتهم، وعلى السائق قبل أن يتوقف أمامها أن يلتزم السير بجانب الأسفلت في الممر الترابي عندما يشاهد لوحة الإشارة إلى «الدرك الوطني».

بدا لي ذلك ضياعًا للوقت في التوقف والتفتيش، هل الطريق دائمًا هكذا؟ سألت، فأجابني السائق: لم يكن بهذا التشدد إلى أن قام تنظيم القاعدة بعدة عمليات في موريتانيا. ما بين عامي 2009 و 2011 هاجم التنظيم مواقع عسكرية موريتانية مثل «المغيطي» التي قتل فيها 17 جنديًا موريتانيًا واستولى «الإرهابيون» على معدات عسكرية وسيارات، وكذلك في موقع «الغلاوية»، وقُتل فيها ثلاثة جنود، فضلًا عن عمليات في قلب نواكشوط، مضى النهار في سماع حكايات الإرهاب وأحاديث الركاب.

في «مقطع لحجار» بعد 350 كم من نواكشوط توقفت السيارة للراحة وتناول الغداء. مطعم في العراء، الذبائح معلقة معرضة للتراب والذباب الكثيف جدًّا.. وبجوارها برميل صاج مليء بالفحم المشتعل لشواء اللحم، يشير الزبون إلى الجزء الذي يريده من الذبيحة ويتفق على السعر فيقطعه الجزار ثم يلقيه فوق الفحم، كانت اللهجة التي يتحدث بها الجزار مع الزبائن أكثر صعوبة مما اعتدت عليها في نواكشوط، يبدو أنني كلما ابتعدت في مسافتي عن العاصمة وجدت صعوبة في فهم اللهجة الحسانية ولكنني جائع، طلبت منه قطعة، لم يفهم لهجتي.. اقترب مني شاب - مهندس زراعي اسمه الإمام سيدي محمد - من رفاق الرحلة ساعدني بأن اتفق معي على أن يقتطع لنا معًا قطعة واحدة ونقتسم ثمنها، دفعت 2300 أوقية «8 دولارات تقريبًا».

تناولت معه الغداء، كان نعم الرفيق طول الرحلة.. عندما عاودنا المسير اضطر السائق للانحراف عن الطريق بسبب بعض الإشغالات الهندسية عليه. ليدور من شوارع البلدة، أمام أحد المنازل جلست عجوز سوداء تقضي حاجتها كاشفة عورتها.. لاحظ الراكب بجواري الاندهاش على وجهي، فعاجلني وهو يشير إليها: «الحرائر لا يفعلن ذلك» سألته: أليست حرة؟ قال: عبدة.. أمة..!! تذكرت حديث آمنة بنت المختار التي تترأس «رابطة النساء المعيلات» عندما حدثتني عن الإماء في المجتمع الموريتاني وأنهن مادة لتسري أي ذكر من الأسياد بهن في شبابهن، وعندما تشيخ أي أمة لا يهتم بها أحد، وغالبًا ما يتخلصون منها فتهيم على وجهها، لا تعرف أين تذهب؟ ولا من أين تأكل؟ وتعيش في العراء، أو في عريشة تقيمها من الحشائش وجذوع الأشجار[39].

قيل لي: إن الرق في موريتانيا حقيقي حيث إن 20 % من تعداد السكان فيها أرقاء.. ورغم ذلك فهناك صمت رهيب يلف هذه القضية لولا عدد من الجمعيات التي تعمل في مكافحة الرق مثل «نجدة العبيد» و«ايرا الانعتاقية»، وقد حاولت هذه الجمعيات مناقشة موضوع الرق لإيجاد حل له ولكن الدولة ترفض حتى القضايا التي أثرنها، وحوكمت فيها بعض السيدات اللواتي يضبطن بالاستعباد

المرهق، لا تسميها الدولة عبودية، ولكنها تقيد كتهمة تشغيل قاصرات، بل إن المجتمع الموريتاني في أغلبه - خصوصًا البيضان «العرب الحاكمين» - يتعامون عمدًا عن هذه الإشكالية، فعندما وصلت إليهم في الجمعية مشكلة أمة تدعى «حابي بنت أمها» عام 2010 أنجبت ولدين لونهما أبيض أحدهما معاق، وسيدها شاب ليس متزوجًا والولدان يشبهانه، طلبت الجمعية من السلطات الإدارية تحقيق هذه القضية في «السكيعة» القريبة من «المزرذرة» بولاية «الترارزة»، واشتركت نائبة البرلمان «فرفورة» وأبو بكر مسعود رئيس جمعية «نجدة العبيد» تضامنًا معها ومعهما المحامي أمين ولد عبد الله، وذهبوا إلى القرية للاطلاع على الحالة ومعاينتها.. لم يرفض الحاكم ولا الدرك «الشرطة» معاونتهم وإطلاعهم على شيء وتمكينهم من التحقيق فقط، بل إن أهل القرية أنكروا وجود حالة رق وأكدوا ما نفاه الحاكم «تروري» وضابط الدرك «صار» من وجود هذه الحالة، وعلمت آمنة بنت المختار وقتها أن الحاكم «الحرطاني»، المنحدر من سلالة العبيد قد رُشيَ بعنزتين بأولادهما فواجهته بذلك مبينة أن الأولى به أن يساعد العبيد للتحرر لأنه منهم، فاستدرك وأمر الدركي «الشرطي» أن يوصلهم إلى القرية، وعندما وصلوا ومعهم بيرام ولد إعبيدي إلى بئر الماء سألوا من يستسقون: أين عبدة «السكيعات»؟ فأجابوهم بتلقائية: ما جاءت اليوم، وعندما بحثوا عنها وجدوها ترقد مع ابنها المعاق بجوار البهائم داخل زريبتهم في طقس حرارته 44 درجة مئوية ولا ترتدي سوى ما بين الركبة والسرة، العجيب أن الأَمَة «حابي» نفسها رفضت الاعتراف خوفًا من الدركي الذي عندما حصل على العنزتين رشوة هددها بالسلاح والسجن إذا نطقت أمام أحد بأنها أمة وأنه سيسجنها أو يقتلها.. وارتبكت وارتعدت من الخوف..

كان مشهد الأمة العجوز وهي تقضي حاجتها لا يستر جسدها المنهك المهلك سوى قطعة قماش تلفها حول خاصرتها باعثًا على غضب النفس والتساؤل: هل بالفعل أن الرق باقٍ في موريتانيا إلى الآن؟ وهل يوجد في الإسلام مسوغ لترسيخه أو بمعنى أدق أن فقهاء هذا البلد يفسرون الإسلام على أنه يشرع للعبودية بمعنى تأويله لخدمة أهدافهم الشخصية ومصالح طبقتهم

الاجتماعية، والسائد في الفقه عبارة «العبد بالعبد» تتمسك بها المخيلة الاجتماعية الكلاسيكية كإطار شرعي لاستمرار الرق، واستمرار استرقاق البيضان العرب - الحاكمين - للسود تأكيدًا على دلالة مطلقة وهي أنه لا يوجد عبيد إلا من السود، واتخذوا بذلك تبريرًا آيات ذكر العبيد في القرآن، وما يؤكد السلوك الاجتماعي السائد في موريتانيا، وأن جنة العبد تحت أقدام سيده «العربي»، وأنه لا يمكن له الصوم أو الزواج وحتى الذهاب إلى الصلاة إلا بإذن سيده، يعتمدون في ذلك على «مختصر خليل» ابن إسحاق[40] - المصري - الذي اختصر موطأ سيدنا الإمام مالك، يقول في صفحة 36 منه: «إن شرط صلاة الجمعة المكلفة الحرة والذكر الحر بلا عُذر»، فهل كان خصه للأحرار بالصلاة لتبرير العبودية وتكريسها؟! وعندما تحدث عن ستر عورة المرأة في صفحة 41 قال: «إن عورة الأمة في الإسلام ما بين السرة والركبة»، وفي باب النكاح «الزواج» نُدب للمستعد لنكاح البكر الحرة النظر إلى وجهها وكفيها فقط وأحل له النظر إلى كل جسد المرأة - الأَمَة - حتى الفرج.

ربما لذلك قام بيرام ولد إعبيد «الحرطاني العبد السابق» بإحراق مختصر خليل قبل شهور من حضوري موريتانيا، لأن آراءه تفيد بإضفاء الشرعية على العبودية، ويتساءل «الحراطون»: هل جاء الإسلام لاستعباد الناس، من خلال الجهاد في سبيل الله؟ فالجهاد المسلح بالسيف في هذه القارة كان مصدرًا لاسترقاق الأفارقة السود على يد الفاتحين أو الغزاة العرب المسلمين كما سمعت من السكان الأصليين على اختلاف ثقافاتهم. وذلك أمر يحتاج إلى نقاش وحل لما له من آثار سلبية خلال العقدين القادمين.

في الطريق بدت الأرض مخضرة بعشب كثيف على طول المدى. بقع أو برك ماء كثيرة، التربة جيدة للزراعة ولكنها مخضرة فقط بالعشب مما يدل على عدم الاستفادة منها في الزراعة.

والأبنية بالطوب اللبِن قليلة جدًّا وتبدو قديمة أما أحدث البيوت - وهي الأكثر - فقد استعمل فيه «الصاج»، عجبتُ لأهل هذه البلاد التي تموج بطقس الصحراء

الحار كيف يهجرون البناء بالطوب اللبِن الذي هو أنسب لطقسهم؟

في غمرة ذلك استعدت بهجة كادت تتلاشى من طول الطريق ومعاناتي عليها وهي لأسماء المحلات والمطاعم ومحلات الهواتف الكثيرة التي تبدو مبهجة في ظل هذا الفقر الشديد: النجاح، الخير، الرحمة، البركة.. ولفت انتباهي لافتة تحمل اسم «حزب الله» على أحد محلات البقالة.. قطعان البقر الأصفر كثيرة جدًّا ومثلها قطعان الماعز الأبيض التي ندر أن نظرت إلى الطريق طوال الرحلة ولم أجدها يمينًا ويسارًا أو يعبر بعضها الطريق. ودائمًا كان السائق يخفف سرعته إلى الحد الأدنى حتى لا يزعجها، فالموريتان يحترمون البقر والماعز - أو بالأحرى ثروتهم الحيوانية وأرضهم العشبية - كثيرًا ويحافظون عليها.. والقطعان تفهم حركة السيارات فتبتعد عن الطريق الأسفلتي إلا مرة واحدة كانت بعض البقرات تعبره. تباطأت إحداها. ضرب لها السائق «زمور» السيارة، بدت تفهم، نظرت إليه ثم أسرعت تعبر الأسفلت. وكأنك أسمعت إنسيًّا.

عند نقطة التفتيش في مدينة «كيفا» على بعد 600 كم، توقف السائق للتفتيش، أطل رجل الدرك العجوز من نافذة السيارة، آمرًا الركاب بإبراز هوياتهم. ناولته جواز سفري، أخذه الدركي دون اكتراث. نظر في هويات الركاب وأعادها إليهم باستثناء جوازي. ثم عاد إلى مكتبه البسيط على جانب الطريق، حاولت أن أناديه. فطمأنني السائق أنه سيعود بالجواز بعد أن يسجل بياناته في دفتره.. أخرجت خطاب وزير الإعلام من الحقيبة، لكن الشرطي أعاد لي الجواز دون أن يطلب الخطاب أو ينبس بكلمة.. فمضت بنا السيارة إلى أن حل الظلام علينا لتبدأ مرحلة الزهق، ففي النهار الحياة أفضل، يمكنني القراءة في مصحفي الصغير أو في «أوراق مسافر» أو «تاريخ الإمارات في موريتانيا» الذي أعطانيه الودود الدكتور محمد البرناوي أو أستمتع بمشاهد الحياة على جانبي الطريق، أما في الليل فليس لي سوى الظلام وثرثرة الركاب طوال الطريق. وأصوات غناء من «كاسيت» السيارة لا أفهم منها شيئًا.

* * *

عذاب الوصول إلى النعمة

«رقدنا في العوينات».. هكذا قالت امرأة لمحدثها في الهاتف وهي تتمدد مع بعض النساء بجوار المسافرين على حصير فُرش أمام مكتب «المسافر» على حافة «طريق الأمل»، بعد أن أفرغنا فيها سائق الميكروباص في الثالثة والنصف فجرًا، الإجهاد والتعب تملكا مني وقتلني النعاس، لم يترك لي مجالًا للإحساس بالبرد القارس ولا لقذارة المكان، حاولتُ أن أبتعد بجسدي عن كتل اللحم المتناثرة التي لا يعمل فيها سوى أفواه تثرثر بصوت مرتفع في أحاديث متداخلة مع صراخ الأطفال وبكائهم وضحكاتهم.

حاولتُ فعل أي شيء آخر غير النوم اتقاء للصداع والضجيج فتذرعت بالجوع الشديد لشراء علبة من التونة المغربية ورغيف خبز من محل مقابل لكني لم أستطع إكمالها لغلبة النعاس على عيني، فعدتُ إلى طرف الحصيرة.. تقريبًا كان جسدي كله على التراب.

لم يمنعني ذلك الضجيج من النوم، الإرهاق والتعب «سحباني» من هذا السيرك «المنصوب».. غُصت في سُبات عميق، ليوقظني السائق بعد ساعة أو يزيد لمواصلة الرحلة إلى «النعمة»، قبلها بنحو 100 كم توقف بالسيارة ليغادرنا بعض الركاب منهم جاري في المقعد لأنفرد وحدي بمقعدين بجوار السائق وفَّرا لي راحة ساعدتني في العودة إلى نوم لم يقلقني سوى ثقل الرأس على الكتفين مما أجبرني على الاستيقاظ ألمًا، بمجرد أن نبهني السائق إلى وصولنا إلى النعمة الثامنة صباحًا، نزلت من السيارة مترنحًا من التعب، ألقيتُ حقيبتي على حصيرة وألقيتُ جسدي بجوارها، كنت أحتاج إلى الحمام وبعض الماء النظيف لغسل وجهي ويديّ.. ولكن لا يوجد، اتصلت بـ«شياخ» الذي لم يستغرق حضوره سوى خمس دقائق أخذني إلى منزله. هذه أول مرة ألتقيه ولكن ترحابه وما حملته كلماته من ود جعلاني أشعر بأنه صديق أعرفه من سنوات وهكذا هم الموريتان، واستشعرت عنده دفء الأسرة وسط أولاده الذين راحوا يحيونني

ويلاعبونني مما أزال عني بعض الإجهاد والتعب.. أحضر لي طبقًا من التمر ومعه طبقٌ صغير من القشدة، سألته: القشدة بلدي؟ فقال: لا، مستوردة، تعجبت فكل ما يستهلكه الموريتانيون من ألبان وأجبان وزبد مستورد رغم امتلاكهم ملايين الرءوس من الماشية، وضع أمامي طبقًا أكبر به كثير من قطع اللحم الكبيرة، وبعد أن أكلنا أخبرني وكأنه يعتذر عن قلة الطعام!!: «الغداء بعد ثلاث ساعات رغم كثرته.. يا للهول!!» منعني الإرهاق من إبداء اعتراض أو تعجب. سألته عن المسافة المتبقية فأخبرني بسوء حالتها ووعورتها، والأيام الطويلة التي سأقضيها عليها، وكأنه يهوّن عليّ طولها، قال: قطعت فقط نصف المسافة، فالمرحلة التالية من النعمة إلى باسكنو وإن كانت لا تزيد على 300 كم لكن السيارة ستقطعها من الرابعة عصرًا حتى الصباح التالي. يا ألله، سلمني ونجني.. فهذه رحلة صعبة، لماذا كل هذا الشقاء؟!

حاولت ألا أفكر كثيرًا لاحتياجي إلى الراحة، أضاف: من باسكنو إلى تمبكتو ضعفها، «ياااه» أستكون الرحلة في مراحلها القادمة بهذه الصعوبة؟! وقد تخيلتُ أن الجزء الصعب السيئ منها قد مضى! لكني صُدمتُ بأن ذلك وهم كبير، بدأت أنتبه لما سألاقيه من مشقة وأحزان، وشعَّ الأمل عندما أخبرني شياخ أنه بإمكاني العودة من باماكو «عاصمة مالي» إلى القاهرة بالطائرة بعد أن أقطع المسافة إليها من «تمبكتو» أو «جاوا».. سألته: كيف وهناك حرب؟! قال: الطريق لم ينقطع تمامًا، عليه حركة دائمة، ومع الحذر يمكنك المرور خصوصًا ومعك تأشيرة رسمية لدخول الأراضي المالية. داعب الحلم بالراحة في السفر جسدي المنهك، فهاتفت صديقي جمال عمر لأسأله الرأي وحال حقيبتي التي تركتها لدى الدكتور خالد غريب وبها ملابسي وأوراق سجلت فيها عدة موضوعات صحفية والكتب التي جمعتها كمصادر لرسالة الدكتوراه، والمخطوطة التي ستبنى عليها الأطروحة. فأخبرني جمال بإمكانية شحنها إلى القاهرة، بمساعدة الدكتور خالد غريب، فهاتفته وسألته عن إمكانية مساعدته، فهون عليّ واستمهلني حتى وصولي إلى تمبكتو، وقال: هناك يمكن تحديد ما ستفعل. فإن عدتُ عن طريق باماكو فسيرسل لي الحقيبة إلى القاهرة، ارتاحت

نفسي وشكرت محمد محمود شياخ على هذه الفكرة وشعرت باحتياجي للنوم.

تركني شياخ وذهب إلى موعد له، وأخذتُ أفكر في عرب موريتانيا فهم يختلفون - رغم كونهم بدوًا - عن غيرهم في باقي البلدان العربية. فالبدو أميون وسمتهم الجهل عادة في كل الصحراوات، أما الموريتان فهم الاستثناء الوحيد، والشاهد هو هذا الكم الهائل من المخطوطات والأعداد الكبيرة من العلماء والشعراء والأدباء.. حقًّا هي «البادية العالِمة».

وهم النموذج الوحيد من البدو الذي تراه يمتلك ميزة الانفتاح والتبجيل الشديد للمرأة والثقة فيها، ففي بيوت وخيام البدو في الشرق لا تظهر المرأة أمام الضيوف ولا تقوم بخدمتهم، ولكن هنا رأيت المرأة تشارك في استقبال الضيوف وتناقشهم، وأحيانًا تقوم بخدمتهم وإن كان ذلك قليلًا خصوصًا في المنازل التي لا يوجد فيها خدم أو عبيد!!

منعني الحر الشديد وتوقف دوران «مروحة الهواء» لانقطاع تيار الكهرباء عن النوم فضلًا عن وجود الأطفال الذي ساعد في مرور الوقت سريعًا معبأ ببهجة الفرح بهم.. عاد شياخ بعد ساعتين، تناولنا الغداء مرة أخرى.

قال لي وهو ينزلق بسيارته في أحد شوارع «النعمة» باتجاه محطة السفر وهو يشير إلى بعض المحلات: أغلب هؤلاء التجار هنا من التكفيريين.. لم أرد خشية أن يكون من المتعاطفين معهم فيوشي بي، حرصتُ دائمًا في كل أسفاري إلى البقاع المجهولة ألا أستسلم لانفعالات الرأي، وتعلمتُ أيضًا ألا أدَّعي تعاطفًا أو اختلافًا مع من أفد عليهم حتى أتبين حقائق المكان وسكانه، وأسجل ذلك في كراستي التي أدون فيها لقاءاتي، أو ملاحظاتي.. صمتُّ عن مجاراته في الكلام خشية التأثر به وأنا في أول الرحلة.

وصلت بنا السيارة إلى ساحة كبيرة نُصبت أمام مكتب السفريات الذي هو عبارة عن «دكان» متواضع بسيط، وأمامه خيمة أكثر تواضعًا جلس تحتها بعض الشباب ذوي البشرة السوداء والملامح شبه الزنجية وامرأة شابة لم تتعد

السابعة عشرة من العمر، تفرك الدقيق لصنع الكسكسي في «طست» كبير، وأمامها طفلتها يداعبها شيخ مسن..

غبار الساحة الذي تخلِّفه حركة السيارات والمواشي، وهرج الأطفال والصبية مع شمس العصر الحارقة أرهقني، كنت أخشى الجلوس على الحصيرة «غير النظيفة» التي يجلسون عليها تحت الخيمة، أحاول قدر استطاعتي الحفاظ على نظافتي، لاحظ ذلك صاحب مكتب السفريات فدعاني إلى اللجوء إلى الدكان اتقاء للغبار وأشعة الشمس، عندما دخلت لم يكن المحل أكثر نظافة من الحصيرة، لكنه كان أكثر سخونة بفعل الطقس وانبعاث حرارة موقدي غاز كانا تحت «طنجر» طبخ وإبريق لشاي «الأتاي» مما زاد من ضيقي.. ففضلتُ الهواء خارج المكتب حتى ولو بغبار الأرض.. جلستُ تلاحقني عيون الشباب السود، ابتسمتُ ابتسامة الغريب الباردة التي سرعان ما تحولت إلى ابتسامة إنسانية حقيقية حينما تقدمت إليَّ طفلة «سيدة الكسكسي» لتضربني ضربة طفولية بكفها الرقيق على كتفي مداعبة ثم تضحك وتتراجع عني لتختبئ خلف أمها، وهي فرحة بانتصارها الطفولي، عاودت مشاكستها لي فأمسكتُها. حاولتْ أن تنسل من بين يديَّ ضاحكة فأخرجتُ ورقة نقدية وأشرت لها فجرت إليَّ.. أمسكتُها وهي تحاول التقاط الورقة عن بعد، قبّلتُها ومنحتُها بعض قلبي.. فقد ذكرتني بـ«ورد» ومنحتها النقد، فرجعت إلى أمها تفردها بين يديها وتضحك، ابتسمت الأم سألتني: من أين؟ قلت: مصر.. هزت المرأة رأسها وكأنها لا تفهم ما قلتُ، لاطفني الشباب السود.. مددتُ يدي بكاميرتي إلى أحدهم ليلتقط لي عدة صور في الساحة، ومع الطفلة الصغيرة.

ظللتُ طول انتظاري لقيام الرحلة في حوار ودود بالعيون وابتسامات الشفاه وحركات الرأس واليدين، هم لا يعرفون لهجتي وأنا كذلك وإن شعرتُ بينهم باطمئنان ساعدني على تحمُّل الغبار والحرارة..

إلى أن أعلن السائق الاستعداد للسفر بعد أن اكتمل «رفع البشر» المسافرين ومنهم أطفال إلى صندوق السيارة، أصرّ الرجل الخمسيني - والذي حشرني

السائق بينهما - على الجلوس بجوار النافذة، وهو ما كنت أتوق إليه وأتمناه هربًا من تلاصق الأجساد في كابينة السيارة الضيقة، خصوصًا مع وعورة الطرق وطول ساعات السفر، وبدا لي أن هذا هو نفس السبب الذي لأجله علا صراخ إحدى السيدات، وبرغم صعوبة رطنتها فإنني فهمت أنها تعترض على الركوب في صندوق السيارة ليس لوجود عدد من الشباب السود، ولكن لأنها دفعت ضعف الأجرة للركوب داخل السيارة حتى تكون في راحة طوال الطريق الصعب، ولكنها في النهاية رضخت لتترك المكان لسيدات أخريات معهن أطفال أكثر، وكأن السيارة تحولت إلى «أتوبيس نقل عام» لم أكن مرتاحًا لكل ذلك ولكن ما حيلتي؟ للمكان قوانينه التي يسنها واقعه.. خفف السائق «حسين» من وقع استباحة هذه القوانين لنفسي المضطربة بما تجمل به من أخلاق حسنة ورصانة في قيادة سيارته التي انطلقت وسط الصحراء المعشوشبة، وغابات شجر النبق، وأشجار مورقة تعافها المواشي والأغنام ويستخدمها الناس في تسقيف المنازل لجودتها وعدم قدرة السوس والنمل على النخر فيها. بدا الطريق المنحدر ملتويًا كما الثعبان على أرض مستوية إلى حد ما طمأن نفسي بأن الطريق سيكون جيدًا وأفضل مما سبق، ولكن بعد قليل بدأت الأرض في إظهار وعورتها، فمضينا نتخبط بعضنا البعض في البعض داخل السيارة لساعات طوال حتى صادفتنا بركة كبيرة من المياه أمالت السيارة عندما خاضتها على جانبها الأيمن. فتعالى صراخ الأطفال، وانطلقت أصوات السيدات الثلاث اللاتي تكومن مع أطفالهن في المقعد الخلفي في الدعاء.. يا سيدنا محمد.. يا مولاي والنبي.. وأنا أردد يا ألله.. يا ألله.. «بسم الله مجراها ومرساها»، ظللنا لأكثر من نصف ساعة في الابتهال والدعاء وفزع النساء وصراخ الأطفال والسائق يحاول الخروج من هذا المستنقع، والعجلات تدور بأقصى سرعة دون جدوى، كان ينزل ليرفع غطاء الموتور وينظر فيه ثم ينحني إلى العجل واضعًا بعض الأحجار تحتها لتمكينها من ضبط احتكاكها بالأرض بدلًا من انسيابها بسبب الوحل الذي غرقت قدماه فيه.. وهو يحاول إنقاذنا إلى أن توقفت سيارة أخرى بالقرب منا، ليساعده سائقها العجوز وركابه بعد

محاولات مضنية، إلى أن خرجنا من هذه المخاضة، لتمضي بنا السيارة لساعات أخرى طويلة بدا السائق فيها وهو يحكم إمساك إطار القيادة وحركاته العنيفة يمنة ويسرة بشكل مستمر لتفادي الصخور أو الرمال أو الأشجار التي تنسل السيارة بينها كثعبان. فقد بدأ الطريق يختلف ويتحول من صحراء معشوشبة إلى غابة كثيفة الأشجار ثم أرض طينية جافة غائرة حفرت عجلات آلاف السيارات خطين غائرين لأكثر من 30 سنتيمترًا.. واقع مختلف حتى عما تصورته ولكن ما حيلتي وهل أنا أقل شجاعة وصبرًا من تلك النساء وهؤلاء الأطفال، فالتزمت الهدوء لأتحمل صخب السيارة على الأرض، وبطء الدقائق لساعات طويلة حتى وصلنا إلى قرية أو بضعة منازل وسطها مكان تشعُّ منه إضاءة بسيطة من مصابيح الجاز وإن لم تكشف المكان جيدًا ولكن على الأقل يمكن أن يتبين الإنسان شكل المكان وشيئًا من ملامح البشر أصحابه.. رجل مسن يصدر أوامره أو يحدد طلبات الطعام، وامرأتان شابتان تجلسان أمام موقدين تعملان في إنضاج اللحم والأرز وهي الوجبة المتاحة، وصبيان يوزعان الطعام.. توقفت معنا سيارات أخرى، وتناثر ركابها في ساحة المكان، من يأكل ومن استسلم لغفوة نوم يستيقظ عندما يمر صبي المكان بالشاي فيهمهم له فينهض يرتشف من الشاي ثم ينام.. كنت جائعًا لم تمنعني قذارة المكان ولا سوء اللحم الموضوع في إناء ربما لم يغسل قط من اختيار جزء منها للأكل وإن كانت - كالعادة - غير مطهوة جيدًا فكنت أتخير أطرافها التي استوت، نام السائق حسين لبعض الوقت ثم نهض وواصلنا بعدها السير ساعات أخرى، الطريق طويلة وصعبة، والسيارة متواضعة، والسائق مسكين.. والوقت يمضي ببطء شديد حتى وصلنا «باسكنو» فجرًا، وكنت ظننت أن لن نصل.

***



وسط أحد أسواق نواكشوط

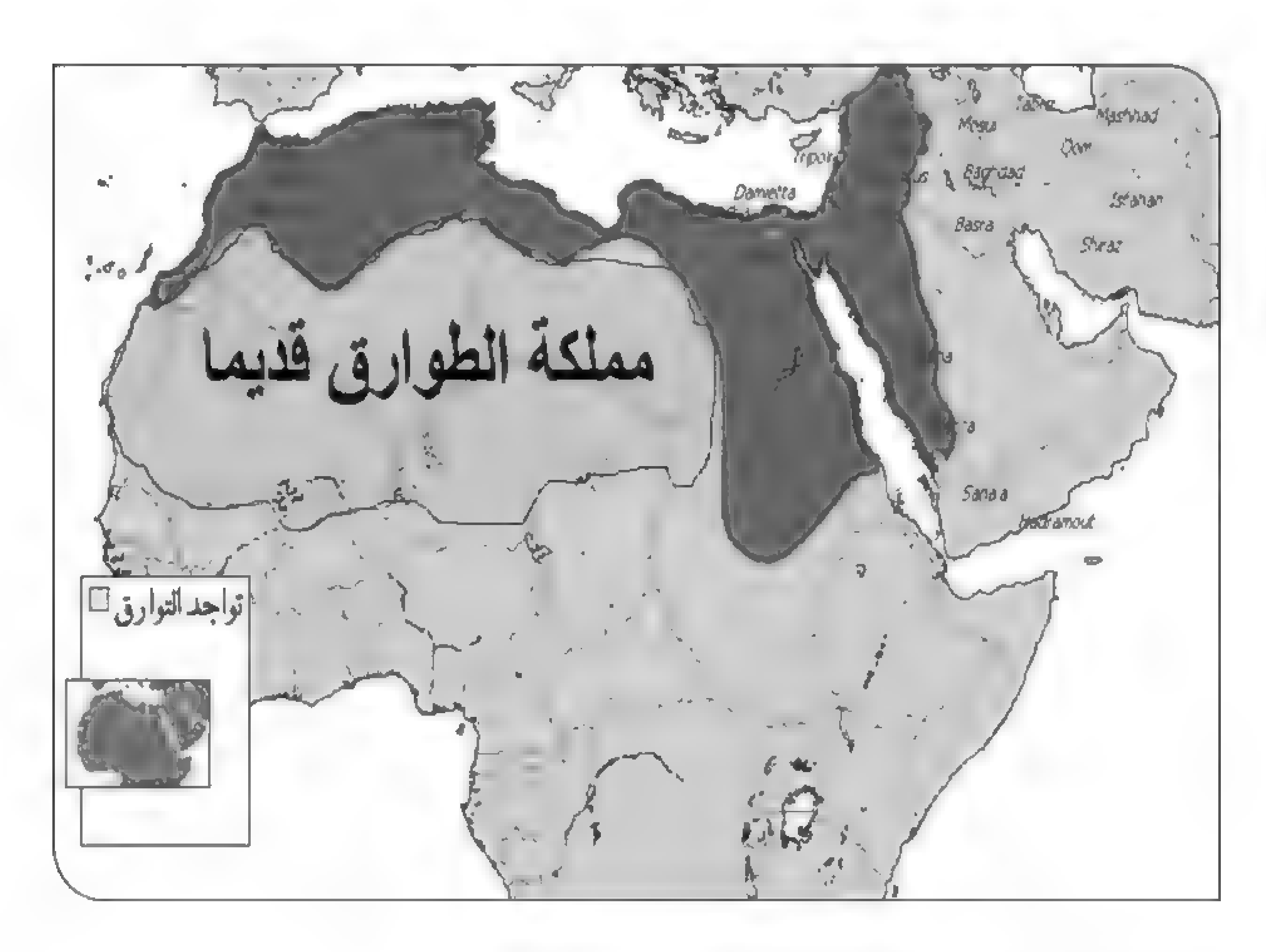


جانب من الطريق إلى نواكشوط



قبل الدخول إلى «تمبكتو» ونظرة إلى القادم من الأحداث فيها

محمد رمضان أحد قادة الجبهة العربية لتحرير أزواد



هكذا يرى الطوارق مملكتهم التاريخية



أمام الجزار في مطعم على الطريق

باسكنو

كان البرد قارسًا، و«الإنفلونزا» التي صاحبتني قد أنهكت قواي مرة أخرى، زاد الرشح ونوبات العطس فزدت من أعداد حبات الدواء التي أتناولها. حاولت أن أتصل بعبد الله ولد سيدي حننا، لكن هاتفه مغلق وهو أمر متوقع في ساعة الفجر، طَرَحَنا السائق تحت خيمة من الشعر معلنًا «هنا سننام». كاد قلبي ينخلع خوفًا من التعرض لتيارات الهواء البارد، حاولت رغم التعب، ولكنني لم أستطع، وإن تناثرت أجساد المسافرين على حصيرة تحت الخيمة، حسدتهم على هذه القدرة، وأشفقت عليهم من العراء والشقاء، عاد السائق بسيارته، بعد أن أوصل الأطفال والنساء، استأذنته أن أبيت في كابينة السيارة فوافق، أغلق لي نوافذها اتقاء للهواء، ورغم سوء رائحتها، نمت متوسدًا ملابسي تحت رأسي المتعب ورقبتي التي تكاد تنكسر فقراتها.

في السابعة صباحًا وجدت من ينقر لي على زجاج السيارة بقوة ويشير إلى تجمع للسائقين والمسافرين تحت الخيمة، تخيلتُ أن السيارة ستتحرك أو أنهم يريدون شيئًا مني فنزلت غير قادر على الحديث، جلست بجوارهم، مضت ساعة ولم يتحرك أحد ولا السيارة تحركت، ولم يكلمني أحد أو يطلب شيئًا مني فتحيرتُ. سألت نفسي في غيظ شديد: لماذا أنزلني هذا النزق؟ ولماذا أيقظني أصلًا؟! ولماذا استخسر فيَّ ساعة راحة؟! حاولت الاتصال بولد سيدي حننا[41]، كانت الكهرباء مقطوعة فعطلت عمل شبكة المحمول، بعد برهة كان أحدهم يتحدث في هاتفه الذي ينتمي رقمه لشبكة أخرى، استأذنته فوافق، هاتفت عبد الله فجاءني مسرعًا، رحب بي في ود وكرم وأخذني في سيارته الفخمة التي تشي ومنزله الكبير بمكانته الاجتماعية والاقتصادية المتميزة في المدينة، أدخلني إلى غرفة الاستقبال، هنا وفي أغلب منازل الصحراء وخيام أهلها لا تصادف أسِرَّة للنوم، لا بأس، المهم مكان مغلق ونظيف، أخذت حمامًا واستبدلت ملابسي وخلدت في نوم لساعتين.

أفقتُ على حديث وضحكات عدد من وجوه القوم يملئون أرجاء الغرفة التي أنام فيها، كانت شاشة التلفاز تحمل في نشرته الإخبارية صورًا لعناصر «أنصار الدين» يهدمون أضرحة الأولياء في «تمبكتو».

نطقت بعفوية «وكأني لا أشعر بأحد»: سيدي يحيى، ثم انتبهت وحمدت الله أن أصوات الجلوس كانت أعلى من أن يسمعوني فيظنوني أهذي.. أمسكت بالريموت وقلّبْتُ في نشرات أخرى علّي أسمع خبرًا جيدًا، كان الخادم «بوبو» يضع صينية الطعام وسط الجلوس، لم أكن جائعًا، فقط احتجت لشرب الماء فطلبته.

أشار الأمير له.. فحمل «بوبو» إبريقًا وطستًا وضعه أمامي، ومد يده بالصابون، ثم ناولني منشفة.. قرَّب عبد الله صينية الطعام إليّ، والذي كان صحنًا ضخمًا من المكرونة به قطع اللحم المتناثرة وبعض أجزاء من حبات الفلفل الأخضر المطبوخ.. لم أكن جائعًا.. فقط طلبت من بوبو أن يصب لي كوبًا من إبريق الأتاي الجاهز دومًا في غرف الضيافة الصحراوية.. ولكن دون «رغوة» فصب لي كوبًا منه.. أخرجت من حقيبتي التي وضعتها بجواري قطعة شيكولاتة.. قضمتها وأنا أفكر أي سائق سأرحل معه؟ وهل سيكون مأمونًا؟ ومن العجب أن بادرني عبد الله: سنذهب إلى السائق للاتفاق معه، وقد تخيرتُ لك سائقًا أمينًا طيبًا.

ضحكت وأنا أقول له: هل انتهت ضيافتي عندكم لترغب في سفري بهذه السرعة؟ ضحك عبد الله، ونطق أحد الشيوخ: الضيافة هنا لا تنتهي، ما دمت ترغب في البقاء، ثم أشار إلى عبد الله، هذا أمير المنطقة وكان والده أميرها وأكرم الخلق فيها..

كان عليّ أن أهاتف محمد المولود رمضان للحصول على بعض المعلومات وأخْذ أرقام لعرب في تمبكتو، ولكن للأسف لم يكن موجودًا فاستسلمتُ لأمر الرحلة فما عاد وقت كثير، خفت أن يعاودني المرض فلا أجد علاجًا، ولا أكون قد

أنهيت رحلتي أو حتى بدأتها، طلبت من عبد الله أن يصطحبني إلى الحاكم كي أحصل على إذن دخول معسكر إمبرّة، تسارعت دقات قلبي خوفًا من المرض أو الفشل.. رنت في أذنيّ دعوة الخالة «أم عز» جارتنا العجوز «يكفيك الشر ويسترك» يااااه.. الله! ما أحلى وأبدع هذا الدعاء! وما أجمل أن تدعو لك امرأة صالحة أو طيبة أو تدعو لك أمك عند صلاة الفجر «يكفيك شر حاكم ظالم، وشر غلطات اللسان»!!

تبين لي أن أهم ما يدعو به المصريون هو كفاية الشر، وكفاية الشر تعني الأمن والستر.. وصلت إلى الإيمان بأن الله يكفيني شر ما يحدث حولي فعلًا، وأنه يمتعني بالأمن، وهو أهم ما يصبو إليه إنسان عاقل، تركنا عبد الله لبعض أعماله وأوصى بي «بوبو» الذي كان لطيفًا وهادئًا وكريمًا هو أيضًا معي؛ يسرع عند سماع صوتي لتلبية طلبي باسمًا.. عاد عبد الله ليصطحبني إلى حاكم «باسكنو» الشيخ «ولد باب ولد أعل محمود» ليحصل لي على إذن دخول معسكر «إمبرة» الذي استقبلت فيه موريتانيا ومفوضية الأمم المتحدة لشئون اللاجئين، الهاربين من شبح الحرب والانتقام في مالي.

استقبلنا الحاكم استقبالًا ودودًا، مؤكدًا قيمة وثقل شخصية عبد الله، اتصل بالوالي الذي أخبره بضرورة الحصول على الإذن من وزارة الداخلية، فهاتف زيدان مستشار وزير الداخلية الذي أخبره بضرورة التنسيق مع مكتب مفوضية الأمم المتحدة، شعرتُ بأن الأمور تتعقد، فهاتفتُ السفير أحمد فاضل يعقوب الذي أبلغ القنصل حاتم، فهاتفني وأخبرني أنه سيجري اتصالًا لتسهيل عملي، كان جمال عمر قد اتصل بي وأعطاني رقم محمد الأمين أحمد نائب أمين حركة تحرير أزواد، ذهبتُ إليه. شاب عربي يتقن اللهجة المصرية التي اعتادها مع رفاقه الذين عمل معهم في مهنة المعمار بالسعودية، والذي شرح لي حكاية الحراك الأخير وأسباب الخلاف مع الجماعات الإرهابية، عنده تلقيتُ هاتفًا من الحاكم ليخبرنا بموافقة الداخلية، وبقي أن يرتب لنا مع المندوب الأجنبي، كان القنصل يواصل اتصالاته واطمئنانه على الموعد الذي سأذهب فيه إلى المخيم

في الصباح، ولكني رأيت التأجيل لأنني سأغادر ليلًا، ذهبتُ مع عبد الله إلى مكتب الجوازات وهو عبارة عن غرفة داخل المدينة، وختمنا للخروج.

الجميع هنا متعاونون وطيبون، رجل الدرك الوطني أنهى سريعًا معاملتي، لاشك أن لحيثية عبد الله[42] في بلاده دورًا كبيرًا معي، لم يفتني أن أبحث عن صيدلية لشراء حبوب وأدوية لعلاج نزلات البرد لأن علاجي قد نفد مني، الصيدلية تشبه محل بقالة متواضعًا، أشار الصيدلي عليّ بضرورة التوجه إلى المستشفى، فحالتي - كما قال - سيئة، شكرته على إيثاره أن أحصل على العلاج من المستشفى ولكن لا وقت لدي. وأخذتُ الأدوية وذهبتُ بصحبة عبد الله ولد سيدي حننا إلى «أحمد» السائق المالي الصغير، وبدأت أطمئن إلى توافر الفرصة للسفر...!

أمضيتُ نهار اليوم التالي في لقاءات عديدة إلى آخر النهار عندما اصطحبني عبد الله إلى منزل السائق بعد المغرب كنت أفكر هل هو مأمون؟! انتبهتُ على صوت عبد الله وهو يوقف محرك السيارة أمام منزل السائق، ونزل من سيارته ليوصيه بي، ويخلع عن رقبته شاله الأبيض الطويل، حاولتُ أن أشكره ممتنعًا عن أخذه، أصرَّ الأمير مؤكدًا أن له فائدة كبرى معي، السائق الذي كان ينتظرنا على الباب طمأنه كثيرًا على صديقه الذي جاء معه، وأنه أمانة في عنقه.

اطمأننت كثيرًا لكلمات السائق، لأن التوصية بي جاءت من أهم شخصية في المدينة، وهو ما نفعني أيضًا عند حاكمها، تذكرتُ كلمات «روزيتا فوربس» في كتابها «سر الصحراء الكبرى»، الذي سجلت فيه رحلتها إلى واحة الكفرة من بنغازي، قالت: «قام أحد الشيوخ الموقرين - في إجدابيا - بتحيتي وقال: كلنا رهن إشارة السيد - يقصد الملك إدريس السنوسي هكذا مثَّل عبد الله لضيفه الغريب - بإمكانك التجول بحرية عندنا إذا رغبت في ذلك لأن هذه تعليمات السيد ورغبته، فالسيد رجل عظيم وكل الرجال يخشون بأسه»[43].

وتمنيتُ لو عشت رحلتي هذه في زمن سيدي إدريس السنوسي[44]، أو لو

عاش الرجل عصرنا الحالي في هذه المناطق، فقط لأحصل منه على توصية لأهل الصحراء.. ولكن لا بأس، فتوصية عبد الله تقترب في تأثيرها من توصية إدريس، فالرجل أمير هذه البلدة وما حولها وكان أبوه سيدها وسيد قومه، وأخوه كان ضابطًا كبيرًا في الجيش الموريتاني، وأحمد السائق يسكن البلدة ويترك فيها زوجته وابنته، وأخوه يسكنها أيضًا، ولهما فيها منازل وأسر، وهو ما يوفر ضمانة حمايتي، أو عدم الغدر بي.. كان الليل يلف المكان إلا من بقع ضوئية خفيفة لمصابيح إضاءة قليلة من منازل بعيدة.. استأذن عبد الله للعودة.

رحب بي السائق ودعاني للدخول، كان الظلام يلف المنزل المكون من ساحة واسعة وغرفتين في مواجهة الباب الرئيسي، يفصلهما عنه أكثر من عشرة أمتار، وعلى يسار الداخل على بعد عشرين مترًا في زاوية الجدار المحيط بالمنزل كوخ صغير، وهو المرحاض، وفي هذا الفناء المتسع «كانون» للطبخ، وبعض المقاعد البسيطة، وحصيرتان.

كانت زوجته الشابة تعد طعام العشاء، رحبت بي: أنت مصري؟ سألتني، لم تنتظر الإجابة، منين في مصر؟ طنطا ولا السويس، ولا...

- ياه دا انتِ عارفة مصر شبر شبر

- آه.. قالت بفخر.

فسألتها: وانت منين؟

قالت: تمبكتو

فقلت: أحسن ناس.

- أيوه أحسن ناس، أجدع ناس، هكذا يقول المصريون للجميع، أنتم أحسن ناس يا مصريين.

شعرتُ من الحوار ببعض الدفء والاسترخاء النفسي رغم الاختلاف في اللهجة، كانت أم زينب نموذجًا للمرأة في كل المنطقة العربية، اقتربت مني زينب الطفلة الصغيرة، وقفت أمامي تنظر إليَّ في استغراب واندهاش طفولي ممزوج بالفرح، جذبتها من يدها ورفعتها، قبَّلتها، تماوجت بين يديَّ ضاحكة، ثم انسلت من بين يدي إلى حضن أمها.

- متى سنمضي؟ سألت السائق.

- قبيل الفجر.

- خائفة عليكم، لن تعودوا جميعًا. قالت زوجته، وهي تعد الطعام.

- لماذا يا أختاه؟ بشري ولا تنفري.

- الحال صعب، والموت يترصد العابرين على الطريق إلى تمبكتو.. والأحوال غير مستقرة، آه.. شعرت بوخز في قلبي، ورجفة في بدني، فسألتها الدعاء.

- ياخوي أنا أدعو الله، فليس لي بعده سوى زوجي وابنتي.

كانت الطفلة ما زالت تلهو بيننا، حملتها وقبلتها، ودعوت لها بالفرح، ولوالدها بالحفظ والستر، وشعرت بخوف عليها، احتضنتها مرة أخرى وقبلتها، أخرجت من جيبي قطعة شيكولاتة.. داعبتني وهي تخطفها من يدي ثم انسلت من حضني.. شعرت بألفة وقيمة السكن إلى زوجة وأبناء.. دفء وحنين الأسرة، وسكن الوداعة والاستقرار.

زاد اطمئناني بمداعبة زينب، ولكن حديث الزوجة عن القتل في «مالي» ورغبتها في عدم سفر «أحمد» وقولها «إنكما ذاهبان للهلاك»، أعادني إلى التوتر. فلازمني طوال الليل، طلبتُ من «أحمد» أن يضعني في إحدى الغرف لأنام فيها بدلًا من النوم في حوش المنزل والعراء كما يفعلون، أعدت لي زوجته فرشًا بالداخل، الغرفة موحشة، والضوء المتسرب من خارجها خافت، وقطط تتحرك

في سرعة وتموء في بطء، «بؤبؤ» عينيها يلمع في الظلام وخربشات أظافرها في الأرض مع «خروشات» الستارة القماش بفعل الريح تزيد من إحساسي بالوحشة والاغتراب والرهبة. أتذكر كلمات «أم زينب» وتحذيرات عبد الله والسائقين من خطر الرحلة، نمت نومًا متقطعًا إلى أن أيقظني «أحمد» بعد منتصف الليل لننطلق قبل الفجر ومعنا الشاب «شيخ» الذي قاسمني المقعد بجواره. أجهلهما والطريق طويلة والخطر الكامن فيها يزيدني توجسًا، والمجهول بعدها يجعلني لا أستطيع التفكير الهادئ، أعرف جيدًا من أين جئت وأيضًا إلى أين أسير، ولكني لا أعرف عند أي نقطة سأصل ولا عند أي نقطة سينتهي العمر.. وليس لي من الأمر شيء، فقد عزمتُ ومضيتُ متوكلًا، مع الصباح توقف «أحمد» لنتناول الإفطار والشاي الأخضر «الأتاي». وضع حصيرته بجوار السيارة وفوقها جلسنا وأمامنا «عدة الشاي»، وهنا بدأ التعارف الحقيقي بيني وبينهما وبين «آدم» العبد المساعد لـ«أحمد» الذي كان موقعه فوق البضائع في صندوق السيارة، انتبهت حواسي لضوء الصباح والشقاء.

ورغم طول الطريق وامتداده، وطول ساعات النهار الأولى، فإنه كان أفضل قليلًا من المسافة بين «باسكنو» و«النعمة» مما أتاح للسائق أن يسير بسرعة تقترب من 40كم في الساعة، عندما توقف مرة أخرى اكتشفت أن سيارتنا واحدة من رتل مكون من أربع سيارات لسائقين من أصدقاء أحمد خرج كل واحد منهم من مكان منفصل، وصلوا معنا عند «بئر سلامة»، كانت حركة العبيد وبعض الشباب العرب حول البئر في استخراج الماء نشطة، والعرب من أبناء المنطقة في غاية الكرم. شاهدتُ صورة جديدة من صور الحياة الصحراوية، عمق البئر نحو 70 مترًا تقريبًا، ووعاء كبير من الجلد السميك يُستخدم كدلو مُعلق في حبل طوله أكثر من 70 مترًا مربوط في رقاب ثلاثة حمير، كلما ابتعد بها أحد العبيد يجر الحبل فيرتفع وعاء الماء من قاع البئر إلى حافته، ويلتقطه عبدٌ آخر ليصبه في برميل كبير يملئون منه أوانيهم، بعدها عاودنا السير لنصل إلى قرية الأرنب، قال «أحمد» إن اليوم «الإثنين» هو سوق القرية، وكان الاستقبال والترحاب لنا من أهلها يحمل في طياته طيبة بدو الصحراء، مسلمو

وعرب أطراف العالم «أهل القرية عرب»، احتفوا بي.. أسرني الترحاب، وقد ميزوا لهجتي ومنها عرفوا جنسيتي، كانت لهجة العديد منهم واضحة وتقترب من لهجتي، لأن أغلبهم عمل في ليبيا ورافق مصريين بها. مازحني أحد الشباب بقوله: اتكلم حساني يا مصري، فردَّ عليه أحد الرجال: مصر أم العرب، لم يمنعني أحد من التقاط صور، تسابق الشباب في الحديث عن عمله وعيشه في ليبيا، وأنهم يعرفون «السلوم»[45] ووصلوا إليها.. لو كان لديَّ وقت لبقيتُ بينهم أيامًا.

اشترى أحمد 40 رغيفًا مما يعرف في مصر بـ«الفينو» ولكنه أسوأ حالًا وأقل وزنًا بـ 400 سيفا، نحو 3 دولارات تقريبًا، واشترى صديقه علي ولد الداه سائق إحدى السيارات الأخرى عنزة بـ 2000 سيفا «أكثر من عشرة دولارات». مررنا على قرية «تفرد» بعد الأرنب، كانت خاوية على عروشها، سكانها الطوارق هربوا إلى مخيم «إمبرة».

أخذنا استراحة لتناول الغداء في منطقة «تيلمس البرابيش»، فكان مقامنا فيها وسط مجموعة من السائقين أحمد أبو زينب وعلي ولد الداه ومحمود بن محمد قابيل من أبناء سليمان، ومحمد الذي كان في رحلته الأخيرة قبل الزواج.

ومع كل سائق عبد يعمل معه مساعدًا مطروحًا طوال الرحلة فوق البضائع المحملة في صندوق السيارة، ويقوم بكل الأعمال من جلب الماء من الآبار وتنظيف «المواعين» وإشعال النار للشواء وعمل الشاي وتقطيع لحم الذبيحة التي قام «علي» بذبحها وسلخها بشكل احترافي في دقائق معدودة، وطلب مني أن أشاركه في عملية الذبح والسلخ ففعلتُ ولكنها كمساعدة الصبي الذي لم يتعلم بعد. وضع «علي» الكبدة جانبًا وهو يشير إليَّ: هذه لك إكرامًا لرحلتك معنا، تزعم «آدم» مساعد أحمد بقية المساعدين في إعداد المكان وفرشه بالحصير وإحضار الماء وإعداد الشاي. وفجأة انطلقت عقيرة أحد السائقين في سب أصغر المساعدين والتهديد بضربه لأنه لم يفعل شيئًا أمره به، كان بيد علي سوط من جلد البقر، أمسكته قبل أن يتناوله السائق الغاضب، فقال علي: هو

لك.. ثم واصل سلخ بعض الشحم في دقائق ونشر شرائحها على أغصان شجرة، تخيلت أن يتم شواء العنزة كما يحدث في صحرائنا، بأن توضع على ارتفاع قليل فوق النار، ولكنها قُطعت وأُلقيت فوق الفحم المشتعل في حفرة.

هكذا يكون الطعام بنواعم الرمل وهشيم الشوك، وغالبًا لا يكون اللحم ناضجًا مما أتعب معدتي، لولا تحسبي بأدوية أوصاني بها عبد الرحمن ودادي لخبرته في مثل هذه الرحلات.. كانت بعض قطع اللحم لا تزال نيئة بها حمرة الدم، تناولت أطرافها وبعدها حبات «الإنفلونزا» مع حبات الـ«فلاجيل».

كانت رقائق الدهن قد جفت، أحضرها لي مع بعض قطع البصل لأغمس بها مع الكبدة، لا أعرف لماذا؟ ولكنني فعلتُ مثله - هي عاداتهم - ربما يكون للشحم مع الكبد والبصل الطري انسجام أو فائدة.. الله أعلم.

أرحنا الأجساد، وملأنا البطون، وشربنا الشاي الأخضر الذي يمثل برغوته أهم مفردات ثقافة إنسان هذه الصحراء، وعاودنا المسير، وعادت الأرض للوعورة الشديدة. كان جسدي كقطعة حلوى في علبة بيد طفل، يرجرجها، تارة أصطدم بسقف الكابينة، وتارة أخرى أتخبط في شيخ أو في زجاج النافذة المغلق اتقاء للريح الباردة ولفروع أشجار النبق المليئة بالأشواك التي تحف بشدة فيه بعد أن تصطدم بالزجاج الأمامي.

وهكذا ظل السير لساعات والسرعة لا تتجاوز في أفضل الأحوال 40 كم في الساعة، حين تكون الأرض مستوية عندها يتبارى السائقون أحمد مع محمود وعلي ومحمد في السباق، كان مرح السيارات مع بعضها وضحكات السائقين وتلويحات أيديهم تنسيني - ولو لدقائق - آلام الجسد ورجفة القلب مما يحكون عنه وسألاقيه من عنت وقسوة في التعامل من هؤلاء الذين يحكون بأنهم لا يرحمون.. يسيطرون على البلاد باسم الله ولا يرحمون عباده.. والأخطاء عقابها صارم.

بدأت أسأل عن العرب وقبائلهم على هذه الأرض، ويجيبني أحمد بما يعرف،

وبعد العودة رجعت إلى المصادر.

* * *

العرب في مالي

منذ أن قُطِّعَت أوصال المنطقة مع بداية الاحتلال الأوروبي تراجعت علاقات الدول العربية مع العرب والمسلمين فيها حتى فيما بعد استقلال دول الغرب الإسلامي وتكوُّن كيانات عُرِفَت كدول من قطع متجاورات من الأعراق والأمم لا رابط بينها أحيانًا إلا الدين، وفي أغلب الأحيان لا رابط سواء كان دينيًّا أو لغويًّا أو عرقيًّا، وهو ما حدث مع «أزواد»، وقد كنت أظن - كغيري - أن العربية في هذه المناطق لغة اكتسبوها، ما كنت أحسب أن ناطقيها عرب خُلَّص، إلا بعد أن بدأت الرحلة من نواكشوط[46]، ومع كل مرحلة أقطعها تزداد معرفتي بأصل المكان وسكانه إلى أن وصلت إلى قرية «الأرنب» بعد سفر طويل من الحدود الموريتانية، قضينا بعض الوقت بين أهلها، فكانت من أجمل سويعات الرحلة، هالني تجسد العروبة في ترحيب أهلها وسماحتهم وطيبة قلوبهم.

كان الشاب المثقف عبد الرحمن نجل الوزير الموريتاني الأسبق، والمثقف والكاتب الكبير محمد محمود ودادي قد حدثني عن بعض القبائل العربية ومنها قبيلته كنته، كما دلني على «أوراق مسافر» التي سجل فيها والده بعض حكايات أزواد والعرب فيها.. وكان ما رأيت وقرأت غُصَّة في الحلق، ومرارة في القلب على إهمالنا - نحن أبناء الشرق العربي - هؤلاء العرب حتى على سبيل المعرفة إن لم يكن على سبيل التواصل الذي كان آخره ما سجلته حركة القوافل للحج أو العلم في الأزهر، هذا غير ما كان قبلها من الهجرات العربية إلى هذه الأصقاع في بدايتها من التجار والعلماء والمهرة من الصناع، وقد سُجل استقرار لبعضهم في هذه الحواضر ومصاهرتهم لأهل البلاد.. وزاد ازدهار تمبكتو بوصول عرب الفرار من الأندلس ثم بعدها أبناء البيوت الإدريسية الذين فروا أيضًا إثر انحلال دولة الأدارسة وكان لهم تأثير ثقافي وعلمي واجتماعي، زاده عمقًا استقبال القبائل الطارقية الصنهاجية وترحيبها بهم، فانصهروا معهم بالتزاوج والاندماج كما في قبائل «تاغت ملت وامقشرن وايدنان».. وغيرها التي باتت تعرف الآن بأصولها الإدريسية، وجاء نسل أهم هذه البيوت من

الشيخ محمد المختار آيته الذي تزوج من قبيلة «تاغت ملت» عند قدومه أوائل القرن الثاني عشر الميلادي، وتُعرف الآن بقبائل «إيفوقاص»، وعشائر الأدارسة والأنصار في «كل السوق»[47] وأدارسة «أروان»[48]، وأدارسة «أشريفين»، والأنصار في «كلنتصر» وغيرها.

ومن الأسر أو القبائل المولدة أو المخلطة كان بيت الإمارة في قبيلة «شمس آماس كيو» - التي تؤكد روايات النسابة أنهم من عرب الزراهنة - وقبيلة إرقتاتن وتعني بالطارقية «المهجن»، وهو ما يؤكد هذه الأصول، ويذهب المؤرخون إلى أن جميع القبائل الطارقية بها دماء عربية من هجرات الوافدين العرب، وكذلك أيضًا قبائل الصنغاي القاطنة في «تمبكتو» وما حولها قرب ضفاف نهر النيجر، مثل آل ضياء وذاليمن وجاليمن و«لربوا» كما تعرف عند قبائل الصنغاي أي «العرب» وهم بقايا «الرماة» في الجيش السعدي المغربي من أبناء «معقل» الذين استقروا بعد الغزو السعدي لإمبراطورية الصنغي أواخر القرن الخامس عشر الميلادي، وأصلهم من بني حسان وعرب البرابيش، كما كان للرستميين الذين قامت دولتهم في «تاهرت» بالجزائر جهود ومساهمات عظيمة في نشر وتجذر الإسلام بوجهه العربي في تمبكتو.

وتذكر لنا المصادر التاريخية كيف قرَّب سلاطين الصنغي بيت المشيخة «أولاد سليمان» وصاهروهم وأشركوهم في إدارة بعض شئون البلاد وقيادة بعض فرق الجيش وهو ما امتد لعرب البرابيش مع السعديين بعد سيطرتهم على «تمبكتو».

ويذكر الدكتور عبد الله عبد الرازق أن «كنته» إحدى القبائل العربية كان لها نفوذها الكبير - وما زال - في جنوب الصحراء بعد أن هاجرت من منطقة «توات» في القرن الخامس عشر الميلادي، ثم تطورت من نواة إلى قبيلة حملت راية القادرية فنشرتها في الغرب الإفريقي.. وبما اكتسبته من شهرة دينية انتسب الناس إليها من بعض القبائل الأخرى وكانوا أبرز قناة حضارية لنمو واستمرار العلاقات الثقافية والاقتصادية في بلاد المغرب وإفريقيا جنوب

الصحراء طيلة القرون الخمسة الماضية، ولعل اهتمام العرب الأولين في هذه المناطق بالتجارة وطرق القوافل كان لسبب أكثر أهمية لديهم من الاقتصاد وهو ربطهم بجذورهم وجذور آبائهم الأولى من خلال مناسك الحج.. وما زال صغارهم - كما الكبار - حتى الآن يحفظون الطرق المؤدية إلى فزان في ليبيا وسيوة في مصر، فهذا البعد الروحي لطرق القوافل أكثر أهمية لديهم، فالتجارة - خصوصًا منذ القرن الثالث عشر الميلادي - كانت أكثر ربحية في مراكزها على المحيط الأطلسي مع أوروبا والبرتغال، ولكن التوجه إلى الشرق فيه ربط بالجذور وإشباع للنفس التي تستعلي على الجنس الأسود حتى المسلم منه بجذورها القرشية وانتماء بعضهم إلى بيت النبوة، وقد سمعت كثيرًا عن ذلك.

وشاركت معقل القيسية بني هلال في تغريبتهم انطلاقًا من صعيد مصر إلى إفريقيا الشمالية، ولكنهم تفرقوا بعد هزيمة «ابن غانية» أمام «المنصور الموحدي»، وتغلبت «بنو سليم» على «بني معقل» فاضطر عدد من بطونها إلى النزوح جنوبًا حتى وصلوا إلى نهر النيجر، وهناك عُرفوا بالرحامنة - البرابيش «أولاد رحمون».. وزاولوا تجارة الملح من «تغازه» و«تاوْدنّي» والرعي والتجارة، وكان لسيطرة دولة السعديين على هذه المنطقة أثرها في نمو نشاطهم الرعوي والتجاري، وأيضًا مواجهة الغزو الأجنبي لسواحل المغرب، ولكنهم تمردوا بعد ذلك على السلطان زيدان السعدي عام 1616 والسلطان عبد الملك 1628، وأيضًا في عهد الدولة العلوية تمردوا على السلطان مولاي عبد الله سنة 1747، وبعد ثمانين عامًا تحسنت علاقتهم بالسلطان «مولاي سليمان» ثم تمردوا على السلطان سيدي محمد بن عبد الرحمن 1862 الذي دمر مواطنهم، واعتقل رؤساءهم ومحاربيهم، وأباح ممتلكاتهم لجيرانهم، وظل الأمر كذلك في توتر حتى قرر السلطان «مولاي الحسن العلوي» تقسيم الرحامنة إلى تسع «إيالات» بعد أن كانت اثنتين فشتتهم، وبعد وفاته تمردوا على خليفته «مولاي عبد العزيز» بقيادة «مبارك بني الطاهر» فأيدوا أخاه «مولاي محمد بن الحسن العلوي» فقرر تشتيت شملهم وتفريق جمعهم مرة أخرى، وظلوا كذلك حتى جاء الاحتلال الفرنسي وهم أضعف ما يكونون.. ولكنهم رغم ذلك واجهوه بقوة

وصلابة.

ذكر لسان الدين بن الخطيب «الأندلسي» في «الحلل الموشية» أن بربوشة من قبائل البربر و«لعل البرابيش جمع بربوشة؛ إذ إن بربوشة جمعها برابيش»[49] وإن كان البرابيش أو أغلبهم يجمعون على أنهم أولاد حسان، ويقول أبو بكر الصديق المولود: الراجح عند المؤرخين أن بني حسان من بني معقل وهو من عرب اليمن، وبنو حسان هؤلاء غير بني حسان البربرية.

وسكان تمبكتو الحاليون يشكلون قبائل وبطونًا لقبائل نزحت في هجرات متعددة بداية من القبائل العربية المطرودة من الأندلس بعد أن اجتازت أراضي المغرب والجزائر وموريتانيا، ويمثلون ثلاثة اتحادات.. أولها وأضخمها عددًا اتحاد كنته «كنتي»، وثانيها اتحاد الأنصار، وثالثها البرابيش.. ويتبع كل واحد من هذه الاتحادات كثير من الأتباع والخلفاء والموالي.

وكذلك هناك عدد من القبائل المستقلة مثل الأشراف الأدارسة، وكل أن تهون، وإيفوقاص، وكلسوق «كل السوق»، وبينها تحالفات مع الطوارق مثل إولمدن والهقار وإيفوقاص وأصولها عربية إدريسية طارقية مختلطة، وإدنان، وإمعاد.. وترجع أصولهم أيضًا إلى العرب.

ويسكن تمبكتو الصنغاي بنسبة أقل، وبعض الأعراق الأخرى.. منها البمبارا، أما الغالبية فللطوارق والعرب، ويرتبط الإطار «المصالحي» التجاري العربي في تمبكتو بمبدأ يعزوه الطوارق إلى الإطار الضيق للمصالح والمنافع الشخصية والقبلية بحكم كونهم تجارًا يرغبون في الاستقرار حفاظًا على هذه المصالح، ولذا كانت مواقفهم تتسم - غالبًا - بالانتهازية.. وهي في رأي قطاع من الطوارق أزمة ممتدة بجذورها في التاريخ منذ - ما يطلقون عليه - الاستعمار أو الغزو العربي ويعرف اصطلاحًا بالفتح الإسلامي، وهو ما يؤكد أنهم «غرباء» قدموا من بلاد بعيدة في حين أن العرب يؤكدون أنهم ليسوا انفصاليين ولا يريدون حربًا مع الماليين أو الدولة حفاظًا على الوضعية المتميزة للعرب، وحماية

لشعبهم المشرد في معسكرات اللاجئين في البلدان المجاورة، والعمل على إعادتهم إلى مناطقهم في «تمبكتو» و«جاوا» و«تاودني»، وهو ما تنادي به «الحركة العربية»؛ لذلك اتسمت علاقتهم بالدولة المالية بالود في أغلب الأحيان، وتمثل - أثناء أحداث الانفصال - في حماية الجنود الماليين عندما هوجمت معسكرات الجيش - كما طلبت باماكو - وتأمين خروجهم، دون أسلحة، وإيصالهم إلى «الحدود المالية» في مدن الوسط.

ويعمل العرب في التجارة وتربية المواشي التي تمثل عصب الحياة في شمال مالي، ولذا جاءت أغلب تسميات الآبار عربية حسانية «قصر الشيخ، قصر الحلة، خويبة رأس الماء، الأرنب، فم العلبة، لحسيني، الحاسي الأبيض، الطويل المبروك» وهو ما يؤكد امتداد نفوذهم على طول وعرض مناطق شمال مالي التي كانوا يتنقلون فيها وراء الكلأ والعشب والمرعى لمواشيهم بحرية، وهي أغلى ما يملكون، ومصدر ثرائهم الذي ميزهم عن الطوارق، فضلًا عن الأعراق الأخرى مثل: الفلَّان والصنغي والبمبارا، وتحكم حياتهم القبلية التقاليد والأعراف الاجتماعية الصحراوية التي لا يختلفون فيها عن مثيلاتهم في مواطنهم الأولى في الجزيرة العربية أو مصر والعراق أو حياة أشقائهم في ليبيا وموريتانيا، ولكنهم لم يعرفوا الاستقرار رَدْحًا طويلًا، فغالبًا ما كانت تنشب بينهم الحرب أو بينهم وبين الأعراق الأخرى في شكل إغارات سلب أو ثأر وهي أحوال الصحراء التي استوجبت في رأي البعض حاكمًا حتى ولو كان استعماريًا.

وكانوا قبل دخول الفرنسيين في هرج كبير وظلم خطير ونهب للأموال وسفك للدماء، الناصح مشئوم والفقير محروم والقاضي العدل مظلوم والوزير ظلوم والأمير غشوم.

هكذا قال القاضي محمد محمود الأرواني، وإن علق الدكتور الهادي المبروك الدالي عليه بأنه من الشخصيات التي باعت نفسها للمستعمر حيث لم نجد على مر التاريخ أن مستعمرًا قدم إلى الأرض وسكنها إلا ذل شعبها[50]، ولكن

منطلقات الأرواني حسب معطيات عصره لا يتفهمها إلا من عاشه، أو تعايش مع حكايته، فهذه الصحراء الممتدة فقهيًّا ولغويًّا من أزواد حتى أقصى نقطة في موريتانيا على ساحل الأطلسي كانت تحكم بأهواء الرجال وقوتهم وقدرتهم على الإغارة والسلب - باستثناء بعض النقاط فيها - مما دعا العلماء والفقهاء لإطلاق لفظ «السائبة» أو بلاد السيبة عليها وعلى موريتانيا.

ولم يكن الأشراف وحدهم الذين جابوا هذه المنطقة من العرب؛ فقد نزح في بدايات القرن العاشر الهجري - نهاية القرن الخامس عشر الميلادي - كثير من عرب الشمال مع جيش سلطان مراكش أحمد المنصور الذهبي الذي أسس الحكم السعدي المغربي العلوي في بلاد السودان الغربي وصحراء أزواد وعاصمته «تمبكتو»، كما نزح قبل ذلك قوم من الأنصار ضمن من فروا من الأندلس بعد انحلال العرب فيها وسقوط ممالكهم وآخرها دولة بني الأحمر واتخذوا أسماءً وألقابًا طارقية غير العربية، وهو ما فسره مرتضى الأنصاري[51] بأن أسباب هذه الظاهرة شائعة في سكان أزواد عامة، وغير مقصورة على قبيلة معينة.

ونتيجة انعدام الأمن في الصحراء، وكثرة الحروب القبلية، وما يتبعها من عداء وتبادل الأخذ بالثأر مما يبث الخوف وعدم الاطمئنان، كان يعمد البعض إلى إخفاء الأسماء الحقيقية، هذا في العموم.. أما الأنصارمن آل قطب فقد سجل الباحثون منهم أن الطوارق أهل الصحراء قد نصحوهم عندما حلُّوا في جوارهم بذلك للنجاة من النصارى الذين كانوا يطاردون الأندلسيين العرب لاستئصال شأفتهم، فتخفوا خلف أسماء طارقية وتحدثوا لغتهم، وإن لم ينسوا العربية، ويعزو مرتضى الأنصاري استمرار هذه الأسماء طوال القرون الماضية - وبعد زوال أخطار الملاحقة - إلى استخدام المربيات من الإماء السودانيات السود، وكن لا يعرفن العربية فينطقن أسماء الأولاد ملحونة، وتغلب هذه الأسماء المنحوتة على الأسماء الحقيقية التي أحيانًا ينساها الجميع.. والدليل على صحة هذا الرأي اختفاء الأسماء المحرفة أو الغريبة في الأجيال التي

ولدت بعد أن ضرب الجفاف البلاد في سبعينيات القرن العشرين وتخلى السادة من العرب عن العبيد والإماء والخدم عتقًا أو تسريحًا.

وقد أورد عدد من المصادر العربية قصة دخول الجد الأكبر حفيد أبي عبد الله آخر ملوك بني الأحمر في غرناطة بعد طردهم منها «897هـ - 1491م» من بني قطب بن محمد المختار بن إنفا، وكان إنفا قد توجه إلى فاس ومنها إلى «تمبكتو»، وكان مبارك بن محمد الغرناطي واليًا عليها من قبل السلطان المغربي فأمل نيل حظوة عنده لما كان بين أجدادهم من صلات، ولكنه لم يحصل على شيء حيث لم تدم ولاية الغرناطي بعدها سوى شهور فتوجه محمد إنفا إلى الصحراء التي استقر فيها بحفر أول بئر «انتلك»، وكان إنفا قد رافق شيخًا من الأشراف ينتسب إلى «تنهلتين» للاعتزال في الصحراء وتعليم الناس فيها، وهو ما حدث وظهرت كراماته وكبر في أعين سكان الصحراء بما أسهم في تعليمهم ومساعدتهم بمياه الآبار التي حفرها وحسن سيرته حتى أصبح وأولاده من بعده وأحفاده من أعيان الصحراء.

وكان لهم طريقان في تعيين أمرائهم.. أحدهما الأمر الواقع الذي يفرض أحدهم بما له من فضل الثراء.. الذي يتيح له تقديم العون والرعاية لمن هم دونه، وبما زاده الله من بسطة في العلم والجسم، فيرجع الناس إليه في تدبير أمورهم، وتلك كانت أهم الطرق التي يعرف بها الأمراء من هذه القبيلة، وإن كنت أرجح - حسب أقوال من استمعت إليهم على طول الطريق - أن كل هذه الخصال لا تجتمع إلا لأبناء البيوت الكبيرة الثرية التي تتوارث جاهًا وسلطة وعلمًا فينشأ الصغير فيها على ما اجتمع للكبير من مؤهلات، وهو ما تحقق في ولاية الشيخ محمد قطب بن محمد المختار إنفا عن أبيه الذي آل إليه من الشريف الهاشم بن محمد المختار آوًا «جده لأمه».

أما الطريقة الثانية فهي التعيين والاختيار بإجماع من يعنيهم الأمر من الخاصة أو النخبة من أعيان القبيلة وشيوخها وعلمائها، فيتفقون على تعيين شخص ما أميرًا عليها إمارة عامة[52].

وهو ما يمثل قانون التشكل والانشطار، فعادة ما يبدأ النظام الأميري أو القيادي برجل يتمتع بهذه الخصال، يؤلف مع إخوانه نواة يتجمع الناس حولها، ويزداد التجمع كلما أثبت قدرة على الرعاية، وحسن سياستهم، ونظرًا لاحتياجهم إلى الحماية من قبل زعامة دينية أو حربية أو سياسية في ظل الشكل الدائم من أشكال الحياة في الصحراء وهو الإغارة والغدر.

وإلى محمد إنفا ينسب جميع الأنصار في الصحراء الكبرى، وهو جد الحاج عبدالله «بلّا» المصري، صاحب الكرامات المشهور والمعروف بـ«الحاج بلّه»، وكان الشيخ عبد الله من كبار الأعيان ومفتي تمبكتو وأروان، وعالمها التقي الذي يـرجع إليه أهل البادية بعد أبيه.. وكان أبوه الشيخ محمد قطب قد ترك له الوصية، ولفظ «بلّه» أو «بُلّا» منحوت من «عبد الله» كما جرت عادة أهل هذه المناطق فيعرف عبد الرحمن مثلًا بـ«دحمان»، وحبيب الله بـ«حيبل»، وفي موريتانيا - الامتداد الطبيعي لأزواد فقهيًا ولغويًا وعرقيًا يعرف مثلًا أهل بارك الله فيه بـ«باركل»، وحمَّاتًا لمحمد الطاهر.. أما تلقيبه بالحاج بلّه أو بلّا في كتابة أخرى فتعود إلى حِجته التي صحب فيها شقيقيه محمد«أمدايًا»، ومحمد «أبّانئين»، ومعهم غلام يُقال له «بُودا» من «تمبكتو» بالرواحل إلى ليبيا فمصر فمكة المكرمة، فحجوا ثم رجعوا فنزلوا في مصر منزلهم الذي نزلوه عند مجيئهم.

ويذكر الدكتور عبد الله بن محمد مهدي الأنصاري، الأستاذ بجامعة الإمام محمد بن سعود بالمملكة العربية السعودية، قصة يطول ذكرها في نزولهم مصر، وملخصها أنه وقعت لهم مسألة بسبب امرأة في البلد الذي نزلوا فيه - قيل - ظهر عليها الحمل وكان زوجها قد توفي عنها منذ ثلاث سنوات، وولدت ولدًا فأرادوا رجمها، فذهبت أمها إلى قافلة الحجاج بحثًا عمن يفتيها بما يمكن أن يدرأ الرجم عن ابنتها، وكانت قافلة الشيخ قد حطت رحالها عندهم، فدلها الحجاج على الشيخ عبدالله الأنصاري، فأفتاها بأن لا حد على ابنتها، وبيّن لها أن الفقهاء ذكروا أن أقصى الحمل هو خمس سنين، وأنشد على ذلك قول ابن

عاصم في أرجوزته تحفة الأحكام:

وخمسة الأعوام أقصى الحمل وستة الأشهر في الأقل[53]

ففرحت الأم بذلك، ودعت قائلة:اللهم انفعنا بهذا الشيخ ولو بقبره! فحج وعاد إليهم، ثم مات فدُفن عندهم، وكُتب اسمه على قبره.

وذكر الدكتور عبد الله أن هذا الخبر مستفيض ومشهور في قبيلتهم، أما «بول مارتي» فيذكر أن «الحاج بلّا» كان بدوره وليًا صالحًا، وقد توفي إثر عودته من أداء فريضة الحج في واحة غير محدودة المكان، ومن الواضح أنه ترك عددًا من الأبناء، أما «محمد محمد الشيخ الأنصاري» فيذكر في كتابه «تقاربت الأخبار والروايات في مكان وفاته بعد عودته من أداء فريضة الحج حيث قيل إنه مدفون في واحة «سيوة» الواقعة جنوب غرب جمهورية مصر العربية وقيل في قرية قريبة من واحة سيوة تسمى «أم القصير»، وقيل أيضًا في قرية تسمى «أم السنيين» القريبة من واحة سيوة[54] ولذلك يعرف سيدي الحاج بلّا بـ«الأب المصري» أو «أبًا وأنْ مِصرَ»، ولمعرفتي بواحات الصحراء تأكدت بالفعل من وجود جسده الطاهر في مصر، أما الواحة فاسمها «قارة أم الصغيرة» أو «الجارة» في النطق المصري، ويوجد بها مقامان لشيخين، يقول أهل الواحة إنهما من الحجاج المغاربة الأول هو سيدي ياجا والثاني سيدي عبد الله، وحتى بداية القرن العشرين كانت قوافل الحج أو ما يعرف بـ«ركب الحج المغاربي»، والشنقيطي - من موريتانيا الحالية - والتكروري القادم من بلاد التكرور والمغرب وغرب إفريقيا تمر بهذه الواحة، والتي تعرف بأنها أصغر واحات الصحراء المصرية وأقلها عددًا في الأنفس، وحتى سنوات قليلة مضت، كان عدد السكان فيها لا يزيد منذ ثلاثمائة عام - حسب الأسطورة المتوارثة فيها وقد سمعتها من شيخ الواحة حسن خليفة «توفي 2008» والتي تقول: «إن بعض الحجاج احتاجوا لشيء فصعدوا باتجاه سور الواحة وفيه باب واحد يغلق بعد الغروب خشية إغارات الغرّابة الذين كانوا يأتون من داخل الحدود الليبية للسلب والنهب وهو أمر كان دائم الحدوث حسب كثير من الإخباريين

في واحات الصحراء المصرية - الفرافرة والداخلة والخارجة والبحْرية وسيوة - بغية السرقة، ولأن سمة الصحراء - كحال كل الفيافي في أي مكان - هي كثرة الغارات التي اعتادتها بعض قبائلها لسرقة أجولة قمح أو بلح أو شعير وزيتون وبعض قرب الماء أو المنسوجات وهي أشياء غاية في البساطة ولكنها تمثل للفقراء المغيرين ولصوص الواحات والقوافل أهمية قصوى، وكان أهل «الجارة» طيبين بسطاء ضعفاء، لا يملكون ما يمكنهم التصدي به للمغيرين سوى الحجارة والعصي.

قال إخباريو الواحة ومنهم الشيخ يوسف حسن: إن قافلة حطت في المنبسط - وادٍ بالقرب من القرية الواحة التي ترتفع أربعين مترًا فوق سطح الأرض على كتلة صخرية مساحتها تزيد على خمسة آلاف متر مربع، ولها باب واحد صنع من ثمانية ألواح خشبية سميكة بارتفاع مترين كان يغلق بعد مغيب الشمس ولا يمكن أن يُفتح إلا بعد شروق شمس اليوم التالي واحتاج بعض الحجاج لشيء أثناء غيبة الرجال في حقولهم فحاولوا الاقتراب من الواحة فظنهم النساء والأطفال مغيرين للسرقة فقذفوهم بالحجارة وطاردهم الأطفال بقذفهم بالرمال، فدعا عليهم أحد الحجاج بانقطاع النسل.. فظل عددهم لمائتي عام تقريبًا عند رقم 375 نسمة، يولد فيهم وليد حين يموت فيهم شيخ، أو العكس.. تلك القصة الأسطورية للواحة التي بقيت منعزلة حتى الآن[55].

أما صاحبا الضريحين فهما «سيدي ياجا» و«سيدي عبد الله» من الحجاج الذين قضوا في المكان، من الواحة وكانت لهما بركات وكرامات، أما الأول فهو سيدي ياجا ويقع مقامه في الجانب الشرقي، وأما سيدي عبد الله فمقامه على بعد خمسين مترًا منه، وكانا مبروكين ولهما كرامات، ودعا لهم أحدهما بالبركة وزيادة الرزق وإن لم يذكر لنا أحد أهل الواحة من دعا منهما، فقد باعدت السنوات بين زمن أصل الحكاية وزمانهم ولكنهم يذكرون أنه قد مرت عدة سنوات على أجدادهم ضعف فيها محصولا الزيتون والبلح، وعندما مر أحدهما واحتاج لبعض الزاد من البلح شكا له أهل الجارة فقرهم وضعف محصوله،

ولكنهم أعطوه «ويبة» فقبلها شاكرًا داعيًا لهم بالبركة، وهو ما حدث فزاد المحصول، مما أبهجه عند عودته من الحج وتوقفه لديهم فأكرموه، وكان معه شاب مصري يقوم برعايته وخدمته تبركًا به[56]، لم يذكروا، كما جاء في كتاب الدكتور عبد الله أن الشاب كان من تمبكتو، وأيضًا لم يذكروا لي اسمه، ولكني اكتشفت بالمصادفة المواتية لمجهود باحث أنه هو سيدي محمد الشريف الصعيدي، أو هكذا الظن، فقد صادفت حكاية أخرى ربما يكون صاحبها هو الفتى المصاحب لـ«سيدي بلّا» وهي حكاية الشاب المصري التقي الورع «سيدي محمد الشريف الصعيدي» المولود في الفيوم عام 1199هجرية والذي تضلع بالعلوم والمعارف الدينية ونهل من معين شيخه «عبد العليم الفيومي» ثم خرج سنة 1215 سائحًا متجهًا إلى مجمع البحرين، ثم صحب الحجاج عائدًا ووصل إلى المنتبذ القصي في موريتانيا 1222هـ وكان أول من اتصل به أهل بارك الله فيه في تيرسي، وتوفي عام 1232هـ.

وحسب المعلومات الشحيحة التي وردت فيما كتب عن «سيدي محمد الصعيدي»، ولا شك أنها أيضًا مما تناقلته الأفواه وحفظته ذاكرة المحبين فإن الفتى «سيدي محمد الصعيدي» عندما ترك أهله وورد مجمع البحرين - عند السويس - وهو أيضًا طريق الحج يجوز أنه التقى بسيدي «بلّا» أثناء عودته من الحج أو في رحلة ذهابه وعاد معه إلى أن وصل إلى «الجارة» ثم صحب شقيقيه بعد وفاة الشيخ إلى «تمبكتو» ومنها ساح إلى أن وصل إلى المغرب ثم عرج إلى «تيرس»، وهو أمر يتفق مع خطوط سير القوافل وترحال القبائل حاملة الفقه والفقهاء كما حدث مع شيخي موريتانيا الأجليْن محمد المامي وشيخ سيديا الكبير وأيضًا سيدي مختار الكنتي، ونقصد مسألة الترحال لا خطوط الرحلات تحديدًا، وإن صادف بعضها موافقة - وهي رحلة تستغرق حسب أزمانهم خمس سنوات تزيد أو تقل على قدر التوقف والمكوث في محطاتها - وهو ما يتوافق مع تاريخ الشيخ وعمره المدون لدى أحفاده ومريديه - رضوان الله عليهم - وهو ما وجدت في رحلة البحث عنه إلى موطنه الأول - الفيوم - بعض التطابق، فعائلة الصعيدي بها تستوطن «عزبة الصعيدي»

منذ ما يقرب من قرنين كما قال جمال بكر محمد السعد، ولا يزالون بها وتقع العزبة على طريق بني سويف.. وابتدأ العمران فيها قرب معسكر المقاومة ضد الفرنسيين 1800م بقيادة الشيخ «سليمان الفيومي» الذي كان أحد مشايخ الأزهر العظام الذين تولوا قيادة المقاومة الشعبية ضد الفرنسيين في القاهرة ومحافظات الصعيد - ولم أجد في المدونات وأدبيات تأريخ المنطقة ولا حملت الذاكرة الشعبية اسم عبد العليم الفيومي الذي قيل إنه تعلم على يديه، وإنما سليمان الفيومي، وفي نفس التاريخ الذي حملته حكاية سيدي الصعيدي، وجدت اسم سعد وهو والد «الفتى» أبو عبد الله محمد بن سعد بن أحمد،وهو الجد المعروف لعائلة السعد في العزبة. قال أحد أحفاده جمال بكر إن جدهم الشيخ سعد الولي الساكن جثمانه ضريحًا في قرية مجاورة كان من أهل العلم وعمل في تحفيظ القرآن، وإن والده وأعمامه إبراهيم وقاسم وطه وسعد كانوا أيضًا يعملون في مهنة تحفيظ القرآن وراثة عن جدهم سيدي سعد، في «كُتَّاب» كان هو الوحيد في المنطقة.

وإن جدهم سعد كان من الأولياء المباركين والعلماء المشهورين ولما حضرته الوفاة وكفنوه وحملوه إلى مقابر قريبة من منزله طار بنعشه - وهي عبارة يستخدمها المصريون لوصف كرامة وليٍّ دفع النعش أو جعله يقود حامليه إلى أن يحط في مكان محدد - إلى عزبة المغربي التي تبعد عن عزبتهم ثلاثة كيلو مترات.. سألت الحاج عويس مرسي عمران من المعمرين فقال: يوجد مقام الشيخ سعد منذ عشرات السنين قبل أن يتوسع العمران في هذه المناطق ونسمع عنه من جدودنا، وهو ما أكده الحاج يونس جمعة عبد الرحيم، شيخ البلد، بأنهم سمعوا من الأجداد عن مسجد كان بجوار المقام، ولكنهم لم يشاهدوه إلى أن قامت القرية بإعادة بناء المسجد.

أما ما ذكره عبد الله الأنصاري عن القصة المتواترة في قبيلتهم عن كرامة جده سيدي عبد الله في درء حد القتل عن السيدة التي أنجبت بعد موت زوجها بثلاث سنوات فهي حكاية لم يرد مثلها في الحكايات الشعبية أو مدونات

الحواديت في أي واحة من واحات الصحراء في مصر ولم أسمع بمثلها على كثرة ما سمعت ودونت من حكايات الصحراء[57]، أو بما يقرب من أحداثها في الواحات المصرية، وإن كان الرحالة الألماني «جوستاف ناختيجال» قد أورد في كتابه عن الصحراء مثل هذه الحكايات ولكن في ليبيا «حيث إن العفة شيء نادر بين الفتيات الفزانيات[58]، وأشار في الهامش إلى أن المقصود بذلك مرزق تحديدًا، وأورد مثل هذه الحكاية التي ذكرها عبد الله الأنصاري قائلًا: وفي فزان لا يشك أحد بأن الطفل يمكن أن ينام في رحم أمه لسنوات أو ربما للأبد، حيث إن الفزانيين غالبًا يسافرون ولوقت طويل، فإن هذا الاعتقاد الزائف يعطي الأم العابثة ترحيبًا وذريعةً مناسبةً بأن تقدم لزوجها في وضع محترم أي زيادة في العائلة يقصد مولودًا جديدًا - قد تكون حدثت أثناء ذلك الوقت، حيث تكون الأم قد حبلت قبل أن يشرع في رحلته، ولكن الله لم يشأ أن يجعله يرى النور في وقت ولادته المعتادة.. ولا شيء يمكن أن يقال عن إمكانية تأخير الولادة التي يمكن أن تستمر لسنوات.. وتقع «فزان» على طريق الحج أيضًا.. لأن مثل هذه القصص المحكية تتواتر سماعًا ولا تدون، فلربما اختلط الأمر على الراوي في «تمبكتو» أو على من توارثوا الحكاية من الرواة، حتى وصلت إلى كاتبها حديثًا.

ويدعم هذه الفرضية كون الفزانيين أهل تجارة وأسفار وترحال، أما سكان «الجارة» فأهل زراعة واستقرار.. هذا دون أن نتطرق لمناقشة سذاجة الحكاية ذاتها سواء عند الأنصاري أو ناختيجال وسذاجة التفسير للحمل الكامن في رحم أم لسنوات، وهو ما لم نشهده حتى في الأمم الأخرى، ولا في أغلب أبناء أمتنا، ولم يرد في نص أو أشير إليه في قياس، فإن كان أقل الحمل ستة أشهر فهذا متفق مع النص ﴿وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ ۖ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ الرَّضَاعَةَ﴾[59] ﴿وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا﴾[60]. وقد تعرض الخليفة عمر بن الخطاب لامرأة ولدت بعد الزواج بستة أشهر، فأراد إقامة حد الزنا عليها فراجعه الإمام علي «كرم الله وجهه» بذكر الآيتين فعفا.

وإن كان ما ذكره المستشرق الإنجليزي هيري نوريس في تحقيقه لمخطوط ابن النجيب الشنقيطي بأن الحاج عبد الله المشهور بسيدي الحاج بلّا الأنصاري مدفون في الواحات الليبية قرب واحة الكُفرة، فهو كلام - حسب التدقيق والبحث التاريخي - غير دقيق.

أما الأنصار في صحراء «تمبكتو» والذين اشتهروا بـ«كَلْ أنصَر» فقد استوطنوا في المنطقة الممتدة من الأراضي الموريتانية غربًا وحتى شمال النيجر شرقًا، ومن مالي وبوركينا فاسو جنوبًا إلى عمق الجزائر شمالًا.. يعيشون في الصحراء حول الآبار ومنابت الكلأ، وأهم مدنهم أو المناطق التي سكنوها «إيكدَز» و«أروان»[61]، وقد ذكر الشيخ محمد محمود الأرواني أن جد «كل أنصر» المختار الملقب بـ«إنفَ» «تعني بالطارقية النافع، ولهذا يسمى أيضًا محمد نافع» تأهل «تزوج» بفاطمة الفردوس المقشرية، وولدت له محمد أج إنفَ، وهم أهل علم وصلاح وولاية، ولكن حمل أكثرهم السلاح، وصاروا من أهل السلاح يردون عن أنفسهم[62]، ولهم في ذلك حكايات طوال، إنما يعنينا هنا أحد أبنائهم الأفذاذ وهو الشيخ الأمير محمد علي بن الطاهر المولود في 1898، ونشأ في رعاية والده الشيخ الأمير الطاهر بن المهدي الأنصاري أثناء دخول الفرنسيين إلى أزواد احتلالًا مما أجبره على تمضية حياته في مقاومتهم، وتولى قيادة أهل أزواد بعد خمود المقاومة ببعض الاتفاقيات عام 1920، ولكنه واصل الثورة ضد الفرنسيين، وفي أثناء الحرب العالمية الثانية منع شعبه من مناصرة الفرنسيين فصنفوا من وقتها أعداء، واتخذت فرنسا ذلك ذريعة لإبعاد الأمير محمد علي بن الطاهر إلى الخارج، خصوصًا بعد رفضه المخطط الفرنسي.

وكان من الذين عملوا على الحفاظ على عروبة وإسلام قبائل الصحراء الطارقية وابنه محمد علي الأنصاري الذي لجأ إلى ليبيا سياسيًا التي طلبت منه بعد وقت تحت الضغط الاستعماري مغادرة أراضيها خلال 48 ساعة فغادرها إلى مصر بعد موافقة الرئيس جمال عبد الناصر، وكان الأنصاري قد التقاه هو وزوجته زينب سرور خير الله التي ألم بها وجع المخاض في الطريق فولدت

ابنتها الأميرة بلقيس في مدينة البيضاء عام 1959م[63].

وقد خيّر المستعمر منسقي الطوارق بين البقاء تحت إدارة الاستعمار الفرنسي إلى مدة مؤقتة ثم تكون لهم الدولة الصحراوية الكبرى «شمال النيجر وبوركينا فاسو ومالي وشرق موريتانيا وجنوب الجزائر وليبيا وغرب تشاد» أو يقتطع كل جزء هم فيه من هذه البلاد داخل حدود الدولة المجاورة له ويستقل معها، وعارض بعض أمراء الطوارق وأمراء البرابيش هذه الفكرة، يقول أبو بكر الصديق المولود.. دعاهم مهمن الحسن التنبكتي رئيس الجمعية الوطنية - آنذاك - بالخديعة إلى انتخاب رئيس حزب الاتحاد السوداني الإفريقي موديبو كيتا مع الوعد بإقامة دولة مندمجة بين البيض والسود لا عنصرية فيها ولا قبلية فرحبوا بذلك على أساس أن الدولة ستطبق الشريعة الإسلامية، ولكن الأميرمحمد علي بن الطاهر والقاضي محمد محمود بن الشيخ «الأرواني» وسعد الدين المهدي الأنصاري حذروا من ذلك وأعلنوا لهم أنهم إن فعلوا فسيقبعون في أشد من استعمار أهل الغرب[64].

وهرب البعض من العرب الأنصار - الذين أنفوا استمرار حكم المستعمر الزنجي الجديد بديلًا عن الاستعمار الفرنسي المقيت فبحث بعضهم عن موطن الآباء - حنينًا إلى تاريخ أجدادهم الأول في نصرة ورفعة الإسلام فهاجروا إلى السعودية «1379هـ/1960م» في عهد الملك عبد العزيز آل سعود - ومنهم الأمير محمد المصطفى المعروف بـ«إتَّها» أمير بني أبيّن ومن والاهم، التقى الملك وأعلمه بمكانته وسط قومه فأكرمه وحفظ له منزلته[65]، كان الأمير «إتَّها» قد اصطحب معه من الإخوان والأولاد، ولكنه حن بعد سنين إلى مرابعه وأهله فعاد إلى بلاده أزواد، وقد بدا عليه الضعف لكبر سنه وكثرة أمراضه لكنه لم يزل قوي النفس ماضي العزيمة متضلعًا بأمور العلم والإمارة معنيًا بشئون الأسرة، يؤمه أهل المنطقة كلها من الأنصار والطوارق والبرابيش والسودان فمكث سنين يقضي ويفتي[66].

وكان ضمن أعيان الأنصار الذين رأوا في تسليم فرنسا أراضي أزواد للدولة

الجديدة «مالي» هو إزاحة لإمارتهم وسلطانهم، بعد أن أصبحوا وقد سُلبوا الحكم وليس لهم وسيلة لمواجهة الأوضاع، فاختاروا الحجاز، ويؤكد الدكتور عبد الله مهدي الأنصاري: أن الحديث عن الهجرة إليها كان قديمًا فيهم لأنهم يعتبرونها موطنهم الأول، فلما قدموا إلى المملكة رفعوا أمرهم إلى ولاة أمورها واستأذنوهم في الاستقرار والبقاء - التماسًا مكتوبًا - فضلًا عن حديث الأميرين محمد علي بن الطاهر ومحمد المصطفى بن سيدي «إتَّها» إلى الملك سعود بن عبد العزيز وأخيه فيصل وتم قبولهم في المدارس.

وعندما التقى الملك سعود أطلعه على الوثائق التي يحملها وتثبيت إمارته على قومه وأنه أحد زعماء الأنصار في الصحراء فرحب الملك وسمح له بالبقاء ومنحه كتابًا إلى وزارة الداخلية لتسجيل أسرته في المملكة، ومنذ عام 1960 أصبحت أسرة الأنصار الإنفيين جزءًا من سكان المملكة السعودية.

بعد استقرار الأميرين محمد المصطفى «إتَّها» ومحمد علي بن الطاهر في السعودية تابعتهما حكومتا فرنسا ومالي بادعاء اتهامهما بمعارضة تحرير الأرقاء فصدر أمر بالقبض عليهما للتحقيق، ولكن محمد علي الطاهر استطاع الهرب إلى الجزائر، فتعقبته حكومتا فرنسا ومالي ضمن خطة للقضاء على زعماء البلاد لإخماد صوت الثورة المطالب بالاستقلال وقُبض عليه في الجزائر.. وفي المغرب مات الأمير محمد علي بن الطاهر بعد محاولات لفت اهتمام أو انتباه العالمين العربي والإسلامي، ولكنه لم يوفق نظرًا لعوامل منها استحواذ الصراع العربي الإسرائيلي على كل اهتمام العرب.

وللعرب حاليًا في «أزواد» تكوينهم العسكري المتمثل في الحركة العربية الأزوادية رئيسها حسين غلام «عقيد سابق في الجيش المالي» كان مسئول الوحدات في الحرس الوطني ومقره قاعدة تمبكتو وانشق مع مجموعة من الضباط منهم آمر منطقة جاوا سابقًا «العقيد سيد أعمر محمد وحاليًا هو آمر قوات الحركة العربية» ومعهم مجموعة من زعماء قبائل البرابيش مثل ألدينا ولد الداية، ومحمد الأمين ولد سيدات زعيمان في قبائل البرابيش ولديهم

ميليشيات، وهذه الحركة امتداد لحركة التسعينيات.. وعلي إدريس هو مسئول الحركة في أوروبا.

العربي أبو بكر الصديق قائد الجبهة السابق الذي قتلته مالي عام 1994 كان ضمن مجموعات الماليين الذين دفع بهم القذافي إلى لبنان في بداية الثمانينيات ثم في حرب تشاد من 1986 إلى 1988 وفكروا في إعلان الحركة العربية بعد إعلان إنشاء الحركة الوطنية لتحرير أزواد كرد فعل لكي يمكن مواجهة الاستعمارية التقليدية المالية التي يمكن أن تنقلب عليهم في حالة استطاعتها التخلص من حركة الطوارق «مانيلا» كما حدث سابقًا تحت مسمى «شعلة السلام» عندما سلموا أسلحتهم في «جاوا».. وبعدها تمت اعتقالات عشوائية واضطهاد وخطف العناصر المؤثرة وشيوخ القبائل، وقام الطوارق بتمرد بين عامي 2006 - 2009، لم يشارك العرب فيه تعقلًا للبقاء في نطاق الحكومة حتى لا ينقلب التمرد إلى نكسة مرة أخرى على التجار العرب.

وبعد سقوط القذافي أعلن تكوين «حركة تحرير أزواد» وهرب الطوارق والعرب من ليبيا بجميع أنواع الأسلحة - صواريخ دفاعات أرضية وهاونات - ما يقرب من 150 سيارة في القافلة الأولى قبل سقوط طرابلس بـ10أيام، وجاءت بعدها مجموعات أخرى قتالية مكونة من 150 سيارة أخرى محملة بالأسلحة والمال وأعلنوا بعدها الحركة الوطنية لتحرير أزواد.

ويحكي علي إدريس أحد الضباط العرب الأزواديين في «قاعدة 2 مارس» بطرابلس على اعتبار أنه كان واحدًا من 62 ضابطًا عربيًا: «كنا بوصفنا ضباطًا وجنودًا ماليين نعامل في ليبيا معاملة الليبيين لأن جزءًا كبيرًا من الماليين أوهمهم القذافي أنه يدربهم تدريبًا عسكريًا وسياسيًا لكي يكون لديهم عند عودتهم الكوادر التي يصنعون بها حركة تحرر ثم دولة، ودفعهم إلى جنوب لبنان من نهاية 1981حتى 1985 وظل أكثر من 200 عنصر منهم ومن النيجر في لبنان لفترة، ومنهم أبو بكر الصديق قائد الجبهة السابق الذي قتلته مالي عام 1994، وكوّن منهم القذافي بعد ذلك كتيبة «المغاوير» التي احتلت تشاد

ومنهم من مات فيها، أما من عاد فقد رجع بخبرات عسكرية استخدمها في تدريب قواته الليبية في بني وليد وبنغازي وسبها والكفرة، وكتيبة «32معزز» «قوات حماية القذافي نفسه كان بها 180 من طوارق وعرب مالي» وكان معهم وقتها العقيد محمد عبد الرحمن ميدو «ضابط عربي مالي في الجيش المالي وما زال مع النظام المالي».. هؤلاء عادوا إلى مالي عام 1991ومعهم أياد أج غالي وكانت الحركة الشعبية لتحرير أزواد M.D.A موجودة وهي التي تفرعت منها حركات أخرى.. ومن عادوا من ليبيا كانوا يحملون فكر الثورة والتوحد تحت راية واحدة، وكانت الحكومة المالية قد قامت بمجازر، وأسست وقتها الجبهة الإسلامية العربية لتحرير أزواد «F.E.A.A».

يقول علي إدريس: أعلنَّاها لأن حكومة مالي ورئيسها توماني توري قام بانقلابه على موسى تروري في 20 مارس1991 وقام بمجازر ضد العرب.

وكانت أول عملية قامت بها الجبهة هي عملية «خويبة رأس الماء» 30 كم شمال غرب تمبكتو بقيادة عقيد سابق في الجيش المالي وهو من «مجموعة لبنان» ميني سيدي محمد، وكانت عملية هجوم على قاعدة عسكرية مالية بأسلحة بسيطة عبارة عن بنادق صيد ومسدسات قديمة، وكان أول سلاح تحصل عليه الجبهة كغنيمة من الجيش المالي ووصل الهاربون الماليون طوارق وعربًا من ليبيا ومعسكراتها ووصلوا إلى معسكر الجبليات 100كم من حدود موريتانيا.. وبدءوا العمل المنظم وتدريب الجبهة العربية الإسلامية وقاموا بتدريب الشباب تدريبًا جيدًا وانضم الطوارق للتدريبات وأنشئوا الحركة الشعبية لتحرير أزواد حتى أصبح بعد فترة أكبر معسكر في شرق مالي في منطقة «تينة دمة»، وأكبر قاعدة للجبهة استمر حتى عام 2005 وقامت الحركة بعدة عمليات ضد حكومة مالي في المدن الكبرى.

ولذلك عندما أُعلن إنشاء «مانيلا» الحركة الوطنية لتحرير أزواد، فكر العرب في إعلان إنشاء الحركة العربية كرد فعل لكي يمكن مواجهة القوتين.. الأولى: الاستعمارية التقليدية المالية التي يمكن كعادتها أن تنقلب عليهم في حالة

استطاعتها التخلص من الطوارق طبعًا لوجود بعض العناصر العربية في «مانيلا» إلى جانب العنصر الطارقي.. الثانية: الطوارق الذين يمكن أن يمارسوا نفس قهر الدولة المالية على العرب بسبب تنافس قديم ومستديم بينهما «العرب والطوارق» خصوصًا أن للعرب استعلاء باللغة وبالنسب الشريف.. ويؤكد قادتها :من الناحية العسكرية لسنا انفصاليين ولا جهاديين، نحن لا نريد حربًا مع الماليين ولا مع الطوارق والإسلاميين حفاظًا على وحدتنا مع الطوارق وحفاظًا على وضعية العرب المتميزة وحماية لشعبنا المشرد في معسكرات اللاجئين في البلاد المجاورة وإعادتهم وحماية مناطقنا في «تمبكتو» وهو ما يمكن أن ينتشل شعبنا من الفقر ويعالج تهميشه ولذلك عندما طلب الجيش المالي من القيادات العربية السماح لأفراده بالخروج الآمن بدون أسلحة فعلنا وأمنًا وصولهم إلى الحدود المالية.

وعندما ظهرت حركتا «أنصار الدين» و«التوحيد والجهاد» وجاءوا إلى «تمبكتو» و«جاوا» بأسلحتهم اتخذنا قرارًا بعدم المواجهة العسكرية وتجنب أي حرب مع الإسلاميين انسحبنا من داخل تمبكتو إلى مواقع شمالها بمنطقة «تينة دمة» «جبل دمة» و«عين فارق» على الحدود الجزائرية ومنطقة بئر الهوميزة.

رغم أن قوتنا في ذلك الوقت كانت 1700شاب التحقوا بالتجنيد في أول أسبوع أعلنا فيه إنشاء الحركة وسيطرنا بهم على تمبكتو وأبلغنا الطوارق أن لنا الشرق وبذلك تلافينا الدخول مع الطوارق في معارك كما حدث عام 2009 في معركة «تمبكتو» بين قبائل عربية «برابيش» والقاعدة بتنظيمي عبد الحميد أبو زيد ومختار بلعور وخسرنا فيها 35 شابًا منهم قيادات عسكرية ومنهم العقيدان «لامانا ولد آبو» و«حما ولد محمد يحيى» والنقيب «إحمدتو نيرا» «ضباط الجيش المالي عندما اندلعت الأحداث اشتركوا مع إخوانهم العرب».. وقتها لم تحرك حكومات الجزائر ومالي وليبيا وموريتانيا ساكنًا ولم يتدخلوا، وكذلك عندما قتل تنظيم القاعدة العقيد «لامانا ولد آبو» أمام أولاده في منزله، لم تطلق حكومة مالي رصاصة واحدة بل شاركت في تسهيل عملية قتله لأنها

كانت تخشى منه وترى أنه الرأس الجديد للقوات العربية في الشمال.

وقادة الجبهة العربية يأملون أن يكون لهم صوت أكثر علوًّا في الحالة الراهنة، وبالتالي أكبر كسبًا.. وتتركز قوة الجبهة العربية في الشرق قرب الحدود الجزائرية، وأيضًا غربًا قرب حدود موريتانيا 700جندي وضابط مع الأسلحة واقتصاد داعم يمكن لهم حشد 7 آلاف جندي عربي.

***

الدخول إلى تمبكتو

طويل جدًّا هذا السفر ومرهق إلى حد الانتحار، أكثر من ألفي كيلو متر قطعتها في سيارات متهالكة محشورًا بين جسدين في كبائن سيارات عبأتها رائحة العرق وتلكؤات الزمن في اتحاد أسطوري مع الضياع والألم وانفلات الخارجين بزمانهم ومكانهم من العالم الذي نحيا به. ووعورة طرق لم أعهدها في أي مكان زرته تحملتُها برضا رغبة في اكتشاف المجهول استهلكت خمسة أيام من الوقت في السفر باتجاه «المدينة العجيبة» ومن الجسد عمرًا من الإرهاق والضجر أسلماني لفقدان الشهية لأي شيء إلا لصورة تصطادها عيناي أو كلمة تسمعها أذناي أو لقطة فوتوغرافية أحفظها في آلة التصوير معي، كنتُ كالباحث في اللاشيء. كأني في العدم، ولكنه الأمل في الوصول إلى النتيجة، وهو سر رحلتي إليها، تلك «المدينة العجيبة» التي ألهبت خيال الرحالة الأوروبيين، وكانت مثار إبداعاتهم.

اقترنت البهجة بالوصول إليها بازدهارها الذي كان وقودَه العلماء الزاهدون الذين جاهدوا وتحملوا كما أتحمل الآن مشاق الطرق وغلبة الخوف عليه مثل عبد الله بن ياسين «توفي 451هـ/1059م» التقي الورع الفقيه الذي انتدبه «وجاج بن زولو» اللمطي لارتياد صحراء الملثمين بصحبة يحيى ابن إبراهيم الصنهاجي[67] الذي عرج - في عودته من الحج - على القيروان ليسأل أبا عمران الفاسي «شيخ المالكية فيها ت 1039م» أن يمنحه أحد تلاميذه لتعليم قومه دينهم في الصحراء، فقبل ابن ياسين وتصدى للرحلة بحماس شديد معتمدًا على الله راغبًا في ثوابه وهو ما أفعله الآن، فهل أكون أوهن عزيمة منه أو أقل قدرة على تحمل مشاق تحمل هو أضعافها في سبيل الوصول إليها، وغامر الحسن الوزان ليو الإفريقي في بدايات القرن السادس عشر للوصول إليها بعد أن سحرته حكاياتها فأراد أن يعيش فيها لفترة؟

سحرتني المدينة وهأنذا أجازف بعمري غير خائف، وكأني أتمثل بالوزان

وجملته: إن الوصول إليها هو سر أسرارها.. حمدت الله أن قطعت المسافة إلى مشارفها في خمسة أيام وهذا أفضل من حال الوزان، وبارث وفيلكس الذين تحملوا شهورًا للوصول إليها، خفف عني تذكر هؤلاء كل الألم، وقررت الاستمتاع بالرحلة مع السائقين الشباب الذين أجملوا ليلة الوصول بعد أن خيمنا على بعد 40 كم منها أنزلوا أواني الطبخ والماء والفحم للنار من السيارات، تولى أحمد وعلي ولد الداه الاهتمام بي وبمحمد أحد السائقين، شغَّل له أحدهم أغاني أفراح الطوارق، فقد كان عُرسه بعد ليلة أخرى من وصولنا إليها.. زينوا الليلة ببهجة انتظار العُرس وأغانيهم ووصاياهم للعريس، وزينتُ ليلتي بانتظار الوصول إلى «تمبكتو» عببتُ من «الأتاي» ما شئت ثم فرش لي «آدم» حصيرًا ومنحني بطانية ممزوجة أليافها الصناعية بشحم مواتير السيارات وعرق الشقاء.. ولكني فضلتُ - اتقاءً للبرد في الصحراء - التدثر بالبطانية داخل كابينة السيارة، ورغم إرهاق السفر وبرد الصحراء فإن شيئين منعاني من النوم سريعًا.. الرائحة في الكابينة، وانتظار المجهول في «مدينة الأسرار».. فشجعت نفسي على الاستعداد الجريء لغريب الحوادث وأسوئها متجملًا بالصبر والشجاعة.. فقبل أيام ذبحت حركة «التوحيد والجهاد» دبلوماسيين جزائريين، وخطفت من داخل الجزائر - تندوف - ثلاثة من عمال الإغاثة الأوروبيين، وقتل على الطريق نفسه ستة عشر رجلًا نصفهم من الموريتانيين، ولذا فعلي إن أردت الوصول الاستعداد لكل احتمال.. حتى الذبح، فالقتل قائم منذ القدم، ويحفل تاريخ القبائل في تمبكتو بحكايات قتل الغرباء، فأول رجل أبيض سجله التاريخ جاء في رحلة استكشافية لـ«تمبكتو» قُتل على يد شيخ قبيلة البرابيش، والميجور «لاياج» الفرنسي قُتل عند مغادرتها عام 1834 بتحريض من الشيخ أحمدو «لوبو»[68]، والميجور البريطاني «جورد لينج» دفع حياته ثمنًا للوصول إليها.. ولم يصل، لا بد أن أهلها كانوا يستشعرون رغبة هؤلاء في الاستيلاء على ثرواتهم واحتلال بلادهم فكانوا يتوجسون منهم وأحيانًا كانوا يتعمدون محاصرة المستشرقين بالصمت والشك والريبة، وأحيانًا كانت هذه الريبة تقود لقتلهم، كما حدث مع «روني كاييه» الذي احتال

على الشيخ الكنتي وبعض أعيانها ليحصل منهم على الأمان، ولكن أحمد بن أعبيد أمير البرابيش بتمبكتو لم يقبل ذلك فتعقبه عند خروجه إلى «أروان» وما إن وصل إلى «أسهب» عند «الاتلية الكبيرة» للراحة تحت شجر الطلح حتى قتله وأحرق كتبه وأوراقه ومتعلقاته[69].

أما الرحالة الشهير «بارث» فقد نجا من الموت بأعجوبة عندما حرض عليه الشيخ أحمدو بعض الرجال فتعقبوه، ولم ينقذه من الموت والأخطار الجمة التي واجهته في رحلة هروبه سوى الشيخ أحمد البكاي بن سيدي مختار الكنتي[70] تاريخ طويل من القتل للغرباء.. فهل يذبحني أحد القتلة الجدد؟ أم أزدادُ هيامًا بها فأسكنها حتى أموت فيها مثل «رينييه كاليبه» الفرنسي الذي سجل أنه «لم يكن يحلم إلا بالوصول إليها بعد أن عشقها».. وتحمل أخطار الطرق حتى وصل إليها فازداد هيامًا بها وسكنها حتى مات، غُصتُ في استحضار هذه الذكريات حتى غفوت.

دقات متسارعة للسائق أحمد على نافذة السيارة أيقظتني... أحاول النظر إلى ما حولي أين أنا؟ على سرير أم على تختة في مدرسة؟ في الهواء أم في حديقة؟ وهل الطقس صيف أم شتاء؟ أكاد أُجن أين أنا؟ باغتت عينيّ أضواءُ كشافات صغيرة تتناثر في ظلام الصحراء، أفقتُ رغم أن عينيّ كانتا مفتوحتين ولكني كنت كأنني ممن ينظرون وهم لا يبصرون.

صوت مواتير السيارات وضجيج الشباب، بدأتُ في العودة إلى الوعي لأدرك أني في الصحراء، وضوء برتقالي يبزغ من اتجاه الشرق البعيد وكأنه نور ينبثق من الأرض... قال أحمد: سنقطع آخر مرحلة إلى تمبكتو، 40كيلو فقط ونصل إليها.. ومد يده بإبريق ماء كي أستعد للصلاة... الوضوء في عراء الصحراء وبردها دائمًا يكون على المكاره.. وهو ما كان.. فالماء شديد البرودة في صقيع الصحراء في الفجر، تذكرت فجرًا آخر باردًا ووضوءًا على المكاره في «حلب» حين وصلت إليها قادمًا من «طرابلس» لبنان وليس معي سوى مائتي ليرة لا تكفي لمبيتي إلا في فندق «قصر البابا» الرخيص المتواضع حيث

لا ماء ساخنًا، فتوضأت في شتاء يناير حيث اقتربت برودة الماء من لسع النار، تذكرت النار.. هي النار التي أنا مقبل عليها، تدخل بنفسك أيها المجنون الذي لا تقدر حجم الأخطار في بؤر الخوف ومسالك الهلاك. تحذيرات الجميع من قسوة هؤلاء «الإرهابيين» وساديتهم بدأت تطل من ذاكرتي إلى قلبي.. إنهم يجلدون شارب الدخان ستين جلدة. لذلك أخذ أحمد مني سجائري وأخفاها لي في سيارته لأنها إن ضُبطت معك أثناء تفتيش حقيبتك فستُجلد.. ضع ما ستبقيه معك في جيوبك، هم يفتشون الحقائب فقط ولا يفتشون الملابس، قال لي رفيق رحلتي «شيخ» فألقيت سجائري في جيوبه هو، سألني: أتخاف؟ قلت: وكيف لا؟!! وأنا أضاحكه.. فكرت لحظة أن يظنني خفتُ فأوضحت ضاحكًا: لا.. خوفي من الجلد في البرد.. كنت كمن يقبض بيديه على قطعة من الجمر والعذاب.. عذابٌ هذا السفر.. أو هو قطعة من العذاب، كما قال نبينا المصطفى الذي كان رقيقًا يبتسم وهؤلاء لا يعرفون مزاحًا ولا ابتسامًا، عابسون يظنون أنهم بالقسوة والدماء التي يريقونها باسم الله سيصلحون العالم، يخطفون الأجانب.. لست أجنبيًّا.. اختلف الجميع في تصنيفي أجنبي أم أخ بحكم الصلاة والحديث... قال آخرهم: خطفوا مثلك عربيًّا مسلمًا.. وذبحوا قنصل الجزائر.. أبشر! لم أُقتل في الصومال ولم تطلني رصاصة أو شظية في ليبيا أو سوريا، فهل يقتلني «الإرهابيون» في «أزواد»؟! آمنت أن للموت وقتًا معلومًا وللإنسان منّا عمرًا محدودًا و)أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِككُّمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُشَيَّدَةٍ([71]، و)وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ([72].

أما التعذيب فسيكون فيه تخليص لبعض الذنوب، وهكذا إن مِتُّ كنتُ الرابح، فأقبلت بقلبي فرحًا على الدخول إليها.. بعد ساعة تقريبًا لاحت مبانيها عن بُعد فازددتُ ابتهاجًا وهي تزداد اقترابًا. عند مدخلها الجنوبي الغربي، وقبل بوابتها التي حرستها مدرعة سرقت من الجيش المالي عُلق فوقها «العلم الأسود» بدت غرفة طينية صغيرة يجلس أمامها بعض الرجال، وعلى الجانب الأيسرانتصبت لافتة كبيرة «تمبكتو مدينة بُنيت في عهد الإسلام ولن تُحكم إلا بشرع الإسلام»

كان توقفنا قبلها بمائة متر ليترجل السائقون إلى الرجال يطلعونهم على تصريح الدخول، ثم عادوا ومعهم اثنان منهم لتفتيشنا والسيارات، كان تفتيش السيارات عبارة عن نظرة على البضائع المحمولة في صناديقها والنظر في الكابينة، أشار أحمد إليَّ وهو يقول لهما: مصري.أخرجت جواز سفري. مددت يدي به إلى أكبرهما - خمسيني - فتناوله الأصغر الذي لا يتعدى عمره ثمانية عشر عامًا - تقريبًا - سألني: لماذا جئت؟ حاولت أن أوجه حديثي للكبير، ولكنه انصرف عني لمتابعة النظر إلى السيارة في حين لفتني الأصغر إلى أنه الآمر. فأجبته: لماذا؟ وأردفتُ: اتصلت بالشيخ ساندا وأحالني للشيخ يوسف، وأعطاني رقمه. قال: اتصل به.. طلبتُ يوسف. هاتفه مغلق. ظننتُ أنهم سيمنعوننا الدخول إلى أن يرد علينا ويسمح لنا، لكنه طلب حقيبتي. فتحها، تحسس كل ما فيها وهي ملابسي، ومدها لي، أغلقها. تركنا دون كلام وانصرف فركبنا لندخل المدينة. كان أول ما صادفته على اليمين المجموعة الفندقية الليبية التي غلب على بناياتها اللون الأخضر وسط كثبان الرمال الصفراء، في شوارع المدينة الضيقة نسبيًّا تمثلت روح الازدهار العلمي والثقافي، الكتل الحجرية التي بنيت بها بعض البيوت، والرسوم والنقوش التي زينت عددًا منها، ونسيمها الذي تنفست فيه وصايا العلماء ودروسهم التي تناثرت أحرفًا طاهرة مباركة في أرجائها.

هل هذه هي المدينة التي تعج بأكثر من مائتي ألف تبدو هكذا خاوية؟! ولم لا؛ فقد لجأ أكثر أهلها إلى دول الجوار هربًا.. فبدت شوارعها خالية وهي التي كانت خلال القرن السادس عشر يزيد سكانها على خمسة وثلاثين ألفًا، وسكنتها نسبة كبيرة من أغنياء التجار نتيجة وقوعها على طرق الحج والتجارة، بل أصبحت من أهم محطات القوافل.. وحظيت بوجود ثلاثة مساجد كبرى جامعة عزَّ وجود مثلها مجتمعة في أي مدينة كبرى من مدن الغرب الإفريقي أو السودان الغربي قاطبة.

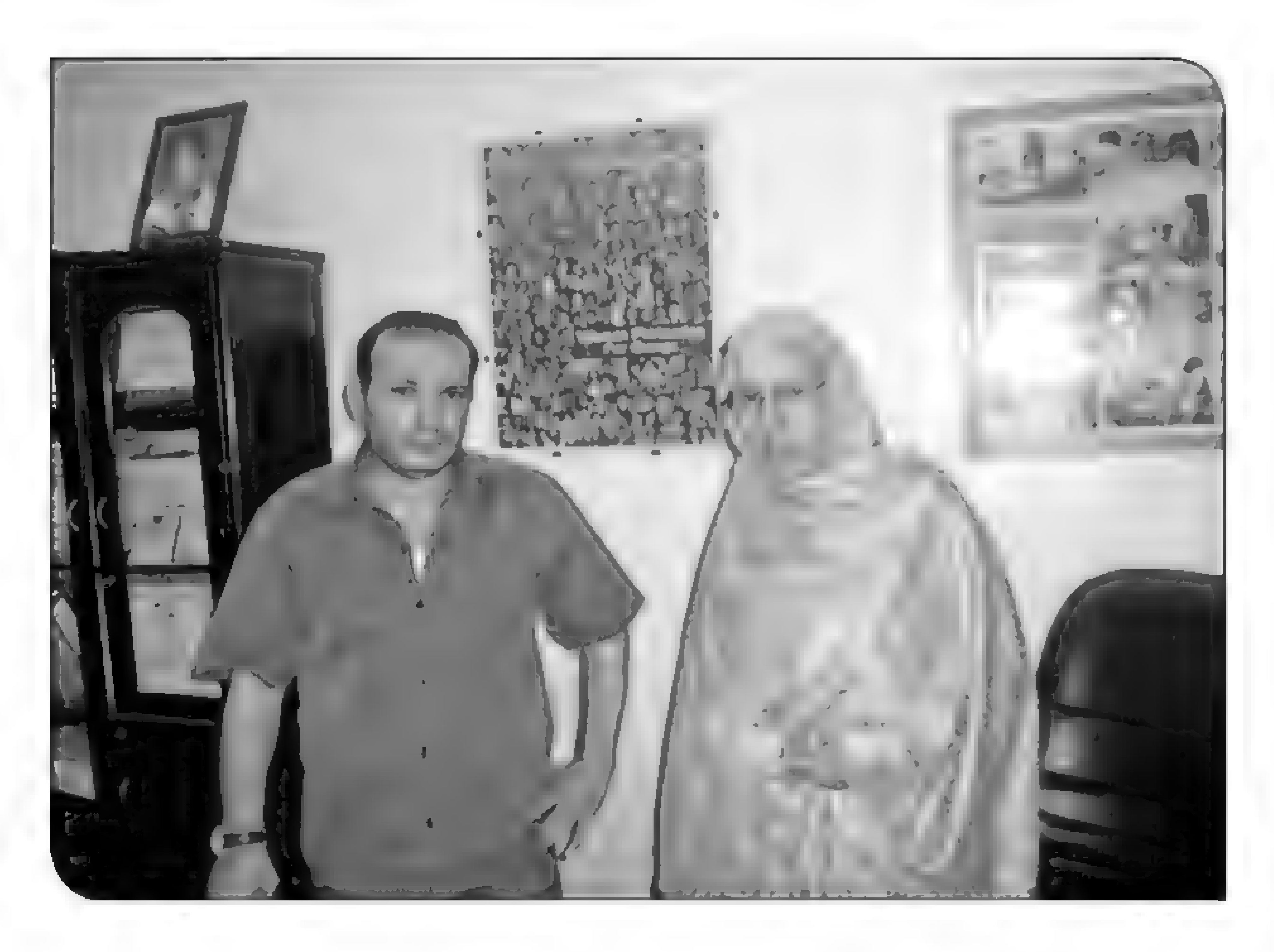
تمنيتُ لو عشت فيها هذا الزمن وتلقيتُ تعليمي فيها مع أبناء السلاطين الذين

تلقوا تعليمهم في جامعة «سنكري»، وبرز فيها عدد من العلماء منهم القاضي عبد الرحمن بن أبي بكر الذي تولى القضاء في أواخر دولة مالي، والشيخ عمر الساكن الذي تولى القضاء في عهد أسكيا محمد، وغيرهما ممن أسهموا في إثراء الحركة الثقافية، وكانت الدراسة في هذه الجامعة غير محدودة الزمن، إنما كانت رهنًا بفراغ الطالب من قراءة عدد معلوم من كتب الفقه والحديث والنحو والبلاغة والمنطق واللغة العربية[73].. منها كتب القاضي عياض والصحيحان وعلم الحديث والسير ومنها كتب علماء الأزهر الشريف، وجامعتي القيروان والزيتونة، ومنها مختصر خليل الذي اعتبر في ساحة القضاء الفقهي لكامل تراب الغرب الإفريقي أحد أهم أعمدة الأصول في فقه الإمام مالك.

هاتفت يوسف مرة أخرى فرد عليّ.. طلب أن أعطي الهاتف للسائق.. أخبره بالمكان الذي سيستقبلني فيه.. وتوقف أحمد أمام أحد المحلات الذي بدا خاويًا من بضائعه إلا بعض معلبات وأطباق فارغة وزجاجات مليئة سوائل لونها أصفر وأخضر خفيف وثالث يميل إلى اللون البني. هي زجاجات خمر فيما أعتقد. هل ما زال الناس يبيعون خمرًا؟ سألت «شيخ» ضاحكًا فقال: لا هذي السوائل «بنزين وسولار» من المهرَّب من الجزائر.. توقفت أمامنا سيارة جيب بيضاء، هبط منها شاب نحيل يرتدي الزي الأفغاني وفي وجهه لحية صغيرة هي كل ما نبت من شعر في ذقنه، ويحمل بندقية على كتفه، أشار لي، سألته: يوسف؟ قال: نعم هات حقيبتك واركب. لم يترك لي فرصة لوداع رفاقي إلا بإشارة من يدي. كانا شيخ وأحمد وكأنهما سعيدان بعدم توقفه كثيرًا أو عدم الحديث معهما.

انطلق بسرعة لا تتناسب مع ضيق الشوارع ولا الوقت المبكر من الصباح، وإن أشعرتني برغبته في تأكيده لي على سيطرتهم على كل شيء في المدينة.

* * *



مع آمنة بنت المختار رئيسة إحدى جمعيات مناهضة الرق



مع بو بكر مسعود رئيس جمعية نجدة العبيد



السيارة التي انتقل عليها المؤلف إلى «تمبكتو»



استراحة الصباح لتناول الإفطار



مع السائقين أحمد الصغير والشاب شيخ وأكواب الشاي الأخضر

رهبة الأسر

لم يساورني شك في تعاون عثمان مع هؤلاء التكفيريين، أو على الأقل مداراتهم، فعدد الفنادق في «تمبكتو» ثلاثة عشر فندقًا، ولكن إصرار يوسف على اصطحابي إلى هذا الفندق «نُزل الصحراء» تحديدًا، وهو يخبرني بوجود صحفي به سيساعدني فيما أريد جعلني أدرك أن «إيداعي» هذا الفندق تحديدًا لإمكانية مراقبتي، تأكدت من ذلك عندما أبدى عثمان استعداده للمساعدة وحرصه على أن يحضر لي شريحة هاتف، فطنتُ لإمكانية مراقبة مكالماتي ورسائلي النصية، وإن بدا لي افتقارهم إلى الإمكانيات التي تحوزهم أجهزة تنصت ومراقبة، حتى وإن كان فلا يهم، فلن تصدر عني مكالمات تسيء إليهم أو تُغْضبهم، لأني اعتدت الحياد في أي مكان أذهب إليه.. إذن لا ضير، ولكن ذلك نبهني إلى عثمان، أو هكذا ظننته - وليس كل الظن إثمًا - ولكني على كل حال استأنست به وأحببته.. كانت حاجتي إلى النوم على سرير داخل أربعة جدران أقوى من مقاومتي لها بحاجتي إلى بدء العمل، ساعدتني على ذلك كلمات يوسف بأنه سيتركني لإنجاز بعض مهامه وسيعود لي بعد أن أكون رتبت أموري وحددت طلباتي وأسئلتي، أومأ عُثمان إلى موظف الاستقبال الشاب الصغير فأعطاني مفتاح الغرفة 32 وكانت منفصلة عن جسم الفندق تقع على يسار الداخل من بوابته، وحدها تطل على حديقته الخلفية، ونافذتها على الشارع.. بسيطة ولكنها مريحة جدًّا وهادئة.. أفرغت ملابسي من الحقيبة ونزعت عن جسدي ما أرتدي استعدادًا للاستحمام، تطفل عصفور بالدخول من النافذة الخلفية، رحبت بزقزقته، نظرت إليه، كان منقاره وقدماه بلون الدم!!

استحممتُ.. وغفوت ساعة أو أكثر.

استيقظت من نومي تتملكني رهبة الأسر الذي أضحيت فيه، يتنازعني القلق وتحيطني الريبة والضجر من تركي وحيدًا في الفندق الموحش فلا حركة ولا أصوات كالتي عهدتها في مثله، ولا أحد غيري وعثمان.. بقيت دقائق، لا أعرف

ماذا سأفعل وقد نبه عليَّ يوسف بعدم التحرك!! خرجت لأقف أمام الفندق.. شارع في الضحى، خالٍ من الناس، تلفتُّ يمينًا ويسارًا، لا أحد سوى رءوس تتحرك من بعيد، فوق أكتاف تحمل بنادق آلية تنظر إليَّ، هاتفت يوسف.. لم يجب، تمنيت لو كنت أخذتُ رقم الشاب شيخ، لعنت لحظة أن جاءني يوسف فتسرعت مبتعدًا عنه، عدت إلى الفندق، هاتفت عثمان الذي جاءني، سألته عما يجب؟ وأين الشيوخ؟! قال:انتظر.. لا تتحرك إلا بعلم.. ماذا؟ وهل سأظل هكذا؟!

جاءني الجواب بعد ساعتين من الانتظار على يد أحدهم ممثلًا في «خطاب التعليمات» الحازمة بعدم مباشرة أي عمل، أو حركة في المدينة، إلا مع مرافق مهمته «المراقبة» - هكذا بوضوح - والتوجيه.. عدم التصوير ليلًا، وعدم تصوير النساء في غير اللباس الشرعي الذي أُلزمَ به في «الولاية»، وكان ذلك ضمن ما أعلنوه من تعليمات للمواطنين - بعد إعلان الإمارة - بأن تستتر المرأة بلباس واسع، غير شفاف، ساتر لجميع الجسد، غير مزخرف، ولا مزين، ولا معطر، وألا يكون مشابهًا للباس النساء الكافرات.. وماذا لو تزينت الكافرات؟ فكرت أن أسأل يوسف، ولكنني فضلتُ الصمت، ومن التعليمات أيضًا التعهد بعدم استخدام المواد الإعلامية لأغراض أخرى.. غير المجال الصحفي!!وتقديم نسخة من العمل لمراجعته من قبل اللجنة الإعلامية، وهذا أمر عسير وغير ممكن، ولكنني لم أبد اعتراضًا لأنني لا أملك الاعتراض.

أردت رؤية النهر، ولكن التعليمات إليَّ بعدم الحركة بلا مرافق.. أشعرتني بأن أنفاسي تُعد عليَّ، فما دمت في بلد يجب أن تلتزم بقوانينه، هكذا تعلمت، لم أنس أنهم رحبوا بي وأخبروني أنهم لم يوافقوا على دخول أي صحفي أجنبي.. فبعد أن وصل صحفيان من فرنسا وبلجيكا إلى طونكي «200كم من تمبكتو» رفضوا دخولهما وأعادوهما إلى الحدود الموريتانية.. ولكنك مصري من بلد شيخنا وعلى اسمه - يقصدون الظواهري - ومن الأهرام، فأهلًا بك، وأعلن يوسف أنهم يرفضون دخول القنوات الفضائية خصوصًا العربية، ولكن

«الجزيرة» مُرحب بها.. لأنها تتعاون معهم ولا تشوه صورتهم!! ويمكنني التعاون مع قناة فضائية وتصوير لقطات لها ولكن بعد عرض اسم القناة عليهم أولًا. ولست أدري لماذا باغتني يوسف عند نهاية لقائنا قائلًا: «لا نمانع دخول الكفار إلى بلادنا شرط الالتزام بأوامرنا.. ومنها عدم شرب الخمر أو التدخين».. هل يشمون رائحة دخان السجائر؟ عقوبة شاربها الجلد ستين جلدة.. لم تكن هناك فرصة أختلسها لتدخين سيجارة، إلا في حمام غرفتي، وذلك يوترني لأن للغرفة شباكًا على الشارع، وبجواره كشك لبيع اللحم والمعلبات يجلس أمامه بعضهم، وبابها على ساحة الفندق.. يمكن أن يشم الدخان من يجلسون تحت النافذة أو العابر إلى صالة الاستقبال، وأغلبهم من «أنصار الدين» أو عملائهم، والجميع - لا شك - تحت سيطرة الجماعة، تركني يوسف ولم يحدد متى سيعود كي أبدأ عملي، ظللت لساعتين، مللت، وقفت أمام الفندق، أكثرت من التلفت على أي من عناصر الجماعة؛ لسؤاله عن يوسف الذي لا يجيب.. هاتفه مغلق، وكذلك هاتف عثمان، خرجت للتجول بضع خطوات غير بعيدة عن الفندق، سألت عن مركز المدينة، لم يكن بعيدًا، قررتُ المجازفة بالتحرك المنفرد، هأنذا في «تمبكتو» جوهرة الصحراء وبوابة العالم إلى إفريقيا السوداء، موطن الأولياء والعلماء.. فلماذا أستسلم لتعليمات وهمية وعجيبة وأترك فرصة لقاء أرواح الأولياء.. الذين هدم «أنصار الدين» مقاماتهم، وأشعر بأنفاسهم في المدينة التي جعلوها مصدرًا للإشعاع الإسلامي على القارة السوداء جنوب الصحراء.

تذكرتُ ما قاله قاضيها محمد الكابري: «أنه أدرك من صالحي سنكري[74] من لا يقدم عليه في الصلاح إلا أصحاب رسول الله»، وعبد الرحمن السعدي قال عنها: بلدة طيبة طاهرة، ما دنستها عبادة الأوثان ولا سُجد على أديمها لغير الرحمن. وجدت في شارعها الرئيسي لافتة كُتب عليها: «تمبكتو مدينة بُنيت في الإسلام ولن تُحكم إلا بشريعة الإسلام».. وهكذا يريد عناصر وقادة «جماعة أنصار الدين» - استمدادًا من طهارة تاريخ المدينة، التي لم تكن فقط «مدينة الأسرار» - «لافتتهم» هذه ونسخةً منها أخرى في مدخلها الجنوبي كانت تحرسها وتمنع

دخـول «الأعـداء» - مـدرعةٌ استولوا عليها من قوات الجيش النظامي المالي ورفعوا عليها علم القاعدة للتأكيد على مشروعية حكم جماعتهم التي كان لسانها كالمدينة «زمان» عربيًّا بحكم كثرة العرب فيها من موريتان وسودان ولـيبيين وتوانسـة وجزائريين ومصريين، لاستعادة الوجه واللسان العربيين اللذين أطلت بهما «تمبكتو» على حواضر العالم وقت ازدهارها.. وأشاعتهما فيما وراءهـا مـن بلدان جنوب الصحراء في الغرب الإفريقي خصوصًا أن النخب العلمية والدينية كانت نتاجًا للفائض الاقتصادي الذي وفرته تجارة الصحراء مع العالم العربي شمالًا وشرقًا تمازجًا مع الفائض الإنتاجي الذي وفرته تجارتا الذهب من «غانة» والملح من «تغازة وتاودني»..

تفاعل ذلك كله ليجعل الكتاب «المخطوط» العربي أهم السلع التي تباع فيها أو كما قال ليو الإفريقي[75]... «يباع هنا الكثير من الكتب المخطوطة التي تأتي من بلاد البربر ويُجنى من هذا البيع ربح يفوق بقية السلع»، كانت الكتب هي السلعة الوحيدة التي نافست الملح والذهب وكان الأساكي - سلاطين صنغي - يشجعون التعليم «العربي»، فكانت مكتبة «أسكيا داود» مثلًا ضخمة جدًّا، أفرد لـها جنـاحًا فـي قصـره، وبـه عـدد مـن النسـاخ ينسـخون الجـديد مـن الكتـب والمخطوطات التي تصل إلى بلاده، أو يشتريها له مندوبوه في عواصم الإسلام وحواضره المزدهرة بالعلم، وكان يتولى بنفسه توزيع نسخها على المعلمين، حتـى إنـه كـان يشتري الكتب ليمنحها لهم، يذكر بعض المؤرخين أن «أسكيا داود» اشترى نسخة من «القاموس المحيط» بثمانين مثقالًا من الذهب أهداها لمحمود كعت الذي ذكر في «تاريخ الفتاش»[76] أنه رأى نسخة من «القاموس المحيط» تباع في تمبكتو بثمانين مثقالًا من الذهب.

وازدادت أهميتها العلمية والفقهية وتضاعفت بعد سقوط «غرناطة» آخر معاقل المسلمين في الأندلس، بما حمَّل الهاربين منها كنوزًا من المخطوطات والوثائق والكتب والمقتنيات فضلًا عن المعارف والعلوم التي في الصدور فاستفادت من كونها نقطة التقاء للقوافل ومحطة من أهم محطات التجارة بين المغرب ومصر

وشنقيط وغانة وأجاديس فارتفع الفائض النقدي وراجت حركة الشراء فألهبت أسعار الكتب، خصوصًا أن هذه القوافل كانت دائمًا ما تحمل مع تجارتها من التوابل والذهب والملح طلاب العلم والفقهاء والحجاج، فكان ليسر الوصول إليها مع القوافل سهم كبير في ازدهارها الفقهي.. كما زادت أهميتها مرة أخرى بعد سقوط دولة «الأدارسة» في المغرب وتفرق البيوت المنتمية إلى العائلة الحاكمة في الصحراء إثر تعرضها للقهر والمطاردة .

استحضرت في تجوالي روح المدينة العالمة القديمة، شعرت بحماية أوليائها الصالحين لي، تنسمتُ فجر العلم فيها وشعرت بأنفاس أوليائها تملأ جنبات الشوارع.

وعلى كثرة أوليائها وعلمائها ومؤرخيها الذين أسهموا بحظ وافر في انتشار الإسلام ورسوخه في الغرب الإفريقي وجنوب الصحراء فإنني شعرتُ بروح سيدي الإمام «يحيى التادلسي» تحديدًا دون غيره ترافقني، توفر لي رعاية كنت بحاجة إليها، وإن لم أشعر بها غاضبة لما فعلوه بباب مسجده، قدر غضب الأولياء من هدم أضرحتهم، فليس الباب كالضريح!

وحمل الباب الجنوبي لمسجده اسم «باب القيامة»، لا أحد يذكر تحديدًا ولم يسجل التاريخ حادثة أو تاريخًا محددًا لإطلاق الناس هذا الاسم عليه بعد اعتقاد الناس في «تمبكتو» أن غلقه سيؤخر يوم القيامة، فإذا فُتِحَ توقف التاريخ البشري وقامت القيامة، ويتناقل الناس في تمبكتو منذ أكثر من أربعة قرون هذا الاعتقاد، فلم يجرؤ أحد منهم على فتح الباب، حتى حكومات السلطنات والممالك القديمة والمحتل الفرنسي و«باماكو» بعد الاستقلال، إلى أن هدمه «أنصار الدين»، ولم يُخفِ أهل «تمبكتو» غضبهم وإن كتموا الغيظ لعدم قدرتهم على مواجهة هؤلاء الوهابيين، كما قال لي أحد المسنين الذي اصطحبني إلى المسجد وبابه بعد أن استوثق من عدم تبعيتي لهم، وتأكد من حقيقة عملي الصحفي.

فقد اعتادوا رؤية أمثالي - من الغرباء - بينهم، أخبرني بعمل الناس على تأخير القيامة ونهاية العالم بوضع حصيرة سميكة لسد الثغرة التي حدثت بعد هدم الباب العتيق المتهالك، ثم قاموا بسده ببناء خرساني لتأخير «القيامة»!!

قمت بزيارة المسجد اتباعًا لنصيحة الفقيه الواعظ أبو زيد عبد الرحمن الذي قال: «فواجب على أهل «تمبكتو» أن يزوروا روضة سيدي يحيى للتبرك كل يوم.. ولو كانت منهم على مسافة ثلاثة أيام».. وهأنذا أتبرك بزيارتها وهي على مسيرة شهور من موطني... قرأت لصاحبها فاتحة الكتاب وترحمت على ازدهار المدينة.

ويرجع نسب سيدي يحيى إلى الحسن بن علي بن أبي طالب، فهو يحيى ابن عبد الرحيم بن عبد الرحمن الثعلبي بن يحيى البكاء، قدم إلى تمبكتو في أول دولة الطوارق عام 1433م فتلقاه حاكمها «تنبكت كي» محمد نض، فأحبه وأكرمه وابتنى له مسجدًا، وجعله إمامًا فيه.. يقول عبد الرحمن السعدي[77]: «فبلغ الغاية القصوى من العلم والصلاح والولاية وانتشر ذكره في الآفاق، وظهرت بركاته، وكان ذا مكاشفات، وكرامات، وعُرف بالمولى الفاضل، والقطب الكامل.

رُوي عنه أنه كان في مدرسته ذات يوم يقرأ على تلاميذه القرآن فإذا السحاب ارتفع وحصل على إنزال المطر ثم ترعد، فاستعد الطلاب للقيام.. فقال لهم: «على رسلكم، فاسكنوا لا ينزل هنا المطر.. والملك يأمره بالنزول في أرض كذا..» فسكنوا، وجاوزهم المطر، فلم ينزل بمحلتهم.

وروي عنه أيضًا أن جواريه طبخن حوتًا «سمكة» من الصبح إلى العشاء، فلم تنضج، ولم تؤثر فيها النار فتعجبن، حتى سمع، فقال لهن: إن رجلي مست شيئًا مبلولًا حين خرجت لصلاة الصبح لعله هو.. والنار لا تحرق ما مسه جسدي....!!

ومما بُلغ عنه أن صديقه محمد نض حاكم «تمبكتو» في آخر عمره رأى في منامه أن الشمس غربت فغاب القمر بعدها من فوره.

فلما أصبح قص على «سيدي يحيى» الرؤيا طالبًا تعبيرها.

قال له: إن كنت لا تخاف عبَّرتها لك.

فقال: لا أخاف..

قال: أموت وتموت بعدي، فاغتم ساعتئذ.

قال يحيى: ألم تقل إنك لا تخاف؟!

فقال محمد نض: هذا الغم ليس خوفًا من الموت، وإنما هو من حناني على أولادي الصغار.

فقال له: فوِّض أمرهم لله.

ومات «سيدي يحيى» عام866هـ/1493م، وبعده توفي محمد نض.

وكان عبد الرحمن بن أبي بكر بن الحاج الذي تولى القضاء في آخر «مملكة مالي» أول من أمر الناس بقراءة نصف حزب من القرآن للتعليم بعد صلاتي العصر والعشاء في جامع سنكري، ويعرِّف «سيدي يحيى» أنه من «الأبدال»[78]، ومن كراماته التي سجلها له التاريخ، أن سلطان موشي غزا تمبكتو، وكان عنده بعض الرجال، فتحدث بما تكلم على شيء من الدخن عنده وأمرهم أن يأكلوه، فأكلوا منه إلا صهره.

فقال: اذهبوا لا يضركم سهم من سهامهم.. فذهبوا قاتلوا وسلموا جميعًا، وهزموا سلطان موشي، وعادوا جميعًا إلا صهره قُتل في المعركة.

بجوار «باب القيامة» همست لي عجوز كانت تجلس على الأرض ومعها ابنتها وأمامهما اثنان من الديكة بعد أن تأكدت أني غريب ولست منهم: القيامة لن تقوم إلا بإذن الله، ولكن فتح الباب وسده بالحجارة سينشر الشر في المدينة، وهم أول من سيطولهم الشر، حاولت أن أستزيد من الحديث، صمتت وأشارت

لي إلى الديكين اللذين جاءت بهما هي وابنتها من البادية لتبيعهما في المدينة، لا شك أنها فقيرة جدًّا، حتى تقطع مسافة تستغرق ساعات لتبيع «ديكين»، ولماذا لم يكونا دجاجتين أو ديكًا ودجاجة، انشغلت برهة بهذا التساؤل الساذج، ثم انتبهت، فكرت أن أساعدها بمالٍ، ولكن ليس معي عملة محلية، أخرجت ورقة من فئة الخمسين دولارًا، مددت يدي لها، أمسكتها، نظرت فيها، قلبتها وأعادتها إليّ وهي تتفوه بكلمات لم أتبينها[79]، حاولتُ إعادة الورقة لها، أشاحت بوجهها عنّي، خفت أن ينتبه «رجال الحسبة» ويظنوا بي الظنون، فتراجعت ومضيت عنها.. ولم تكن العجوز وابنتها ولا الذين التفوا حول المجنون الذي صادفني عدة مرات وأطلقت عليه لقب الجنرال «ولد الدنه» يسمعون ويضحكون، هم فقط، الذين يرفضون حكم «الولاة» ويضيقون بـ«تطبيق الحدود» في تمبكتو.. وإن لم يجرؤ أحد على البوح أو الإسرار «بسوء» ما يفعل المتشددون، ولكن بدأت الألسن بعد هرب «الإسلاميين» تتحدث بما فعلوه فيهم مثل احتجاز السيدات والفتيات داخل «سجن نساء» كان مبنى فرعيًّا لأحد البنوك، والغلظة معهن وتكديس أعداد كبيرة منهن في غرف ضيقة، والتشديد على البنات لارتداء الحجاب ومنع الموسيقى والسينما وتحريم بيع السجائر والكاميرات ومساحيق الزينة ومراهم تفتيح لون البشرة وأشياء أخرى أحالت سكان المدينة ممن اعتادوا على ممارسة الحياة في صخب، خصوصًا أن المدينة وهي مدينة سياحية اعتادت «تبرج» السائحات «الكافرات»، ووجود حانات شرب الخمر وبيوت الدعارة وانفلات الشباب بحكم صخب العمر، وما فعلته فرنسا من تغريب وفرنسة لثقافة الحياة، فما كان ممن قاموا بتطبيق حدود الله إلا محاربة ذلك ومحاربة التسيب حتى بين صفوفهم، ورفض ما قد يسيء لسمعتهم كـ«حركة عدل» فعاقبت ثلاثة من عناصرها وطردتهم منها بعد أن أصابوا امرأة في جواندام - 90 كم غرب تمبكتو - أثناء قيامهم بالتدريب على التنشين بالرصاص.. فأصيبت المرأة في فخذها، ويقال إنها كانت بعيدة عن موقع التدريب ولكن الجماعة اعتبرتهم مخالفين لإطلاقهم الرصاص دون إذن من أميرهم المباشر، ومسئولين عن إصابة المرأة، وإن كان

بعض أهل «الولاية» - خصوصًا من الصنغي والبمبارا - قد كشفوا ما تحدثوا بأنها حقيقة وقعت من تجاوزات مثل «الزنا» ببعض البنات، وهو ما لم يقم عليه دليل وإن كانت «الشرطة الإسلامية» ورجال الحسبة قاموا بتنفيذ حد الزنا قبل يومين من بداية الحرب في الشاب «مامادو تراوري» ورفيقته «سالكة بنت الخير» المعروفين في تمبكتو بالانحلال، وكان الشاب موضع شكايات عدة لكثير من سكان الحي الذي يقطنه «كيرتاو» ولكن لم تثبت عليه تهمة الزنا.

***

الجنرال الجريء.. وذكريات ليبية

حسدته قليلًا لأنه الوحيد الذي كان يدخن السجائر علنًا في شوارع تمبكتو ويقول ما يريد. كان أجرأ من عاش على أرضها تلك الأيام.. الجنرال.. أو هكذا لم أجد لقبًا أفضل أناديه به.. «ولد الدنه» الذي رأيته يسير في الوسط التجاري الشعبي في تمبكتو «حاملًا» عصا «الماريشالية» في يد وسيجارة من التبغ الرديء في يد أخرى.. ينفث دخانها الكثيف بملء فمه في الهواء غير عابئ بقرار حظر التدخين في «الولاية»، ولا بالسجن أو «الجلد» الذي قد يتعرض له جراء ذلك، مرتديًا زيًّا عسكريًّا باليًا، وقد زين صدره بعدد كبير من الشارات «البلاستيكية» والنحاسية، ربما كانت إحداها عبارة عن غطاء زجاجة مشروب غازي أو رسمًا مجسمًا يعلق على لعب الأطفال وأشياء أخرى، قصد أن تكون بمثابة «نياشين» تناسب زيّه وحذاءه العسكريين، وزيّن معصميه بعدد من الساعات رخيصة الثمن.

كان ينفث مع دخان سيجارته اتهامات لحكام تمبكتو الجدد بالعمالة والإرهاب والسفه، معلنًا أنه سيقضي عليهم.. كان حديثه ما بين هلوسة مجنون وتوصيف حكيم لوضع هو الجنون بعينه، وكانت كلماته أقرب إلى اللهجة المصرية.. سألته أين تعلمها؟ قال: في ليبيا التي قضيت فيها ثمانية عشر عامًا وهربت منها بعد سقوط القذافي الذي لا بد سيعود هو وحسني مبارك فهُما أكثر فهمًا وحنكة من هؤلاء «الإرهابيين»، أفاض «ولد الدنه» في الحديث عن صفاتهما العسكرية وأنهما وطنيان أكثر من هؤلاء الذين رعتهم أمريكا وساعدتهم للانقلاب على أوطانهم.. حتى ساء كل شيء فيها وسيسوء أكثر، كان التفاف الناس حولنا يشي - من خلال ابتسامات أعينهم - بالموافقة على ما يقول، وسبب لي إرباكًا فالتجمهر قد يُفضي إلى أحاديث قد تورطني عند سادة المكان فأعرض نفسي لمشكلات حرصت منذ أن وطئت قدماي الأرض على الابتعاد عنها.. صحيح أن كل شيء في «تمبكتو» و«جاوا» غير جيد باستثناء قلوب الناس الطيبين.

فشبكة الهاتف المحمول سيئة والاتصالات أحيانًا كثيرة تتقطع وتقع الشبكة حتى أثناء المهاتفات، وتقتصر فقط على نطاق المدن الكبرى، وتنعدم نهائيًا بعد الخروج منها، والمياه غير مستمرة، حتى المخابز تغلق بعد منتصف النهار وإذا لم تشترِ خبزًا حتى العصر جُعت باقي الليل، وهو ما كاد يحدث لي يومًا فكِدتُ أتناول «التونة حاف» وأنا أتساءل: هل هذه تمبكتو مدينة الرخاء والذهب؟ إن ما تعيشه الآن نكبة جديدة!! كما قال «الجنرال الجريء» «ولد الدنه» ولن ينقذ أهلها منها سوى القذافي كما أنقذهم في سبعينيات القرن العشرين حين فتح أبواب ليبيا على مصراعيها لهم.

وهي الفترة التي شهدت أكبر أزمات «أزواد» من الإفقار الجبري والتجويع الطبيعي الذي عاناه أهلها بعد أن ضرب الجفاف الساحل والصحراء في الغرب الإفريقي [80] في عدة موجات أشدها ما شهده عقد السبعينيات من القرن العشرين مما دفع الآلاف منهم للفرار من الفقر إلى الجنوب الزراعي في «مالي» بعد أن أنهكهم الجوع والفقر وضرب الجفاف مراعيهم وأراضيهم لسنوات عديدة.

في الوقت الذي لم تبال حكومة «مالي» في «باماكو» بهم فتركتهم يواجهون الجوع والفقر وحدهم، وربما كانت أكثر ارتياحًا لذلك واطمئنانًا، فهي فرصة، وإن لم تعمل على التخلص منهم، فستشغلهم عن المشاغبات والتمرد لسنوات، وهو ما حدث، وتلك كانت خطتها قبل ذلك، عندما عمدت إلى تعطيش أراضيهم قبل الجفاف بسنوات عندما أنشأت سد «مريكلا».

ومع ذلك لم تهمل جباية الضرائب على الماشية.. وقد قام الاحتلال الفرنسي «1890» باستغلال الجزء الأكبر من المنطقة من «سيجو» إلى «تمبكتو» شمالًا في زراعة القطن لتوفير احتياجات مصانعه، وبدأ التنفيذ الفعلي لسد «مريكلا» عام 1937 وانتهت أعمال إنشائه بعد عشر سنوات «1947» وبموجبه تم استصلاح أغلب الأراضي الزراعية في «سيجو» خصوصًا التي يزرع فيها الأرز مع زراعات أخرى مما ساهم في تنمية الثروة الحيوانية.

أما التأثير السلبي لسد «مريكلا» فقد كان من نصيب «أزواد» وبالتحديد «تمبكتو» وسكانها وسكان بواديها من العرب والطوارق، بعد حجز مياه النهر ومنع وصولها إلى مناطقهم، وتحولت المياه جنوبًا فابتعدت قرية «رأس الماء» عنه ومن اسمها ندرك أنها كانت بقرب النهر، مرسى «كابارا» التي كانت تخدم الملاحة النهرية إلى «تمبكتو» وتمثل نافذتها البحْرية وتسهم في ازدهارها التجاري من خلال السفن حمولة ثلاثين طنًّا التي كانت تحمل إليها ومنها - إلى مختلف مدن النهر - البضائع، فكانت ترسو في مستنقع «كابارا» وتفرغ حمولتها في قوارب صغيرة خفيفة تنقلها بالقرب من بوابة المدينة من خلال ثلاثة مرافئ صغيرة.

وكان سكان «خويبة رأس الماء» من العرب الأدارسة و«كُل انصر»[81] وغيرهم من العرب والطوارق يتعيشون على صيد الأسماك والزراعة، الآن أصبحت المسافة بينهما أكثر من خمسة عشر كيلومترًا فأصابها الجفاف وبدأ سكانها يعتمدون على الشرب من الآبار مما أدى في سنوات الجفاف إلى الموت والهلاك وظهور أمراض أبادت الحياة الفطرية والبرية، تزامن ذلك مع بَدْء الاحتياج الأوروبي والفرنسي خاصة لدفن النفايات النووية فلم تجد الحكومة المالية التي استفادت من هذه المصيبة بالدعم المادي سوى صحراء «أزواد».

ومنعت سكان تمبكتو من الاقتراب من ضفاف نهر النيجر[82] إلا لمسافات محدودة، ولا يدرك قسوة الجفاف في الصحراء إلا من عاناها، فقد تموت الماشية عطشًا فيتضاعف ألم سيدها وصاحبها عطشًا مثلها أو جوعًا، أو حزنًا عليها لكونها كل ما يملك في الحياة.

فإنسان الصحراء لا يمتلك في حياته سوى ماشيته وخيمته، ومع نهاية عام 1972 نفق أكثر من ثلثي الثروة الحيوانية في شمال مالي فانتشرت المجاعة لدرجة أعجزت الناس حتى عن إطعام أطفالهم، فباع الكثير منهم الخيام التي تؤويهم لمجرد توفير الطعام لعدة أيام، وبفقدان الماشية عجزوا عن إخراج

المياه من الآبار[83] فهلكوا من العطش والجوع.

في نفس الوقت الذي بدأ في ليبيا التدفق النفطي بما يدره من تدفق ماليّ لم يستغله القذافي في تنمية بلاده بل في محاولة الامتداد التوسعي لأحلامه الهلامية، سواء بترسيخ نفوذه كقائد وليس نفوذ ليبيا كدولة في منطقة غرب إفريقيا التي عمل على استخدامها كقاعدة انطلاق له في كل أنحاء القارة سيما وأن الاحتلال الأوروبي في هذه البلدان لم يخلّف فقرًا فقط.. بل وعجزًا عن إدارة أو مجرد محاولات الاستفادة من ثرواتها الطبيعية، فهرب إلى ليبيا الكثير من البشر من طوارق وعرب دولتي مالي والنيجر خصوصًا مع توافر صلات الدم والقربى أو ادعائها من خلال تشابه أسماء القبائل مثل «أولاد سليمان» في «فزان»، والتي تلتقي مع عشيرة «أولاد سليمان» البربوشية، و«بني داود» مع «أولاد داود» في مالي، و«بنو رزق»، و«أولاد رزق» في مالي وغيرهم من «أولاد سالم» و«الشويخات» أقرباء «أولاد الشيخ» و«العبيدات» و«أولاد علي» و«العيايشة» و«أولاد مبارك» و«أولاد وافي» وغيرهم كثير.

والالتقاء في أسماء الجد عند أبناء الصحراء والقبائل العربية له قيمة كبيرة وتقليد في المحبة كما تحفل المدن الليبية خصوصًا في سرت، وسبها، وأوباري، وغيرها من المناطق العمرانية في الجنوب بكتل بشرية طارقية تمثل مع مثيلاتها في شمالي مالي والنيجر امتدادًا عرقيًا ولغويًا واحدًا وأيضًا تتلاقى في الجدود الأولى.

وأصبحت مدن القوافل «غات» و«غدامس» و«مرزق» الليبية محطات لاستقبال الماليين ومنها ينتشرون في باقي أنحاء ليبيا، ودخل غالبية هؤلاء الشباب جميعًا دون صعوبة إلى ليبيا، سواء حملوا معهم أوراقًا ثبوتية أو بطاقات تعريف، أو لم يحملوا، وعاملهم الليبيون بكرم وتسامح انطلاقًا من قرابات الدم ومن شيم الكرم العربي ومنها انتقلوا إلى طرابلس والزاوية وأغلب الغرب الليبي، بل انتشروا في الأرض الليبية وصحرائها الشاسعة حيث تعمل شركات الإنشاء وتنتشر المشروعات الزراعية، ولكن صادفتهم مشكلة تحويل الأموال

لذويهم في «أزواد» إذ كانت الشركات التي يعملون فيها تستلزم إقامة رسمية في البلاد لتسليم الرواتب ورسائل التحويل البنكية، وهو أمر بالغ الصعوبة حيث لم تكن لدى أكثر الأزواديين جوازات سفر، فتحولوا إلى العمل في أنشطة طفيلية كرعي الماشية، فضلًا عن أعمال السحر و«الحجاب» على هامش الحواضر العمالية[84].

وعمل الموريتانيون الذين عانوا من نفس مشكلة الجفاف والتصحر على مساعدة «الأزواديين» استفادة من العلاقات الدبلوماسية بين موريتانيا وليبيا، واستقبال الأخيرة لهم بترحاب وفتح آفاقها لهم فمنحتهم عناية خاصة في نفس الوقت الذي كان يسعى فيه القذافي لإقامة علاقات جيدة مع الدول الإفريقية الناطقة بالفرنسية، وهو ما ساعده فيها «المختار ولد داداه» الرئيس الموريتاني آنذاك.

وكانت العلاقات بين البلدين قد شهدت تعاونًا كبيرًا من الجانبين وعقدت اتفاقيات في مجالات عدة، منها تنظيم العمالة والإقامة مما فتح الباب أمام الأزواديين من طوارق وعرب للاستقرار في ليبيا رسميًّا «بعضهم من خلال أوراق رسمية موريتانية، كانوا قد حصلوا عليها ممن انتقل إلى موريتانيا وحصل على جواز سفر»، وكانت غالبيتهم تحصل عليه في فترة زمنية قياسية من إدارة الأمن في نواكشوط التي تسلمه لكل من يقدم ملفًّا ثبوتيًّا.. وهذا الملف كانوا يحصلون عليه بسهولة من خلال وسطاء من الأقارب أو السماسرة، وهكذا انتشرت بينهم الأوراق الثبوتية الموريتانية، وتحددت أثمان كل منها «جواز السفر، قيد الازدياد «الميلاد»، شهادة الجنسية، شهادة الإقامة، شهادة الخلو من السوابق «فيش وتشبيه»، رخصة قيادة»[85] فضلًا عن أوراق رسمية حقيقية للعديد من الأزواديين ممن ينتمون إلى المنطقة الغربية الجنوبية لأزواد المتاخمة للحوضين الشرقي والجنوبي الموريتانيين، منهم شباب متعلمون على قلتهم وظفوا رسميًّا في الإدارة، ووجوه سياسية وتجار ورجال دين من حفظة القرآن ونسّاخ مصاحف وكتب يكسبون من هذه المهنة العريقة.

أمـا الغالبيـة فكـانوا مواطنـين عـاديين تحللـوا فـي النسـيج الاجتمـاعي الموريتاني[86].

وساعد على تسهيل الوجود الأزوادي في ليبيا الحماية القانونية الرسمية التي وفرتها لهم الاتفاقية القنصلية التي أبرمتها موريتانيا مع ليبيا[87].

ووفرت الرعاية الموريتانية للأزواديين في ليبيا من خلال قنصليتها العامة في «سبها» إلى جانب الشعبة القنصلية في سفارتها في «طرابلس»، وبالتالي فرص تحويل مدخراتهم إلى بلادهم من خلال البطاقات الشخصية لهم المعترف بها مـن دوائـر الأمـن والجـوازات ووزارة العمـل.. ممـا دفـع الكثيـر منهم خصـوصًا «البيضـان»[88] إلى الاتجـاه إلـى سفـارة موريتـانيا وتسجيل أنفسهم للحصول علـى البطاقـة علـى أنـهم موريتـانيون، خصوصًا وأن الكثير منهم حصل على نمـاذج مـن وثـائق رسمية موريتانيـة موقعة ومختومة من جهات عدة تابعة للإدارة الإقليميـة فـي «المحـافظات الموريتانيـة» دون مـلء خـانات الأسماء الشخصية أو العائلية وكانت تباع بأسعار زهيدة.

ومع تنامي الفقر وزيادة مساحات الجفاف، وتدهور الأوضاع الاقتصادية في مـالي والنـيجر وتوالـي الانقلابـات العسـكرية، أو محـاولاتـها، استفحل البـؤس وسط العرب والطوارق في كلا البلدين، في نفس الوقت الذي كان أبناؤهما في ليبيا ينعمون بالعمل المربح والاستقرار مما شجعهم على استقدام أسرهم حيث فُتِح لـهم بـاب التجنُّس بـ«الجنسيـة العربيـة» التـي سـمحت بـها ليبيـا للعرب المـوجودين علـى أراضـيها، وتمنـح حاملـها نفـس الخـدمات الاقتصـادية والاجتماعية التي يحصل عليها المواطن الليبي أو على الجنسية الليبية بدعوى أنه كان مهاجرًا وُلد في دولة أخرى، ولكن أصله ليبي، وهناك بالفعل من الليبيين الذين ينطبق ذلك عليهم وهم ليبيو الأصل.. ومنهم عائلة رئيس وزراء ليبيا «2014» عبد الله الثني الذي وُلد في «كانو» بنيجيريا حيث كان والده شيخ زاوية السنوسية فيها[89]، يعلق محمد محمود ودادي على هذه الفترة بقوله: «طاب المقام في ليبيا مع بداية ثمانينيات القرن العشرين لطوارق مالي والنيجر

وعربهم وبعض الموريتانيين، حيث وجدوا قواسم مشتركة مع الليبيين الذين عاملوهم بكرم وتسامح، اشتهروا بهما على مدى التاريخ، واكتشف الطرفان بعضهما البعض، فالوافدون بحاجة إلى العناية والاستقرار، وبعض القبائل الليبية متعلقة بأصول تربطها بـ«الساقية الحمراء»[90] و«الصحراء»[91] من هجرات مرتدة من تلك الأصقاع بعدما وصلت مع الهجرة «الهلالية» الشهيرة التي تشكل معظم عرب ليبيا، وفي ظل النظام القبلي، وهو أساس الحكم في ليبيا آنذاك، كانت القبائل تتبارى في تعزيز مراكزها ضمن التنافس على السلطة والنفوذ، حيث اكتشفت أن للكثير منها صلات «قرابة» مع قبائل «البيضان»، وأرادت أن تعزز وضعها حتى لو لم يتحقق في النهاية الشيء الكثير ويتكئ بعضهم في ذلك إلى روايات قديمة عن وجود صلات قرابة، كما الحال بين «أولاد سليمان» بينما يرى بعض الباحثين أن الأمر لا يعدو مجرد تشابه في أسماء القبائل العربية على طول أوطانها من الجزيرة العربية إلى الصحراء الكبرى!!

في هذا الوقت كانت ليبيا في أوج انفتاحها على العالم وإعلان القذافي برامجه وسياساته لمحاربة الإمبريالية العالمية، وبدأ في الاصطدام مع كثير من القوى الدولية والإقليمية، فدخل في مواجهات مسلحة مع مصر عام 1977، وقبلها السودان عام 1976، ثم تونس وتشاد، بل امتدت أحلامه إلى المشاركة في الصراعات المسلحة في بقاع أخرى من العالم مثل جزر مورو «جنوب الفلبين»، وبنما، ونيكاراجوا، وإيرلندا الشمالية، والبوليساريو، ولبنان.. وكان يحلم بوراثة زعامة جمال عبد الناصر وإحلال بلاده بديلًا عن مصر في ريادتها القومية فاستخدم هؤلاء الشرفاء.

***

القذافي والطوارق.. خيانات متبادلة

يمثل الطوارق غبار الأرض على وجه الإنسانية، فلا هم طين تجمد فصلح لإقامة دولة ولا كيان حافظ عليه العالم موحدًا فاستقروا.. ولكنهم بقوا مثل سوافي الصحراء تذروهم الرياح ليغيبوا في فضائها المفتوح، فرغم سيادتهم للصحراء على مدى التاريخ وشرفهم الذي لا يُشكك فيه أحد وصدقهم المعروف، فإنهم يعانون منذ أزمنة بعيدة نتيجة اعتزازهم بعصبيتهم الإثنية وكرامتهم وميلهم إلى الاستقلال والحرية، بسبب مشاكسات دوَّنها المؤرخون وحفظتها ذاكرة الصحراء بداية من علاقتهم بـ«سُني علي» الذي تمردوا عليه بعد وفاة سلطانهم في «تمبكتو» محمد نض فهاجمهم وأعمل فيهم القتل.. واستطاع القائد المالي «ساكورا» إخضاعهم لسلطة الملوك «الأساكي» فتربصوا به عند عودته من الحج عام 1300م وقتلوه، وفي عهد منسا موسى قام «ساران مانديان» أحد قادة جيشه بتوجيه عدة ضربات لهم في مواطن كمونهم على طول طريق قوافل الحج والتجارة وإخضاعهم تنظيفًا لهذا الطريق تمهيدًا لرحلة منسا موسى الشهيرة للحج وتأمينًا لركبه.

قام القذافي بتوريط من لديه من شباب الطوارق والعرب بإرسالهم إلى صراعات وبؤر توتر وحروب مثل حرب تشاد، ونيكاراجوا، ولبنان وعمل على زرع الفتن والانقسامات القبلية في النسيج الاجتماعي الأزوادي.. وعمل بالاتفاق مع الجزائر على صنع قيادات جديدة للطوارق تأتمر بأوامرهما المشتركة.

وكان يوهمهم بأنه يعدهم للعودة لتحرير أزواد، وكان يمنعهم الخروج من القواعد والمعسكرات الليبية مما دفع عددًا منهم للهرب عام 1992 كمجموعة في رحلة عودة إلى بلادهم استمرت 3 أسابيع، أحيانًا كانوا يسيرون على أقدامهم لأيام لتفادي توقيفهم أو رؤيتهم في السيارات خوفًا من الوقوع في أيدي حرس الحدود الليبيين أو الجزائريين، وكان من يقبض عليهم يعيدونهم

إما إلى ليبيا فيقتلون وإما يسلمونهم للحكومة المالية، واستغلهم القذافي كأداة بدعوتهم إلى ليبيا حيث تتوافر فرص العمل بتمويل جماعات منهم لشن حروب ضد الدول المجاورة، مع وعدهم كثيرًا بأن تدريبهم العسكري واستخدامهم في بعض حروبه لتكوين قوات خبيرة بالحروب قادرة على المواجهة تستطيع في لحظة مناسبة أن تنتزع إقليمهم لإعلان دولتهم رغم أنه في العلن كان يبدي ممارسته لضغوط عليهم للبقاء في وحدة مع الجنوب في إطار دولة مالي، وهو ما يتفق مع تجريمه الحديث عن وجود إثنية غير عربية في ليبيا أو إعلان عن وجود طوارق في ليبيا من أصول أمازيغية؛ والذين كانت الرؤية الليبية الرسمية المعلنة عنهم أنهم قبائل عربية هاجرت إلى المناطق الليبية منذ الأزل، ولا علاقة لهم بسكان «جبل نفوسة» و «زوارة» مع عمله على إحداث تغييرات ديمغرافية وتغيير التركيبة السكانية لتذويب الأغلبية الطارقية في مدن أوباري، وجات، وغدامس.. وقد نظر الغرب وعدد كبير من دول إفريقيا جنوب الصحراء لاستخدام القذافي لهم من خلال كتائب الحركة السريعة التي استخدمها في تشاد باعتبار ذلك خطوة في طريق تحقيق حلم الطوارق لتكوين «الجمهورية الإسلامية الصحراوية» وهو ما عمد ورجاله إلى تسريبه لهم لطمأنتهم كي يستمر في تطويعهم لتوجهاته، واستغلالهم ببث دعوته بين امتداداتهم من الطوارق المقيمين في الصحراء الكبرى للانخراط في معسكرات التدريب العسكري المشرعة لهم في معسكري «الصاعقة» في بنغازي و«2مارس» في طرابلس، بل كان يمنحهم الجنسية الليبية وهو ما كشفته في مايو 2010 شخصيات من أعيان الطوارق في ليبيا بعد رفض الدوائر الرسمية منحهم الرقم الوطني الذي يؤدي إلى استخراج الكتيب العائلي إثبات قيد عائلي وبالتالي تعثرت إجراءات ما يقرب من 11 ألف أسرة للحصول على وثائق إثبات الهوية وجوازات السفر، وبالتأكيد كانت أعداد كبيرة منهم من طوارق النيجر ومالي وبوركينا فاسو رغم توجيهات العقيد القذافي بتشجيع ما اعتبره - للتبرير - عودة مهاجرين إلى وطنهم الأم[92] - وبعض هؤلاء هم الذين عادوا بعد سقوطه في «أرتال» عديدة من سيارات الدفع الرباعي المحملة بالصواريخ

و«الدوشك» وصواريخ الجراد والذخائر وكل أنواع الأسلحة منها المضاد للطائرات والدبابات، قبيل وبُعيد إعلان انفصال أزواد، ومنهم عدد من زعماء تمردي التسعينيات، وتمردات العقد الأول من القرن الحالي، مثل العقيد محمد ناجم من قبيلة «إيدنان» الذي هرب إلى ليبيا عام 1980 وكان عمره آنذاك 16 عامًا وأُرسل ضمن المجموعة التي دعم بها القذافي الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين - القيادة العامة تحت إمرة اللواء أحمد جبريل - وضمت هذه المجموعة أياد أج غالي، وشارك في لبنان في عدة معارك ضد قوات الجيش الإسرائيلي أثناء اجتياح بيروت 1982، ومنها معركة خالدة التي أبلى فيها بلاءً حسنًا، ولكنه وقع في أسر اليهود حسب ما قال لي علي نجل شقيقه حسن وأمضى عامين في الأسر في السجون الإسرائيلية وأفرج عنه في تبادل للأسرى نتيجة تسوية خطف طائرة العال الإسرائيلية من قبل الجبهة الشعبية القيادة العامة وشارك في عدة وقائع في حرب تشاد عام 1986 وسُجن عام 1990 بتهمة تهريب أسلحة إلى أزواد، بعدها ألحقه القذافي بكتيبة المغاوير مع استكمال دراسته العسكرية عام 2005، وفي عام 2009 أوكل إليه حراسة مثلث الحدود الليبي الجزائري النيجيري وحصل على رتبة عقيد، أما بلال أج الشريف وهو أحد القيادات الطارقية في «مانيلا» فقد عمل بجهاز المخابرات الليبية تحت إمرة عبد الله السنوسي تحت ستار عمله في الجامعة.

أما أنبل هؤلاء وأخلصهم لقضيته فهو إبراهيم أج باهنجا الذي رفض في تمردي التسعينيات الصلح الذي توسط فيه القذافي والجزائر «اتفاق تمنراست» رغم استمراره ضمن ضباط كتائب القذافي فإنه كان يشارك بقيادة وتمويل عمليات عسكرية ضد قوات الجيش المالي تحت اسم حركة تحالف «مايو».

وانتشرت بين الطوارق حكايات اتفاق إبراهيم أج باهنجا مع القذافي على إعادة تكوين دولة أو نظام جديد للقذافي في الجنوب الليبي حال خسارته أمام ثوار 17فبراير في الشرق والغرب، وهو ما أتاح لإبراهيم أج باهنجا ومحمد ناجم الاستيلاء على كميات كبيرة من تأمين القوات وإتمام الاستعداد، وتؤكد

روايات لمصادر قريبة من محمد ناجم أنهما قاما بتفريغ مخازن السلاح الجنوبية بموافقة من القذافي شخصيًا الذي كان يثق بالأزواديين، في الوقت الذي كانت المعارك دائرة بين الليبيين من مناصريه وكتائب الثورة، وكان يتم تهريب الأسلحة إلى «أزواد» عبر حدود النيجر، بل معها ضباط من الجيش الليبي كقوة احتياط لتنفيذ إعلان دولة الجنوب في حال سقوط طرابلس وقتل ضابط واحد أُخذ أسيرًا عندما كانت هناك مباحثات سرية بين أفراد من المجلس الانتقالي وقادة تحرير أزواد في سويسرا، بمشاركة موسى الكوني ومحمود علي وفتحي بن خليفة، وهذا ما يفسر هدوء الجنوب الليبي وعدم وصول المعارك إليه لوجود كثافة أمازيغية «ليبية» خصوصًا المكتظة بطوارق تينيري وقوة من لواء المغاوير الذي كان يقوده الطارقي «علي كنه».

وفيما كان القذافي مشغولًا بحربه كان محمد ناجم وأج باهنجا يقومان بتفريغ مخازن السلاح الجنوبية وإرسالها إلى شمال أزواد، وكان القذافي يزودهما بما يريدان مع اهتزاز تفكيره الذي لم يكن يركز ساعتها إلا في حرب الثوار فكانت حجج الاثنين المتعددة توفر لهما موافقته بأخذ ما يريدان.. وكان الكونجرس الأمازيغي في بروكسل يغذي ذلك من أجل الحصول على أكبر قدر من السلاح، وفي جنيف اجتمع موسى الكوني وأمين المكتب السياسي في الحركة الوطنية لتحرير أزواد محمود علي، وفتحي بن خليفة الأمازيغي الليبي، وعدد من ممثلي المجلس الانتقالي باتفاق على سحب أكبر كمية من الأسلحة من مخازن القذافي، مقابل عدم التدخل في المسألة الليبية، والعودة بهذه الأسلحة إلى بلادهم.. وهو ما حدث.

وفي وثائق المخابرات الليبية التي تم الكشف عنها[93] بعد سقوط القذافي إشارات إلى سياسة القذافي بتفريغ شمال مالي من الجماعات القبلية المسلحة.

وبالفعل حسب هذه التقارير فإن رجال مخابرات القذافي تمكنوا بعد عملية «شعلة الحرية» في «تمبكتو» من جمع أسلحة القبائل هناك تحت شعار إلقاء السلاح والاندماج في المجتمع المالي، وكان القائم على هذه العمليات أحد

زعماء الطوارق وهو يحمل جنسية ليبية وأمد مخابراتها بـ20 تقريرًا حول عملية نزع السلاح خلال أعوام 2008 - 2009 - 2010 من: جاوا، وعرب تلميس، وتمبكتو، والبرابيش، وفافا وهي منطقة الجندكوي والفُلان.

كما دعم القذافي أياد أج غالي في قيادة جبهة معارضة نيجيرية عام 2010 مما دفع الحكومة الجزائرية في «تمنراست» لطلب مغادرته أراضيها خلال 24 ساعة بعد إذاعة لقاء له مع القذافي.

ولكن تحالفات القذافي والطوارق وخريطة القوة في أزواد تغيرت بعد مقتل إبراهيم أج باهنجا - قيل - في حادث سيارة قرب قاعدة «تساليت» العسكرية في رمضان أواخر عام 2011.

ولم يكن مقتله بداية شرارة التمرد الأخير لأنها قد أطلقت قبل موته باتفاقه مع عدد من الزعماء وأعيان الكيانات الطارقية على بدء هذا الحراك «الاستقلالي» وأصدر أنصاره بيانًا بمواصلة خطته وعدم التخلي عن الشعب الأزوادي وحقه في الاستقلال، واشتروا عبر عصابات في ليبيا سيارات أخرى وأسلحة، ولكن مقتله «اللغز» أطلق عقال جماعات تنظيم «القاعدة» ودفع بأياد أج غالي إلى صدارة الأمر.

وكان أج باهنجا يُكنُّ عداء للعنصر العربي الذين يرى قياداتهم عبارة عن مجموعة من الانتهازيين ومهربي المخدرات المتحالفين مع أمراء وكتائب تنظيم «القاعدة» في الصحراء مثل بلمختار وعبد الحميد أبو زيد، وقبل مقتله بأيام استولت قواته على قافلة مخدرات مع سيارات الحراسة، وهو ما فعله مناصروه مرة أخرى قبيل الحرب الفرنسية على الجماعات في يناير2012.. حيث تم التحفظ على أكثر من 40 سيارة دفع رباعي وعدة شاحنات تحمل كميات هائلة من الكوكايين - اللاتيني - والحشيش المغربي، كانت متجهة إلى الحدود المصرية للتوزيع على مصر والخليج العربي والسعودية وأوروبا.. وكان أج باهنجا ينتقد ابن قبيلته - إيفوقاص - أياد أج غالي في تعامله مع تنظيم

القاعدة.

وفي سبتمبر 2011 استطاع ناجم العودة بغالبية عتاد وسيارات كتيبة المغاوير واستطاع بما حمله تسليح أكثر من ثلاثة آلاف مقاتل.

* * *

التحول إلى التطرف

كنت أفكر فيما سيفعلونه بولد الدنه؛ هل سيقتلونه على رفضه لهم؟ أم سيجلدونه على تدخين السجائر وهم يعتبرونه مجنونًا؟ عندما شرع عثمان في أخذ لقطات حية مصورة لي، يحكي فيها بعض المواطنين رأيهم في الحال في «تمبكتو»، وكصحفي غريب استطاع الوصول إلى بؤرة الحدث أراد عثمان أو هكذا قال لي أن يضمِّن رأيي في تقرير مصور سيرسله إلى شبكة التليفزيون التي يعمل لحسابها، لكني تحدثت رأيًا عامًّا لصحفي غريب لم ير شيئًا.. سوى لقطات خلال يوم أو بعض يوم مضيا عليه هنا، وهي آراء عامة، بعد أن أغلق عثمان كاميرته سألني: ما رأيك في النساء؟.. سؤال عجيب، ولكن لدى هؤلاء ومن والاهم شغف، فالنساء هن سر البهجة مع الطعام.. ولا يفكرون في شيء غيرهما، ولكن ماذا يقصد عثمان؟ حاولت ألا أشغل بالي كثيرًا، أو لا أبدي انشغالًا ولكني استدركت، وبسرعة أجبته: لم أر هنا نساء.. وساد صمت بيننا.

ومضينا نتجول في السوق، وقتها شعرت أني غير آمن على نفسي، كان الشباب الذين لم تصل أعمارهم إلى حافة العقد الثاني من عناصر جماعة «أنصار الدين» ينتشرون وعلى أكتافهم البنادق يختلسون نظرات إليّ، فكنت ألقي عليهم السلام فلا يردون، حاولت أن ألتقط لهم صورًا، وكأنني أصور أحد المحلات، أو حركة السوق، فيديروا وجوههم حتى لا تطولهم الصورة.. الكاميرا.. تعجبت.. فإن كانوا يرون أنني أصورهم، فلماذا لا يوقفونني، خصوصًا أن تعليمات الجماعة عدم تصوير أي من عناصرهم؟!

فجأة أمسكني عثمان من يدي عندما كانت سيارة جيب دفع رباعي تتوقف أمامنا بصورة فجائية، أحدث احتكاك عجلاتها بالأرض صوتًا عاليًا، لم ينتبه إليه غيري، مما بدا أن المارة من مرتادي السوق وباعته معتادون على مثلها، فتح عثمان الباب بجوار السائق وصعد وهو يدعوني للصعود إلى الكرسي الخلفي، ففعلت وجلست بجوار شاب أبيض اللون بض الوجه، ينم هندامه

المرتب عن حُسن وضعه المادي والأدبي، عرفني بنفسه.. طلحة مدير الأمن بتمبكتو، لمحت زهوًّا في نطقه لوظيفته الكبرى، ففي هذه البلاد يكون منصب مدير الأمن رفيعًا وذا جلال، حتى ولو كان لوقت استثنائي.

سألته: أزوادي؟.. فقال إن أمه من «تمبكتو»، أما أبوه فموريتاني، أما هو فقد وُلد وتعلم وعاش في أوباري بليبيا حتى سقط العقيد القذافي، وعاد بعد بَدْء الحراك الأزوادي لتحقيق حلم الدولة الإسلامية التي كان يراها قبل ذلك أملًا بعيدًا وحلمًا عصيًّا على التحقق.. وقال طلحة - وأظنه اسمه الحقيقي: كنت أظن نفسي ليبيًّا لأنني ولدت فيها ودرست إلى المرحلة الجامعية في فزان التي تخرجت فيها عام 2003.. لم أكن ملتزمًا، أو بمعنى أصح كنت كأي شاب ليبي يحاول أن يجد لنفسه مكانًا داخل الحيز الإنساني والمادي والاجتماعي الذي ضيَّقه القذافي على شعبه، إلا على من انضم إلى مثاباته الثورية فانضممت إليها، حتى صرت منسق اتحاد الطلاب للشئون الإفريقية.

وقتها - يكمل طلحة - كنت أرى الأشياء كما يريدنا القذافي أن نراها.. كان يتحدث عن الحركات والجماعات الإسلامية باستهزاء واصفًا أعضاءها بالكلاب الضالة والزنادقة و«المقملين»، كان إعلامه يرسخ لكراهيتهم ولفكرة المثابات الثورية كصمام أمان للمجتمع.

قلت: يعني كنت قومجي..!!

- آه قومي عروبي.

- وما الذي جعلك تسلك هذا الطريق؟

أجاب طلحة بزهو وعلا صوته مظهرًا القوة في نبراته: أحداث سبتمبر 2001، وجدتني فرحًا بها.. سبحان الله! كنت مبسوطًا.. سقطت أمريكا في عيني.. كنت موقنًا قبلها أن أمريكا تعرف دبة النملة.. بعدها بدأت التحول، وحدي بحثت عن مقالات وكتابات الشيخ أسامة بن لادن، وتابعت وصايا منفذي أحداث سبتمبر،

وغيرهم من الجهاديين من خلال موقع «سايت» وغيره من المواقع التي تدعو إلى الجهاد وتنشر رسائل المجاهدين وأخبارهم، فكرت في الهجرة إلى العراق أو أفغانستان للجهاد فيها، ووصل الخبر إلى جهات الأمن فاعتقلوني، وبعد خروجي من السجن بعد عدة أشهر بدأت في تتبع وصايا وكتابات مشايخ الجهاد.. أبو مصعب الزرقاوي، والخضير ابن الخضير في السعودية، وأبو محمد المقدسي وأبو قتادة حتى سقطت دولة القذافي وأعلنت دولة «أزواد» فقدمنا لتحقيق الحلم بإنشاء إمارة إسلامية في «تمبكتو».

لم تكن المسافة من السوق حتى الفندق بعيدة لتساعدني على إكمال حديثي مع طلحة الذي لم يعلق على تدويني لردوده في مفكرتي، عكس ما تصورت، حيث تقضي الأوامر بعدم أخذ أحاديث من قادة الجماعة إلا بعد إذن «المكتب الإعلامي»، فأردت الاستزادة حتى بعد أن توقفت السيارة، لم يعلق طلحة ولم يتوقف عن الحديث بل زاد، كان عثمان الذي ظل طوال الطريق يردد الأناشيد الجهادية التي تصاعدت من مسجل السيارة - قد انسل منها بعد أن توقفت واختفى، وتوقفت سيارة أخرى من نفس النوع واللون الأبيض بجوارنا يقودها شاب أبيض كث اللحية وبجواره كان أبو دجانة مشغولًا في مكالمة هاتفية، تحدث سائقها الشاب الأبيض ذو اللحية الكثة بلهجة مصرية: وعلى فين بعد كده يا طلحة؟

فسألته مرحبًا في بهجة: مصري..!

فنظر إليَّ الشاب نظرة تفحص وشك وغضب وكأنني قذفته بحجر قبل أن يجيبني: نعم.

- ياه.. أخيرًا لقيت واحد قريبي هنا.

بدت كلماتي ومصريتي كرصاصات أوجعت الشاب وسببت له مفاجأة فحاول التحفظ، ولكنه لم يستطع إلا أن يجيب وبدأ يصب جام غضبه على مصر وحكامها وشعبها المتخلف المرتد - كما قال، فحاولت أن ألطف الجو قائلًا: يا

أخي الحال تحسن وجاء رئيس إسلامي.

فنطق الشاب في أسى: محمد مرسي والإخوان.. دول مرتدين همه كمان.. وعدوا بتطبيق الشريعة وحنثوا فوجب منهم القصاص بالقتل عقوبة المرتد.

كان أبو دجانة قد أنهى حديثه الهاتفي فطلب مني بصوت هادئ: دعك من ذلك، انزل يا أحمد.. ونزل أبو دجانة.. نزلت وانطلقت السيارتان انطلاقًا سريعًا.

أمسك أبو دجانة بيدي وجلسنا أمام بوابة الفندق...

وطفق يلعب في شعره الغزير الكث الأشعث، فيلتقط شيئًا أشبه بالحصى الصغير، أو ربما حبات رمال، وربما قمل من شعره فينظر إليه ثم يلقي به إلى الأرض.

كدت أضحك عندما تذكرت نعت القذافي لهم بالمقملين، تحدث في أمور عامة لكني لاحظت أنه جاء ليعرف مني شيئًا ما أو يختبرني.. لا ضير كدت أسأله صراحة: ماذا تريد؟.. لولا أن استقبل مهاتفة جعلته يستأذن.

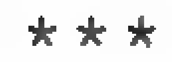
كنت أحتاج إلى إشعال سيجارة، عدتُ إلى الغرفة، نزعت عني ثيابي، ثم استلقيت على السرير، أشعلت سيجارة، أغلقت نافذة الغرفة على باحة الفندق، وفتحت باب الحمام ونافذته، أكملتها بسرعة، ثم قمت لآخذ حمامًا، حاولت الاستغراق في التفكير في بلادي، وأنا أحاول الاستمتاع بالماء يمطرني، شعرت بانقباض، توقفت عن الاستحمام، ارتديت ملابسي وعندما خرجت وجدت عصفورًا لون منقاره وريش رجليه أحمر فاقع اللون شعرت بنذير شؤم فارتجفت، حاولت استجماع قوتي وثباتي.. انقبض قلبي.. تأكدت من شؤم اليوم والرحلة، وحاولت أن ألتقط علبة تونة لأقذف بها العصفور الذي طار ما إن رأى يدي تمتد إليها، استلقيت على ظهري على السرير، ثم مددت يدي إلى علبة الدخان لأتناول سيجارة، تراجعت عندما سمعت دقات على الباب، نهضت وفتحتُ بسرعة، كان عثمان يبتسم ابتسامة رملية صحراوية، وأخبرني أنه

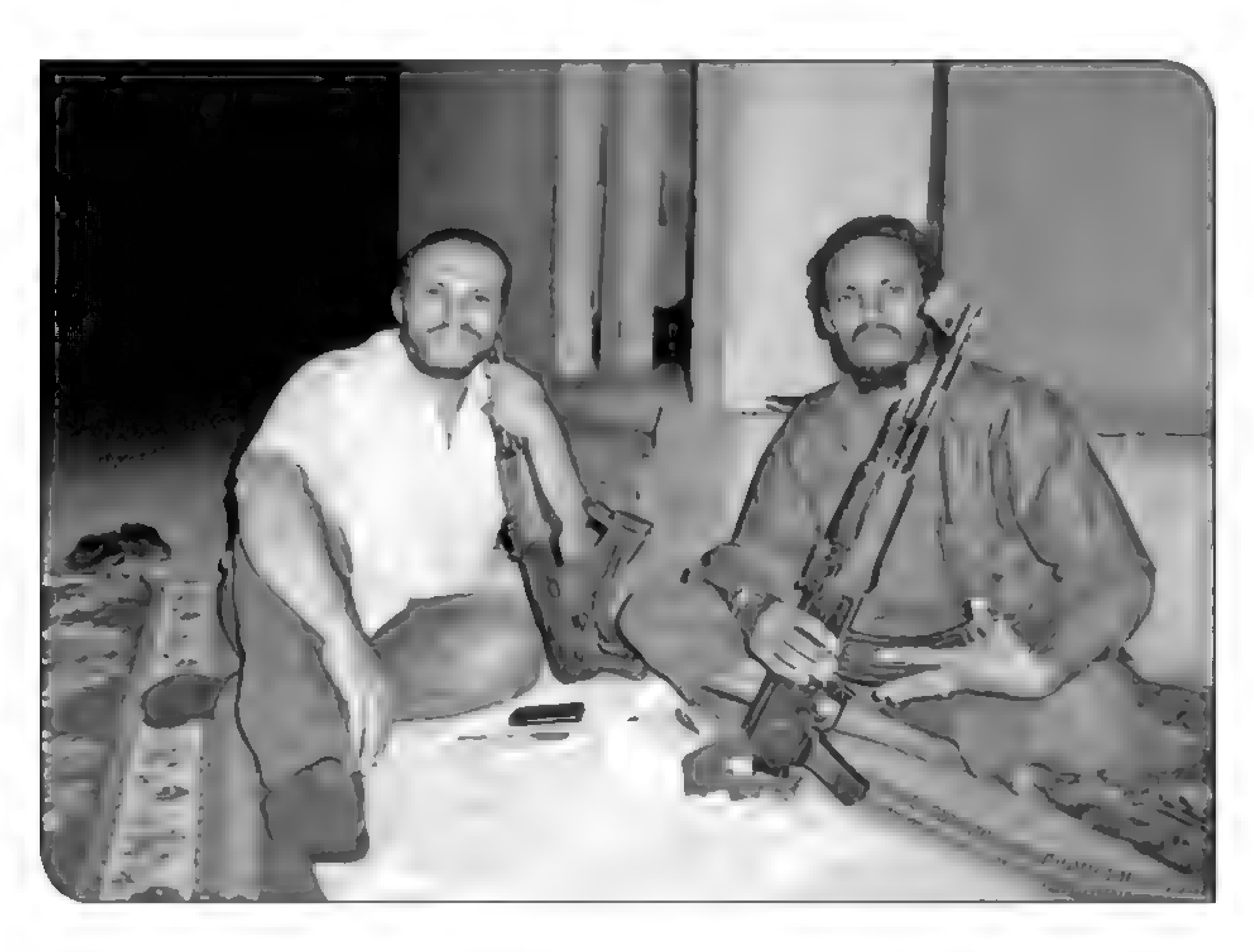
سيغادر الفندق ويسألني إن كنت أحتاج شيئًا!!

- لا، ولا حاجة، ثم تركني وانصرف إلى أمام بوابة الفندق، ثم التفت إليّ قائلًا: أنا خارج في مشوار.. هل تحتاج شيئًا؟ لم أجبه وكأني أعرف أن عثمان لن ينتظر مني إجابة.

ثم لحقت به خارج الفندق وناديته وقلت: فين الجماعة.. عايز أشوف يوسف أو حد، من غير المعقول أن يمضي يوم آخر دون عمل..

سأخبرك بعد عودتي بمن يمكن لقاؤه.. قال عثمان وهو يجد في سيره ثم توقف وأخرج هاتفه وقال: سأسأل لك «أبو تراب» إن كان يقبل استقبالك معي..





مع محمد أج موسى أمير الحسبة في ولاية «تمبكتو»!



هكذا سيطر المتطرفون على مركز أحمد بابا التمبكتي للمخطوطات وهددوا بإحراق المخطوطات وأحرقوا بعضها قبل فرارهم من «تمبكتو»

حوار مع «أبو تراب».. في أرض الخوف

سيذبحون لك عندما يعرفون أنك مصري، قال لي «شيخ» وهو يودعني عند دخول تمبكتو، فقلت مع ضحكتي: لا أريد منهم أن يطعموني.. ولكني أخاف أن يذبحوني.. ولم يذبحوا لي ولم يذبحوني، كان العشاء متواضعًا في منزل الشيخ «أبو تراب» أمير الحسبة والقيادي بجماعة «أنصار الدين». تناوب اثنان منا - نحن الأربعة في الجلسة - شرب الأتاي «الشاي الأخضر» في كوب صغير وفنجان قهوة قديم هما ما أراد الرجل أن أرى أنه لا يمتلك سواهما، أو هو كذلك بالفعل.. فهو لا يتقاضى أجرًا كجميع الأمراء كما قال لي!! باستثناء القاضي الذي تُؤَمن له الجماعة ولأسرته الطعام والاحتياجات الضرورية.

تذكرت تحذير السائق قبل إخضاعنا للتفتيش عند بوابة المدينة بالامتناع عن التدخين، سألته فقال: أمرنا بعدم التدخين في الشوارع والأسواق، وننصح بالإقلاع عنه عندما يتم ضبط مدخن، أما في المرة الثانية فنشدد عليه النكير ونوبخه ونغلظ عليه وفي الثالثة يكون العقاب بالغرامة والضرب أو السجن.

وعن تطبيقهم للحدود رغم الفقر الشديد ولماذا لم يتدرجوا في التطبيق؟ قال: البعض كان يرى رأيك وأئمة المساجد في «الولاية» كانوا يميلون إلى التأجيل من باب التدرج، ولكن الجماعة لم تقبل، فهدمنا الأضرحة ومنعنا الناس من طقوس زيارة المقابر التي تفضي إلى الشرك بالله. لم يعجب عامة الشعب ذلك ولكن شهدت المدينة تحولًا كبيرًا من الفوضى وانتشار الظلم والدعارة والخمر إلى الهدوء والالتزام. بعد أن قطعت يد سارق وجُلد زان وزانية وأغلقت حانات الخمور وبيوت الدعارة مما ساعد على الإقلال من مظاهر التبرج مثل الخلاعة والموسيقى وجميع المظاهر الكفرية ودعمت الجماعة مدارس المنهج الإسلامي بدفع رواتب معلميها، أما المدارس النظامية باللغة الفرنسية فطلبنا من الشعب البحث عن طريق أخرى للدراسة والوقت مبكر أمامنا لبدء مشاريع تعليم، أما عن توافر رجال الحسبة فقال: صحيح نواجه مشكلة عدم كفاية العدد من

رجال الحسبة. ولتعوُّد الناس على الانفلات واتباع الأهواء مما صعَّب عليهم الأمر عندما جاءتهم الشريعة بضوابطها الملزمة ويقوم «المجاهدون» بدوريات في الشوارع والأزقة للتفتيش عن المخالفات الظاهرة.

وقد أعلنَّا في بداية تكوين الإمارة ضوابط الحياة ومنها معايير ستر المرأة باللباس. أن يكون فضفاضًا غير شفاف ساترًا لجميع الجسد غير مزخرف ولا مزين ولا مشابه للباس النساء الكافرات ولا معطر. ومنع الملصقات في الشوارع التي تكون بصور أو شعارات «كفرية» كصليب وغيره، وأمرنا بعدم حلق اللحى أو الربا في الأسواق.. وبالنسبة للسياح أردف: لا مانع من دخول الكفار أرضنا بالشروط التي نراها نحن، وأهمها الالتزام بكل تعاليمنا وعدم مخالفتنا أو الجهر بالسوء والكفر.

وفي لهجة كلها تفاخر أعلن بكبرياء واضح: نحن جزء من العالم الإسلامي الذي يعتبر إيصال الرسالة واجبًا عليه شرعًا، والأهم هو تطبيق حدود الله وشريعته!!، أولًا على أنفسنا. وإن أكرمنا الله بأن كنا جماعة كبيرة اتفقت على هذا الرأي وطبقنا على أنفسنا وأصبحت لنا قوة فهنا لابد من تطبيقها على من تحت سلطتنا كما يطبق الآخرون في الدول الأخرى ما يُسمى بالديمقراطية على من لا يرضى بها كالانتخابات وهي أمر غير إسلامي، ومن سنن الله في الكون أنه إذا بلغ الشيء اكتماله صار إلى زوال. والدول التي اعتمدت على قوتها واستعمرت العالم العربي وفرضت عليه قوانينها هي الآن متهالكة من الداخل كرتونية هشة أو جيفة تنتظر شيوع رائحتها ونحن سنعمل على ذلك. كحال سليمان)مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِ إِلَّا دَابَّةُ الْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُ([94] ونحن سندل الجميع على أن هذه الأنظمة ماتت بعد أن شاخت.

ونحن الآن نرى أننا لم نصل إلى مرحلة تصدير الجهاد بداية، لأننا في جهاد الدفاع عن النفس الآن، فقد مُست كرامتنا وغُصب منا ما هو أكبر من نفوسنا: شريعتنا، فوجب علينا الدفاع عنها جهادًا أولًا.

كما أن مصطلح تصدير الجهاد غير دقيق؛ لأن الجهاد ينبع من داخل المجتمع، خصوصًا المجتمعات المسلمة وأن المسلمين فيه ينظرون إلى دينهم وأن من في السلطة يخالفه. والذي تراه هنا سيصل إليك في مصر والأردن والسعودية وكل الدول العربية قريبًا ليس تصديرًا منا ولكن بأيدي الإخوة في مصر وفي هذه الدول وعن طريقهم.

أما الحكومات التي لم تطبق شرع الله في شعوبها المسلمة فهي حكومات مستعمِرة لشعوبها وتحتكر السلطة بدعم اليهود والنصارى والعملاء.. ونظرتنا لمصر خاصة لأن التغيير الذي حدث فيها صار من أسوأ إلى سيئ[95]. والحاكم الحالي أعلن أنه سيقيم الشريعة، ونظرًا لوصوله للحكم بصعوبة، تمسكوا بفكرة الانتخابات والاستفتاء. وتوسعوا في إنشاء أحزاب، وكل فرد عمل على الانضمام إلى الحزب الذي يتوافق مع فكره، وهذا خطأ كبير لأن الأمة الإسلامية يجب أن يكون الحكم فيها للشرع ولا خيار آخر.. فالشورى مصروفة للعلماء والفقهاء،)فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ([96].

وبالنسبة لمسيحيي مصر فهم أقلية عليهم أن يقبلوا بحكم الشرع دين الأغلبية، ولهم باب في الفقه الإسلامي وفيه عدل يضمن للذمي والمُعَاهَد والمُستأمَن والتاجر حقوقهم، لذلك كان يجب إلغاء الانتخابات وتحكيم الشرع.. فالإسلام جاء بكل شيء ولكل شيء وأولو الأمر من الأمراء والعلماء هم الأدرى بحال الأمة والأقدر على توجيهها..

وعن قوة «أنصار الدين» أوضح أنها من حيث العدد والعتاد فهي الأقوى وتتكون من قبائل الأنصار والشرفاء والسوقيين وامنغاد واليوشغ والإيفوقاص ودو إسحاق والبرابيش والوسرة وكنته وغيرها من قبائل أزواد، وبالتالي فهي تعتمد على العناصر الوطنية أكثر من تنظيمات القاعدة الأخرى وكتائبها التي تعتمد على التقاط عناصر من هذه القبائل مع جنود وعناصر من البوليساريو ومصر وليبيا والجزائر وموريتانيا والجنوب الأسود في مالي.. والتوحيد والجهاد، عناصرها من عرب الصحراء والأغلبية من الفلان والصنغاي[97].

والفارق بين «أنصار الدين» و«التوحيد والجهاد» ليس كبيرًا، ويتمثل أكثر في قدرة وإمكانات «التوحيد والجهاد» على فتح مراكز تدريب للجنود وتقديم مساعدات مالية ورواتب تغدق عليهم، عكس «أنصار الدين» فنحن لا نتعمد الإغداق على جنودنا حتى لا يكون الدافع لجذبهم ماديًّا فقط. أما حركة تحرير أزواد العلمانية فهي منظمة أكثر وأقوى من حيث التسليح الذي تم تهريبه من ليبيا. وبعض ضباطها وجنودها انضموا فيما بعد إلى «أنصار الدين» لقناعتهم بأننا الذين سنقيم الدولة الدينية وليس الحركة لأنها علمانية؛ لذلك فكل الراغبين في تطبيق الشريعة انشقوا عنهم.

أما عن الحرب وتدخل الغرب في المنطقة فقال: لا نشك في وقوعها لأن العالم الغربي لن يسمح بقيام دولة تحكم بشريعة الله دون خلطها بقوانينهم الوضعية؛ لأن هذا إن حدث فسيفتح عليهم بابًا وسيعًا من الشر بتشجيع دول أخرى في المنطقة على تطبيق الشريعة وتصبح دول الإسلام قطعة واحدة، من الخليج العربي «الإسلامي» إلى المحيط، وقتها لن تستطيع قوة في العالم مواجهتنا، لذلك كنا متأكدين أنهم سيعملون كل ما في وسعهم للقضاء علينا بالحرب أو غيرها مثل عملاء يثيرون بيننا الفتن والنعرات القبلية والخلافات العنصرية بين الطوارق والعرب وبينهما وبين القوميات الأخرى من الصنغاي والبمبارا.

ونحن لدينا قوة ولكنها بالطبع لا تقارن بجحافل الكفار، ولكن بعون الله والإصرار والاعتماد على الله ثم على الخطط التي لدينا وخبراتنا في الصحراء سنحقق مكاسب كبيرة، ولكن إذا قتلنا فشهداء وسيجيء بعدنا من يحمل راية الجهاد. والمؤكد أن الحرب لن تطول والقوات الخارجية ستتركنا وأهل البلاد نصوغ حلولًا خاصة بنا مبنية على المصالح المشتركة.. وأيضًا الدول المجاورة المعنية بالأمر موريتانيا والجزائر والنيجر بعضها يتعاطف معنا وبعضها يخشى الثورة على نظامها. ونتصور أن الجميع سيعمل للوصول إلى حل مبني على القواسم المشتركة بين الحركات الموجودة وتصاغ معاهدة أو اتفاقية تسع الجميع لتقام من خلالها دولة مستقلة أو شبه مستقلة لن تعترف بها إلا الدول

المجاورة، وربما يكون الحل هو الحكم الذاتي، وفي هذه الحالة سيئول الأمر إلى أن تكون الشريعة شبه محصورة في المحاكم الإسلامية. لأن اشتراكنا في الحرب أو الدفاع عن البلاد سيؤدي إلى الاشتراك في النتيجة؛ وبذلك فالحركات العلمانية غير مجبرة على تطبيق الشريعة أو اتباعها في تنظيمها الداخلي، وهذه أشياء ستتوقف على طبيعة الدولة ونظام الحكم السياسي الذي سيعلن وقتها مع الأخذ في الاعتبار ضمان سيادة كل حركة وعدم جورها على الأخريات، وهذا ما ستتم صياغته في دستور، ومن الصعب جدًّا التفريق بين الحركات الإسلامية، فقد سبق أن حاولت مالي بالاتفاق مع أمريكا وبالتعاون مع موريتانيا طرد الإسلاميين إلى الجبل ولم تفلح لأن جميع الحركات تضم في عناصرها مختلف مكونات الشعب الأزوادي، وإذا كانت لنا السيادة على أرضنا فلن نمنع أي مسلم من دخول أراضينا. وسنفتح باب التجنس وهو حق لكل مسلم يجيء للدفاع عن البلد المسلم وهو ما ينطبق على «القاعدة».

وأكثر البلاد قدرة على ابتلاع القاعدة هي أزواد. عكس ما يتصور الكثيرون؛ لأنها لم تستطع ابتلاع البوليساريو وموريتانيا رغم أنهما دولتان نظامهما هش.

* * *

إحراق مخطوطات تمبكتو

سألت عن مدرسة «أبو تراب» وكان قد وافق على حضوري إليه فيها والكتابة عنها، بعد أن منعوا التعليم، خصوصًا الفرنسي، لم تكن سوى فناء بناية حكومية جلس أكثر من ستة عشر تلميذًا على حصير على الأرض، أغلبهم تجاوز الأربعين من العمر، كل واحد يضع سلاحه أمامه بجوار كراسته، ويجلس أبو تراب على كرسي حديدي بجوار سبورة وضع لها حامل فوق الأرض، بجواره طفل لم يتعد الثامنة من عمره يقرأ في مصحف كبير وضع أمامه بندقيته.. سألته: ماذا تفعل؟ قال: أحفظ القرآن وأتعلم.. سألته مشيرًا إلى السلاح: وهذا؟ قال: سلاحي، قلت: لماذا؟ قال: الجهاد في سبيل الله.. سألته إن كان يستطيع إمساكه وإطلاق رصاصاته.. قال: تعلمت.. تذكرت «العلم في تمبكتو» الذي أشعت مدارسه نور الإسلام على الدنيا جنوب الصحراء!!

فقد ظلت «تمبكتو» منذ نشأتها مأوى للعلماء العابدين وبؤرة إشعاعهم، حفظت تربتها الشريفة أجساد مئات الزاهدين من الأولياء. يفخر الناس فيها بمقاماتهم وأضرحتهم الـ333 و«الفاروق» الرجل الأسطوري الذي يعتقد الأهالي - أو بعضهم - أن روحه تحلق فوق منازلهم كل ليلة يشارك مع أرواح أوليائها الصالحين في حمايتهم. تساءلت في نفسي: هل تزول عن هؤلاء الأولياء سَوْرة الغضب الناتجة عن هدم الحكام الجدد - جماعة أنصار الدين - لأضرحتهم ويستمرون في حماية الناس؟ . ولماذا صمتت أرواحهم عن انتهاك أضرحتهم؛ ففي عالمنا العربي المسلم عادة ما تنتقم أرواح الأولياء ممن يتعرضون لهم أو لمخلفاتهم المقدسة؟.. أم أن هؤلاء الأمراء أو «الأولياء» الجدد امتدادٌ لهم؟، ولو كانوا كذلك لما كانت أوامرهم لي - كغريب عن البلاد - بالصمت والسكون وعدم الحركة إلا بمرافق بعد موافقة أمنية، والامتناع عن «التدخين» وإلا تعرضت للعقاب بالجلد، غير ما كان في أزمنتها القديمة من احتفاء بالغرباء وهو ما سجله المؤرخ محمود كعت بقوله: «إنها لانظير لها في البلدان من المغرب إلى السودان مرونة وحرية وتعففًا، ورأفة ورحمة بالمساكين والغرباء

وتلطفًا بطلبة العلم وإعانتهم»[98]، وأنا تجمعت فيّ كل هذه الأوصاف؛ فأنا غريب ومسكين وطالب علم . فكان لي من كل صفة ملمح.

لم يكن الحريق الذي تعرضت له «مخطوطات تمبكتو» في «مركز أحمد بابا»[99] سوى حلقة من حلقات الرفض لنوع من البدع الصوفية «الكفرية»، كما يراها المتشددون الإسلاميون، على المبتدع التكفيري الوهابي، من عناصر كتائب تنظيم القاعدة في بلاد المغرب الإسلامي، تمامًا مثل هدم 13 من مقامات الأولياء الزاهدين في المدينة.

كنتُ قد عزمتُ على زيارة مركز أحمد بابا التمبكتي، لما تمثله لي مخطوطاته كباحث من قيمة علمية لا تقدر بثمن، فمثلي وزملائي يقطعون البلاد لزيارة مثل هذا المركز، وهو من أهم مراكز المخطوطات العربية في العالم، ويمثل كعبة للعلم والباحثين.

تعجب قادة «أنصار الدين» من أنني جعلته أول طلب لي، حاولت شرح ما يمثله هذا المركز من قيمة فلم يأبهوا لما أقول. فلم أكمل الحديث، لأنهم آثروا عدم السماح بإكماله والخوض فيما لا يريدون، وغلق الحديث بالموافقة السريعة، فقط كان عليّ الانتظار يومين.

واصطحبني يوسف إليه، مررنا في ساحة مسجد «سان كوري» التي يحتل المركز جانبًا منها مقابل المسجد.. فقال لي قبل أن يأمر رجاله بفتح الباب: ابق معنا في «تمبكتو» احمل السلاح وجاهد في سبيل الدين.. قلت: أحمل القلم في القاهرة وأجاهد.. امتقع وجهه وهو يسألني: ألست مسلمًا؟! قلت: وهل كل من ليس معكم غير مسلم؟! قال: أغلبهم مرتدون؛ لأنهم تركوا الجهاد واستكانوا، والجهاد أوجب عليهم، وإراقة الدماء فيه فريضة.. فلو كان الجلوس في الظل أو في المكاتب للتنعم بالمكيفات والركون إلى الدنيا ومباهجها يتناسب مع السعي لإقامة الدين لأكرم به الله من هم خير منَّا جميعًا: سيدنا محمد ﷺ وصحابته الأخيار، ولكن أريقت دماؤهم لإقامة هذا الدين وجهادًا في سبيل

الله، وليس أمامنا الآن لإقامته سبيل بادخار الدماء، فوجب علينا السعي بالجهاد وإراقتها لإقامة شرع الله.. قلت: ولكننا نعيش بشرع الله وقد أقيم الدين منذ قرون.. فقال: ارتد الناس إلى الكفر الذي انتشر في كل مكان وبعضه في هذا المركز، كنا في مدخله وقد تملكتني رهبة الباحث وشعرت بروح صاحبه وبركاته التي لا يعترف بها هؤلاء، وكان أبو مصعب المسئول عن تخزين براميل «البنزين» و«الجاز» يشرف على إدخال بعضها إلى المركز!! يسمع حديثنا فتدخل قائلًا: لابد من حرق هذه المخطوطات لكفر ما فيها من كتابات وشركيات الطرق الصوفية «الكافرة»!!

فزعتُ فسألت يوسف: هل ستحرقونها؟ فقال: وفرنا أفرادًا منّا لحماية المركز رغم حاجتنا لهم كجنود.. ولماذا لم تتركوا موظفيه حراسًا له وعليه؟ قال: هرب مديره الدكتور محمود كلاديكو والموظفون خوفًا على حياتهم ومعهم المفاتيح مما اضطرنا لكسر الأبواب و«التحفظ على المركز» لحمايته!!

والحقيقة أنه لماذا سُرقت؟.. ففي «كيدال» بعد شهر من الحرب قُبِض على بعضهم في سيارة دفع رباعي تحمل مئات من هذه المخطوطات!.. هل سرقت؟.. وإلى أين كان اتجاهها؟.. مجهول.

وربما ساعد الوعي الإنساني المتوارث في نفوس التمبكتيين على التنبؤ بذلك فعملوا على حمايتها، وعلى الأقل حماية لها، مثل عائلة «كوناتي ألفا» التي تمتلك نحو ثلاثة آلاف مخطوط خبأتها عندما دخلها «المقاتلون الإسلاميون» في أول إبريل2012 كما قام علي بن السيوطي إمام شيخ مسجد سيدي يحيى الذي تضم مكتبته ثمانية آلاف مخطوط بـ«لف» أغلب هذه المخطوطات بحذر شديد في قماش خشن وحفظها في صندوق خبأه في مكان بعيد لا يصلون إليه.

وهكذا لم يكن هرب الدكتور كلاديكو بالمفاتيح إلا محاولة لمنع دخولهم إليه.. فالمركز يضم ما يقرب من 30 ألف مخطوط من نفائس الثقافة العربية

والإسلامية، وكان سببًا - مع مساجدها العتيقة وتاريخها المزدهر - لأن تضمها «اليونسكو» إلى لائحة التراث العالمي وتخصص لها مئات الملايين للترميم والحفاظ على آثارها ومخطوطاتها من الفناء.

وتحفل المكتبات الخاصة والأهلية والعائلية في «تمبكتو» بآلاف المخطوطات.. وهناك ثلاث عشرة مكتبة تضم عددًا مماثلًا لما يضم المركز من مخطوطات.. أهمها مكتبة حيدرة.

عندما دخلت المركز هالني ما رأيت.. فتذكرت لحظة دخولي إلى غرفتي بالفندق وكسرت زقزقة عصفور صمت المدينة فنظرت إليه، رأيت في حمرة منقاره وقدميه نذير شؤم.. المقاعد مقلوبة والمناضد بعضها مكسور وبعض المخطوطات ملقاة على الأرض وأخرى أخرجت من حوافظها وتناثرت أوراقها.. اقتربت من بعضها بحنو الباحث العارف بقيمتها.. صففتُ أوراق بعضها، وأعدتها إلى حوافظها وسط ضحكات ساخرة لعناصر «القاعدة» الرافضة لما أفعل، وفرحتهم الساذجة بانتصارهم على أصحاب هذه المخطوطات «الفاجرة»..

كانت بشاعة المشهد الداخلي مؤكدة على ازدراء هؤلاء لما فيه، وربما ازدراؤهم للعلم، قال لي الشاب العشريني الذي صاحبني: «لماذا كل هذا الاهتمام بالمركز؟ فكل ما فيه لا يساوي عندنا شيئًا»..

قلت محاولًا سد فراغ الوقت: هذا تراث إسلامي.

فقال: تراث الإسلام في القرآن، وفي كتابات شيوخنا المجاهدين.. تعجبت لهذا الجهل والإقصاء، فكل علماء هذه البلاد القدامى مجاهدون، ولكن جهادهم كان جهادًا حقيقيًا لنشر الإسلام، وليس لقتل المسلمين وإرهاب من دونهم، فهذا المركز تحفظ مخطوطاته سير النبلاء من مجاهدي الغرب الإسلامي وشيوخه مثل الشيخ عثمان بن فودي، وكل من حمل لواء الإسلام فيها جاهد حتى تكون «تمبكتو» إحدى أهم نقاط الإشعاع على العالم الوثني، وأجسادهم الشريفة في أضرحتهم المَزُورة تشهد، قال: هدمناها.. بَدْءًا بما في المساجد خصوصًا

مسجدها الكبير، وأشار لي على مسجد «سنكري»، أو «سان كوري» كما ينطق فيها.

أما الأضرحة ففي حصر غير دقيق وغير وافٍ - وإن قارب الحقيقة - فهي تصل إلى 333 ضريحًا تتفاوت أحجامها، وقدر الاهتمام بها.

ولكن شتان ما بين هذا التعليم، وما كان في مدارسها ومساجدها قبل ما يزيد على ثلاثة قرون حين توافد عليها الفقهاء من كل حواضر العالم الإسلامي، فأسهموا في إذكاء روح العلم والتنوير والتجديد للفقه الإسلامي حتى امتلأت جوانبها - في القرن السادس عشر - بأكثر من 180 مدرسة انتظم فيها التعليم في مراحل تعليمية كالتي نعرفها في قرننا هذا «الحادي والعشرين»، وإن تشابه تلاميذ أبي تراب مع تلاميذ فقهاء تمبكتو بعدم التقيد بالسن في التنقل بين مراحل التعليم من أولية، وما نعرفه الآن بالثانوية. كان معيارهم هو الفهم والحفظ الذي كان الآباء يحرِّضون عليه أولادهم الدارسين البالغ عددهم آنذاك ستة عشر ألف طالب. وفي نفس السنوات التي ذكر فيها محمود كعت[100] أن تعداد سكانها في عهد أسكيا محمد تجاوز 20 ألفًا وهو رقم كبير جدًّا بالنسبة لمدينة في الغرب الإفريقي مما يدل على اتساع رقعتها وكثرة عدد سكانها واهتمامهم بتعليم أولادهم، فضلًا عن كثير من الطلبة الوافدين من البلدان المحيطة. كان التعليم في تمبكتو أنْ يبدأ الطفل في سن السابعة بتعلم مبادئ القراءة والكتابة وباللغة العربية على اللوح بواسطة معلمي أو شيوخ الكتاتيب، ويحفظ القرآن ويتعلم الصلاة التي إن تركها أو تهاون في أدائها عوقب بالضرب أو القيد، وكان الآباء ومعلمو الكتاتيب يغلظون على تلامذتهم، ذكر ابن بطوطة أنه دخل عند القاضي يوم العيد فوجده قد أوثق ابنًا له وقيَّده عن الخروج، فسأله :لماذا؟ فأخبره القاضي أنه لم يتم حفظ ما أوكل إليه من آيات . وحين يصل الطالب إلى المرحلة العُليا من التعليم كان يلتحق بجامعة سنكري، تمنيت لو تعلمت في هذا المسجد في ذلك الوقت، وكانت دروسه واستمرارها يتوقف على قدرة الطالب على استيعاب ما تلقى من علم، لم تكن الدراسة في

النهار فقط بل كان العلماء - كتبه عبد الرحمن السعدي - يذهبون إلى المساجد في منتصف الليل لبَدْء دروسهم التي تستمر حتى صلاة الفجر على ضوء مصابيح الزيت، ثم يعودون بعد صلاة الظهر حتى صلاة العصر. وكان اهتمام «أسكيا محمد توري» بالغًا بالتعليم في تمبكتو وبجامعاتها، مما جعلها قبلة للعلماء والفقهاء والوافدين استضافهم وأكرمهم، كان يسألهم ويستمع إليهم، ومنهم محمد بن عبد الكريم المغيلي[101] عندما زار «تمبكتو» ومعه تلميذه سيدي عمر الكنتي، وكان لهذه الزيارة نتائجها الدينية والتعليمية التنويرية ليس في تمبكتو فحسب بل في كل أرجاء السودان الغربي الذي اعتمد جميع علمائه بلا استثناء على فتاوى المغيلي في إجاباته عن أسئلة «أسكيا الحاج محمد توري»[102] التي تناول فيها أغلب قضايا ومشكلات هذه البلاد.

اعتمد عليها أيضًا الشيخ عثمان بن فودي «أول خلفاء الدولة العثمانية السودانية الغربية - سكتو» وهو موضوع رسالتي، فقد استقى منها كثيرًا من الأحكام[103] تذكرت كلمات أستاذي الدكتور ماهر شعبان عن أن «تمبكتو» أصبحت حاضرة العلم ومقصد العلماء ومناخ رحالهم حتى ضاهى مسجدها «سنكري» وجامعته غيره من مساجد ومعاهد العلم في العالم الإسلامي، مثل جامعتي القيروان والزيتونة في تونس، والقرويين بفاس، وجعل تمبكتو حاضرة العلم ومأوى العلماء والعابدين وملتقى الأولياء والزاهدين[104].

رددت وأنا أحدث نفسي: كان لاسمه في نفسي وقع طيب شديد الأثر، منذ أن درسته ضمن منهج التمهيدي في دراستي العليا بمعهد البحوث الإفريقية بجامعة القاهرة، وكيف تعرفت بشكل وافٍ على تمبكتو، المدينة العجيبة، قال الدكتور عبد الله عبد الرازق «إمام الدراسات الإسلامية في إفريقيا» كما نعته الدكتور كرم الصاوي وكان صوت الدكتورة سوزي أباظة يرن في مسمعي في محاضراتها عن هذا المسجد طوال رحلتي من نواكشوط ولهم فضل علمي بهذه المنطقة وإن ظللت حاملًا حكايات تمبكتو ومسجديها «الكبير» و«سنكري» اللذين حفزاني على الشفاء عندما خارت قواي بفعل الحمّى التي ألمت بي

وفعل اليأس من عدم القدرة على إكمال الرحلة، تعلقت عيناي بصورة المسجد على شاشة التلفاز في خبر حول أخبار الحرب في «تمبكتو» ورنت في سمعي نبرات الدكتورة سوزي أباظة وهي تتحدث في قاعة الدرس عن بناء مسجد «سنكري» فكأنني شفيت من الحمى، وأصبحت مهيأ للرحلة فزاد إصراري عليها وأنا أطمح في صلاة به وصورة لي فيه أو أمامه خشيت أن يجبرني المرض على العودة إلى القاهرة، متذكرًا فضل «أبو إسحاق» في إدخال فن البناء بالآجر فيها، وقتها لم يكن معروفًا في غرب إفريقيا، فكان هذا المسجد الذي تباينت الحكايات عن عام بنائه، فمن المؤرخين من يقول إنه شيد عام 854هـ / 1450م، وأن القاضي العاقب جدد بناء محرابه[105] في حين يذكر محمود كعت «أن القاضي العاقب هو من شرع في بنائه… وقد واتته الفكرة أثناء رحلة حجه، وأنه لما أراد الانصراف من الحج والقفول إلى «تنبكت» استأذن خدم الكعبة المشرفة أن يحد الكعبة ويكيله بقدمه طولًا وعرضًا، فأذنوا له، وكاله بالحبل طولًا وعرضًا، ولما أراد بناء مسجد «سنكري» أخرج ذلك الحبل وحدد جهاته الأربع على مقدار الكعبة، ما زادت وما نقصت، وبنى مسجد سوق تنبكت، وإن ذكر السعدي أن سيدة من قبيلة «أغلال» الموريتانية[106] أوقفت عليه مبلغًا ضخمًا من المال لتجديده والمحافظة على مكانته الدينية والثقافية».وأشار رين كاليه Caillie - Rene إلى مشاهداته وزيارته المسجد ودوره الوظيفي عند زيارة تمبكتو عام 1824 - 1829.. يا لها من مدينة عجيبة حقًّا وحافلة بالأمجاد! فجأة شعرت بيد ثقيلة على كتفي وصاحبها يسأل: هل أحببت «تمبكتو» خصوصًا بعد ما سمعتم عن قدرة الجماعة على تأمينها، واستعادة وجهها الإسلامي ومنع المنكرات فيها، التفتُّ فإذا به «أبو دجانة» فتبسمتُ وأنا أقول: نعم منعتم المنكرات - ثم في نفسي قلت: أكيد إلا في السر!!

* * *



مع محمد الأمين نائب رئيس حركة «مانيلا»



مع أحمد الصغير وعلي ولد الداه والشاب شيخ أمام سيارة ربع نقل عليها تنقَّل المؤلف



في إحدى قرى العرب في أزواد



علي ولد الداه وشربة ماء جاء بها من بئر في الطريق

قتل الجنود

أوحش ليل «تمبكتو» بهبوط الظلام وسكون حركة من بقوا من سكانها ولم يهربوا، لم تمض على صلاة العشاء إلا دقائق، ولم أعد أسمع إلا صوت الريح وحفيف أوراق الشجر ونباح كلاب «السكك».. قبعت في غرفتي أنتظر «أبو دجانة» حسب موعدنا الذي شعرت بحرصه عليه، ولأن شبكة الهاتف المحمول سيئة فلم أستطع التأكيد عليه، خرجت في وحشة الليل أمام الفندق أعادتني الظلمة إلى غرفتي، قبل أن أفتح الباب وأدخل وجدته خلفي وكأن الأرض انشقت عنه.

ولم يكن مخططًا أن أتحدث مع «أبو دجانة» القيادي في «أنصار الدين» ولم أضع اسمه على قائمة طلباتي من يوسف المسئول الإعلامي لـ «أنصار الدين» ولا لجماعة «التوحيد والجهاد» ولكن كلماته التي سمعتها عن إباحة قتل الجنود واستنزاف الدول الإسلامية أشعلت حماسي للقائه بعيدًا عن قادته، حاول إقناعي بأنه قدم إلى مالي للالتحاق بكتائب «تنظيم القاعدة» للجهاد، عرفني عليه رغيف الخبز الذي كنت أبحث عنه بعد أن نفد الخبز من محلات تمبكتو فمنحني اثنين.. تحدث أبو دجانة - كما قال لي - بصفته الشخصية حتى لا يُسأل من قِبل التنظيم عن الحديث دون إذن. لم يمتلك جرأة طلحة مدير الأمن الذي تحدث دون تردد، وأباح قتل الجنود في سيناء لأنهم يحمون الطاغوت واليهود:

* تحدث أولًا أن البرلمان والانتخابات التي جرت في مصر هي تغييب للمشروع الإسلامي رغم أن للإخوة وللتنظيمات «الجهادية» في مصر فضل السبق على نظرائهم في كل الدول العربية حيث انتشر منها الفكر «الجهادي» وأن «معركتنا الحالية مع حكام المسلمين»، موضحًا أن «التيار السلفي الجهادي بدأ مرحلة استنزاف الأنظمة العربية».

وتحدث عن الضبط الشرعي لقتل الجنود المصريين في رفح[107] وتكفير

الحاكم المسلم، وأولوية قتاله على قتال إسرائيل التي يراها لا تختلف عن السعودية، وأن ثورات العالم العربي ليست ربيعًا عربيًّا بل صحوة إسلامية وأن مشروع «السلفية الجهادية» الحالي وصل - كما خُطط له - إلى مرحلة حرب استنزاف الأنظمة العربية القائمة حاليًّا لتبدأ بعدها حرب إنهاء إسرائيل وأسلمة الكرة الأرضية من الصين إلى أمريكا، وإقامة مشروع الله فيها، هذا هو حواري مع أبو دجانة، أحد العناصر القيادية في جماعة القاعدة أنصار الدين، هو شاب مثقف، حافظ للقرآن.

- كجندي وكفرد في الجماعة أرى أن الجهاد لتطبيق الشريعة مضبوط بكتاب الله وسنة نبيه ونحن نتقيد بهما. ومن المعلوم للجميع أن ما يحدث في مالي هو نفس الفكر الذي نجده عند المسلمين في مصر أو السودان أو سوريا وتونس والشعوب التي انتفضت للتخلص من حكامها أو بالمقاومة المباركة في «الشيشان» و«العراق» وأن ذلك هو امتداد لمشروع يتبناه الجميع لإقامة دين الإسلام والانتفاضات المباركة التي خرجت على الظلم طلبًا لشرع الله نتيجة ما وصلت إليه حالة الوعي من الناحية الشرعية والسياسية عند المسلمين بعد تجريب الاشتراكية والقومية والآن يجربون الأدعياء المسمين «الإخوان المسلمون».

رغم أن فيهم شبابًا صادقين ولكن دخولهم البرلمان وإقبالهم على الانتخابات هو تغييب للمشروع الإسلامي فأصبحوا بذلك في مزبلة التاريخ رغم أن فضلهم على أغلب الجماعات الإسلامية الموجودة التي اقتبست مشروعها العملي من الإخوان والجماعة الإسلامية.

ومن الناحية العملية والقيادية في التنظيمات الجهادية الإسلامية، المصريون لهم السبق لقيادتهم المشروع الإسلامي الأممي مثل شيخنا وسيدنا الدكتور أيمن الظواهري وكثير ممن لا نستطيع أن نحصيهم.

* سألته: ولكن الإخوان يقدمون برنامجًا إسلاميًّا للحكم؟

- الإخوان لو كانوا صادقين لصدقوا مع شعبهم الذي انتخبهم أولًا، وما انتخبهم إلا ظنًّا بأنهم سيطبقون شرع الله. ولكنهم لم يفعلوا، ويضغطون على إخواننا الشباب في سيناء ممن تأخذهم الغيرة على دين الله ويتوقون للجهاد، وإن الأعوام الـ 50 التي مضت حافلة بالجور والظلم للفلسطينيين وما عانوه من قهر وذل - ولّد هذا الفكر الجهادي الذي يصادم فكر هؤلاء الطواغيت من الحكام العرب واليهود.

* قلت: إذن أنتم تعادون هؤلاء الحكام الآن؟

- نعم، ولقد كانت المعركة قبل ذلك بيننا وبين اليهود والنصارى وتحولت الآن - بنظرية العدو القريب - إلى معركة بيننا وبينهم، ومنهم حاكم مصر الحالي[108] الذي وعد بتطبيق الشرع ثم نكص على عقبيه، وغيره من الحكام المسلمين لأنهم حماة لليهود والنصارى. ويحولون بين المسلمين وجهادهم لنصرة شعب فلسطين المظلوم وقد بدأ الشباب في قتال هذه الأنظمة التي تحمي اليهود.

* فعاودت سؤاله: هل تقصد قتل الجنود المصريين في سيناء؟

- أولًا قتل الجنود لم يتبنَّهُ الإخوة «المجاهدون» في سيناء ولكن قتلهم واجب شرعًا ومضبوط بكتاب الله وسنة رسوله.

* قلت: وما مصلحة «الجهاديين» الذين يستهدفون إسرائيل في قتل هؤلاء الجنود؟

- لا يفعلون ذلك إلا من باب قواعد شرعية مضبوطة لا يستطيع أي تنظيم الخروج عنها وإلا يكن انحرافًا عن الشرع الإسلامي، وفي التيار السلفي الجهادي أن هذا الجندي المسكين الذي يحصل على فتات المال هو الذي يحمي الطاغوت الأكبر المستبد الممتنع عن تطبيق الشرع، وسبق أن أرسلنا كثيرًا من النصائح لهم في عديد من القنوات الإعلامية والمنبرية والدعوية، بل بعض الشباب نصحوهم أفرادًا وجماعات بأن فعلهم هذا يصل بهم إلى استحقاقهم

للقتل.

وهؤلاء الجنود إن تابوا ورجعوا فهم إخواننا في الدين. ولدينا رسالات أرسلها قيادات لنا في العراق قالوا بصحيح العبارة: إننا لا نستهدف التائب منهم، فنهج أهل السنة والجماعة أن التوبة تجُبُّ ما قبلها.

* فاعترضت قائلًا: ولكن وظيفة هؤلاء الجنود هي حماية الحدود الإسلامية؟

- إن بقي هؤلاء على الحدود في ظل هذه الأنظمة فسيكونون معرضين للقتل.

* وسألته: هل تتواصلون في البلدان العربية؟

- نحن كتيار سلفي جهادي وصلنا الآن إلى مرحلة عالية في التخطيط والتدبير والتواصل فيما بيننا. وأنا مثلًا تربطني علاقات مع «سلفيين» في فرنسا وإنجلترا والشيشان والصومال؛ لأننا أصحاب فكر واحد ومنهج واحد وبيننا آليات للوصول إلى بعضنا والتواصل ومن خلال الإنترنت وكذلك لقاءاتنا وزياراتنا التي نقوم بها لبعضنا حتى نرتبط ونترابط.

* واستوضحته سائلًا: من هم العلماء الذين تأثرت بهم؟

- سلمان العلوان وإبراهيم الربيش وخالد الراشدي من السعودية، ومن الأردن محمد المقدسي، وأبو قتادة من فلسطين، ومن مصر عمر عبد الرحمن وسيد قطب.

* وأضفت: ومن هم الأحياء؟

- لا يمكن ذكر الأحياء خوفًا عليهم.. فاعذرني.

* واستفسرت منه: ولكن «الربيع العربي» سبق مشروعاتكم وأوقفها بوصول إسلاميين للحكم؟

- لا لم ينتهِ مشروعنا «السلفي الجهادي» بعد «الربيع العربي» كما قال المرجفون

والملحدون.. وأحداث ليبيا وسوريا وهجرة الشباب إليهما للجهاد فيهما خير دليل على صحوة هذا المشروع الذي أصبح كما خُطط له بأن ينتشر داخل هذه الدول ليدخل في حرب استنزاف للأنظمة ومن والاهم من يهود ونصارى.

* ولكن المشروع انهار، فمثلًا في الصومال انسحب شباب المجاهدين من المناطق التي سيطروا عليها؟

- انسحابهم ليس هزيمة ولكنهم يجرون العدو هناك إلى حرب استنزاف، ونحن مطمئنون الآن إلى انتشار الفكر الجهادي في دول كثيرة أهمها مصر والسعودية التي سيتقوض فيها حكم آل سعود قريبًا. وقد لاحظت أن جميع من التقيتهم كانوا مثل «أبو دجانة» في الحديث حول تقويض حكم «آل سعود» وتفكيك المملكة العربية السعودية!!

***

إمارة الصحراء.. الإرهاب والذبح

لم تسلم الجزائر من اختبارات القتل وطفح الدم الذي قامت به «الجماعة السلفية للدعوة والقتال» بُعيْد وقف الانتخابات البرلمانية الجزائرية في ديسمبر 1991، والتي قام الشعب الجزائري بالتصويت الانتقامي فيها لصالح مرشحي «جبهة الإنقاذ» الإسلاموية نتيجة الفقر والفساد الذي انتشر في جسد الدولة وتسطيح العقول بتعليم هش وضعيف سمح بقبول الشباب لأفكار المتشددين من القيادات «الإسلاموية» التاريخية في الجزائر مثل علي بلحاج وعباس مدني وغيرهما الذين كانت انطلاقات حركتهم ممزوجة بدوافع عنصرية أمازيغية ضد العنصر العربي الحاكم، ولعل البداية الحقيقية للأزمة بدأت منذ عام 1980بتحركات عنصرية لها غطاء إسلامي وتجلت في تأسيس الجبهة التي فازت بأغلبية الأصوات «انتقاميًّا» في الانتخابات المحلية يونية 1991ثم حصلت على 118 مقعدًا في الجولة الأولى من الانتخابات البرلمانية في جولتها الأولى التي أجريت في ديسمبر من نفس العام؛ مما دفع الجيش للحفاظ على الدولة بعدم إكمال الجولة الثانية وإلغاء نتائج الانتخابات وإحكام السيطرة على مقاليد الحكم وإلقاء القبض على 10 آلاف من أعضاء الجبهة ومؤيديها إدراكًا منه لخطورتهم على الكيان الجمعي والدولة.

فجاء ردها متمثلًا في موجة إرهاب وقتل وتخريب بعد تأسيس «الحركة الإسلامية المسلحة» وحركة «الدولة الإسلامية» اللتين نشأتا بعد أسابيع من وقف الانتخابات البرلمانية، وعمدتا إلى «الإرهاب المسلح» مثل «التكفير والهجرة» المكونة بشكل رئيسي من قدماء «الأفغان الجزائريين»[109] الذين بدأ ظهورهم في أفغانستان كجزء من «مأسدة الأنصار العرب» كما أسماها بن لادن في البداية أو «القاعدة» كما عُرفت بعد.. وكان من أوائلهم عبد الله أنس الذي تزوج من ابنة عبد الله عزام - الإخواني التكفيري الفلسطيني - ومعه اثنان، ثم بدءوا في التوافد في شكل مجموعات من 8 إلى 10 أفراد.. من الشباب صغير السن ومنهم خالد أبو العباس المولود عام 1972 في مدينة غرداية ولم

يكن له من التعليم حظ حيث فشل في إكمال دراسته الأولية.. وسافر إلى أفغانستان ليسهم بعد عودته «أعور» مع غيره من التكفيريين في نشر الفكر الجهادي التكفيري.

وانبثقت «الجماعة الإسلامية للدعوة والقتال» من «الجبهة الإسلامية للإنقاذ» واعتمدت العنف المسلح منهجًا منذ البداية 1992 كرد فعل على إلغاء الانتخابات استنادًا إلى فتوى عبد الحق العيايدة بتكفير قادة الجزائر كلهم دون استثناء وهو المنهج التكفيري الذي ستتخذه جماعة «الجيا» بعد ذلك بفتوى «أبو قتادة» باستباحة الدماء واغتصاب النساء وتكفير المجتمع.

الجماعة الإسلامية المسلحة التي اتخذت اسم «الجيا» كاختصار للترجمة الفرنسية Group Islamiqe Armr وتأسست في إبريل عام 1992، وتمثل مجموعة انشقت عن جبهة الإنقاذ بعد ظهور التكفير عليها، وبدأت تعتمد العنف المسلح منذ عام 1992.

استندت في أعمالها إلى فتوى الشيخ عبد الحق العيايدة مؤسس الجماعة بتكفير جميع قادة الجزائر دون استثناء، وكل من يعمل معهم ولم يخالفهم.

واستباح مفتيها أبو قتادة قتل المسلمين في الجزائر باعتبارهم كفرة، وبالتالي يجوز سبي واغتصاب نسائهم، وتعاقب على زعامتها سبعة أمراء تكفيريين، قتل منهم ستة: المنصوري الذي أسسها، وألقي القبض عليه في نفس العام يوليو 1992، وحكم عليه بالإعدام.. ثم ملياني الذي قتلته قوات الأمن في سبتمبر1992مع اثنين من أعوانه قرب «المدية» 80 كم جنوب العاصمة، ثم عيسى بن عمار، ومراد سي أحمد «جعفر الأفغاني» قُتل أيضًا برصاص الأمن، ثم شريف القواسمي «أبو عبد الله أحمد» قُتل كذلك، ثم جمال زيتون المكنى «أبو عبد الرحمن أمين» - الغريب في أمر هذه الجماعة أنهم قاموا بتعيين أنفسهم أمراء على الولايات الجزائرية، فعُين جعفر الأفغاني أميرًا للعاصمة، وعُين علي زوابري أميرًا على البليدة، وعُين عمر شيخي على البويرة، وأبو يونس الخان

«عطية السايح» على ولاية المدية، وعبد العزيز الأفغاني على ولاية بومرداسي، وعُين منير الغربي وخالد سجالي «الأفغاني» للتنسيق مع جماعة الأفغاني في الخارج كصيغة لتوزيع المهمات على القيادات، وفي 13 مايو 1994 انعقد في أحد جبال منطقة الأربعاء «30 كم جنوب غربي العاصمة» لقاء الوحدة بين الجماعات المسلحة - الجبهة الإسلامية للإنقاذ والجيا التي مثّلها الشريف قواسمي أمير الجماعة آنذاك، وأبو خليل محفوظ «محفوظ طحين» نائبه الأول، وآخرون.. وجبهة الإنقاذ ومثّلها محمد السعيد المسئول السياسي، وعبد الرزاق رجّام مسئول الإعلام.. وحركة الدولة الإسلامية ومثلها السعيد مخلوف ورابح قطاف مع زكري حسين أحد قادة بني ميسرة.

بعد انعقاد الاجتماع قامت قوات الجيش الجزائري بقصف مكثف لمكان الاجتماع، ولكن بعد خروجهم منه.

وكان أول المنشقين من الجيا من أمراء المناطق حسان حطاب واستقل عام 1996 بالمنطقة الثانية «شرق العاصمة» عن إمارة عنتر الزوابري «أبي طلحة» ونال موافقة أمراء منطقته «علبة»، وكان قد انضم إليها عام 1994 - وكان أمراء الجيا ما بين 96.95 في أوج قوتهم، ويتصرفون ضد معارضيهم ببطش شديد، وقاموا بعمل محاكمات «صورية» لعدد كبير من الطلبة والدعاة والجنود وأرغموهم على الاعتراف بذنوب لم يقترفوها.

وقام جمال زيتون بقتل اثنين من قياديي النهضة بعد أن اتهمهما بالتآمر على المنهج السلفي على اعتبار - كما قال - أنه هو وجماعته الذين يمثلونه فقط، وكان حطاب[110]: «كنت أريد تصحيح مسار الجيا»، ونصح زيتون ودخل معه - كما قال - في مجادلات محتدمة بسبب المخالفات الشرعية التي يرتكبها، ولكنه كان يخشى أن الخروج عليه سيؤدي إلى انهيار الجماعة، وأن زيتون خشية خروج حطاب عليه رضخ لبعض الضغوط ولولاها لكانت الانحرافات أكبر.. «المصيبة» أنه استشار طالب علم لديه يتمتع - كما قال - بمستوى جيد ويثق برأيه في الأمر، ورغم أن هذا الطالب لم يكن يخشى زيتون، فإنه أقر

بعدم جواز الخروج عليه من الناحية الشرعية فلجأ إلى أعيان المنطقة الثانية من رؤساء اللجان وحدثهم عن الخبايا.

وقال حطاب لزيتون: لو بقيت على هذه السياسة فسيقتلك جنودك، اقرأ التاريخ تعرف أن القادة الذين تسير أنت على خطاهم يُقتلون دائمًا على أيدي جنودهم، سيرون أنك جئت لتُحدث فسادًا وأنك دخيل عليهم والسبب في إفساد الجماعة. وهو ما حصل.

وجاءه منهم من يريده لتأميره فاستراب، وحتى عندما استشار أصدقاءه استرابوا فطلبوا أن يجيء من «الجيا» إليهم وفد لا يتجاوز 3 أفراد، وعلى ذلك كان شرط الأمان!!

ولكن عنتر تآمر على الجماعة، وكان يعرف بُغض حطاب له، وكان يرى أن وجوده في الجماعة سيشوه صورتها، وأنها ستصير هجرة وتكفيرًا، وسيصير عندها غلو وأنه سفيه يتلفظ بألفاظ لا علاقة لها بالدين.

احتجز حطاب أعضاء الوفد الثلاثي الذي أرسله أسامة بن لادن إلى الجزائر للبحث في قضية الخلافات بين الجماعة و«المقاتلة الليبية» - معنى ذلك أن الاتصال كان قائمًا - وفي سبيل التنسيق بين الجهاديين داخل الجزائر وخارجها «عطية عبد الرحمن - عبد الحكيم بلحاج وعاصم» ولكنهم فروا إلى منطقة الأربعاء حيث جماعة الشيخ مصطفى كرطالي المنشقة عن قيادة زيتون.. باستثناء عاصم، وإن منع حطاب لهم عن لقاء زيتون كان خوفًا عليهم من أن يقتلهم.

عطية عبد الرحمن أحد أبرز القادة في القاعدة، وصاحب الرسالة الشهيرة إلى أبي مصعب الزرقاوي في العراق عام 2005 لتحذيره من أن قيادة القاعدة في وزيرستان مستاءة من تصرفاته بعد حادث تفجير فندق عمان الذي مات فيه مصطفى العقاد.

وكان لديّ مصادري التي تأتي لي بالأخبار عما يحصل في الخفاء.

كان من أرسله زيتون لحطاب هو عمار صايفي«عبد الرزاق البارا» أي المظلي «وكان زيتون قد فكر في منحه صلاحيات في المنطقة الثانية ليدخل معه في صراع».. وهو ما حدث.

واستفحل «الورم التكفيري» الذي بدأ في الجزائر في أخطر مراحل التحول للجماعة السلفية بين عامي 1994 و1996 باستحلال قتل الجميع رجالًا وأطفالًا واستحلال النساء على يد وبفتاوى من عنتر الزوابري وجمال زيتون حتى إن قادة من جبهة الإنقاذ نفسها لم يسلموا من هذه الفتاوى فقُتل محمد السعيد وعبد الرازق رجام وغيرهما.

وبالتأكيد كان «الأفغان الجزائريون» الذين عادوا إلى الجزائر من أكثر العناصر عنفًا وخيانة.

ووقعت في الجزائر عمليات عدة في مناطق مختلفة برغبة تحويل البلاد إلى فوضى وعنف ورعب بداية من عام 1992، عمليات قتل وذبح في وضح النهار، وفي «الأخضرية» ذُبح أحد أوائل من قتلوا من الشرطة وألقي بجثته تحت الجسر المؤدي إلى مركز المدينة وأُحرقت مدارس، واغتُصبت نساء، ودُمرت مبانٍ وسيطر رجال الجماعات التي اشتهرت باسم «التانجو» على المدينة بكاملها فمنعوا بيع أو تدخين السجائر وقراءة الصحف ومشاهدة التليفزيون، ومنعوا الشباب من الالتحاق بالجيش أو الذهاب للمدرسة، وأخضعوا الفتيات لطقوس زواج المتعة وهو اغتصاب كامل بشرعية إسلاميي الجماعات المسلحة، واضطر آباؤهن للإذعان للأمر خوفًا من القتل الفوري[111] في هذه الفترة كان قتل رجال الشرطة والدرك يتم بشكل يومي خصوصًا في الجزائر العاصمة وفي البليدة[112].

ووزع الإرهابيون منشورات حملت التهديد لرجال الشرطة والجيش، خصوصًا المظليين الذين أفتى علي بلحاج بها بمقولته الشهيرة: «رأس مظلي مفتاح

الجنة» وهي الفتوى التي ظهر مفعولها بتباري الشباب المغيب ذهنيًا وإنسانيًا والمسلوب إرادته من أعضاء الجماعات بمقتل 40 مظليًا في «شريه» قرب «البليدة» و12 آخرين في «بوفاريك» و19 غيرهم في «زبربر» وعلى مدى عام قُتل أكثر من 100 مظلي[113] وكانت سنة 1993أكثر دموية حيث لا يمضي يومان فقط إلا وتكون قد وقعت حادثة اعتداء سواء على المجندين الشباب الذين كانوا يسقطون يوميًا أو من الضباط أو من مواطنين من العامة، وبدأ اغتيال الصحفيين، وكان المهووسون بالقتل وسفك الدماء من هذه الجماعات لا يخشون العقاب الدنيوي أو الأخروي بل لا يخشون الموت لقناعتهم أنهم ذاهبون مباشرة إلى الجنة!

ولم تجد القيادة الجزائرية بُدًّا من حرق مخابئهم، فأمر «الجنرال مجاهد» و«العقيد شنقريحة» في صيف 1993الحار جدًّا بإحراق عدة جبال قرب «الأخضرية» و«القبائل» بالبنزين، لكون الأخضرية مكان عبور رجال «التانجو» وهو الاسم الذي أطلق على الإرهابيين - إلى منطقة القبائل وإلى «جيجل» أو شرق البلاد.

وبدأ الإحراق الذي خلف كثافة من الدخان بدعوى أن النار هي القادرة على إخراجهم من هذه المخابئ الجبلية، وهو ما فعله القذافي في جبال «درنة» ومخابئها بعد ثلاثة أعوام لتنظيفها من «الجماعة الليبية المقاتلة»، ولكنها لم تأتِ بنتيجة حقيقية سوى الكوارث البيئية، وفي نفس العام ردًّا على ذلك بدأت فكرة إحراج وتوريط النظام الجزائري بخطف الأجانب.

وبدأت بخطف ثلاثة دبلوماسيين فرنسيين في العاصمة ثم مدنيين أجانب أوروبيين في أماكن أخرى، ومع بداية عام 1994حدث استهداف لرموز الحكم بعد قتل 50 جنديًا في كمين نصبته جماعة «سايح عطية» لوالي - محافظ - «تميزيلت» وحراسته على الطريق قرب «زيع» غربي البلاد وقتل فيها 30 قتيلًا آخرين ومنهم الوالي نفسه، وبدأ التجرؤ على مهاجمة المواقع العسكرية. فقتل 40 عسكريًا في ثكنة «سبّدو» بالقرب من سيدي «بلعباس».. ولم يتوافر على

طول الجزائر وعرضها أمن إلا لمنطقة الجنوب أو ما أسماها حبيب سويدية بـ«الجزائر المفيدة» بسبب وجود آبار البترول والغاز وهو ما يؤكد أمرين، الأول: الاختراق المخابراتي الدولي لهذه الجماعات التي تتحرك بغطاء ودعم هذا الاختراق، وبالتالي لا يمكن الاقتراب من هذه المرافق المهمة لأوروبا، الثاني: أن هذه المناطق أمازيغية مما يحمل تأكيدًا على الروح العنصرية لقيادات هذه الجماعات، وهاجمت الجماعات من خلال قوة إرهابية مشكّلة من 150 عنصرًا سجن «تازولت» - لامبيز سابقًا - قرب «باتنه» وتمكين 300 محكوم عليهم بالموت من الهرب وقتل الحراس ساعة الإفطار بعد صيام رمضان، وهو نفس النهج الذي تنتهجه الجماعات التكفيرية الإرهابية في كل مكان.

ولا تقل هذه الأفعال عن بشاعة قتل قارئ القرآن الصوّام قبل أن يبل ريقه بالإفطار في يوم صوم فضلًا عن قيامه بحراسة حدود دولة مسلمة.

هؤلاء الشهداء الستة عشر الذين قُتلوا باسم الإسلام في منطقة «الجورة» جنوب رفح في شمال سيناء في 5 أغسطس 2012، وعلت صيحات القتلة وهم يغرسون الرصاص في قلوبهم بالتكبير ونعت الشهداء بالكفرة «الله أكبر.. قتلنا الكفار أعداء الله».

وأذكر أني قد وجدتُ طبق الأرز مصبوغًا بالدم، وقال لي أحد الصبية من شهود العيان: حملنا جنديًّا ولقمة بين أسنانه مبللة بالدماء[114] ويحكي الجندي الناجي من المذبحة[115] الصول طارق حماد أنه كان يقرأ القرآن قبيل أذان المغرب بدقائق وكلهم توضئوا استعدادًا للصلاة بعد «بل الريق».. فانهال عليهم الرصاص يخترق كل مكان و«القتلة» يواصلون هتافهم بالتكبير و«خلصنا على أعداء الله خلصنا على الكفار» رغم أن الجنود الذين اخترقت رصاصات الغدر أجسادهم كانوا يتلون الشهادة ويكررونها وهم يتوجعون بشدة «مضوا»، وانكفأ طارق حماد على مصحفه الذي كان يقرأ فيه.

وهو نفس ما كان أقرانهم من شياطين التكفير في الجزائر يفعلون، ففي

رمضان 1995 وما تلاه من سنوات تضاعف عنف جماعات «التانجو»، فحسب عقيدتهم من يُقتل منهم في رمضان يذهب إلى الجنة!

وإن كانت دموية وسادية العنف لدى هؤلاء أصبحت بغير حاجة إلى وقائع للتدليل فها هم يقطعون الرءوس ويلعبون بها «كرة القدم» ويضعونها في أيدي الأطفال كي يلهوا بها.

وإن كان ذلك يستوجب محاولة حقيقية لفهم الصيغة النفسية المعقدة لعناصر هذه الجماعات وما تحمل قلوبهم من عقد وأزمات نفسية أغلبها أخلاقي ويرتبط بالشذوذ أو انفلات الأخلاق في الداخل الأسري للإرهابي نفسه، وهناك حالات كثيرة للشذوذ التي سمعتها في صحراوات الإرهاب ومدنه المغلوبة.

لكن ضعفت «الجيا» ولم تستمر قوتها ولا تماسكها كثيرًا حيث انشق عنها «مدني مزراق» و«أحمد بن عائشة» ليشكلا «الجيش الإسلامي للإنقاذ»، ولكن قبل ذلك نجح جهاز المخابرات الجزائرية في اختراقها خصوصًا بعد الوحدة بين «الجيا» وفصيل من «الإنقاذ» عام 1994 الذي شهد مع العام التالي عدة مذابح بين هؤلاء التكفيريين خصوصًا فيما أُطلق عليه مثلث الموت «البليدة المدية يمين الدفلي» وهي مناطق اشتهرت كحاضنة اجتماعية للشباب المتطرف.

ولم يسلم قائدها أو «أميرها» آنذاك .1996. «جمال زيتون» من القتل ليتولى بعده «عنتر الزوابري» - أبو طلحة - الذي كان يقود ما يسمى بـ«الكتيبة الخضراء» المعروفة بدمويتها وقسوتها الشديدة.. وكان «عنتر الزوابري» كبقية أغلب أعضاء هذه الجماعات أُميًّا لم ينل حظًّا من التعليم ولم يُربَّ تربية إسلامية في المساجد أو كما يقول «مصطفى كرطالي»: أغلب هؤلاء الشباب تربوا في الجبال ولم يعرفوا المساجد وأغلبهم فاسدون، وعن عنتر يقول كرطالي: «الزوابري جاء إلينا في الجبل وفي يده قنينة خمر، بل إن هناك إجماعًا «جبليًّا» على أن الزوابري من حدثاء الأسنان وسفهاء الأحلام»، وهو ما

حدا بكثير من أعضاء جماعته للانشقاق عنه خصوصًا بعد إصداره فتواه فيما كتبه تحت عنوان «الأوامر الأسمى في إزالة المنكرات العظمى» بكُفر كل من لم ينضم إلى «الجيا».

أما أول وجود للقاعدة في «أزواد» بداية عام2001 فتمركز المختار قائد كتيبة «الملثمين» فيها بهدف خلق قاعدة خلفية لمسلحي الجماعة السلفية للدعوة والقتال لتزويدهم بالسلاح والمتفجرات وتدريب المقاتلين قبل إعادتهم للقتال في الجزائر.

وبعدها شرع في استقطاب عشرات المقاتلين من موريتانيا ومالي والنيجر وبوركينا وتونس وليبيا والبوليساريو التي قُتل منها في «أزواد» مؤخرًا عكرمة محمد سالم وابن الصحراوي عبد الله وشقيقه أبو خيثمة، وأطلقوا على جنوب الصحراء «تورا بورا العرب» أو إمارة الصحراء.

وقد شكل وصول طلائع تنظيم الجماعة السلفية للدعوة والقتال الجزائرية التي ستُعرف لاحقًا بـ«قاعدة بلاد المغرب الإسلامي» مع بداية النصف الثاني من عام 2003فرصة لتجار ومهربي المخدرات تخلصًا من السيطرة الجامحة للقبائل العربية التي تفرض ما يعن لها من رسوم على التجار والمهربين، بل قاسمتهما الرزق بولوجها مجال التهريب.

وشكلت البيئة الصحراوية المتواضعة والفقيرة في «أزواد» ببساطة وسماحة الروح البدوية طارقيةً وعربيةً وفطرتها النقية وحبها للإسلام بيئة حاضنة للجماعات «الإسلاموية» الجزائرية المتطرفة التي اضطرت تحت ضربات الأمن الجزائري إلى التراجع جنوبًا إليها.

وما يدل على النزعة العنصرية في الفكر الإرهابي أن أحد الذين وصلوا إلى «تورا بورا المغرب الإسلامي» من الطوارق، وهو «عبد المالك دورد كال» واصطحب معه عام1999ما يقرب من 700 متطرف أغلبهم أيضًا طوارق الجماعة الإسلامية المسلحة «جيا» وبدأ بهم تأسيس «الجماعة الإسلامية

للدعوة والقتال» ومنهم حمادو عبيد «عبد الحميد أبو زيد» الذي سبق انضمامه عام1994 إلى الجبهة الإسلامية للإنقاذ وبعد عامين انضم إلى «الجيا».. وهو أيضًا طارقي من العابدية جنوب الجزائر قتل أثناء الحرب الفرنسية في جبال تغرغر.

بالتالي فالتفسير الذي أراه هو العنصرية التي تظهر في أحاديث الأمازيغ وإيمانهم بأمازيغية إقليم «أزواد» وأن العرب قوم غزاة اتخذوا الإسلام إطارًا لاحتلال الأقاليم الغنية كمصر والشام وشمال إفريقيا وجنوب الصحراء، والطوارق عماد تنظيم القاعدة في بلاد المغرب الإسلامي وغالبية أعضائها وكذلك زعامتها ومؤسسو حركتهم العاملة في مكنونها على فكرة استقلال الإقليم كنواة للدولة الأمازيغية أو على الأقل ملجأ للأمازيغ من كل البلدان المحيطة وإن استند إلى أممية التنظيم.. ولذلك جاء المسمى «تنظيم القاعدة في بلاد المغرب الإسلامي» يتفق مع الفكر الأمازيغي العنصري بإبعاد أو بالأحرى إنكار عروبة هذه المنطقة بأكملها، والتي عُرفت في الأدبيات العربية والإسلامية بـ«بلاد المغرب العربي».

وأيضًا «بلمختار بلعور» و«عمار صايفي» البارا - اللذان وصلا على رأس جماعة تقدر باثني عشر عنصرًا من علاقات سابقة وشهرة محلية في مساعدة مختار لبعض قوافل تهريب الأغذية والوقود من بعض مدن الجنوب الجزائري وحمايتها، مما ساعده على التنقل بحرية بين بوادي «أزواد» بعيدًا عن المدن، فيما غادرها «البارا» متجولًا في الصحراء بحثًا عن عناصر جديدة ولتأكيد الروابط التكفيرية معهم في أوباري والنيجر وتشاد ودارفور لكن «حركة العدالة» المتمردة في «تشاد» ألقت القبض عليه برفقة مجموعة من مقاتليه في سيارتين وسُلم للجزائر بتدخل ليبي.

ومثَّل وصول بلمختار وعمار صايفي «البارا» إلى منطقة أزواد - زحزحة ونقلة جغرافية للفكر التكفيري من الجنوب الجزائري تحت وطأة الضربات القاسية من الجيش الجزائري الذي استطاع بعد آلاف الشهداء إنهاء العشرية الدموية

لصالحه، فلم تجد «الجماعة السلفية للدعوة والقتال» بيئة حاضنة أكثر أمنًا من شمال مالي حيثُ الفطرة الإسلامية والتعصب للدين مع الجهل الأعمى في مناخ من الفوضى العنصرية والغضب العرقي للطوارق والعرب على الجنس الأسود الحاكم في «باماكو» لما فعله بهم من تهميش واضطهاد وإفقار.

وهذه الزحزحة الوهابية التكفيرية من جنوب الجزائر إلى شمال مالي أضرت بحركة التحرر الأزوادية فاعتبر ما يحدث في شمال مالي إرهابًا تحت تصنيف الإرهـاب الـدولي للتصـور العـربي الـذي وضعته لجنة الخبـراء فـي 24 أغسطس1989 في تونس، والذي ميز بين الإرهاب ونضال الشعوب للتحرر، فجاء بروز حركتي «أنصار الدين» و«التوحيد والجهاد» في تمبكتو وجاوا داعمًا لتصور لجنـة الخبـراء، فـأفرغ القضية من محتواها وأصبحت «أزواد» مرتعًا لهؤلاء التكفيريين القادمين من الجزائر، وسهولة السيطرة في هذه المنطقة على مواطنيها البسطاء الفقراء من قبل قيادات «القاعدة»، مما دفع كثيرًا من الكُتّاب الأزواديين ليتحدثوا بأن لجنرالات الجزائر دورهم في إحداث شرخ بين أهل كيدال وتمبكتو بالتحيز واستمرار تضخيم أدوار بعض المجندين من صغار الضباط التمبكتيين مع جيش مالي عام 1963أمثال «زو ليبيا» الذي جعلوا منه - في كيدال - رمزًا للخيانة والعمالة لحكومة مالي تزامنًا مع إنكار الدور الرئيسي للأمير محمد بن علي الأنصاري وخلق زعامات خائنة في الوقت الحالي.. وهو مـا جعـل الأزواديـين - طـوارق وعـربًا - يرفضون استيراد الفعقاع الشنقيطي وبلعور الجزائري وغيرهما من شذاذ الآفاق ليبينوا للناس أمور دينهم.. فهي القاعدة - جماعات إجرامية تحركها أجهزة مخابرات دول ترغب في السيطرة علـى الثـروات النفطيـة لأزواد، وإعـلان ولائها للتنظيم الأم فـي أفغانستان.. وحفلـت بعناصر عـديدة مـن «البوليساريو» وليبيا وانضم معهم مقاتلون من جماعة «بوكوحرام» من نيجيريا وبدت حركة «التوحيد والجهاد» أكثر تشددًا فكانوا يمنعون النساء من ركوب السيارات في الصندوق وإجبار أي سيدة والسائقين على الركوب في «الكابينة» مع محرم بينها وبين السائق.. وشكلت قاعدة بلاد المغرب الإسلامي 3 إمارات صحراوية ضمت عددًا من الكتائب.. لا

يمكن تحديد عددها لكونهم في إطار اللعبة الإعلامية.. وكانوا يقومون كل فترة بتغيير أسمائهم - كما حدث مع «الملثمين» التي كان يقودها بلمختار - ثم غيرت اسمها مع القيام بعملية «عين أميناس» إلى «الموقعون بالدم» فضلًا عن تعتيم متعمد عن عددها وعناصرها وتسليحها لكن قوامها كان هو نفس القوام والتركيبة التي ورثتها إمارة الصحراء عن «الجماعة السلفية للدعوة والقتال» الجزائرية التي أعلنت عام 2006 تغيير اسمها إلى «القاعدة في بلاد المغرب الإسلامي» بعد إجراء تعديلات هيكلية وتنظيمية وجعل ما أسموه مجلس الأعيان والقيادة العامة - وهو قمة التنظيم - ويرأسه أبو مصعب عبد الودود «عبد المالك دورد كال» ويتفرع منه ثلاث إمارات «الصحراء» و«الوسط» و«الشرق»، ثم هيئة الجند وهو استحداث يضم هذه الكتائب والسرايا، وفي أعقاب تعيين «دورد كال» أميرًا للتنظيم في منطقة الساحل [116] ساءت الخلافات بينه وبين عدد من المقاتلين المشهورين أو القادة مثل «المختار» الذي أصبح يبحث لنفسه عن دور، صحيح أنه الأشهر إعلاميًّا ولكنه مجرد واحد من قيادات الصف الثاني في التنظيم وهو - كأي موظف في الدنيا يحلم برئاسة إدارته - فكان يحلم بإمارة الصحراء؛ لأنه يرى نفسه الأحق بها نتيجة لما يسمه «جهادًا طويلًا» جعله أعور.

وبروز منافسة بينه وبين عبد الحميد أبو زيد عليها، مما حدا بـ«دورد كال» لتعيين «أبو علقمة» في شهر نوفمبر2012 أُسندت إليه قيادة جميع الكتائب والسرايا التابعة للتنظيم في الصحراء، أو ما يعرف بالمنطقة التاسعة مع احتفاظ قادة الكتائب بمناصبهم، وواجه ذلك اعتراض قادة السرايا والكتائب الموجودة في الصحراء وتحيّز بعضهم لـ«المختار» الذي كان يضمر عداءً، وكوّن بهم كتيبته.. وفي شهر أغسطس2012 ألقت القوات الجزائرية القبض على نسيب طيب المكنى عبد الرحمن أبو إسحاق السوقي قاضي التنظيم مع اثنين آخرين أوفدهم أبو مصعب لوضع حد لحالة التمرد والعصيان ضد قادة التنظيم المركزية، الطيب من العناصر الأولى للجماعة الإسلامية وموضوع على قائمة المطلوبين منذ 1995، وكانت مهمته هي حسم موضوع تمرد المختار وعبد

الحميد أبو زيد.

أما أبو علقمة الذي كان أحد نشطاء تنظيم الجماعة السلفية للدعوة والقتال، ومن قبلها الجماعة الإسلامية المقاتلة.. فسُجن في بداية التسعينيات في الجزائر واستطاع الهرب في عملية «الهروب الكبير» عام 1994، فقد جاء تعيينه أميرًا في الصحراء - حسبما قرر عبد الودود - كمحاولة لضخ دماء جديدة، ولكنها في الحقيقة كانت مرتبطة بتقسيم حصيلة المخدرات والرهائن خصوصًا، وهناك ريبة؛ لأن «يحيى جوادي» لم ينجح في تفعيل وتطوير استراتيجيات إمارة الصحراء من 2007 إلى 2009.. فضلًا عن زيادة عمليات التهريب بعد حادثتي طائرتي الكوكايين.

وبعد شهرين أعلن منشقون من الملثمين وإمارة الصحراء تكوين وتأسيس كتيبة جديدة باسم «يوسف بن تاشفين» ويتضح من اسمها الانتماء الطارقي لغلبة العناصر الطارقية فيها، وأُعلِن «القيرواني عبد الحميد» من «كيدال» أميرًا وقائدًا لها ونطاق سيطرتها محيط جبال «تغرغر» في «كيدال» وبه قواعد التنظيم و«أجهلوك» وهو ما ينبئ عن محاولة القاعدة الامتداد والتركز والتجذر وسط الطوارق، أو أن الطوارق هم أساسها.

وحدثت مشكلات بين كتيبة الفرقان «مختار» مع كتيبة «طارق بن زياد» التابعة لـ«أبي زيد» كحلقة جديدة من الصراع على السلطة، وإن كانت جذورها منذ فكر «أبو زيد» عام 2005 في إعلان ولائه لـ«أسامة بن لادن» ولتنظيم القاعدة.

كان «خالد أبو العباس» ضمن الجزائريين في جيش المجاهدين في «خوست» بأفغانستان، فأرسل التنظيم الأم في أفغانستان إلى فرع بلاد المغرب، لتقديم الإمارة فيها لـ"خالد أبو العباس» وهو ما رفضه «أبو زيد» و«دورد كال» فبدأ الانشقاق وظل «أبو زيد» القائد في الصحراء الكبرى، فأسس «مختار» كتيبة «الملثمين» ولواء «الفرقان» في منطقة «أزواد» وفعليًّا كان لا يأتمر بأوامر التنظيم إلا اللمم مما أحدث توترًا زاده إلى حد الشك.

أخبار المفاوضات مع «مختار بلمختار» لوضع السلاح التي كانت تثار بين فينة وأخرى لا لسبب إلا لإبقائه ظاهرًا على سطح الحياة الصحراوية وتأكيد حضوره ومنحه القوة حتى لا يُنسى، وهو ما حدث بعد مقتل «نبيل مخلوفي» في حادث سير في الصحراء، والعالمون بدروبها يؤكدون أن وقوع حادث سير في هذه الطرق لا يمكن أن يؤدي إلى مقتل راكب، فسرعة السيارات فيها لا تزيد في أفضل الأحوال على أرض مستوية على 70كم في الساعة.

الحادث الوحيد يمكن أن ينتج عن انفجار إطار سيارة وهو بالتأكيد لا يؤدي إلى الموت، ولذلك فإن اتهام «مختار بلعور» في مقتل «المخلوفي» أمر أقرب إلى التصديق خصوصًا - كما أكد لي عدد من منتسبي وعناصر هذه الكتائب - اكتشاف التنظيم لعمالة «بلمختار» للأمن ليس الجزائري فحسب ولكن المغربي والفرنسي الذين أخبروه بنيَّة التنظيم في إزاحته عن موقعه القيادي وتعيين آخر مكانه في قيادة كتيبة «الملثمين».

ونفع «المختار» ما انتهج من سياسة حسنة بين أصحاب البلاد الذين لجئوا إليه لتكوين نخبة جديدة منافسة من مهربي المخدرات، خصوصًا أنه كانت تربطه علاقة جيدة مع «سلطان ولد بادي» الذي يعد من قيادات التهريب التاريخيين في الصحراء الكبرى ومن قيادات «التوحيد والجهاد» فيما بعد، حيث بدأ نشاطه مبكرًا في منتصف سبعينيات القرن العشرين بتهريب المعونات الغذائية من مخيمات «البوليساريو».

ومن الواضح أن تجربة «مختار بلمختار» في منطقة الشمال المالي وعلاقته بالسكان فيها قد أثمرت عن نموذج بدأت هذه الجماعات في انتهاجه وسط سكان المناطق الحدودية الفقيرة سواء في تونس أو ليبيا أو الجزائر، وكذلك تشاد والسودان ومصر، وهي المساعدات العينية البسيطة والمادية المتواضعة سيما في المناطق العشوائية.

وبالتالي فهي توفر لهذه الجماعات حاضنة بشرية واجتماعية على مستوى

التخفي، وعلى مستوى المدد توفر لهم عناصر جديدة يتم تجنيدها من أبناء هذه المناطق.

ولـهذا فقـد أراد المختـار تحقيـق حلمـه بزعامـة تنظيـم «إسـلاموي» تكفيري انسلاخًا من الجماعة السلفية الجزائرية خصوصًا وقد كون فريقًا جديدًا ضمه إليه ومنهم «عمر ولد حماه» وتوثيق أواصر الصلة بزواجه من ابنة أخيه - طلقها قبل الضربات الفرنسية وهربت ضمن اللاجئين إلى مخيم إمبَّرة - وتزويج عدد من تابعيه من بنات الأسر والقبائل الأزوادية، مع كثرة لقاءاته مع شيوخ وأعيان وزعماء المنطقة الروحيين وتقديم ما يعرفه وتعلمه من فقه تكفيري على أنه الدين الحقيقي، مع إعانات كثيرة متعددة، وإن كانت بسيطة لكنها كانت كافية لتبجيله فضلًا عن استغلاله للفساد المنتشر بين عناصر مؤسسات الدولة المالية خصـوصًا ضـباط الجيـش والشـرطة.. ومـع اتسـاع نشـاطه فـي حمايـة قوافـل التهريب زادت صلاته مع العناصر الموريتانية والطارقية من النيجر.. واستطاع تكوين قاعدة خلفية للتنظيم الأم باسم إمارة الصحراء؛ لتتحول مع عام 2006 إلى جزء من تنظيم القاعدة في بلاد المغرب الإسلامي، وأطلق على مجموعته كتيبـة «الملثمـين» إرضـاء للطـوارق، واتسـع نطـاق التنظيـم مـن المحـدودية الجزائرية إلى الانتشار الإقليمي خصوصًا مع احتضان مجموعات من تونس وليبيا والنيجر، ومع التوسع في النشاط التهريبي بما يدره من دخل جيد بدأ الفتور بينه وبين أمير التنظيم في الجزائر «عبد المالك دورد كال» الذي قرب إليه «عبد الحميد أبو زيد» وأسند إليه قيادة كتيبة جديدة أنشئت تحت اسم «طارق بن زياد»، مما زاد من الأزمة سيما وقد تكشفت بعض علاقات «بلمختار» بالأمن الجزائري.

ومن أسباب إبعاد «بلمختار» نشوء خلافات جذرية أساسها تجاوز التكفيريين الجـدد لفكر ومنهج القـادة التـاريخيين للقاعـدة، والاتجـاه إلى التشـدد الأعنف والأكثـر إرهـابًا بالـذبح والتفجـير للجميع؛ لأن «الرحمـة» لـدى القـادة القدامى أضاعت الكثير.. عزيمتهم وهنت، وقواهم ضعفت، وعقولهم عجزت عن مسايرة

التكتيك الجديد سواء في المعارك أو التجنيد الذي يعمل على الكثرة العددية مما يسهم في تقوية الجماعة بالجهد الجماعي وليس الجهد والرأي الفرديين.. وطرق فهم الأسلحة وأجهزة الاتصالات الحديثة بديلًا عن سواها من التقليدية، هذه كانت الحجج الظاهرة، وعدم اطمئنان الجميع له سيما بعد أن تأكدوا عرضه تسليم نفسه إلى الأمن الجزائري شريطة الحصول على ضمانات من «بو تفليقة» نفسه لإسقاط ما عليه من أحكام، وحتى لا يُلاحَق قضائيًّا، وهو ما كان سيضع أطراف اللعبة السوداء كلها في ورطة مثل «البوليساريو» التي سيكشف تورطها بحصولها على نصيب من تهريب المخدرات، لهبوط بعض الطائرات المحملة بـ«بودرة الكوكايين» فيها ويتم تمرير القوافل عبر أراضيها من الحدود الموريتانية، فضلًا عن أطراف أخرى خارجية كانت تشترك في رعاية ودعم هذه الجماعات في الغرب الإفريقي «منها قطر والمغرب» وبدأ في التفكير في تصفية بعض قيادات القاعدة قبل أن يتمكنوا منه؛ ولذلك لجأ إلى «أنصار الدين» في الشهور الأخيرة قبل الضربات الفرنسية لحمايته ومن معه قبل أن يفر إلى ليبيا بسهولة بعدها.

أما خطف الأجانب فهي فكرة صاحبت"التكفيريين» من الجزائر، وشهد عام 1993 انتقال الإرهابيين إلى مرحلة الخطف حيث اختطف ثلاثة قناصل فرنسيين في الجزائر العاصمة هم «آلان فرسييه وتيفنو وزوجته»[117].

وتبارت التنظيمات التكفيرية في خطف الأجانب كرهائن مقابل فديات مالية كبيرة؛ فقام «يحيى أبو الهمام» واسمه الحقيقي «جمال عكاشة» كتيبة الفرقان - بخطف سائح إيطالي مع زوجته البوركينية عام 2009 وفي الإغارة على المعسكرات الموريتانية، ومنها «الغلاوية» في ديسمبر 2009 واختطاف شرطي في مدينة «عدل بكرو» وقُتل مواطن أمريكي وسط نواكشوط 2009 كما قامت جماعة «التوحيد والجهاد» بخطف ثلاث رهائن: إسبانييْن وإيطالية من مخيمات اللاجئين الصحراويين بالقرب من مدينة «تندوف» الجزائرية.

كما نفذت هجومًا انتحاريًّا على موقع أمني في مدينة «تمنراست» جنوب

الجزائر شهر مارس2012.

وقام «بلمختار» بخطف مبعوث الأمين العام للأمم المتحدة إلى النيجر «روبرت فاولر» كندي الجنسية ومساعده السفير الكندي السابق في الجابون «لويس جواي» من النيجر في ديسمبر2008 وكذلك اختطاف ثلاثة إسبان على طريق نواذيبو - نواكشوط في نوفمبر2009 تأكيدًا على نقل نشاطه بحرًا داخل موريتانيا.

واختطاف فرنسييْن في النيجر يناير2011 وقُتلا لاحقًا أثناء محاولة قوات خاصة فرنسية تحريرهما.. واختطاف زوجين نمساوييْن من جنوب تونس فبراير 2008 وخمسة فرنسيين وتوجولي من العاملين بشركة «أريفا» الفرنسية 2010، وقُتل البريطاني المختطف «أدون داير» مايو 2009 بعد رفض حكومته الاستجابة لمطالبه، وقد قُتِل أربعة سائحين فرنسيين في ديسمبر 2007 في «اليخ» جنوب موريتانيا، وفي يونية 2009 قُتل أمريكي وخُطف في موريتانيا إيطاليان «سرجيو سيكالا» - 65 عامًا وزوجته «كابوري فيلو ماني باولغبا» - 39 عامًا أثناء وجودهما شرق موريتانيا قرب الحدود المالية عندما كانا في طريقهما إلى بوركينا فاسو بلد الزوجة عبر الأراضي المالية.

* * *

أياد أج غالي

أما أهم قيادات القاعدة جنوب الصحراء فهو أياد أج[118] غالي الذي هبط من كهوف ووديان سلسلة جبال «تغرغر» مع ما تجمع له من مقاتلين طوارق بعد إعلان «مانيلا» الانفصال، وهو ينتمي إلى أقوى قبائل الطوارق الأشراف في الشمال، وينعتون بـ«ملوك الأرض» فهي قبيلة عربية شريفة تنحدر من سلالة «سيدي إدريس الأول»، وكانت من قبائل مدينة السوق التي ورثت مكانة وعلوم مدينة «تادمكت»، بعد اندثارها وانحدر منها العلماء والصالحون، وينتمي إليها العالم والمربي الشهير «سيدي عالي بن النجيب» الذي تتلمذ على يديه سيدي المختار الكنتي الكبير، وهي قبيلة قوية الشكيمة مهيبة الجانب تستوطن بشكل رئيسي جبال «أدرار» و«تيمترين» على الحدود مع الجزائر ولها امتدادات بها، وكذلك في النيجر، وانطلقت منها على مدى التاريخ جميع الثورات والانتفاضات ضد الفرنسيين وضد حكومة مالي بعد رحيل المستعمر الفرنسي ومنها قبيلة «إيدنان» من الأنصار.

بدأ أياد بعد أن هجر مهنته الأولى كميكانيكي في بلاده وانتقل إلى ليبيا مع اشتداد سنوات الجدب والجفاف في صحراء مالي إبان عقد السبعينيات من القرن الماضي، وهناك التقطته عيون القذافي الراغب وقتها في تكوين قوة مسلحة خفيفة من الطوارق، وتم تدريبه ضمن ألفي عربي وطارقي من شمال مالي وشمال النيجر، وأرسله القذافي ضمن ألفي مقاتل إلى عدة مناطق مشتعلة في العالم - إلى لبنان للمشاركة مع قوات الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين.. القيادة العامة في عملياتها ضد إسرائيل.. وعاش في بيروت وشارك بالفعل في عدة عمليات نوعية سواء ضد الإسرائيليين في الجنوب أو ضد المسيحيين في الشمال.

عاد أياد إلى ليبيا، وكانت جمرة الحراك الأزوادي فوق نيران التهميش والعنصرية.. إلى أن اشتعلت ثورة أزواد مع بداية التسعينيات ليعمل بناءً على

توجيه من رئيسه السابق القذافي على التعاون في إخمادها.. وبعد التوصل إلى اتفاق «تمنراست» عينه الرئيس المالي «توماني توري» قنصلًا لبلاده في جدة.

وكان توماني توري قد بدأ بإيعاز من فرنسا الاعتماد على أياد ليقوم بدور الوسيط للإفراج عن الرهائن الأجانب بوصفه أحد وجهاء قبيلته الذين لهم تعامل مادي مع العناصر المسلحة في شمال مالي سواء من الإسلامويين أو حلفائهم من تجار الكوكايين والقبائل الحارسة لطرق التجارة.

ونشط أياد أج غالي لفترة كوسيط للإفراج عن الرهائن الغربيين الذين كانت كتائب تنظيم القاعدة تختطفهم، نتيجة موقعه في قبيلته «إيفورا» المتفرعة من «إيريا كان» في جبال «الإيفوقاص» ليصبح قصير القامة ذو اللحية الطويلة في وجه عابس حكيمًا في قبيلته وتطلق عليه «أسد الصحراء».

وقد صنف الأمر التنفيذي الصادر عن الخارجية الأمريكية أياد أنه إرهابي عالمي يحظر على الأمريكيين التعامل معه، وبالتالي قامت لجنة العقوبات التابعة للأمم المتحدة بإدراج اسمه على قائمتها بموجب قرار 1267، ويصمُون أياد أج غالي بخيانة قضية «أزواد» نزولًا على ضغوط القذافي واللواء «خالد نزار» قائد الجيش الجزائري في اتفاقية «تمنراست» عام 1990 واتفاقية «الميثاق الوطني» عام 1992 مقابل مكسب ضئيل من منصب بسيط هو قنصل مالي في السعودية والنتيجة هي إضعاف الشعور الوطني عند الطوارق.

وقد تم تجنيده لصالح واحد من أجهزة المخابرات الأوروبية، عندما سلمت له السلطات الإسبانية 5 ملايين دولار - فدية - للإفراج عن ثلاثة إسبانيين في موريتانيا كوسيط للإفراج عنهم.

وهيأت الأقدار لأياد - وكتائب القاعدة جنوب الصحراء - الفرصة لاستثمار خبراتهم الانشقاقية التمردية في التطلع للتملك بإعلان الانفصال، بعد أن وفرت لهم الحرب الأهلية أو ما يسمى بثورة 17فبراير في ليبيا كميات هائلة من الأسلحة والذخائر بل والأموال التي سرقت من الكتائب وأحواش «بيوت»

قادتها ورجال القذافي، وكان سقوط هذا الأخير نفسه وقتله بمثابة سقوط أهم موانع حركة الطوارق في جنوب الصحراء حيث كانت سيطرة القذافي عليهم أسطورية، وتلا ذلك سقوط الحكومة المركزية في «باماكو - مالي» بالانقلاب العسكري الذي قاده النقيب «صونوكو» على الرئيس المالي «أمادو توماني توري» في 22 مارس 2012 مع نهوض الخلايا الليبية النائمة وانضمامها إلى ما سيعرف في ليبيا فيما بعد بـ«جيش الإسلام في درنة» تنظيم «أنصار الشريعة» في سرت وسبها وبنغازي ومصراتة ودرنة.

واستطاع أياد جمع كثير من الطوارق خصوصًا المتشددين منهم المنتهجين فكر «القاعدة» والذين يرون إجبار الناس على الإسلام، قال لي عدد من قادة التنظيم في مصر مثلًا ينادي «الإخوة» - وكان يقصد الإخوان - بالحصول على الشعبية في انتخابات باسم الشريعة على أنهم سيعملون على تطبيقها إن قدروا عليها، وهو عكس ما تحدث به أياد وجاء في فكره بإقامة الشريعة أولًا على نفسه وأتباعه ثم يقيم بهم وبقوتهم دولة إن قدر.. وأن يدعو الشعب أولًا فمن استجاب فنعما، ومن لم يستجب فإن كان لأياد وجماعته قدرة فيفرض النظام الإسلامي بالقوة!!

فضلًا عما قام به أياد لزرع الخلاف والفتن بين قبائل «تمبكتو» قبل عام 1992 في ظل التنافس بينه وبين «هاجي جامو».. ثم تحالفه مع الحكم المالي لتفكيك الكيانات النضالية الثورية الرافضة للاتفاقيات التي نعتها الباحث «أبو بكر الأنصاري» بالمذلة.. كما يشار إلى دور له مع الثلاثي العدائي مالي والجزائر والقذافي للتخلص من «مانو دياك» الزعيم الطارقي النيجيري عام 1995 لإخلاء ساحة الزعامة له مع «قجيم عيسى سيد محمد» رئيس الجبهة الشعبية رغبة في احتكار تمثيل أزواد من خلال تنظيم تكفيري رغم أنه كان ما يفتأ يؤكد أن علاقة جماعته مع تنظيم «القاعدة» علاقة المسلم بالمسلم وأن المنطق تجاه المسلمين وقضاياهم العادلة بات سمة بارزة في السياسة الدولية وأن ذلك يدفعنا إلى تبني منهج القاعدة، الغريب أن أحدًا في «أزواد» لم ينتبه إلى ما

قاله القذافي في خطابه في مدينة «أوباري» الليبية عام 2008 أن أياد والشيخ «أوسا» قد أكدا له أنهما ضد قيام دولة طارقية في شمال مالي.

وإلى الآن لم يُفصح عن سر قيام توماني توري بعزل أياد من عمله الدبلوماسي إلا فقط ما أعلن أن السعودية اتهمته بالقيام بنشاط تخريبي، بعدها بدأ «توري» في محاولة خلق زعامات مناوئة له من أبناء قبائل «إيفوقاص»، ومع تغير موازين القوى في المنطقة بسقوط نظام القذافي وقتله، باتت أمام أياد الفرصة مهيأة لتمكين نفسه كزعيم تاريخي في كيدال والشمال المالي بعد الانقلاب الذي قام به النقيب «صونوكو» على توماني توري، واستغلال جبهة تحرير أزواد «مانيلا» هذا الفراغ الأمني والدستوري والتخبط والارتباك في دوائر الحكم المالي بإعلان الانفصال.

وحسب معطيات الوقت كان يمكن لأياد أج غالي وجماعته «أنصارالدين» التنسيق مع قادة الانقلاب في «باماكو» خصوصًا وله حضور غير بسيط على مستوى النخبة فيها وله ولدان كانا من أعضاء البرلمان المالي، وكذلك حضوره القوي في الشمال خصوصًا في مواطن قبيلته «كيدال» و«أدرار» بهدف المشاركة في دعم الانقلاب ضمانًا لحقوق شعبه والاتفاق على شكل من أشكال الحكم الذاتي الموسع، ولكن الأمر لا يتعدى المتاجرة بحجم اسمه ونضاله التاريخي وآلام شعبه لصالح من يوجهونه.

وهو ما ساعد على نسج علاقة علنية بين الطوارق والقاعدة واستخدام أياد لتمييع القضية ومساعدة فرنسا للتدخل بحجة محاربة الإرهاب وحماية إفريقيا من انتشار «الورم التكفيري» فيها بعد احتلال «باماكو» المزعوم رغم أنه في بداية «الحراك الأخير» قد وقَّع مع «مانيلا» في الجزائر اتفاقًا يلزمهما بحفظ الأمن وعدم إثارة أي مواجهة بينهما، وتأمين المناطق الواقعة تحت سيطرتهما والالتزام بتوحيد موقفيهما في إطار البحث عن وضعية سلمية مع سلطات مالي، وفي بداية نوفمبر 2012 حدثت محادثات في «واجادوجو. بوركينا» بمشاركة رئيسها السابق «بليز كومباري» وممثل الإيكواس. وصدر بيان عن

الجماعة بالتعهد بالتوصل إلى حل بناء عن طريق التفاوض مع القوى الممثلة للسلطات المؤقتة في «باماكو» لوقف العنف، وأكد في البيان أن جماعته ترفض جميع أشكال التطرف والإرهاب وتلتزم بمحاربة الجريمة المنظمة العابرة للحدود.

وكخدمة لجهازي مخابرات فرنسا والجزائر.. قام أياد بإعلان إنشاء جماعة «أنصار الدين» لتكون «المغناطيس» الذي يجذب إليه «مسامير» التشدد في المنطقة، بحكم دراسة هذه الأجهزة لمجريات الأمور وتأكدها من بزوغ جديد لإسلامويين وتكفيريين، فيسهل تسييرهم أو تحريك مفاصلهم بعد ذلك، حتى لا يفلت عقالهم من يد السادة وتابعيهم، وهو ما حدث بالفعل.. حيث انجذب إلى أياد كل المتشددين الإسلامويين والمهووسين بفكرة الجهاد، وإقامة الخلافة من العرب موريتانيين وليبيين، وجنسيات أخرى..

فضلًا عن أبناء أزواد مثل «حَلَى تكنا» وموسى أكلود، وغيرهم من عناصر كتائب القاعدة في الصحراء الكبرى الذين انفصلوا عنها.. ومنهم عبد الحميد أبو زيد، ويحيى أبو الهمام الذي عينه أياد عمدة أو حاكمًا لمدينة تمبكتو.. وساند ولد بو عمامة الإرهابي المرتجف الحائر نصف الموريتاني نائبًا له.

ويشكك الكثيرون في أن أياد أج غالي قد استثمر تاريخه النضالي ومكانته الاجتماعية مع توجهه السفلي لمواصلة نضال الأزواديين - ويرون أن ذلك كان لقطف ثمار مزدوجة؛ الأولى تاريخه النضالي، وعشر سنوات من عمل عناصر «تنظيم القاعدة» في المنطقة - واستثمر أياد بنجاح العاملين معًا، وهو ما كانت نتيجته استجابة سريعة ومزدوجة أيضًا من أصحاب الاتجاه السفلي وأصحاب الفكر القبلي، وكلاهما يرغب في تتويج حركات الأزواديين التاريخية، والثانية حركة تنظيم القاعدة بإعلان تكوين دولة «أزواد» ليتبقى بعد ذلك أمر الفصل النهائي لمن تكون الغلبة فيحكم القاعدة أم الطوارق العلمانيون؟ وهو ما أسهم في الإسراع بالتعاون بينه وبين «مانيلا»، خصوصًا بعد أن خطا خطوة في سبيل الهدف باستيلائه على مدينة «أجيلهوك» أقصى الشمال وبها قاعدة

عسكرية تتبع جيش الدولة المالية.

ولإسباغ دور التقي المجاهد صرح أياد لإذاعة تمبكتو المحلية بعد الاستيلاء على «تيساليت» بأن «كل الذين ليسوا على نهج الله كافرون» وأن «كفاحنا للإصلاح وأعداؤنا كفار ووثنيون»، «ويجب أن نقاتل كل من يعارض انتشار الإسلام والقضاء عليه».

أما التحاق الجاسوس الفرنسي الذي أطلق على نفسه «عبد الجليل» فجاء عن طريق أياد أج غالي الذي تقدم إليه مبديًا اعتناقه للفكر الجهادي ورغبته في المساهمة !!وهي لا شك رواية تضفي بُعدًا على حالة أياد الذهنية وتبقى دليلًا على عمالته للفرنسيين.

والمكون الرئيسي في جماعة «التوحيد والجهاد» الذين يرون أن الأرض أرضهم فكان من الطبيعي أن ينشقوا عن تنظيم القاعدة في بلاد المغرب لتأسيس جماعات منفصلة مثل: «عمر ولد حماه» وهو من عرب «تمبكتو» وتمتد قرابته مع سكان «جاوا» فأعلن مع سلطان ولد بادي تأسيس «التوحيد والجهاد» اعتمد فيها على عرب مالي وموريتانيا والبوليساريو بالتزامن مع «أنصار الدين» كنسخة عربية بعد انشقاق قادتها العرب عن تنظيم «مختار بلمختار» بعد الخلاف حول تأسيس كتيبة خاصة لأبناء القبائل العربية أسوة بسرية الأنصار الطارقية التابعة لتنظيم «القاعدة» كان من قادتها سلطان ولد بادي وحمادة ولد محمد الخيري «أبو القعقاع» اللذان استطاعا جذب عدد من السلفيين الجهاديين من أبناء القبائل العربية في أزواد وموريتانيا.

وقامت باختطاف ثلاث رعايا غربيين من مخيمات اللاجئين الصحراويين قرب تندوف.. وضم هذا التنظيم بنينيًا من «بنين» يطلق على نفسه عبد الله تيمنًا بعبد الله عزام ويقود كتيبة «عثمان دان فوديو» وهو من إثنية اليوروبا، وحل محل النيجيري هشام بلال الذي فر في نوفمبر 2012 بعد محاولة قتله لانتقاده ضلوع الحركة في أنشطة إجرامية خصوصًا تهريب المخدرات، وكان عضوًا في

جماعة المختار «الملثمين».

وانشق عمر ولد حماه عن كتيبة «الملثمين» التي لم يكن له فيها شأن سوى علاقة النسب بـ«خالد أبو العباس - بلمختار»، وكان كل دوره في الأمر كما سمعت من «شيخ» ابن أخيه - عمله دليلًا لقيادة بعض أرتال سيارات التهريب في حركتها من «جاوا» إلى مدينة «برج باجي المختار» جنوب حدود الجزائر بحكم معرفته الوثيقة وقراباته ببعض قبائل وسكان المنطقة وتصديه لتأمين العلاقات الجيدة مع عرب أزواد خصوصًا «البرابيش»، وأن علاقته بالدين لم تكن أفضل من علاقة طالب علم في محضرة صحراوية بعد انضمامه إلى جماعة «الدعوة والتبليغ» عام2006.

«التوحيد والجهاد» ومثلها «أنصار الدين» لم تعملا على رعاية الناس بقدر ما قامتا بتنفيذ سياسة الحدود وأهملتا الإدارات المحتاج لها الناس لتيسير حياتهم مثل المدارس بل على العكس أغلقتا المدارس، فقط بحجة أنها تقدم مناهج الكفار، وقام أبو تراب والحمزاني بصف عدد من الناس والأطفال أمامه لتعليمهم بعض الأحاديث وشرح بعض الأمور الفقهية المرتبطة والمحدودة في الجهاد بالمعنى الضيق الذي يرونه وأن الله أوجبه على المسلمين، ودمروا الإدارات والمرافق الأخرى الخدمية، الأهم هو مضايقة الناس في حياتهم اليومية، وضرب الناس وحجزهم.

وإن استعانت بالأعور في بسط سيطرتها على «جاوا» بمشاركة كتيبته «الملثمين» الذي وجد لنفسه مكانة أهم بعد طرده من التنظيم وإمارة الصحراء.

كان أول إعلان لحركة «التوحيد والجهاد» عن وجودها وانشقاقها عن تنظيم القاعدة عند تبنيها خطف ثلاثة من رجال الإغاثة من إسبانيا وإيطاليا في أكتوبر2011 في تندوف الجزائرية متهمة القاعدة بالنشاط الإجرامي وقبلها بيوم تجمع أكثر من 60 سيارة رباعية الدفع مدججة بالسلاح 70كم شمال تمبكتو في استعراض احتفالًا بميلاد كتيبة «أنصار الشريعة».

* * *

تنظيم «القاعدة».. وتهريب المخدرات

جاءت سيطرة التوحيد والجهاد على مساحات شاسعة من صحراء «أزواد» تمتد من «تساليت» أقصى الشمال إلى «جاوا» بعد الانفصال، كجزء من استراتيجيتها التمددية، ليس لضمان إقامة الشريعة على أكبر مساحة ولكن لبسط نفوذها التأميني لحركة قوافل المخدرات التي تديرها مع المهربين، وكانت تجد عقبات وعراقيل تصل إلى حد المواجهات المسلحة أحيانًا، ولم تكن عمليات خطف الرهائن للفديات فقط، ولا للضغط على حكومات المختطفين إنما جاءت ضمن استراتيجية شاملة ومعقدة للبقاء، وعدم المساس بها نتيجة التفزيع باسم «تنظيم القاعدة»، وتبني الفكر الوهابي التكفيري الذي لا يمنع التواصل مع شبكات إنتاج وتهريب الكوكايين والمخدرات الدولية بل كانا هدفين يكمل أحدهما الآخر ضمن هذه الاستراتيجية التي نظمتها - مع تزايد أهميتها - الاختراقات الاستخبارية الدولية بداية من الولايات المتحدة التي اعتادت الإشراف على إجراء مثل هذه العمليات ودعمها بداية من عملياتها السرية في أمريكا الوسطى التي كانت تمول جانبًا منها من حصيلة بيع الكوكايين - وحسب ما جاء في صحيفة نيويورك تايمز 17 يوليو1998م أن مسئولي الـ CIA المتورطين في برنامج التمرد لا يعبئون كثيرًا بتجارة المخدرات التي يعمل بها هؤلاء المتمردون.

وقد أسهم «نيجرو بونتي»[119] في إغلاق مكتب مكافحة المخدرات في عاصمة هندوراس عندما ظهرت هندوراس كقاعدة مهمة لشحن الكوكايين إلى الولايات المتحدة بتسهيل من الـ CIA حيث تذهب الأرباح إلى ثوار الكونترا التي عمل فيها اثنان من المرتزقة الأمريكان «توماس بوزي» و«دانا باركر» من خلال «نيجرو بونتي» الذي أوصلهما بمسئول في القوات المسلحة الهندوراسية.. وهو نفس النهج الذي عملت به الولايات المتحدة في الشرق العربي حيث كانت تقدم الدعم والرعاية باتفاق وكالة المخابرات المركزية CIA مع إدارة مكافحة المخدرات الأمريكية لأسرة جعفر اللبنانية «التي كانت تعمل

في تجارة وتصدير الحشيش والهيروين إلى الولايات المتحدة لأكثر من نصف قرن، معتبرة أن صناعة وتجارة المخدرات الوسيلة الوحيدة تقريبًا لدعم اقتصاد الجماعات المسيحية الموالية للغرب في لبنان.. ودعمت أيضًا الثنائي رفعت الأسد ومنذر الكسار السوريين اللذين كانا يسيطران على حركة انسياب المخدرات على طول «خط التزويد» من وادي البقاع إلى الولايات المتحدة[120]، وكان منذر الكسار الممول الرئيسي لجماعات المتطرفين الفلسطينيين في الشرق الأوسط بالسلاح، وممول جماعة الكونترا في «نيكاراجوا» عبر الكولونيل «أوليفر نورث» قائد القوات الجوية الأمريكية الأسبق ريتشارد سيكورد، وكان الأسد والكسار يمثلان رابطة مهمة لجمع المعلومات عن الشرق الأوسط.

وكذلك كان الحال في أفغانستان حيث تم استخدام المخدرات عبر تنظيم «القاعدة» بنفس الرعاية والدعم المخابراتي لتمويل صفقات أسلحة وهو الحال الذي تكرر كثيرًا في مناطق أخرى من العالم.

لذلك فليس من المستغرب أن تمول عمليات تهريب المخدرات صناعة الحرب الأهلية والجريمة المنظمة في سيراليون وغينيا وكوناكري وليبيريا وساحل العاج ومالي.. خصوصًا أن هذه الدول تشتهر بهشاشة نظامها الأمني وجيوشها، واستغلته هذه العصابات التي ارتبطت بمثيلاتها من «كارتيلات» المخدرات في أمريكا الجنوبية ومهربي الصحراء من أعضاء التنظيمات الإسلامية المتشددة جنوب الصحراء واتفقوا على جعل دول غرب إفريقيا قاعدة رئيسية لتخزين المخدرات وتهريبها إلى أوروبا عبر مصر ثم تركيا لصعوبة إدخالها من جنوب أو غرب أوروبا نظرًا لتطور أجهزة المراقبة في الحدود والموانئ والمطارات، وضعف قواعد الفساد داخل أجهزة المكافحة في الدول الأوروبية عكس هذه الدول التي يمكن بسهولة تمرير أي شحنة وتوفير الحماية لها لانتشار الفساد والرشوة بين المدنيين والعسكريين، على طول الطريق من موريتانيا التي تمثل نقطة رئيسية ومركزًا مهمًا لهذه العصابات ومالي والنيجر وليبيا التي تنقل منها

عبر البحر المتوسط إلى جنوب إيطاليا بالتعاون مع المافيا الإيطالية، أو إلى مصر باتجاه الخليج عبر البحر الأحمر من ميناءي نويبع والغردقة.. وهو ما أكده أحد رجال التهريب في مدينة الخليل - 18كم جنوب الحدود الجزائرية - والتي تعد مركز الترانزيت لهذه التجارة بعد أن تصلها شحنات الكوكايين من طريق موريتانيا عبر «تمبكتو» ومن «بوركينا فاسو» عبر «جاوا»، ثم «كيدال» أما الحشيش خصوصًا «قدم الفهد» والذي يعرف في أوساط المهربين بأنه يخص منظمة «الفهد الأسود» المغربية التي تضم خليطًا من اليهود والبربر والعرب، فينطلق من «كماكما» في المغرب باتجاه الشرق عبر «البوليساريو» ثم الأراضي الجزائرية التي تغض حكومتها الطرف عنها لاستخدامها لهذه العصابات أحيانًا كفرق اغتيالات عند رغبتها في التخلص من مناوئين أو القبض على من تريده وتسليمه لرجال الأمن، وتصل إلى شمال مالي منطلقة بمحاذاة الشريط الحدودي شمال «كيدال» وتستريح ليوم في منطقة «تامسنا»، وتصل بعدها إلى «الخليل» وهناك يتم التوزيع بعد أن تدفع الرسوم لبعض زعماء القبائل العربية 100 مليون سيفا الفرنك المالي «40 ألف دولار تقريبًا» على مرور القافلة التي عادة ما تتكون من 6 سيارات دفع رباعي تحرسها سيارتان عليهما 12 مقاتلًا مسلحون بمدافع م.ط .R.B.G. وتنطلق من الخليل لتتخذ كل قافلة وجهتها إما عبر النيجر إلى جبال «بوس» ثم «المثلث الحدودي» جنوب شرق «الكفرة» ومنها ينطلق عبر الفرافرة إلى الفيوم ثم المنيا إلى البحر الأحمر ومنها إلى «سيوة» حتى «الواحات البحرية» في مصر، ومنها تتفرع إما إلى الجنوب مخترقة محافظة الوادي الجديد ثم باتجاه الشرق إلى قنا ثم سفاجا لتعبر البحر الأحمر، والأخرى إلى صحراء الجيزة ثم سيناء، قال لي علي أج إبراهيم: بعض نوعيات الحشيش تصل إلى إسرائيل ليتم التعامل معه باستخراج زيته بدرجة كثافة محددة بشكل دقيق تستخدم في اليورانيوم ثم يعاد تصديره إلى الخليج العربي عبر الأردن!!

وعادة لا تكون مخابرات الدول الكبرى هي الممسك الوحيد بخيوط هذه التجارة لأن المخابرات المحلية صاحبة السيطرة والنفوذ على الأرض تكون

ضمن المحركين مثل المخابرات الجزائرية فليس من شك في اختراقها لهذه الجماعات العصابية - وإلا تكون فاشلة في أداء مهامها الأولى.. ولا شك أيضًا أن المخابرات الجزائرية ليست فاشلة بالطبع، وبالتالي فإن سيطرتها على هذه العصابات الإسلاموية واختراقها يؤكد ضلوعها أو على الأقل معرفتها بالأمر، ويؤكد ذلك انتشار المخدرات - في حقبة التسعينيات - بين 80 % من الجنود والطلاب الضباط، وكذلك بعض الضباط الذين كانوا يتعاطون المخدرات يوميًا في وحداتهم، حسبما يؤكد الضابط المظلي الجزائري حبيب سويدية: «الكمين الذي نصبته لوحدته جماعة إرهابية في ضواحي شفة قرب المدية عام 1994م لزملائه من الكتيبة 91 شرطة عسكرية، والذي دام عدة ساعات، وقُتل فيه أربعون عسكريًا نجا منهم ملازم أخبرني بعدها أن نصف الوحدة كان تحت تأثير المخدرات، وبالتأكيد فإن هذه المخدرات مما كانت تهرب عبر جنرالات أو تكون نصيبًا لهم»[121].

وهو ما سمعته في أقصى الشمال المالي من أحد الضباط الصغار الذي صاحب أحد الشبان العرب من أبناء «تمبكتو» عند عودته من «برج باجي المختار» الجزائرية بسيارات محملة بتموين من الزيت والبنزين.

ويؤكد المظلي الجزائري حبيب سويدية أن هذه المخدرات سُمح بتجارتها تحت سمع وبصر الجميع داخل الثكنات العسكرية نفسها[122].

وتزامن تراجُع دور الدولة بحُكم السياسات الاقتصادية التي اتبعت في مالي وعُرفَت باسم سياسات التقويم الهيكلي تحت وطأة الحاجة وبتوجيه وأمر المانحين الغربيين، وخاصة صندوق النقد والبنك الدوليين مع تراجع اهتمام الغرب الأوروبي بإفريقيا بعد سقوط برلين وتفكك الاتحاد السوفييتي وانتهاء عصر الحرب الباردة.

مع تزايد قدرة الدولة الجزائرية على إلحاق ضربات قوية ومُهْلِكَة للمتطرفين فيها تزحزحت هذه الجماعات لتجد في صحراء «أزواد» ملاذًا آمنًا وفرصة

لاستغلال الفقر والضعف في الأزواديين بتبني خطط التهريب وحماية قوافله باتفاق مع المهربين الذين تطورت عملياتهم من السجائر والأغذية والأدوية والمعلبات الممنوحة للاجئي الصحراء الغربية «البوليساريو»، هذه العصابات لها زعماء من «الجمهورية الصحراوية» البوليساريو التي بدأت منها الفكرة بتهريب المواد الغذائية من المعونات التي خصصت للصحراويين في معسكراتهم القريبة من «تندوف» بداية السبعينيات مع بعض الذخيرة وقطع السلاح الفردية، وسرعان ما دخلت البضائع المستوردة في ليبيا إلى القائمة مثل الأدوية والملابس ثم السجائر من «موريتانيا» و«كوتو» و«بنين» إلى المغرب والجزائر وتهريب الوقود من الأخيرة إلى موريتانيا والدول الإفريقية جنوب الصحراء، ولذلك لم يكن غريبًا أن يبرع «الصحراويون» في التهريب خصوصًا أنهم يحوزون تعاطفًا كبيرًا من الموريتانيين لكونهم جميعًا من أصول عرقية واحدة وتفرع عائلات وقبائل على الجانبين، وما زال عدد كبير منهم يؤمنون أن الصحراء موريتانية وهو ما سبق أن أعلنه المختار ولد داداه الزعيم المؤسس للدولة الموريتانية الحديثة قبل الاستقلال عام 1957م بقوله إن «الصحراء وأزواد جناحا موريتانيا»، وإن تراجع عن التمسك بها حتى لا يعرقل مشروع استقلال موريتانيا.

وقد شهدت أسواق «تمبكتو» و«جاوا» في شمال مالي و«نواكشوط» في موريتانيا إقبالًا على المساعدات الإنسانية المهربة من «تندوف» إليها وهو ما كشف عن صور الفساد المتعددة لبعض قيادات صحراء البوليساريو، ويعد سلطانو ولد أحمدو «اللهو الخفي» في الصحراء الإفريقية من شاطئ المحيط الأطلنطي في «داخلة المغرب» إلى «فاشر دارفور» و«غردقة مصر»، إنه الواجهة لما هو أخطر من التهريب مع محمد سالم ولد أحمودة الضابط السابق في البوليساريو، والذي قُبض عليه في «الحفيرة» بولاية «تيرس زمور» وحاكمته موريتانيا بتهمة اختطاف أجانب «إسبان من موظفي الإغاثة» في نواكشوط.

واستطاعت شبكات التهريب الدولية الاعتماد على أجنحة القاعدة التكفيرية

«أفرادًا وتنظيمات» ومحترفي التهريب في الصحراء باتفاق استراتيجي شفهي ولكنه شامل ومعقد ليس من أجل البقاء فحسب ولكن من أجل الثراء والتمدد والقوة مما جعل الانتماء لمثل هذه التنظيمات التكفيرية المتشددة - وأهل الصحراء لا يعنون بتشددها - فرصة للثراء والتربح من الناحية المادية ولإسباغ الصفة «المشيخية» من الناحية الروحية، وعادة ما كان لشيوخ هذه البلاد وفقهائها تأثير عظيم، فوظف الطرفان - الإرهابيون والمهربون - بعضهم البعض في فضاء منعزل عن العالم.

ولم تكن كلمات الأمين العام للأمم المتحدة «بان كي مون» بأن تحالف القاعدة في بلاد المغرب الإسلامي مع مهربي المخدرات وشبكات إسلامية أخرى حدث في أعقاب تفجر الأزمة الليبية - دقيقة أو صحيحة، لأن هذا التحالف الذي رعته قوى دولية كان أسبق على سقوط القذافي الذي ثبت أنه كان أحد أركان التحالف، وهو ما كشفته وثائق المخابرات الليبية بعد إماطة اللثام عنها.

وكانت مخابرات القذافي تعمل على جمع أسلحة القبائل في شمال مالي لدعم زيادة نفوذ هذه التنظيمات ومساعدتها على العمل الممنوع، ففي مذكرة تحت عنوان حرق طائرة - مذكرة عرض 35 - تحدثت عن عمليات تهريب الكوكايين لصالح جماعات مسلحة منها جبهة «فارك» المتمردة على الحكومة الكولومبية لمدها بالمال والسلاح مقابل الكوكايين الذي يذهب إلى الجماعات السلفية جنوب الصحراء «اشتراكًا» مع عناصر من النيجر وبوركينا فاسو، وفي نفس المذكرة تم التأكيد على أن إحدى هذه الصفقات بلغت قيمتها نصف مليار دولار.

وكشفت دعمه الجماعات المتشددة، وعلى رأسها تنظيم «القاعدة في بلاد المغرب الإسلامي»، مما أدى إلى تعاظم قدرة هذا التنظيم، وسجل شريط فيديو منسوب لأحد عملاء المخابرات الليبية - قافلة من 150 سيارة دفع رباعي محملة ببضائع تخص الجماعات الإسلامية، وفي تقرير آخر أن ما كان بها إمدادات وقود لطائرات ركاب صغيرة جاءت من أمريكا اللاتينية محملة بأطنان من مخدر الكوكايين لصالح متشددين إسلاميين في شمال مالي

ضمنهم قيادي جزائري معروف في التنظيم «في إشارة إلى بلعور» وشارك في إتمام هذه الصفقات عدد من المسئولين المحليين في مالي وفي دول أخرى مجاورة.

وحسب أحد عناصر التهريب فإن للكوكايين مصدري «إنزال»؛ الأول عبر مرافئ خليج غينيا الذي تقوم البواخر بإنزال حمولاتها منه لتخترق الصحراء الموريتانية، والآخر ما يتم نقله على متن طائرات تصل مباشرة إلى مالي أو موريتانيا من فنزويلا وجواتيمالا، ودول أمريكا اللاتينية المنتجة له، وبعضها يحط في صحراء البوليساريو حيث يمتد النشاط التكفيري والإرهابي إلى مخيمات اللاجئين الصحراويين، والذي تأكد بعد الضربات الفرنسية بعودة عدد من التكفيريين الإرهابيين خصوصًا من حركة «التوحيد الجهاد» إلى «مرابعهم» الصحراوية التي قدِموا منها، وبعضهم تم إلقاء القبض عليه من قبل السلطات الموريتانية ولكنهم تحايلوا بوساطة وواسطة بعض موريتانيي الحوض الشرقي من ضباط سابقين خاضوا حرب الصحراء ليتم عدم التحقيق معهم أو استمرار توقيفهم.

وفي موريتانيا يعتبر «ممر قندهار» أكثر من 25 كم في مثلث الحدود الصحراوية المغربية الموريتانية في منطقة «الجيرجيرات» أهم طرق التهريب بين البوليساريو وموريتانيا، والذي ظل سنوات طويلة بلا مراقبة حتى قامت نواكشوط بتشديد المراقبة الجمركية والأمنية فيها بعد ملاحظة تزايد أنشطة التهريب واتساع نشاط كتائب وأفرع تنظيم القاعدة تزامنًا مع تنامي نشاط عصابات التهريب، والتي ظهرت استباحتها للأجواء والصحراء الموريتانية عبر طائرات نقل مختلفة الأحجام والأنواع تحط في الأراضي الموريتانية لتفريغ شحناتها من الكوكايين مثلما حدث عام 2007م عندما حطت طائرة في مطار «نواذيبو» دون إذن وأنزلت 650 كجم من الكوكايين كان مخططًا لإخراجها بالرشوة، وأقلعت - دون أن يستوقفها أحد في المطار - ولكنها تحطمت بعد هبوطها الاضطراري على بعد 100كم من المطار الذي أقلعت منه قبل اقتراب

سيارة الإطفاء والأمن، وأيضًا هبطت طائرة صغيرة قادمة من كولومبيا بالكوكايين في «تازيازت» شمال البلاد، وفي الشرق بعد أن اتخذت العصابات مناطق نائية كمطارين لإقلاع وهبوط الطائرات.

وحسب تأكيدات الموريتان من كُتَّاب وباحثين فإن موريتانيا قد أصبحت توصف بأنها بلد مخدرات مستدلين على ذلك بالتغيير في نمط الحياة الذي شهدته نواكشوط والمدن الموريتانية الأخرى من حياة بسيطة خشنة إلى باذخة ورفاهية غير متوقعة نتيجة الأموال التي بدأ تنظيفها من خلال بعض الأفراد في كل المجالات الاقتصادية.

ومن موريتانيا إلى مالي اللتين تشتركان في حدود طولها 2237 كم يصعب بالتأكيد السيطرة عليها وأيضًا يصعب ضمان نزاهة كل عناصر الأجهزة المنوط بها مكافحة التهريب وضبط الحدود، ففي مالي أيضًا تورط رجال الحدود وبعض قادة الأمن والجمارك من باب الفساد الإداري والرشوة واتسعت الدائرة لتشمل قيادات عليا بل إن «توماني توري» الرئيس السابق ونظامه غضا الطرف عن نشاط «القاعدة» في أزواد إرضاء لحركة التهريب والمهربين في علاقة شديدة التعقيد، وهو شكل من أشكال إحداث الفتن بين مكونات أزواد بدعم بعض العرب من القبائل الذين امتهنوا التهريب مثل «كنته» و«الأمهار» وبين الطوارق.

وكانت بعض القيادات في الدولة المالية ترى أن غض الطرف عن المهربين من عرب «البرابيش والأمهار» وقبيلة «الإيمغاد» الطارقية سيعمل على التفرقة بين مكونات المجتمع الأزوادي وضمان بعضها في صف الدولة في حالة النزوع إلى تمرد جديد.. وهو ما حدث بالفعل بعد الحرب على الحركات الإسلامية المتشددة وتعاون بعض الجهات مع الجيش المالي، بل وصلت إلى حرب بين الطوارق والعرب في مدينة الخليل - مركز قوافل التهريب - أيضًا لمواجهة نفوذ قبيلتي إيفوقاص التي ينتمي إليها زعيم جماعة «أنصار الدين» أياد أج غالي، وإيدنان اللتين يخرج منهما التمرد دائمًا.

وكانت حادثة الاشتباك بين الجيش المالي والمهربين عام 2007م بسبب شحنة كوكايين «850كجم» قد كشفت عن علاقة بعض ضباط الجيش المالي منهم المقدم «لمانة ولد محمد يحيى» بمافيا التهريب التي هددت بالقيام بعمليات تخريبية إذا لم تُرَد لهم الشحنة مما دفع الدولة وعلى رأسها «أمادو توماني توري» الرئيس السابق - إلى الأمر بإعادتها مقابل دفع مبلغ كبير بعد أن ثبت لديه تورط مسئولين كبار، وهو ما حدث، ليبدأ انتعاش هذه التجارة، ويشهد النقيب أكلوي توري - منشق عن الجيش المالي - بحماية العقيد محمد ولد ميدو لشحنة كوكايين أخرى هبطت بها طائرة في منطقة صحراوية شمال «جاوا» لصالح عرب من البرابيش والأمهار مما دفع مجموعة من «الإيفوقاص» بالاتفاق مع عناصر مهمة من عرب «كنته» لترصدها والاستيلاء عليها بعد خروجها من «جاوا» في طريقها إلى «الخليل».

كما حامت شبهات كثيرة حول مسئولين - سابقين - في مطاري «جاوا» و«تمبكتو» كانوا يسهلون استقبال الطائرات وإخراج الشحنات من المنطقة الخلفية بكل منهما، ولم يكن لدى الدولة قوة خفيفة تستطيع مواجهة هذه العصابات التي تمتاز بخبرة التحرك في الصحراء الشاسعة وتستند إلى قوة كتائب القاعدة العصابية وسلاحها فضلًا عن ضعف سيطرة الدولة على الصحراء خصوصًا وبنيتها الإدارية والعسكرية ملوثة وضعيفة، مما جعل هذه الصحراء ملاذًا آمنًا متسع المدى لحركة عصابات التهريب، ويبلغ ذروة الضعف في «كيدال» و«الخليل» و«الوسري».

هذا الضعف أكده وزير الدفاع المالي السابق «سوميلو بوبيي مايجا» بقوله: إن تنظيم القاعدة وعصابات التهريب يستمدون قوتهم من ضعف هذه الدول!

وكانت بعض شحنات المخدرات «حشيش وكوكايين» قد تكدست في مخازن أطراف عربية في ضواحي «جاوا» و«تمبكتو» بعد تعذر نقلها نتيجة عناد وخلافات بين بعض قيادات عدد من كتائب تنظيم القاعدة.. خلال الفترة من

أغسطس إلى ديسمبر2012م - قبيل الضربات الفرنسية - وأيضًا بسبب ضربات طائرات الناتو الاستطلاعية والحربية فوق المناطق الجنوبية الليبية قبيل مقتل القذافي - لمطاردة رجاله في رحلات هروبهم إلى النيجر وتشاد ومنعهم من الهرب، وبعد مقتله «20أكتوبر2011م» وكذلك طائرات الاستطلاع الحربية الجزائرية روسية الصنع وبعضها طائرات بدون طيار لمراقبة دروب الصحراء وطرق القوافل، وألقت القوات الجزائرية القبض على ستة عناصر من «التوحيد والجهاد» على بعد 30 كم جنوب «برج باجي المختار» بعد أن رصدتهم طائراتها عقب دخولهم الحدود قبل عشرين يومًا من الضربات الفرنسية وعثرت معهم على كميات كبيرة من المخدرات فصادرتها مع سيارتين و4 صواريخ R.B.G و6 بنادق كلاشينكوف و2 رشاش ثقيل وكمية كبيرة من الذخائر، وهو ما أفشل إشراف الجماعتين «التوحيد والجهاد» و«أنصار الدين» على نقل شحنات كوكايين وتأجيلها لبعض الوقت بعد معرفة قادتها المرتبطين بعلاقة قوية مع الأمن الجزائري من خلال «بلمختار» الذي بدوره عرف من أحد جنرالات الجزائر حسب تأكيد بلمختار، بإصرار الدولة وقتها على منع مرور هذه القوافل مما سبب ارتباكًا لـ«كارتيلات» و«بارونات» إنتاج المخدرات وتهريبها.. وعندما حاولت حركة «التوحيد والجهاد» بالتعاون مع مهربي قبيلة «الأمهار» في منتصف شهر أكتوبر ونهاية الأسبوع الأول من نوفمبر 2011م المجازفة بتهريب كميات من المخزون، ووصلت المعلومات إلى القيادة العسكرية لحركة تحرير أزواد «مانيلا» فترصدت للقافلتين واستولت على 60 سيارة كانت تحمل 120 طنًا شمال مدينة «كيدال».

وقد كشف عبد المالك السايح مدير المكتب الوطني الجزائري لمكافحة المخدرات أن «القاعدة» لها علاقات وثيقة بعصابات تهريب المخدرات في البرازيل وكولومبيا والمكسيك وأن ما تم نقله منها إلى الصحراء الكبرى لتتخذ طريقها إلى دول الاستهلاك تبلغ قيمته 1.6مليار يورو كانت حصة هذه الجماعات 310 ملايين يورو.

وقدر بعض الخبراء في مجال مكافحة المخدرات أن 70 % من الكوكايين يصل إلى أوروبا عبر تركيا مرورًا بمصر التي يستقر فيها 30 % ليوزع فيها وفي الخليج العربي والسعودية، وقد اعترضت بعض قبائل الطوارق في أزواد أثناء الحرب قوافل جديدة أثناء عبورها في شمال شرق «كيدال» قبل أن تصل إلى الخليل.. واقتيدت إلى مكان مجهول.. ومجهول أيضًا ما فُعل ببضاعتها كما أخبرني أحد قيادات «مانيلا»، وضحك ثم قال: «راح ضحيتها سبعة رجال دُفِنوا حيث قُتِلوا»، وإن كان مصدر آخر في صحراء «أزواد» قد أكد لي أيضًا أنها قد أعيد بيعها بمقابل يصل إلى 10 ملايين دولار وبعض كميات من الذخائر والأسلحة والتنازل عن 5 سيارات حديثة منها والتنازل أيضًا عن دماء القتلى واتخذت طريقها في «الصحراء».

وكان المتوقع زيادة الكمية المهربة من 300 طن عام 2010م إلى الضعف تقريبًا.. وكان التقرير الصادر عن الأمم المتحدة عام 2009م قد قدَّر الكمية بـ250طنًّا.. في حين أن 10 % من كمية الهيروين المهربة تدخل أوروبا عبر إفريقيا، وهو رقم يقترب من الصحيح - حسب مصادر التهريب - ولكن من خلال جزيرة «طريف» في جنوب إسبانيا، أما ما يدخل أوروبا عبر جزيرة «لامبادوز» الإيطالية فيصل إلى 30 %، وينقل بعد وصوله إلى الصحراء الليبية في منطقة برقة على متن سيارات دفع رباعي بتعاون جماعة «أنصار الشريعة» الليبية المرتبطة عضويًّا وعقائديًّا مع جماعات وكتائب القاعدة في مالي، ويتم تفريغه ونقله على ظهور الإبل إلى الجبل، ومنها إلى «عين غزالة» بالقرب من «التميمي» ثم يحمل على أكتاف الرجال الذين يبدون من بعيد كسرب نمل إلى ساحل البحر المتوسط، لينقل عبر قوارب مطاطية صغيرة إلى جزيرتي «الحيطة الحمراء» و«البردعة» ومنها إلى مراكب خشبية أو حديدية متوسطة 18 - 20 مترًا تتخذ طريقها في البحر عجبًا!! إلى «لامبادوز»، وبعضه يتجه شرقًا إلى سيدي براني والسلوم في مصر.

أما الجزء الأكبر فيتم تهريبه إلى مصر مخترقًا الحدود الشمالية التشادية

بالقرب من «بير كوران» و«وادي الناموس» في «تيبستي» إلى مثلث الحدود السودانية الليبية المصرية عند جبل العوينات، ويدفع تجار التهريب من قيمة حمولة قوافلهم نحو 10 % للجماعات الإرهابية الأخرى مقابل عدم الاعتراض وتأمين الطريق.

وهو ما تأكد أمام لجان تحقيق جزائرية - بعد القبض على مهربين في أقصى جنوب البلاد - والذين اعترفوا بأن قادة الميليشيات والفصائل الليبية المسلحة كانوا يحصلون على مبالغ مالية ضخمة من المهربين مقابل حمايتهم والسماح لهم بالمرور من حدود النيجر إلى حدود مصر مقابل مبالغ مالية تصل من 20 إلى 40 ألف يورو.. أو أن بعضهم كانوا يشاركون بنصيب في هذه القوافل خصوصًا وأن بعضها كان يحرس المخدرات فيها والسلاح الليبي المهرب إلى مصر للجماعات الإسلامية والإخوان، فضلًا عن تهريب آلاف من الصناديق المحملة بأوراق النقد «الإسترليني واليورو والدولار» والذهب مما حصل عليه قادة الميليشيات الإسلامية من قصور وخزائن القذافي ورجال منظومته الحاكمة السابقة.

وهو ما كشفته تحقيقات أخرى أجريت في ولاية «تمنراست» الجزائرية مع 87 مواطنًا ليبيًا تم ضبطهم باعترافهم عن تعاونهم مع مهربين لحمايتهم والسماح لهم بالمرور شمال حدود النيجر إلى مصر، وأقر أحدهم بتبعيته السابقة لكتائب القذافي ذاكرًا ما أمره به قادتها بالإشراف على نقل 290 كجم من الكوكايين إلى الحدود المصرية، وحراسة قافلة تهريب من مغاربة وأفارقة وجزائريين في العبور بشحناتهم إلى الحدود المصرية مقابل عمولة تصل إلى 40 ألف يورو، وأنه حاليًا قد انضم إلى إحدى الكتائب الميليشياوية «الإسلامية» وضُبط أثناء القيام بنفس العمل لما له من خبرة فيه، وبأمر من قادته الإسلاميين الجدد، وإن كان القذافي وأجهزته قد أسبغوا حماية على طرق قوافل التهريب فإن الحديث عن تورط الكثير من المسئولين في دول جوار مالي تردد كثيرًا أمامي وعلى ألسنة بعض العناصر الرسمية.

وكانت علاقة مسئولي الدولة المالية معروفة للجميع داخليًا وخارجيًا في أوروبا في الدول المانحة، لكنهم يغضون الطرف عنها حتى لا يضعوا النظام في ورطة بدعوى أنه يعمل على محاربة الإرهاب في حين أن الجميع كان متأكدًا أن عائدات هذه التجارة أسهمت في تجذير وجود هذه الجماعات في المنطقة وتقويتها وتوفير المال الذي جنّدوا به الشباب لـ«الجهاد» معهم وشراء الأسلحة، خصوصًا وقد اعترف عمر ولد حماه بأن تنظيمه جمع أموالًا ضخمة من الفديات فأصبحت مصدرًا للتسليح، والحقيقة أن هذه الأموال لم تكن حصيلة فديات فقط بل المخدرات كما علق لي أحدهم الذي أضاف: لن يعترف لصحفي بذلك حتى لا يفسر الاعتراف بما يضر سمعتهم والحقيقة المتداولة بينهم أن «لنا المال وللآخرين الحرام». يقصد بهم «الكفار» والمرتدين الذين تصل إليهم هذه «البضاعة»، ولأنهم يكفّرون الآخرين فيرون أن وصولها لهم لإيذائهم هو نوع من «الجهاد» ويعتبرونها جزءًا من الحرب الجهادية اتباعًا لفكر التنظيم الأم في أفغانستان وبلاد الرافدين.

وبدأ اعتماد «إمارة الصحراء» على «حق المرور» أو «جباية الطريق» كما يسمونه من العصابات مقابل حمايتهم وتأمينهم على طول الطريق، بما لهم من علاقات متميزة من سكان الصحاري وقبائلها وهو ما أكده العراقي محمد أبو حسين بأن القاعدة في بلاد الرافدين جعلت المخدرات المصدر الثاني لتمويلها وهو ما ينتهجه التنظيم الأم، واعترف قاعديان كويتيان بأن قادتهم ينشطون في تجارة المخدرات.

ويحكي «يوربا المغيلي» عن علاقات الصحراويين مع الأهالي على طول خطوط التهريب من النعمة - موريتانيا، وحتى مثلث الحدود المصرية السودانية الليبية، وعلاقاتهم في هذه البوادي وخصوصًا سلطان ولد بادي ومختار بلمختار ورجالهما، فهما يساعدان عددًا كبيرًا من السائقين المترددين بين موريتانيا ومالي والنيجر، وعلى طول هذا الطريق يجدون كل ما يحتاجونه من بنزين وسولار وإطارات جديدة في محطات متعددة وفنيين

للإصلاح لاعتماد هذا النشاط التهريبي على الفقر الشديد لسكان «أزواد» وشرق موريتانيا والبوليساريو.

وعادة ما يصل المهربون إلى مدينة «الخليل» للراحة والتموين وأحيانًا لتغيير سيارات القافلة كل أربعة أيام، ففي الصحراء البحبوحة الهادئة والفضاء الآمن والحركة غير المراقبة إلا من سادتها وحراسها من كتائب وفروع تنظيم القاعدة ولأهل الصحراء علاقة معهم تحكمها العِشرة ومشاركة «السوافي» في أواني الطبخ وعلى لحم الضأن المشوي وامتنان للمساعدات التي يحصلون عليها من أطعمة مستوردة وعلب الألبان والدخان قال لي أكلود أج حم: هؤلاء يقصد تنظيم القاعدة لا يضروننا في شيء.. بل على العكس يساعدوننا فكلما مروا من هنا أفرغوا لنا «كراتين الأتاي» وزجاجات الزيت، وبعض براميل البنزين، وأحيانًا يقدمون لنا الحماية، وذكر حادثة تعرض فيها في «أجوني» هو ورجاله لمضايقات من رجال الدرك المالي لم يوقفها إلا رجال «القاعدة» سألته:أيُّ الكتائب؟ فقال: «الملثمون» وبلعور - يقصد مختار بلمختار، والنيجر بمنع «مضايقات» البعض منهم وأحيانًا يتركون لنا إطارات سيارات حديثة في حال تلفت الإطارات أو يتركون لنا بعض أدوات ومعدات نفتقدها لإصلاح سياراتنا عند تعطلها في الصحراء.. و«بلمختار» عادة ما كان يحط رحاله لدينا ويهب لكثير من فقراء البوادي مساعدات، وساهم الاستقرار المادي لهذه الكتائب والتجمعات الإسلاموية نتيجة ملايين اليوروات والدولارات مقابل الإفراج عن المختطفين الأوروبيين وعائد الاشتراك في تجارة الكوكايين وحماية طرقها حتى الحدود المصرية في جذب فقراء متشددين من مالي وموريتانيا والنيجر، بعضهم بدأ علاقته مع هذه الكتائب باستدراج الأوروبيين إلى أفخاخ الاختطاف ثم يتجرأ للعمل في اختطافهم مقابل أجر وتسليمهم لها، ثم يتم مد هؤلاء الفقراء - بعد المال - بالسلاح اللازم لإسباغ الوجاهة القبلية حيث يتصدر الحائزون على سلاح في هذه الأنحاء الفقيرة المعدمة المشهد القبلي لاسيما وإن ظهر عليهم الغنى فيعملون على «الإحسان» إلى ذويهم وأبناء قبيلتهم من الفقراء بالبضائع الأجنبية، وأهمها: الشاي والسكر والدقيق الأبيض والمعلبات

الغـذائية وعلـب الـدخان، فضـلًا عـن معـدات ميكـانيكا السـيارات وإطاراتـها الجديدة والزيت والبنزين لاسيما في المناطق البعيدة، وهو نفس الأسلوب الذي درج عليه المختار بلمختار في بدايات القرن الحادي والعشرين عند نقل نشاطه نهائيًّا إلى هذه الصحراء مستفيدًا مما سمعه من قبائلها عن منهج عبد العزيز الصحراوي «بوتفليقة الرئيس الجزائري» إبان مسئوليته عن الدعم اللوجيستي لجيش جبهة التحرير الجزائرية إبان حرب التحرير في عقد الستينيات.. وهو نفس الكلام الذي سمعته من مصادر موريتانية لها خبرة بالصحراء والقبائل العربيـة فيـها، وربمـا يكـون لزواج المختـار من قبيلة الأمهار العربيـة أثره في التعاون.. فهذه القبيلة متهمة باتجار بعض أعيانها في المخدرات، واستولى يوري الأزوادي وفيصل أبو لبابة الجزائري من كتيبة «الملثمون» منتصف شهر ينـاير 2013م علـى 9 سيارات محملة بالكوكايين والأسلحة بعد خلاف حول قيمـة مـا فُرِض عليـها من «حق المرور»، وجـاءت ضربات الطائرات الفرنسية وهرب «الإسلاميون» لتتبدد محاولات استعادتها ولو بالثمن كما قال.

وفي تقرير لمؤسسة «جي آند سكيورتي» الأمريكية المتخصصة في الدراسات الأمنية أن عائدات التهريب في هذه المنطقة بين 2و3مليارات دولار سنويًّا، وقُدرت كمية الكوكايين التي مرت فيها عامي 2010 - 2011م بـ200 طن.. قال أحمـد ولـد أبـاه ضـاحكًا ومثلها عام 2012م وحـده بعد إعلان الانفصال، فقد أصبحت المنطقة أهم ممرات التهريب في العالم مؤكدًا وجود عناصر نيجيرية وتشادية تعمل ضمن هذه العصابات ولها انتماءات للجماعات الموجودة.

***



مدرسة أبو تراب لتعليم فقه القتل



مع عثمان أج محمد عثمان



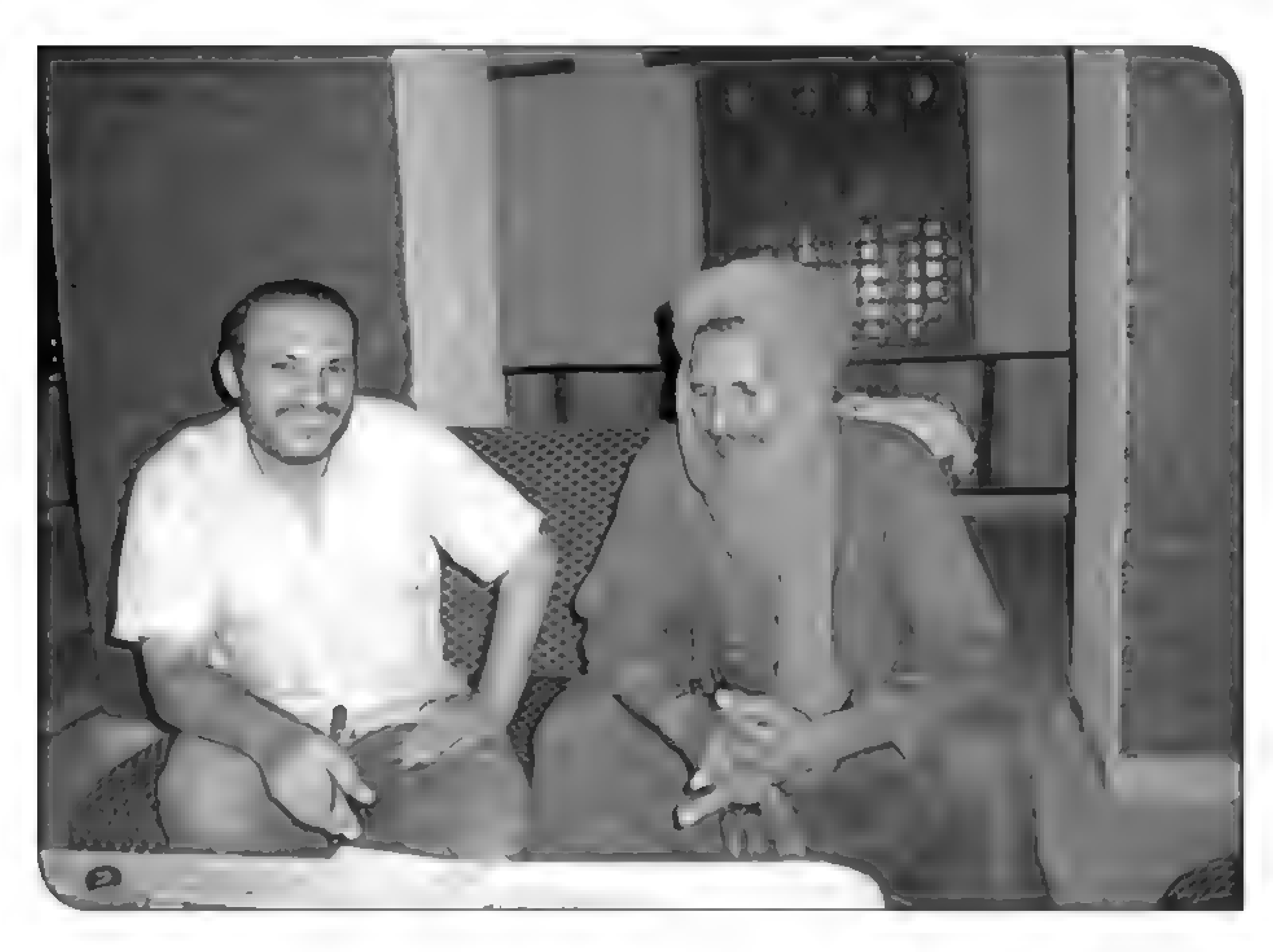
أبو تراب وتلامذته الصغار



هكذا يتعلم الأطفال حفظ القرآن والقتل



أمام مقر الشرطة الإسلامية



مع أمير القضاء في «إمارة تمبكتو

موريتانيا والإرهاب الدولي

أصبحت موريتانيا باب الوصل والتواصل بين الجنسين الأسود والأبيض وصارت بوابة التماس الخطرة لمنطقة الساحل الإفريقي الفياضة بالتشدد والمنتجة للتكفيريين والسند الداعم لهم.

وعكس ما يصدر عن كثير من المحللين والمتابعين للجماعات الإرهابية والتكفيرية السلفية الذين يذهبون إلى أن تزايد أعداد التيار السلفي الجهادي في موريتانيا وزيادة نشاطاتهم بدءًا من 2008 بعد تبني قاعدة بلاد المغرب أجندة توسعية[123]، فإن الحقيقة التي تؤكدها الأحداث على أرض الواقع عكس ذلك تمامًا؛ لأن موريتانيا كانت أهم الروافد الإمدادية والتمددية سواء بفكر التشدد أو بأعداد المتشددين.

الغريب أن الدولة الموريتانية لم تنتبه إلى تجذر هذا التيار التكفيري إلا عام 1994م عندما أعلن رسميًّا عن وجود «تيار سلفي جهادي».

وأعلنت السلطات القبض على أعضاء في منظمات «جهادية» مثل لواء «مصعب بن عمير» و«جيش محمد» ثم «أنصار الله المرابطون» التي غيرت اسمها بعد ذلك إلى «الجماعة السلفية للدعوة والقتال في موريتانيا» ومن أهم قياداتها الخادم ولد السمان.. وكان مع بعض عناصرها ممن نالوا تدريبًا على القتال في الجماعة المناظرة الجزائرية[124].

ومن المفارقات أن التاريخ الموريتاني لم يعرف ثقافة الاغتيالات السياسية أو الدينية لكنه أصبح موغلًا في الدماء بأيدي هؤلاء المتطرفين من منتهجي فكر القاعدة. وكان لـ«أبويحيى الليبي» دوره المهم في ربط عدد من متشددي موريتانيا بتنظيم القاعدة حيث استغل وجوده في «نواكشوط» وزواجه من إحدى بناتها فيها وأنجب يحيى وطفلين آخرين تحت غطاء تعلمه في محاضرها الشرعية لتنظيم عدد منهم في إطار قاعدة «بلاد المغرب الإسلامي»

وبينه وبين الأخيرة وأسامة بن لادن في أفغانستان.

وتمثل جماعة «الدعوة والتبليغ» الموريتانية أحد روافد الإرهاب في العالم الإسلامي يشهد بذلك عدد من «خريجيها» الذين برزوا في جماعات الإرهاب.

وكان لانحصار التعليم الديني في المحاضر دوره في إذكاء روح التشدد في نفوس الدارسين بسبب نوعية التعليم والمناهج التي تقدم فيها من بطون المخطوطات والكتب القديمة المكتظة بالأحاديث والآيات الداعية إلى الجهاد، وهو ما كان مناسبًا حتى نهاية القرن التاسع عشر الميلادي عندما كانت المناطق الموريتانية ثغورًا وأربطة لحماية بلاد الإسلام أو «الانطلاق منها لنشره داخل القطاع الوثني المجاور استمرارًا لنهج الفاتحين العظام من العرب الغازين لهذه المناطق لنشر الإسلام، والآباء المؤسسين للإسلام من الصنهاجيين البربر الذين حملوا شعاع الحضارة الإسلامية إلى هذه المجتمعات أو حتى إلى منتصف القرن العشرين للتخلص من الاحتلال الفرنسي، ولم يحدث تطور في هذا الفكر طوال القرون الماضية بل إن نهج اليعقوبي محمد بن حبيب الله المجيدري أحد أعلام الفقه الموريتاني أواخر القرن الثامن عشر زاده تشددًا[125].

ويعود أول ذكر للوهابية في تراث الغرب الإفريقي إلى القرن الثاني عشر الهجري، عندما ترددت أصداء الدعوة الوهابية في نصوص شنقيطية بعد ورود أخبارها عبر القوافل، مما استدعى الشيخ «سيدي المختار الكنتي» أن يصدر حكمًا رافضًا بشأنها[126].

وأحال ما يتعرض له حجاج الآفاق من غارات البدو الرحل في الحجاز إلى الحركة الوهابية واعتبرها خطرًا على حجاج بلاده وغيرها.. إن عرب الحجاز ونجد وأطراف العراق قد اتفقوا على حمل الناس على ما هُم عليه من الرفض والاعتزال. وقد استولوا على الحرمين والطائف على فساد من الدين وقلة من العلماء ووهن من الإسلام وضعف من دولته.

فأقل ما يخاف على الحاج تحت ولايتهم الافتتان بهم عن دينه، أو التغرير

بنفسه وإنْ كان الدكتور حماه الله ولد سالم يرى أنَّ دافع الشيخ الكنتي هو ولاؤه للباب العالي التزامًا بروابط الأمة - الجماعة - وهو نفس السياق الذي انطلق منه رأي ابنه وخليفته سيدي محمد الخليفة الكنتي في رسالة منْ تأليفه ضمنها قصيدة يمدح بها محمد علي باشا[127] تقديرًا لما قام به على يد ابنه طوسون منْ تحجيم المد الوهابي وفيها أيضًا يبيِّن أنَّ الوهابية في مبدأ الأمر ثائر منْ رافضيٍّ يدعى ابن عبد الوهاب في نجد وأطراف العراق. وإنْ كانت المصادر التاريخية تؤكد أنَّ وصول الوهابية إلى بلدان الغرب الإفريقي عام 1226هـ عندما وصل كتاب عبد الله بن سعود الوهابي إلى فاس وغيرها يدعو الناس إلى اتباع مذهبه والتمسك بدعوته، ولكنْ تصدى علماء فاس «المغرب» وغرب إفريقيا له، وألفوا له في الجواب وبعث إليه[128].. ويتأكد الأمر من استعراض مستويات العلاقات الفكرية بين «المجيدري» ومعاصريه. وتجلياتها منْ حيث تأثره بأفكار سلفية محددة. وقد وصف المحدث الشهير «الفلاني» المجيدري بأنَّه أكبر حافظين اثنين وردا على الحجاز.. وتأثر المجيدري بآراء كبار العلماء الحجازيين واليمنيين مثل محمد سعيد صفر وكذلك محمد الشوكاني المعروف بتأثيره على حركة المحدثين الهندية والتي أنجبت علماء بارزين واتصلت العلاقة بين المجيدري ومسند المدينة ومفتيها زين العابدين بن جمل الليل. ولعلهما أخذا عن بعضهما ويذهب الدكتور حماه الله السالم إلى الشك في احتمالية تأثر المجيدري أثناء حجه بالحركة السلفية الوهابية. مضيفًا: لا شك أنَّ سلفية المجيدري كانت تنحو هذا النحو.

وأثارتْ آراء المجيدري السلفية في المشرق وشنقيط ردود فعل تراوحت بين المعارضة والتحفظ - كحال أي مجتمع - إلى التبني والاستحسان. وأضحت آراء المجيدري في الأوساط الثقافية «الحجازية» رائجة ومقبولة. وكان المختار بن بون الجكني « توفي 1223هـ/ 1808م» لا يرى في مذهب المجيدري إلا تكفيرًا للمسلمين وتطاولًا عليهم.

ولأن الأرض في هذه البلاد خصبة لانتشار هذا الفكر المتشدد، فلعلَّ الرسالة

التي بعثها عبد الله بن سعود لم تكنْ أول مظاهرها، بدليل وجود مثل محمد بن حبيب الله المجيدري العالم الفقيه الموريتاني.

وقد أسهمت «سلفية المجيدري» في نشر الفكر المتشدد لكونه أحد أعلام الفقه في المجتمع بما يتفق مع السياق المنهجي لاستدامة رسوخ فكرة الرباط والجهاد ومحاددة الوثنيين، فضلًا عن عامل آخر لا يقل أهمية وهو «سيبة» البلاد وعدم وجود نظام حكم حقيقي يضمن تسيير حياة المجتمع، ولا شك أن هناك إشارات عدة في مخطوطات الموريتانيين المتوارثة لفقهائهم العلماء حافلة بآراء المجيدري ونزوعها نحو التشدد، لأنه يعد من علماء موريتانيا وفقهائها المشهورين، واستمر تأثيره - فضلًا عن العوامل الأخرى - من خلال المحاضر.

وفي نواكشوط عندما تشير لأي سيارة «ملاكي» طالبًا توصيلك كـ«تاكسي»، تجد سائقها تاجرًا أو موظفًا ملتحيًا. سألت أحدهم يومًا عن تعامل الحكومة معهم؟ فقال: تحارب الإسلاميين منذ عهد معاوية ولد سيدي الطايع الذي أطيحَ به في انقلاب عسكري عام 2005م ثم يعلن لك كفرها عندما يتبين أنك غريب.

الشكل الإسلامي أو التدين يغطي أغلب جوانب حياة «الموريتان» نتيجة ما كان وما زال للمحاضر من دور مؤثر في شيوع التشدد بما يعلم فيها من فكر جهادي متوارث.

هذا التدين الشديد جعل الشيخ العلامة الموريتاني «حمدا ولد التاها» ينعى حال بلاده في برنامج إذاعي في إذاعة نواكشوط الرسمية وفي نبرة حزينة عاتبًا على أبناء موريتانيا الذين ينالون شهادات في الشريعة من الشرق والغرب وهو «لا.. نحن سادة الشرع الإسلامي في المنطقة» كما قال الرجل، والذي أضاف في نفس الحلقة: «ليس من المستغرب أن يظن كل موريتاني نفسه شيخًا ومجاهدًا ومرابطًا بل يظن نفسه أميرًا للمؤمنين.. وهو ما أكده بعض الباحثين الموريتانيين مرددين أن البعض يتهم المحاضر «ما يشبه الكتاتيب

في موريتانيا، ومفردها محضرة أو محظرة، وتمثل الجامعات في صحراء غرب إفريقيا» بإنتاج الإرهابيين وتجديد دماء التشدد والتكفير بسبب نوعية ما يدرس من فقه الجهاد الذي بني عليه وجود العرب الأولين في هذه البقاع[129]، قالت لي زميلة إعلامية موريتانية إن ابنها الصبي «9سنوات» الذي يتعلم في محضرة - بات يرفض أخذ ما تمنحه من مصروف بدعوى أن مالها حرام لأنها تعمل بالحكومة.. وفي ظل التدين الفطري لدى الموريتانيين تجد من يجنح نحو التشدد نتيجة القهر الشديد والكراهية التي يعانيها الإسلام والمسلمون في العالم واستمرار التدهور والتراجع في القضية الفلسطينية، والتي كانت محورًا لأحاديث كثيرة.

وموريتانيا البلد العربي الوحيد الذي اتخذ الإسلام في مسماه «الجمهورية الإسلامية»، وهو ما يعود إلى الفكر الإطاري للحياة في موريتانيا، ولعل من أسباب وجودهم الملحوظ وكثرتهم العددية في التنظيمات «الإرهابية» عدم ترسخ الانتماء الوطني للدولة لديهم نتيجة اتساع المفهوم الأممي الإسلامي الذي بُني عليه فكر تنظيم القاعدة، فأغلبهم لا يرتبط بأرضهم كوطن بالمعنى الانتمائي الذي نعرفه في دول المشرق العربي، وإنما الانتماء لديهم يكون لأرض قبيلة أو رباط جهاد، وتفسر ذلك حياة البداوة التي يحيونها متنقلين من حي إلى آخر، أو كان على عهد آبائهم، وما زالت بعض صورها موجودة الآن، ينامون في أي مكان وصلوا إليه عندما يحتاجون إلى راحة، وفيه يجدون الطعام، يذبحون ويأكلون فضلًا عن أنهم مجتمع التجزؤ، فمكونه أجزاء منفصلة عن بعضها؛ العبيد والحراطون والزنوج والبيضان، لكل منهجه في العيش وحياته وثقافته. فرغم أنهم قد يعيشون أحيانًا في «شارع» أو منزل واحد، فإن لكل منهم ثقافته في الغناء الذي يستمع إليه أو طقوس حياته الخاصة وزيه ومفردات أحاديثه وتراثه الشعبي، وكل مكون يعيش داخل ذاته، منكفئًا عليها حاقدًا على الآخر متعاليًا عليه، لأن كلًّا منهم ينتمي إلى أصول عرقية وجغرافية ونفسية مختلفة، يتمسك بها؛ فالزنوج والحراطون يؤمنون بإفريقيتهم الخالصة، والبيضان يفتخرون بانتمائهم العربي الخالص، والبعض

منهم يسوق لنفسه نسبًا إلى الدوحة النبوية الشريفة، تأكيدًا لشرفه وتشريفه، حتى ولو على سبيل الانتحال أو الالتصاق وينتمون نفسيًّا حتى الآن إلى مصر واليمن والجزيرة العربية التي جاء منها آباؤهم.

يضاف إلى تشبث الموريتان بأصولهم الشرقية واحتياجهم النفسي لإثبات أنهم رغم هذا البعد الجغرافي هم الامتداد الجسدي والعرقي والعقائدي للمشرقيين فيأخذون منهم كل جديد حتى ولوكان عجيبًا لا يُفهم، وهنا هذا التفكير ليس شاذًّا بل متطابقًا إلى حد كبير مع منحاهم الذهني فكريًّا وعرقيًّا.

أيضًا، لأن هذه البلاد - موريتانيا - خلال عصورها الطويلة لم تعرف إطارًا سياسيًّا للدولة باستثناءات نادرة كانت على جزء منها أو جزء فيها كان في إطار دولة أخرى. ولذلك أطلق عليها علماؤها بلاد السيبة أو الأرض السائبة، حتى بدأ الشيخ العالم محمد المامي «توفي عام 1865م» دعوته بتنصيب الإمام، وتبنى تلك الدعوة بعده - من العلماء والمشايخ - المجددون ومنهم الشيخ سيديا الكبير[130] الذي دعا ابنه محمد ولد شيخ سيديا الفرنسيين محتلي السنغال للدخول إلى بلادهم لتكوين وإنشاء إطار سياسي لهذه الصحراء في دولة، إنقاذًا لها من الشكل القبلي الانقسامي، وهو الذي يفسر الآن بعد تجربة الدولة لأكثر من نصف قرن عدم قدرتها على الفكاك من أسر التشدد مع توالد جماعات الإسلام السياسي، كما يتولد الفخذ من القبيلة، وينقسم.. فقد توالد من «تنظيم القاعدة في بلاد الغرب الإسلامي» كتائب عدة انفصل قادتها بها تحت أسماء جديدة. تنافس آخرون في ذلك إلى آخر تنظيم وهو «أنصار الشريعة» المنسلخ بعض قادته من أنصار الدين، وكان للموريتان الدور الأهم في هذه التنظيمات التي يظهر فيها التلاقح بين فكر القاعدة الذي تخطى حدود التنظيم إلى أممية الفكر والتكفير مع العقيدة الموريتانية السائبة المتفقة مع الإطارالأممي للإسلام. وكان الموريتان في التنظيم متميزين جدًّا في تخصصاتهم الفنية والتقنية أو في العلوم الشرعية الأخرى، سواء في التنظيم الأم في أفغانستان أو في الفروع.

فمثلًا كان محفوظ ولد الوالد رئيس اللجنة الشرعية في تنظيم القاعدة وعضو مجلس شوراها، والذي أكد في حوار منشور أن الموريتان في «التنظيم كانوا نخبة»[131]، وكان المحفوظ قد التقى أسامة بن لادن لأول مرة في السودان 1992م، وكان يساعده ويدرِّس له دروسًا خاصة في الفقه وهو ما يلقي بظلال التأكيد على فرضية التشبع بالتشدد من خلال «الإسلام الموريتاني» حيث ظهر الفكر التكفيري للمجتمع المسلم وإعلان ضرورة محاربته من خلال نظرية العدو القريب بعد هذا التاريخ.. «كان لأسامة جهده في التحصيل العلمي وكنت أساعده على ذلك سواء من خلال الدروس العامة في التنظيم أو الخاصة به هو شخصيًّا»..

وعبد الرحمن التندغي الموريتاني الذي كان يشغل موقع عضو مجلس الأعيان والشورى في القيادة العليا لتنظيم القاعدة في بلاد المغرب الإسلامي.

ومنهم من توفي أثناء الضربات الفرنسية.. مثل أبوالخضر الأنصاري ويونس الشنقيطي «الغوث من فرع قبيلة أغلال في قرية تفكين غرب أبي تلميت» وأبومجاهد الأنصاري محمد محمود ولد السالك من «أولاد أعيش» وكان شقيقه عيسى ولد السالك قد قُضي عليه عام 2010 في اشتباك مع الجيش المالي ومعه «المختار بن أحمد دولة» من نفس القبيلة وعبد الله أبو الحسن الشنقيطي الذي قُتل في فبراير 2013م في معارك «تغرغر» شمال غرب الجبل، ومنهم عبد الرحمن ولد عبد الله ولد محمد، وأبو أنس الشنقيطي، ومحمد الأمين ولد عبد الودود الملقب بـ«عَمين» قاضي «تمبكتو» ومفتي «أنصار الدين» الذي اختفى أيضًا فور دخول القوات الفرنسية إلى «تمبكتو»، وفي موطنه «باسكنو» استدعت الشرطة أفرادًا من أسرته للتحقيق معهم، وقيل إنه سلم نفسه بعدها.

واعتقلت كذلك «أحمدو أج عبد الله» و«أج الناحم» من نفس الجماعة عندما دخلوها، كما اعتقل الجيش الموريتاني في فصالة الطاهر ولد عبد الرحمن.

وكانت كتيبة «الفرقان» موجودة على بُعد 120 كم غرب «جاوا» وبما يقرب من

مائتي مقاتل غالبيتهم من الموريتانيين، وفي «أم بورج» 90كم شمال غرب «جاوا» وأيضًا كانت نسبة كبيرة من الـ300 مقاتل فيها من الموريتان.

ولدى الموريتان قناعة بأن الأزواد أراضٍ موريتانية أو على الأقل أن قبائلهم تنتشر على الجانبين وتشترك في نفس الفضاء الفقهي واللغوي «الحساني»، وكان الاسم القديم لموريتانيا الذي عرفت به هو «بلاد الملثمين» وهو ذو دلالة على وجود الطوارق أو القبائل الصنهاجية، حتى إن البعض يذكر أن اسم موريتانيا أمازيغي الأصل[132].

وبالتالي فهناك استغلال لحالة التمرد العرقي التاريخي والنزوع إلى الاستقلال خصوصًا مع جهوزية واستعداد العناصر الموريتانية المتشددة النازعة إلى الجهاد والسبل المتاحة للتنقل ليس إلى مالي وحدها ولكن عبر كل الصحراء الكبرى.

ويبرز ذلك فيما قاله الشيخ حمدا ولد التاه: «فينا عقدة.. كلنا يظن أنه أمير المؤمنين» رغم أنه نفسه يعلن كفره بالديمقراطية لأنها ليست سوى تَجَلٍّ في غلبة الغرب وفرض نمط تفكيره على الآخرين، وأن الشورى هي أفضل طرق الحكم في حين أنه يقول في نفس الحوار[133] أن من يفوز في الانتخابات - والتي هي بالتأكيد من تجليات الديمقراطية الغربية!! - بيعته صحيحة وملزمة لأنها بيعة عامة، وأن من يهزم في الانتخابات تلزمه البيعة.

والسؤال الذي فرضه استرقاق تنظيم «داعش» للأيزيديات في العراق: هل لرسوخ النهج التكفيري في موريتانيا واستمرار بقايا الرق علامة أو ثمة صلة بإعادة «داعش» استرقاق البشر في العراق[134] مع ملاحظة وجود أكثر من 65 موريتانيًّا تقريبًا - حسب استقصائي - وإن كنت أعتقد أن الرقم الحقيقي أكثر من ذلك.

ونتيجة الانشغال الأمني والإداري بكثرة الانقلابات العسكرية وانصراف النخبة العسكرية إلى التمترس خلف مكتسباتها الثقافية والفكرية إلى المتابعة

والتعليق والتنظير فقط ودوام سب العسكريين ونعتهم بالدكتاتورية، والاقتصادية إلى انتهاز الفرص لتعظيم أرباحها، فشلت موريتانيا الدولة والمجتمع في مواجهة أو معالجة هذا الخطر.

أبرز مثال على ذلك اللافتات التي رُفِعَتْ في انتخابات 2013 البرلمانية لأحد الأحزاب تدعو بـ«البنط العريض» صوتوا لسفراء محمد ﷺ.

وفي «تمبكتو» عرفت أن كثيرًا من القياديين في تنظيم القاعدة موريتانيون في «أنصار الدين»، و«التوحيد والجهاد»، و«كتيبة الملثمين» الجلاد ومحمد ولد الداه من «فصالة» الموريتانية، وأمير القضاء في «جاوا» وعدد كبير من العناصر التي التقيتها من الموريتان في أزواد وأغلبهم كانوا يتولون مناصب في كل التنظيمات في شمال مالي.. وكذلك إحمادة أو حمادة ولد محمد الخيري، زعيم المنشقين في تنظيم القاعدة «جماعة بلمختار» الذي شارك مع إياد أج غالي في تأسيس «جماعة أنصار الدين» وهو من قبيلة تاقونانت بولاية الترارزة، منطقة ليبيرات، وكان ميلاده في السنغال وقت أن كانت عائلته تعيش هناك وقُتلوا في أحداث التصفيات العرقية التي حدثت في الجانبين السنغالي والموريتاني إبان أحداث الحرب بينهما عام 1989، فهرب عائدًا إلى موريتانيا وشارك في قتل زنوج سنغاليين في نواكشوط، بعدها شعر بالذنب وتدين وأنشأ «محضرة» لتعليم القرآن والفقه، واعتقل في نواكشوط في قضايا تشدد، وهرب مع بعض رفاقه بمعاونة عناصر من الأمن إما برشوة وإما بتعاطف من السجن في زي نسائي عام 2006وبُرئ في محاكمته غيابيًا عام 2007 أثناء اختبائه، وذات صباح قال لتلاميذه إنه ذاهب للجهاد في سبيل الله، وسافر إلى شمال مالي ومنها إلى جنوب الجزائر، حيث التحق بتنظيم القاعدة في بلاد الغرب الإسلامي مع دورد كال أمير التنظيم، وصار من أبرز الموريتانيين الناشطين فيها وكان يكنى بـ«أبو القعقاع» وقُبِض عليه في مالي ولكن اضطرت السلطات إلى إطلاق سراحه في صفقة الإفراج عن الرهينة الفرنسي بيير كامات فبراير2010، وأصدرت سلطات «نواكشوط» مذكرة دولية للقبض عليه باعتباره

يهدد أمن البلاد، وتم وضع اسمه مع المختار بلمختار وأحمد التلمسي الجزائريين وغيرهما على قائمة الإرهاب الدولي، بعد ظهوره كقائد بارز في جماعة «التوحيد والجهاد» وتردد اسمه كقائد لعمليات اختطاف الدبلوماسيين الجزائريين في «جاوا» التي رأس فيها القضاء الشرعي بعد إعلان إمارة إسلامية فيها، وأيضًا محمد الأمين ولد الحسن الذي عين قائدًا لكتيبة الفرقان التابعة لتنظيم القاعدة في بلاد الغرب الإسلامي، ليحصل على منصب «أمير الصحراء»، وينتمي ولد الحسن الذي يعرف في التنظيم باسم «عبد الله الشنقيطي» إلى قرية «لفريوة» بنفس الولاية «الترارزة جنوب غرب موريتانيا»، ولد عام 1981، ودرس في محضرة وأكمل تعليمه في المعهد العالي للدراسات والبحوث الإسلامية أثناء حكم ولد محمد فال، وانتقل إلى مالي عام 2006. أما ساندا ولد بو عمامه الرجل الثاني بجماعة «أنصار الدين»، فإن كان أصله أزواديًا فهو يحسب على الجانب الموريتاني لولادته في مدينة كيفا الموريتانية حيث عاش والده وعمل مدرسًا فيها.

تعلم ساندا في محضرة وواصل تعليمه حتى حصل على ليسانس الآداب - قسم القانون - من جامعة نواكشوط، وعاش رَدْحًا من الزمن في مدينة «باسكنو»، حيث انتقلت أسرته، ومازالت، ويمتلك حتى الآن فيها محلًّا لبيع قطع غيار السيارات يديره أخواه محمد ومحمود «حدُّود»، ويعمل فيه عليٌّ ابن أخيه الثاني. ورُشح في انتخابات بلدية باسكنو عام 2006 ضمن 17 مرشحًا على قائمة حزب «تواصل» الإخواني وطعن أحد المرشحين من قائمة منافسه على ترشحه لكونه غير موريتاني، ورُفض الطعن لحصول ساندا على الجنسية.

وتمتد علاقات الدم بين القبائل على الجانبين مثل كنته والبرابيش واليعاقيب والقرعان وأولاد مبارك وأولاد الناصر وغيرهم كثير.

وفي فصالة وباسكنو الآن أحياء كاملة لأزواديين يعيشون فيها منذ أكثر من عشرين عامًا، وبذلك خُلقت أجيال أزوادية الأصل موريتانية الهوية والفكر، ومنهم «مولدون» بعد حركة تزاوج كبيرة خلال العقود الثلاثة الأخيرة،

خصوصًا والحدود مفتوحة بين البلدين، وهو ما سهل انتقال الكثير من الإسلاميين إلى أزواد فأصبحت لهم الغلبة العددية والعقائدية.

ولا شك أن لكثرة عدد السلفيين المعتقلين أو المسجونين في سجون موريتانيا في قضايا مرتبطة بالتشدد والإرهاب دلالتها الواضحة على كون موريتانيا أحد مفارخ التشدد الإسلامي في العالم، ومؤخرًا أحيل إبراهيم ولد أحميد شقيق أحد المتشددين الذين قضوا في هجوم كتيبة «بلمختار» على موقع شركة الغاز في عين «أميناس» ومحمد الأمين ولد الشيخالي إلى سجن نواكشوط المركزي بتهمة التحضير للالتحاق بتنظيم القاعدة في بلاد المغرب الإسلامي، وإن كان «محمد مختار ولد امباله» رئيس اللجنة المكلفة بإجراء حوارات ومراجعات معهم ومع جهاديين مفترضين في سجن نواكشوط المركزي مع علماء دين قد رأى أن النتائج مشجعة - 67 سلفيًا يشتبه في تورطهم في أعمال إرهابية من بينهم موريتانيون قُبض عليهم بعد مقتل 4 سائحين فرنسيين في ديسمبر 2007 في أليغ الجنوب - وقتل أمريكي في يونية 2009 في نواكشوط والمتهم فيها «ديدي ولد يزيد» والمسجون حاليًا في السجن المركزي الذي سارع بنفي علاقته بجماعة «أنصار الشريعة» التي أعلن أحد المسجونين تكوينها من عناصر «سلفية جهادية» من رفاق السجن وخارجه، بعضهم من جماعة «التبليغ والدعوة».. كما أكد مصدر قريب من الجماعة التي تضم أعدادًا كبيرة، والذي أكد أنها تعد مفرخًا للعناصر الجهادية، ولذلك لم يكن اعتباطًا قتل الجيش المالي لثمانية موريتانيين أثناء توجههم إلى «باماكو» قبل شهور برفقة عدد مماثل من عرب وأزواد وجميعهم أعضاء في «التبليغ والدعوة».

وقد ينفجر سجن نواكشوط المركزي بمن فيه من عناصر متشددة بعد أن شهد حوادث ذات دلالة.. الأول هو الاشتباكات التي حدثت بين هذه العناصر من السجناء مع وحدة الحراسة إثر إثارة شغب واحتجاج على عدم إطلاق سيدي «ولد الداه ولد مولاي أعل» بعد انقضاء مدة السنوات الخمس التي حكم بها عليه من القضاء في منتصف سبتمبر 2014، الثاني رضوخ إدارة السجن لطلبات

السجين ولد السمان بنقله في غرفة منفصلة وبناء حمام خاص به وأن هذا الرضوخ من مدير السجون جاء بعد تهديدات «ولد السمان» بإيذائه من قبل جماعته المنتشرة في نواكشوط.

* * *

فرنسا والطوارق

بعد احتلال فرنسا لـ«تمبكتو» عام 1894 على يد القومندان «جوفر»، فاوضت زعماء القبائل على تسليم مقاليد الحكم للفرنسيين مع إبدائها النوايا الطيبة والتعهد بعدم استخدام العنف.. وفي عام 1899قررت فرنسا إعادة إنشاء ما أطلق عليه موريتانيا الغربية لدواعٍ جيو استراتيجية لاختبار قدرتها ككيان سياسي على ضبط إيقاع الفراغ أو فن تسيير الفراغ على حد تعبير الضابط السابق والكاتب الفرنسي المخضرم «آرنست بيشاريه» لمراقبة المنطقة الوسطي «السيبة أو السائبة» الواقعة بين مستعمراتها في شمال إفريقيا «العربية» وإفريقيا الغربية «السودان الغربي أو السودان الفرنسي». وعلى ذلك يمكننا أن نقول إنها اقتطعت موريتانيا ككيان سياسي أو دولة من رحم ذلك الاجتياح وأهملت «أزواد» خصوصًا أن الفضاء الفقهي والثقافي واحد في معظم هذا الامتداد الترابي، وكذلك الوحدة العرقية، فالمكون الإنساني في موريتانيا وبوركينا فاسو ومالي والسنغال متداخل وممتزج عرقيًّا ولغويًّا ودينيًّا.. مع منطقة أزواد وما يحيطها من أراضٍ، وقد كان شعب «أزواد» قبيل الاحتلال الفرنسي يتكون من عدة سلطنات وإمارات عربية وطارقية تُحكم بأعراف وقوانين النظم الصحراوية، وتجتمع كلها فيما يشبه نظامًا أميريًّا واحدًا أقرب إلى الاتحاد الفيدرالي وتتكون من سلطنات البرابيش وكنته وإيلمون والأنصار وإيفوقاص، وعندما دخلت فرنسا عملت - كحال كل القوى الاستعمارية - على محاربة اللغة المحلية وتعمدت طمس اللغة العربية وكانت اللغة الرسمية التي تعقد بها المراسيم والعقود والوثائق والمراسلات.

وعمدت إلى إشعال الفتن بين المكونات الإنسانية ففي «تمبكتو» أنشأت لبعض قبائل الطوارق قرية «الحرية» التي أسستها على أرض منزوعة من العرب فأوغرت الصدور لإشاعة الخلافات.

قاوم الطوارق الفرنسيين في نهاية القرن التاسع عشر، ولكن تسليحهم

بالسيوف العريضة لم يقو على مواجهة أسلحة الفرنسيين الحديثة، وبعد مذابح عديدة ارتكبها الفرنسيون اضطر الطوارق للتوقيع على معاهدات للقبول بالسيطرة الفرنسية عامي 1905 في مالي و1917 في النيجر.

وبعد استقرار الاحتلال الفرنسي بعد عام 1920 بدأ الطوارق في العودة إلى مواطنهم ليستأنفوا حياتهم الطبيعية وأنشطتهم التقليدية في التجارة والرعي واستخراج الملح ونشطوا في مجال ترحالهم التاريخي في الصحراء والجنوب، حيث يستبدلون بضائعهم بحاجتهم من الغذاء والكساء مبتعدين عن المناطق الحضارية والمدن التي يتمركز فيها الاحتلال الفرنسي فلم يعد يعنيهم إلا فيما يأخذ من «إتاوات» ضرائب عن المواشي والتجارة.

واستمالت فرنسا بعض علماء المنطقة وبعض قبائلها وميَّزتهم، وأشعلت الفتن بين القبائل بتوزيع السلاح على بعضها من الزنوج صنغي وسوننكي ومن العرب البرابيش، وغذت النعرات القبلية بأن درست تاريخ كل قبيلة من قبل متخصصين فرنسيين، وبذلك فككت خيوط هذي القبائل وأخذت تظهر لهم الأحداث المؤلمة من تاريخهم المشترك ونشرت الفسق بين الأهالي وشجعت الشباب على التخلي عن دينهم والزواج من الراهبات[135]، وهو ذاته ما وضعته الإدارة المالية أو القيادة التاريخية المالية التي أخرجت أو خرج على عهدها المستعمر، وفُطِمَت عليه فأعملت نفس السياسة، وزادت تكثيف وجودها العسكري في مناطق الشمال بوضع بعض الضباط «الأزواديين» من عرب وطوارق على رأس هذه القوات في مواجهة أهليهم، فإن رفض فهو خائن يستحق العقاب وهو إعدامه - بحكم عسكري - أمام زملائه ليكون عبرة أو دون محاكمة - وإن قبل فيتحمل - أمام أهله - المسئولية عن تعذيب وقتل واعتداء على النساء وتصفية الرموز؛ وهي السياسة التي انتهجتها فرنسا المحتلة.

ولكنها خلال سبعة عقود عجزت عن ترويض الأزواديين أو إخضاعهم لقوانينها المدنية حتى المدارس الفرنسية التي أنشأتها لم يقبل أغلب الطوارق والعرب بإلحاق أولادهم فيها.

وعملت فرنسا على خلق إقليم عازل بين شمال وجنوب القارة السوداء وإضعاف الوجود الإسلامي في إفريقيا وحصار اللغة العربية في نفس الوقت الذي جَدَّت في فتح المدارس لتعليم اللغة الفرنسية ودعم حملات التبشير والتنصير بدفع موجات من المبشرين الرهبان إلى أراضي الطوارق مع العمل على التفريق بينهم وبين إخوانهم العرب، فطعنوا في أصولهم العربية، وإن قابل الطوارق ذلك بالرفض العنيد، وانفردوا في صحرائهم متمسكين بدينهم وانتمائهم الصنهاجي العربي.

وقبيل الانسحاب الفرنسي واستقلال غرب إفريقيا عام 1960 طلبت الإدارة الفرنسية من السلاطين الموافقة على إقامة المنظمة المشتركة لقبائل الصحراء على أن تكون محمية فرنسية إلى أن يتم التوصل إلى نظام سياسي وإداري محدد ومُجمع عليه من الأطراف الدولية، فقبل بعضهم، ولكن ثوار الجزائر رفضوا ذلك رفضًا حاسمًا لأنه سيقتطع جزءًا من التراب الجزائري وأوعزوا إلى بعض السلاطين للرفض بحجة أن ذلك يستهدف محاصرة ثورة الجزائر لإنشاء قواعد عسكرية فرنسية في المنطقة، هذا مع تحركات من البمبارا في الجنوب «حُكّام باماكو» لعدم خروج أزواد من نطاق الدولة المنتظرة لضمان استقرار إيراد نهر النيجر، وكان هذا الإيعاز بالفعل يحمل قدرًا من الحقيقة، فقد كانت نية المستعمر الفرنسي مشروع تقسيم الجزائر إلى قسمين: الأول يضم الساحل حيث الكثافة السكانية مع أجزاء من الوسط والشرق والجنوب وهو الذي سيترك للثوار لإعلان استقلال دولتهم فيه والثاني يضم غالبية الصحراء الجزائرية بمدنها الكبرى مع بلاد الطوارق والعرب في النيجر وأزواد وبالفعل تم التخطيط لإنشاء هذا الكيان «O.C.R.S» المنظمة المشتركة للمناطق الصحراوية بقانون 10 يناير عام 1958، وعينت له إدارة تنفيذية ومجلسًا استشاريًّا حاكمًا، وهو ما وافق عليه بعض زعماء وشيوخ القبائل عربًا وطوارق على أمل استعادة استقلال أزواد. وكان الطوارق أكثر قبولًا حيث يحلمون بإعادة المجد القديم بضم مناطق أخرى دخلت في حدود الدول «الجديدة» مثل النيجر

وليبيا مما دفع الجميع وقتها إلى الانضمام إلى ثوار الجزائر في الرفض، ومنهم الزعيم الموريتاني المختار ولد داداه الذي كان يرى أن أزواد أرض موريتانية[136]، وإن كان رئيسا النيجر وتشاد آنذاك «هامني جوري» و«فرانسو تنبلباي» لم يعلنا معارضتهما خشية غضب فرنسا، ولكن المشروع لم يكتمل وصدر قانون تصفيته في 26 مايو 1963.

وكان رد الجميل من الجزائر هو فتح الحدود لسكان أزواد وتوزيع بطاقات التموين عليهم[137] والسماح لهم بالتزود بكل ما يحتاجون إليه من مؤن وغذاء وملابس وبنزين وسولار من مدن الجزائر.

وجاءت ثاني قمة لمنظمة الوحدة الإفريقية التي عقدت في يوليو1964 في القاهرة للتأكيد على قدسية الحدود التي تركها الاستعمار وحضرها موديبو كيتا الذي كان الأفارقة ينظرون إليه باعتباره واحدًا من زعماء التحرر، خصوصًا أنه كانت له علاقات طيبة بالزعيم المصري جمال عبد الناصر الذي لم يثر أو يتساءل حول مجزرة حدثت - قبل المؤتمر بأيام - وتم فيها قمع بعض القبائل الداعية للانفصال وتهديد استقلال واستقرار مالي.

وكان لدى المستعمر الفرنسي الذي رحل بجنوده وبقيت روحه في غرب إفريقيا أن يضم كل مستعمراته فيها داخل إطار واحد تحت اسم السودان الغربي، وقبل بعض زعماء هذه الدول مثل داهومي وفولتا العليا ومالي والسنغال ورفضت موريتانيا بسبب الاختلاف العرقي فيها عن بقية الأعراق في هذه الدول.

ومؤخرًا لم تكن عملية «الهر الوحشي»[138] العسكرية التي قامت بها فرنسا ضد الجماعات الإرهابية في أزواد لتخليص الشمال المالي منها حربًا على الإرهاب بقدر ما جاءت لاستعادة نفوذها المسيطر على مالي وبث الطمأنينة في قلوب حلفائها من رجال الحكم في مستعمراتها القديمة، وتأكيدًا للعالم وللولايات المتحدة بأنها «صاحبة الدار والمدار» خصوصًا وقد بدأ اللاعب

الأمريكي في التحرك في منطقة الغرب الإفريقي التي باتت أكثر أهمية لأمريكا منها لفرنسا، وتبعًا لذلك بدأت أمريكا في تعزيز نفوذها في غرب إفريقيا، ويجيء تحت ستار مكافحة الإرهاب ولضمان استقرار الجانب المقابل لسواحلها على الأطلنطي، وقد نصت وثيقة «استراتيجية الأمن القومي» للولايات المتحدة الصادرة عام 2002 بوضوح على ضرورة العمل على مكافحة الإرهاب الدولي ضمن الحاجة إلى تأمين مصادر الطاقة، ولذا وجب السعي لزيادة الانخراط في إفريقيا، ودعت هذه الوثيقة إلى إنشاء تحالف طوعي لتنظيم ترتيبات أمنية خاصة في القارة السوداء.

وعليه فقد وافق الكونجرس الأمريكي على تقديم 500مليون دولار دعمًا لـ«مبادرة مكافحة الإرهاب عبر الصحراء» للبلدان المعنية بالأمر مثل: تشاد، ومالي، والنيجر، والسنغال، وموريتانيا، والجزائر لدعم قدراتها في مجال مكافحة تهريب الأسلحة والمخدرات والإرهاب.

وأطلقت مبادرة دول الساحل عام 2005 بدعوى محاربة الإرهاب، وباشرت بموجبها تدريب قوات موريتانية ومالية ونيجيرية، وبالفعل وصلت قوات أمريكية قوامها 500 جندي من فرقة مكافحة الإرهاب إلى نواكشوط في يناير 2004 ونشرت 400 جندي آخرين على حدود النيجر تشاد بعد أسبوع، فضلًا عن ما يقرب من 1000جندي أمريكي في «مالي» خصوصًا في «جاوا» و«تساليت» ثم أنشأت قيادة عسكرية مشتركة تسمى «أفريكوم»[139] عام 2007.

وبدأ هذا التسلل الأمريكي إلى منطقة الغرب الإفريقي يحدث ضمن استراتيجية واضحة لضمان مصادر الطاقة القريبة جدًا منها.

وتعمل القيادة العسكرية الأمريكية الموجودة في أوروبا حاليًا مع غرفة التجارة الأمريكية، على توسيع نفوذها الاقتصادي والتجاري في إفريقيا، ووفق تقرير صادر عن مجلس العلاقات الخارجية الأمريكية عام 2006، فإن إفريقيا جنوب

الصحراء من المرجح أن تصبح مصدرًا لتزويد أمريكا بالطاقة بنفس مستوى أهمية الشرق الأوسط مع نهاية العقد الحالي «العشرينية الثانية في القرن الحادي والعشرين» وأكدت الدراسات الأمريكية أن برميلًا ونصف البرميل من كل 5 براميل نفط سيدور في حركة التجارة العالمية في نهاية هذا العقد، وسيشحن من خليج غينيا على المحيط الأطلنطي، وأن حصة أمريكا من نفط هذه المنطقة ستزيد على 25 %، ولذا فإن احتياج أمريكا للسيطرة على الغرب الإفريقي - عبر قوات عسكرية إضافة إلى النفوذ السياسي - أصبح مؤكدًا ومتزايدًا، ولذا قامت بتفاوض مع السنغال ومالي وموريتانيا وغانا والجابون لإنشاء مواقع عمليات عسكرية متقدمة بحجة تحسين مهابط الطائرات، وإنشاء مخازن وقود، مع إيجاد تفاهمات مع حكومات هذه الدول تسمح بانتشار سريع لقواتها حال الاقتضاء.

ولذا فإنها قد اشترطت توقيع اتفاقيات عسكرية وسياسية مقابل المساعدات المالية في حين أن إنجلترا اشترطت إصلاحًا ديمقراطيًّا وسياسيًّا وهو ما أعلنته فرنسا شرطًا لمساعدة هذه الدول الإفريقية في قمة الفرانكوفريقية في مدينة «لابول» بفرنسا، لأنها تدرك أن نفوذها الثقافي - إلى الآن - قادر من خلال ذوي اللغة والثقافة الفرنسية في إفريقيا على حماية نفوذها ودعمه ارتباطًا بباريس وإن بدأ هذا النفوذ في الانحسار وفي مناطق أخرى من إفريقيا نتيجة التفوق الكوني الأمريكي للمنطقة من موريتانيا حتى الصومال، وخصوصًا بعد النتائج المريعة لسقوط القذافي وتفكك الدولة الليبية، وانضمامها إلى نادي الدول الفاشلة، وبدأ زحف النفوذ الأمريكي باستبدال اللغة الإنجليزية باللغة الفرنسية واعتماد الإنجليزية لغة وطنية رسمية بجانب الفرنسية في رواندا وبوروندي والكونجو.. ففي رواندا بدأت حكومة الجبهة الوطنية الرواندية عام 1994 باعتماد الإنجليزية مع الفرنسية لغتي تعليم في المرحلة الثانوية، ولم تعد الفرنسية تستخدم في الجامعة.

وهو ما حدث جزئيًّا في مالي وموريتانيا والنيجر بافتتاح مدارس للتعليم

الإنجليزي، وتشجيع الأعداء التقليديين للثقافة الفرنسية وفرنسا بالنهي عن التعليم الفرنسي لصالح التعليم العربي - كحيلة أولية - أو الإنجليزي وهو الأساس، وكانت وزيرة الخارجية الأمريكية هيلاري كلينتون عام 2011 قد تحدثت في زامبيا محذرة «الأفارقة الطيبين» حسب قولها من ألاعيب الاستعمار الجديد الذي يحصل على الثروة ولا يبادل بالتنمية..

وبالتالي فإن الدور الأمريكي في المنطقة - أصبح مزاحمًا للوجود التقليدي للنفوذ الفرنسي في مستعمراتها السابقة ولذا كان اضطرار فرنسا لقبول المشاركة الأمريكية في الحرب على الجماعات الإرهابية، ودخلت قوات خاصة أمريكية إلى قاعدة «أماشش» القريبة من «تساليت» بالتنسيق مع القوات الفرنسية، وهذه القاعدة ظلت خلال السنوات الأخيرة محل منافسة، ففرنسا كانت ترغب في إنشاء قاعدة عسكرية بها وكذلك أمريكا، ومحاولة لتحجيم التحرك الأمريكي في الإطار الذي ترضى عنه فرنسا نتيجة تشابك معقد لمصالحهما في العالم وليس في الغرب الإفريقي فقط، كما في سوريا والعراق والصومال.

ولا شك أن هذه التحركات الأمريكية هي التي دفعت فرنسا - ضمن أسباب أخرى - للتمسك بنفوذها في المنطقة وإعادة طرحه بصيغ مختلفة وجديدة، رغم أن الرئيس الفرنسي «هولاند» الجديد وقتها - قد أعلن في داكار - سبتمبر2012 - انتهاء عصر ما يعرف بخلية إفريقيا الفرنسية، مما فسره البعض بعد ذلك بأن الحرب الفرنسية في شمال مالي نكوص عن التعهد الرئاسي الفرنسي، ولكن القارئ للتاريخ يعلم أن ما يصدر من الغرب الاستعماري من نفي هو تأكيد لموضوع النفي.

فعندما اجتاحت فرنسا الجزائر واحتلتها أعلنت أنها سترحل وبقيت لمائة وثلاثين عامًا فيها، ومكثت في تشاد 45 عامًا، وقد طرحت سببًا للتدخل وحجة إضافية وهي خوفها من وصول «الإسلاميين» إلى باماكو فلديها فيها 6 آلاف مواطن يحملون الجنسية الفرنسية، ولها في مخابئ القاعدة ثمانية رهائن.

وحذر تقرير أمريكي حول منطقة الساحل صدر في 2005 من تعاون واتحاد بين المقاتلين الطوارق والجماعات الإسلامية معتبرًا ذلك تهديدًا خطيرًا، ولم تخف الدوائر الأمنية الأمريكية والأوروبية قلقها من التطرف جنوب الصحراء الكبرى وتحول المنطقة إلى مرتع جديد لتنظيم القاعدة[140].

وهو ما يعني - ونعرفه جميعًا بكل تأكيد - ويدلل على الاختراق والتوجيه على الأقل بالمعنى السلبي في بعض الكتائب أو التنظيمات وليس كلها.

فإن كانت هذه الدوائر الاستخباراتية تدرك كل ذلك.. فلماذا تركت الأمر لمدة 7 سنوات ليستفحل أمر القاعدة وتتحد في الشمال المالي.. ولكن الواضح أن ذلك مرتبط ارتباطًا كبيرًا بتقريري مؤسسة راند عامي 2004، 2007 اللذين وصفا الوضع جيدًا ودَعَوَا إلى دعم وصول إسلاميين للسلطة في المنطقة، وعملت على زيادة قواتها العسكرية في ساحل العاج والسنغال والجابون وإفريقيا الوسطى وتشاد وجيبوتي إلى 9 آلاف جندي لحماية ومساعدة الأنظمة الموالية لها في هذه البلدان وطيلة الحرب الباردة كانت المنافسة مع أمريكا تعاونًا من خلال نفوذها التقليدي وقواتها ضمانًا لأمريكا ضد الوجود السوفييتي.. ولكن الآن اختلف الوضع خصوصًا مع ظهور الصينيين في القارة، وتحركهم غير الاصطدامي مع أمريكا، بل والتعاون في بعض الأحيان ولذا فإن التنافس الأمريكي الفرنسي الذي تحتم المصالح فيه تحوله إلى تعاون يجيء لضرورات الحال حتى لا تنقلب أمريكا أو تثير عليها الأعداء التقليديين من سكان البلاد الأصليين الذين لم ينس كثير منهم أفعال فرنسا فيهم طيلة الاحتلال، وفي ظل ذلك أشرفت فرنسا ومولت بشكل غير معلن عمليات تنقيب خلال حقبة التسعينيات عن النفط في «حاسي مسعود» على تخوم حوض «تاودني» المنخفض وظهور شواهد مؤكدة على وجود اليورانيوم في «أزواد» مع تقدير كمياته بثلث الاحتياطي العالمي، كما أثبتت دراسات شركة «توتال» الفرنسية احتواء باطن أرض «أزواد» على ما يعادل «تريليون» متر مكعب من الغاز الطبيعي إلى جانب مخزون من الملح كافٍ استثماريًا لمئات السنين بطاقة

استخراج قصوى، ومعروف أن ملح «تاودني» هو الأجود في العالم، وكذلك عروق نفطية تعد كمياتها مربحة استثماريًا وكافية للنزح الآمن لعشرات السنين، وكذلك الذهب والألماس.

وقد عمدت فرنسا إلى تقديم شركة «أريفا» النووية لمشروع تعبيد الطريق من تمبكتو إلى «نونو» بولاية «سيجو» في حوض «تاودني» وكانت شركة «سوناتراك» الجزائرية قد كشفت في عملياتها للتنقيب عن وجود اليورانيوم بجودة عالية في «كيدال» والنفط في «تاودني» و «أدرار» في المنطقة الشرقية، وكذلك اليورانيوم، وهي المنطقة القريبة من حدود دولة النيجر حيث تستعمر شركة أريفا الفرنسية شمالها - استعمارًا اقتصاديًا - ومركزها حقلا «أرلت» و«أكوتا» لليورانيوم في حدود منطقة الطوارق وهي منطقة ذات أهمية استراتيجية واقتصادية كبيرة لفرنسا، حيث تعتمد مفاعلاتها النووية لإنتاج الطاقة الكهربية على اليورانيوم - النيجيري - بنسبة 35 % ويقدر المصدر من عائد الإنتاج المصدَّر فقط من هذه المفاعلات بثلاثة مليارات يورو سنويًا.

وتمثل شركتا «توتال»، و«أريفا» الفرنسيتان عنصرًا مهمًا من عناصر السيطرة الاستعمارية في منطقة الساحل وجنوب الصحراء.

وكان انقلاب «صونوكو» الأخير واحدًا من أشكال الرد التدخلي بين الطرفين، أمريكا وفرنسا، حيث وفرت أمريكا عن طريق موظفة بسفارتها معلومات وخطة تحرك للنقيب «صونوكو» للتخلص من «أمادو توماني توري» خشية إعادة ترشحه في انتخابات الرئاسة ردًا على رفضه الموافقة لأمريكا بإنشاء قاعدة «أفريكوم» في بلاده، ولكن فرنسا مارست ضغوطًا قوية ومؤثرة لتسليم السلطة إلى «ديونكوندا تراوري» الموالي لها والمؤيد لتدخلها العسكري ليتم تنصيبه في إبريل 2011 واختيار شيخ «موديبو ديارا» الموالي لها أيضًا رئيسًا للوزراء أجبره العسكريون بعدها على الاستقالة.

ومع حلول شهر يناير 2013 بدأت ضربات الطائرات الفرنسية على مواقع كتائب

القاعدة التي سرعان ما ذابت مع حبات الرمال في الصحراء ليدخل الجيش المالي والطوارق وتقوم ميليشيا «الجندكوي» بالمذابح التي اعتادتها.

وبالطبع لم يكن لفرنسا أن تتحرك دون أخذ المصلحة الأمريكية في الاعتبار نتيجة المصالح، فكانت المساهمة في الحملة الفرنسية على مالي بالجهود الاستخباراتية وصور المراقبة الجوية.. سابقًا اتفقت مع مالي على مساعدات بـ460 مليون دولار بين عامي 2006 - 2012.

* * *

الخروج من «تمبكتو»

أشعلت آخر سيجارة معي في الصباح على أمل تبكير السائق أحمد بالحضور حسب اتفاقي معه على موعد العودة إلى «باسكنو»، ففي سيارته علبتان من الدخان الذي جلبته معي، عندما تأخر عن موعده سألت عثمان عن سجائر فطلب من صبي الفندق أن يحضرها لي، فغاب خارج الفندق لنصف ساعة ثم عاد بعلبة غريبة حمراء اللون. أخذت منها سيجارتين كان تبغهما رديئًا ولكنه أفضل من العدم.. لعن الله التدخين.. عندما جاء السائق أخبرني أنه لن يعود معي إلى موريتانيا حيث تعطلت سيارته وسيبقى يومين لإصلاحها وأنني سأعود مع محمود ولد محمد قابيل، عندما وصل بي إلى ورشة الإصلاح وجدت محمود ينتظرني أمامها.. سألت أحمد عن السجائر فضحك وهو يشير إلى مساعده آدم.. دخنهما، فهززت السوط في وجه آدم ضاحكًا، فضحك ومثل لي بوضع يده على فمه ونفخ في الهواء تأكيدًا على أنه دخنهما، أشفقت عليه للبؤس الذي استشعرته طوال الرحلة في عينيه خصوصًا عندما كان يشير لي بنفس الإشارة فأمنحه سيجارة، أعطاه أحمد نقودًا فأحضر لي علبة من ذات النوع الرديء الأحمر الذي جاءني به صبي الفندق، ربما لم يعد غيره موجودًا في المدينة، فقد سطا «أنصار الدين» على كل محلات بيع التبغ وأحرقوا الآلاف من علب السجائر.. كان يباع سرًّا وبضعفي سعره الحقيقي.

وانطلقت بنا سيارة محمود، وكان السائق الوحيد الذي اتخذ أخاه «عمر» مساعدًا له.. بالغت في تدخين السجائر بعد أن خرجنا من حدود تمبكتو وبدأت رحلة العذاب من جديد.. هل جننت كي أقطع خمسة آلاف كيلو متر في سفر هو العذاب؟ لماذا أنهك جسدي إلى هذا الحد؟ هل هو الجنون أم هو الانتحار؟! عشرة أيام في السفر ذهابًا وإيابًا يحمل في كل لحظة عذابًا وإجهادًا و«مرمطة» أفقدني الشهية إلا للماء.. هل تستوجب صفحة في جريدة رأسي أو ثمة إجابة عن أسئلة حول هذا العالم سوى الطموح إلى إدراك حدوده والحقيقة، هل تستوجب الحقيقة كل هذا التعب؟ فتجذبني إليها على سيارة متهالكة لعشرة

أيام سفرًا بالبر، لتحديد ملامحها التي كانت خبيئة جبال «تورا بورا» ومغاراتها، فأصبحت الآن خلف لثام طارقي؟! ربما وجدتها عندما سألت طفلًا في الثامنة يتعانق على كتفيه المصحف والبندقية، لماذا أنت هنا؟! فأجابني: إنه الجهاد..! هل يفهم هذا الطفل معنى الجهاد؟! لم أفرح برؤية هذا الطفل ممسكًا ببندقية وهو يقرأ في المصحف، وإن كنت فرحًا بأن رأيت هذا العالم الذي كان مجهولًا - على الأقل - بالنسبة لي. فكل ما قرأته عن هؤلاء المجاهدين في تنظيم القاعدة أو أي تنظيم سلفي جهادي آخر لم يصافح أعيننا كلام عنه إلا بأقلام غربية أوروبية أو أمريكية مسيحية أو يهودية. ثقافتها تختلف عن ثقافتنا في استقبال أخبار وأفعال هؤلاء والتفاعل معها، فالمورد الثقافي مختلف. إذن تلك هي الحقيقة التي تحملت ذلك من أجلها.. حمدت الله أنني جازفت بتحمل هذه المشاق، وإن كنت في رحلة الذهاب قد رغبت في وقوع حادث يرغمني على ترك هذي البلاد الموحشة وعذاب طرقها، وملاحقتي بالخطر، واستبداد القلق بنفسي.. قضيت أيام الرحلة وأنا لا أتذوق غير الألم والحرمان من الأمن والخوف من ضياع الأمل، مما أنهك قواي وأضعف صحتي.. كيف كانت لي هذه الجرأة؟ ساءلت نفسي، فردت سريعًا:آمنت بالله الحافظ وقدره المؤقت وحديث رسوله «انتدب الله لمن خرج في سبيله لا يخرجه إلا إيمان بي وتصديق برسلي أن أرجعه بما نال من أجر أو غنيمة أو أدخله الجنة، ولولا أن أشق على أمتي ما قعدت خلف سرية ولوددت أني أقتل في سبيل الله ثم أحيا ثم أقتل ثم أحيا ثم أقتل»[141].. لأني أفهم أن الجهاد بالكلمة في سبيل توضيح أو إظهار حقائق غابت عن البعض فلزم عليّ لمهنتي التي امتهنت أن أجازف في سبيل الوصول إليها،وحبًّا في العلم، وكانت هذه الرحلة لازمة لاختيار موضوع رسالة الدكتوراه.. آمنت أن هذه عقود الدين «السياسي» إن لم تحمل السنوات القادمة مفاجآت دراماتيكية..

في الطريق عند «نافونكا» توقف محمود ليشتري لنا بضعة كيلوجرامات من اللحم وكيس أرز، جذب انتباهي الطراز المعماري للمسجد الذي توقفنا أمامه، تركت السيارة لالتقاط عدة صور له.. وأمامه رأيت رجلًا مسنًّا أسمر الوجه

يتابعني. خفت أن ينهرني أو على الأقل يسألني ما أفعل؟ كان يتقدم إليَّ بملامح جامدة. وضعت كاميرتي في جيبي استعدادًا للشجار، وإن كانت قواي لن تسعفني حتى في الرد، مد يده ثم انفرجت أساريره مبتسمًا مسلمًا ومرحبًا، رددت عليه السلام وعاجلته بقولي: إن طراز المسجد لفت نظري فأردت أن أحتفظ لدي بصورة له. سألني: أنت مصري؟ لم ينتظر إجابة ومضى يذكر مصر، يثني على المصريين، عرض علينا البقاء في منزله لإكرامنا، شكرته، ومضينا.

ملأت ملامحه ذاكرتي وأسكنت كلماته نفسي، هوَّنت عليَّ اغترابي وإن لم أشعر به.. صادفنا عند حدود المدينة «نافونكا»؛ حاجز أمني لجماعة «أنصار الدين» واستلزم المرور عليه الحصول على إذن خروج من جماعة أنصار الدين بتسجيل اسم سائق السيارة ورقمها ووجهتها بخط يد أحد الجنود على ورقة بيضاء، عندما توقف محمود للحصول عليه ركب مع عمر فوق البضائع شاب أسود من الصنغي وعم عبد الله - رجل من الفُلَّان[142]. لم تمض السيارة كيلومترات في سيرها إلا وفاجأتنا بانفجار إحدى عجلاتها. عاودني الزهق والضجر، تركتهم جميعًا يصلحونها وألقيت جسدي تحت ظل شجرة على جانب من الطريق، حاولت الاستظلال بها من أشعة الشمس الحارقة، وخزني شوكها المتناثر على الأرض وما انغرز في كفيَّ منه، قمتُ واقفًا. أبصرتُ عمر يفرش حصيرته على الجانب الآخر من الطريق تحت شجرة ظلها أكبر.. فعبرت إليه وجلست.. ساعده الشاب الأسمر في نقل اللحم والوعاء والفحم وقام عم عبد اللّه ليجمع الحطب لإشعال الفحم، شاركته بإعطائه ولاعتي، غفوت لدقائق هربًا من السأم وحرارة التوق إلى سرعة العودة إلى أن أيقظني محمود للغداء. سألت عم عبد الله والشاب الأسود عن تصرفات هذه الجماعة الحاكمة الجديدة معهم وصدق المعلومات التي تلقيتها عن نبل سلوك هؤلاء البشر الذين يحكمون باسم الدين.. قال: الإدارة كانت فاسدة ورجال الحكم الماليون مرتشون، أي مواطن كان لا يستطيع إنجاز أي معاملة رسمية إلا بالرشوة، فجميع الموظفين مرتشون فاسدون، أما قطع الطرق فكان فعلًا معتادًا في أطراف المدن وحدود القرى ومسارب الصحاري، وأن «أنصار الدين» عندما

جاءت أعلنت للناس أنهم آمنون في أموالهم وأولادهم وأنفسهم، وهو ما حدث خلال الشهور الأخيرة.. أصبح الناس في أمان!! كنا لا نزال داخل حدود إمارة أنصار الدين!! وربما كان ذلك حقيقة، واصلنا السير إلى «طونكي» اقتربنا من بوابتها التي يحرسها جنود الجماعة، ترك محمود السيارة ليسلم قائدهم تصريح المرور.. نزل عم عبد الله مع الشاب الأسود، فتلك كانت محطتهما ونزلت لأحرك جسدي وقدمي بالمشي إلى حافة النهر. توضأت منه، وأتخيل أن سيدي مختار الكنتي أو القاضي العاقب يومًا ما من مئات السنين توضآ منه، جلست على شاطئه وقد فاض إلى الأرض المنخفضة على شاطئيه.. الوقت قبيل المغرب والعائدون من الحقول بمواشيهم يشبهون أمثالهم من مزارعينا الأطهار في مصر، أسراب المواشي والبشر، الجميع يبتسمون يردون تحية السلام وعيونهم تدعوك للبقاء، ألفة شعرت بها من العيون وقسمات الوجوه، مضينا والنهار قد مضت ساعاته وحل الظلام.. كنا باتجاه «ليرا». طلبت من محمود أن يكون طريق عودتنا عبرها للقاء قادة «حركة تحرير أزواد» فوافق لأنه كان يحمل في سيارته بضائع لأحد تجارها، وطريقها أكثر أمنًا، سرنا لساعتين في الظلام.

النهر فاض وساحت المياه على جانبيه مكونة بركًا ومستنقعات أجبرتنا عدة مرات على تفاديها والدوران حولها، صندوق السيارة بما يحمل من صناديق بضاعة يشق تشابك أشواك الأشجار وعمر فوقها يصك وجهه الريح و«تنغزه» أشواك الشجر، أشفقت عليه من الريح التي تطارد أصابعي في حذائي والشوك يخربش زجاج السيارة. طلبت من محمود أن يدعوه للركوب بجواري.. لم يجب.. فلم أكرر أنانية مني «حفاظًا» على براح المقعد. سيما وقد أخبرني أننا سنضع الرحال بعد قليل، سألته:لماذا؟ نُريد أن ننام على فرش في أي مكان أو حتى فوق حصير على الأرض، ولكن بين جدران أربعة. أو على الأقل تحت خيمة بجوار بناء، فأجابني أن الساعة تخطت الثامنة مساءً، ودخول أي مدينة بعد السابعة هو الانتحار، فلو اقتربنا من بوابتها لانفتحت علينا طاقة من نيران مدافع ورشاشات المسلحين التابعين لحركة «مانيلا» فهم ككل التنظيمات

المسلحة في شمال مالي لا تأمن غائلة تسرب أعدائهم إليهم في الليل و«يحسبون كل صيحة عليهم.هم العدو» فلنحذرهم.. وأوقف السيارة فجأة أمام مخاضة من المياه وبركة كبيرة، أغرَق النهر مسار السيارة وأعماها الليل عن فضح المخاضة وكشف الطريق فعاد محمود ليدور عدة كيلومترات. ثم توقف.. هبط عمر وأنزل «جركن» المياه والفحم ووعاء الطبخ.. كثرة الهوام والناموس، وليل الصحاري القارس أدفأه الأثاي. صخب أصوات البنات وجلبة الصبية ونَعِير الماشية التي حملتها الريح مع لألأة أضواء المصابيح الصغيرة من طينيات وأكواخ قرية بدت حسب الصوت القادم غير بعيدة.. عندما أشعل عمر موقد الغاز الصغير ووضع عليه حلة الطبخ وفيها اللحم والأرز والماء والسمن انتعشتُ.. أن تشتم رائحة الطبخ في ليل المفازات البعيدة مع الجوع والإرهاق رفاهية لا يعادلها الأكل ذاته، حتى ولو كان في أفخم الفنادق.. الطعام الساخن في الصحراء لن ينساه جائعها ولا الفم الذي ذاقه،ولو كان فقط قطعًا من اللحم غير المغسول وأرزًا مختلطًا بحبات الطين قد وُضعا مع الماء في إناء ربما لم يُغسل منذ سنوات بيد أعرقها الشقاء واختلط على جلدها مع شحم السيارة وعرق الوجه، كان طعامنا ممزوجًا بنواعم الرمل وهشيم الأشواك ولكنه شهي ومشبع رغم قلته، رغبتي في الدفء لم توفره لي البطانية التي منحنيها محمود فوق حصيرة بالية فرشها لي بجواره على الأرض، حاولت النوم بجوارهما خوفًا على أنفي من رائحة احتملتها بصعوبة أثناء السير في كابينة السيارة، شجعت نفسي على البرد، هل أكون أقل احتمالا منهما.. نمت أو كدت حتى أفقت على تقافز كتل من اللحم الطري على وجهي - اكتشفت أنها ضفادع - عندما أضأتُ بطارية الهاتف المحمول فزعتُ ونظرتُ - على الضوء - حولي، كان عدد الضفادع بالقدر الذي دفعني للقفز في السيارة وإغلاق نافذتيها، حمدت الله أن فعلت، فقد بدأ الهواء يشتد مزمجرًا وبدأت شدة الريح تهز السيارة... ولكن الإرهاق كان أشد من زمجرة الريح وأصوات أهل القرية التي رأيت أكواخها الطينية عندما أضاء الله بنوره الأرض في الفجر، تمنيت لو كنا ذهبنا إليها ونمنا في أحد بيوتها.. انطلق بنا محمود عابرًا مخاضة النهر بالسيارة

متجهين إلى «ليرا» التي لم يبق عليها سوى أربعين كيلومترًا، تمنيت أن تكون آخر ليلة أبيت فيها معرضًا لريح الصحاري والقفار ولسع ناموس الملاريا الذي سلمني الله منه - خصوصًا أن هذا وقت الخريف وزيادة النهر الذي تسيح مياهه في الأرض البوار بكثير من البرك والمستنقعات.

لم تمض سوى ثلاث ساعات حتى وصلنا إلى أبواب «ليرا».. استقبلنا أول حاجز، هنا ترى الشكل المعتاد للجنود في زيهم العسكري على أكتافهم بنادقهم ورشاشاتهم الحديثة حول آلياتهم العسكرية.. اختلافًا عن عناصر «أنصار الدين» في جلابيبهم المهترئة والزي الأفغاني الذي يرتديه بعضهم. كان محمود يستعد لإخراج 400 سيف «5 دولارات تقريبًا» ليعطيها لجنود الحاجز «تدفع السيارة الصغيرة 400 والكبيرة 1000 سيفا رسم مرور لحركة تحرير أزواد» نظر إليّ الجندي الآخر وسألني: من أين؟ ثم أمرني بالنزول، حاولت سريعًا إخراج «كارت» محمد الأمين ولد أحمد نائب أمين الحركة من الحقيبة.. لكنه تعجل نزولي.. حاولت استمهاله لإخراج «الكارت» أصر على نزولي أولًا، وهو يقلب في جواز سفري، نزلت.. قادني حيث يجلس عدد من الجنود. التفوا حولي، تداخلت أصواتهم وهم جميعًا يوجهون لي أسئلة ويتناوبون النظر في جواز السفر وقراءة الاسم، وأنا أعيد لكل سائل نفس الإجابة بأنني التقيت محمد الأمين في «باسكنو» أعطاني كارت تعريف له وأنه أوصاني بالمرور على «ليرا» للقاء القيادات العسكرية.. كان البعض يتساءل عن محمد الأمين وتساءل آخر أين الكارت؟ فعدتُ إلى السيارة.. أحضرته كان أغلبهم لا يتحدث العربية.

عدتُ إليهم بالكارت، تناقلوه بين أيديهم،سألوني :ماذا تريد؟ قلت: «العباس أج أنتالا»، أو الرائد «أكلي ماني»، أشاروا إلى جندي أسمر يضع نظارة سوداء على عينيه فقام، حدثوه بطارقية لم أفهمها، فأشار لي أن أسير معه خطوات إلى دراجة نارية كانت له، أردفني خلفه عليها لمسافة بسيطة حتى أحد المباني الذي رفع عليه علم الحركة وجلس أمامه عدد من الجنود، أغلبهم لا يتحدثون العربية ولكنهم فهموا لهجتي.

انبرى من بينهم شاب في آخر العقد الثالث من عمره، عرفني على اسمه «حسن» وهو يتقدم إليّ مخاطبًا بلهجة مصرية سألته: أين تعلمتها؟ قال تعلمتها في ليبيا،حيث كنت أعيش وسط مصريين، أخبرني عن أسماء عدد منهم والمهن التي عملوا فيها، ثم سألني في براءة: ألا تعرفهم؟ فأوضحت له ضخامة مصر، وكثرة عدد السكان فيها مما يصعب على أي مواطن فيها معرفة إلا من كان جارًا أو قريبًا، فتعجب بقوله سبحان الله.. حدثته عن هدفي فأخبرني أن القادة العسكريين سيحضرون، حالما نتناول الشاي الذي جاء به أحدهم بعد دقائق، ظهرت علب السجائر، وشربنا الدخان.. شعرت بأنني أدين لهؤلاء براحة نفسية واطمئنان، حيث لم أشعر بأني وحيد بينهم، ولا بعيد عن موطني الذي تفصلني عنه مسيرة عدة أيام، بعد أن كنت أسير بين مناطق مجهولة، وأحيانًا معادية تشعرني بالتهديد.. هنا لم أشعر بأن حياتي مهددة.

حضر الرائد «أكلي ماني» الطارقي، الضابط المنشق عن الجيش المالي والعباس أنتالا الذي أخبرني علي إبراهيم حسن ابن شقيق محمد ناجم بعد أن تآلف معي سريعًا أنه يحمل «حِجابًا» مضادًّا للرصاص صنعه له أحد السحرة أنجاه من زخات أطلقت عليه فارتدت الرصاصات على الأرض لم تخترق جسده، وطلب عليّ بعد أن أنهيت لقائي معهم أن نصطحبه مع جندي مصاب في سيارتنا إلى معسكر اللاجئين، كانت الساعات التي قضيتها مع قادة وعناصر"أمانيلا"حركة تحرير أزواد وساعات السفر برفقة علي حسن كافية لمعرفة بعض ما غمض عليّ من حياة الطوارق وسياسة التلفيق والتزوير في كل ما يتعلق بإنسان الصحراء الطارقي.

حدثني عن المعارك المخيفة الغادرة التي هاجمت أنصار الدين فيها مانيلا يوم 23 يونية 2012 بعد انهيار تحالفهما الهش، وقامت بتدمير سبعة مزارات لأضرحة أولياء من أصل 16 مزارًا في تمبكتو وهدم باب القيامة، حمدتُ الله أن «التوحيد والجهاد» في «جاوا» لم يهدموا قبر «أسكيا محمد» وحزنت على هذا الفكر التكفيري.

رغم أن الإسلام أكبر من هذا الفهم الضيق والتفسير المتوتر القاصر، وضد تسامح شريعته ذاتها، نقضوا اتفاقًا مع «مانيلا» على غير عهد.. هم لا عهد لهم.!!

* * *

توقٌ للعودة إلى «باسكنو»

كنت بأمس الحاجة للراحة حتى أسترد هدوء نفسي وأستجمع قواها، وأنزع عن روحي لباس اليأس والضجر.. وأسترد توازني العقلي.. بعيدًا عن رعونة العلاقات المتشابكة المعقدة لهؤلاء المستريبين في كل شيء، هنا بدأت طرح الملل عن نفسي، ولكني رغبتُ في استرداد حيويتي برؤية «باسكنو» وبيت عبد الله ولد سيدي، سألت محمود أن نرحل فتجهز وقام معنا عليٌ وأشار لجنوده أن يضعوا زميلهم المصاب في صندوق السيارة فوضعوه وصعد بعضهم معه، وبدأنا المسير وأنا أمنِّي النفس بقرب المسافة وبلوغنا «باسكنو» سريعًا، ولكن الوقت طال، والسيارة تنهب الأرض حثيثًا.

بدأ الضجر يتملكني، والإرهاق يُخرس لساني عن الحديث، فقط أتابع المدى، العشب المنتشر في الصحراء الذي جعل عليًّا وسائقنا محمود ينبهانني إلى إطفاء السجائر تحت أقدامنا في السيارة وعدم إلقاء الأعقاب المشتعلة على الأرض، وهي النصيحة نفسها التي سمعتها من كثيرين طوال رحلتي الذهاب والعودة حتى لا تشتعل النيران في العشب بفعل الريح، ولأن حياة هؤلاء تقوم على الحيوان الذي يتغذى من هذا العشب، فهم يحافظون عليه.

كنت أتساءل كل فترة: هل اقتربنا، فكان جوابه يهون عليّ رغم إدراكي عدم صحة الجواب، آلام الجسد في الظهر والرقبة والذراعين صارت فوق احتمالي، ولكنني كنت أردد «لا يكلف الله نفسًا إلا وسعها» فأهدأ قليلًا، استعنت على شقاء العودة وآلام الجسد والروح بالاستغفار، وقراءة القرآن والتسبيح، راجعت سورًا أحفظها واستزدت، تذكرت حالي وزهقي فوق سفينة المواشي أثناء سفري للصومال، وقد بلغت فيها مثل هذا الحد من الألم، ولكن هنا الزهق أكبر والألم أعظم. هناك دوار البحر وعدم وجود «حَمَّام» على ظهر السفينة والجو خانق وارتفاع نسبة الرطوبة، لكني هنا كأنني في «دوار الجسد» أو ما يشبه، أشعر بالاختناق رغم الريح والبرد، لا أنا في حالة دوار كاملة ولا وعي واضح إلا

قليلًا، فجسدي من فرط الألم لم أعد أشعر منه إلا بالعين التي تنظر فقط، والروح التي تراوغ للانفلات.

قبل معسكر «إمبرّه» بأكثر من 15كم توقف محمود، سيعرج عليه ليطرح من معه، طلبت أن أنتظره مستلقيًا على الأرض منفردًا بجسدي الذي طرحته تحت ظل شجرة، فرحتي بها نبهت حواسي، حاولت الوقوف فاكتشفت ضعفي الشديد، وعندما ساعدني عمر على النهوض ليجرني إلى خيمتهم القريبة كنت وكأنني أسير دهرًا طويلًا حتى وصلنا إلى الخيمة على بعد لا يزيد على 20 مترًا، كانت أمه وشقيقته تجلسان، ألقيت عليهما سلامًا واستلقيت على الحصير بالخيمة، لم أقو على مد يدي لجذب مخدة أضع رأسي عليها، ولاحظت أخته فأحضرتها لي، لم أستطع النطق بالشكر فهززت رأسي وابتسمتُ ببرود شاكرًا، ثم انشغلت هي بعمل الشاي والأم بالطبخ، كلما نعست عيناي أيقظتني الفتاة لشرب رشفتين من الشاي الأخضر. ولا أدري لماذا كانت تطاوعها نفسي فأفتح عيني وأمد يدي، ربما تعودت مثلهم، فطوال الرحلة من «نواكشوط» وحتى عودتنا من «تمبكتو» كانوا نيامًا يستيقظون لارتشاف الشاي ثم معاودة النوم، وهكذا، فعل محمود ذلك أمس عندما نام بجوار السيارة بعد العشاء، كلما صب عمر الشاي مدَّ له يده به وناداه فيستيقظ ليرتشف منه ثم ينام،أيقظني محمود لنكمل السير، استمهلته حتى أستريح، لست بقادر على التحرك، وجدتني مستمتعًا بفرد جسدي وإراحته وتلقي هواءٍ منعشٍ نافذٍ بين جانبي الخيمة. أسرة محمود كعديد من الأسر الطارقية والعربية التي استوطنت «باسكنو» وأطراف الحدود بداية التسعينيات بعد المجازر التي قام بها الجيش المالي بعد تمرد عامي 90، 1992.

استرحت ما استطعت، وحتى لا أستسلم للنوم وأنا تواق للعودة استجمعت بعض قوتي ونهضت طالبًا منه أن يتحرك بنا إلى المدينة، ساعة أخرى قطعنا فيها ما يزيد على 20 كم قليلًا حتى وصلنا، سألته إن كان يعرف منزل عبد الله ولد سيدي حننا فأجاب: ومن لا يعرفه هنا ! قلت: أوصلني إليه.. فأوصلني، لم

يكن الرجل فيه، استقبلني «بوبو»، صحبني إلى غرفتي التي استضافوني فيها، لم أكد أنام حتى حضر عبد الله، مكثنا نتابع الأخبار في التلفاز، وأحضر لنا «بوبو» العشاء «كسكسي» وأحضر معه شيئًا آخر لا أدري ما هو، لونه داكن، ما إن ذقته وبحذر حتى كدت أتقيأ، فاكتفيت بحليب الإبل وفضلت البقاء بجوعي طوال الليل، استيقظت من النوم على حركة ضفادع وكأنها جاءت معي في حقيبتي. طاردتها حتى أخرجتها من حجرتي وأحكمت غلق الباب، والنوافذ خوفًا من قفز إحداها منها لتسقط على وجهي.

انطلقنا في الصباح صوب مكتب الحاكم للحصول على إذن دخول المعسكر والاتفاق على لقاء مسئولي مفوضية الأمم المتحدة لشئون اللاجئين عند المغرب، ولقضاء هذا الوقت في عمل هاتفت «محمد مولود رمضان» مسئول الجبهة العربية للتحرير، الذي عرفني إليه عبد الله في منزل الأمين صالح المسئول العسكري، وعلي إدريس الضابط السابق في كتيبة المغاوير الليبية، ومسئول الحركة في أوروبا، كان اللقاء حميميًا جدًّا وودودًا ذكرني بعرب «لارنب» وبأصدقائي في حلب.. أمضيتُ نهاري معهم حتى انقضى، في المساء كنتُ في مبنى مفوضية اللاجئين أتفق مع مسئوليها على زيارة المخيم في الصباح..

***

مدينة الله.. مذابح ونكبات متكررة

طلب أسكيا الحاج محمد توري ملك الصنغي من الإمام السيوطي أن يستخير له عن مصير تمبكتو مستقبلًا؛ فكان رد السيوطي: «أخوف ما يخاف عليها أن يكون خرابها بالجوع»، وهو ما حدث في العام الأخير من حكم حفيده «أسكيا داود» 1582م أن اجتاحت تمبكتو الأوبئة والمجاعات ومات فيها خلق عظيم[143]، وزاد خرابها الغزو السعدي المراكشي وهي كحال «الملبوس» بالعشق؛ تارة تتوهج فتبدو في تألقها عروسًا في أبهى زينة، وتارة كعجوز ثكلى أنهكها الحزن خصوصًا على العلماء الذين ما إن تصادف المدينة غزوًا أو احتلالًا إلا ويكونون هم وقود احتراقها وتدميرها، وأول من يتعرضون للقتل.

وكان سُني علي ملك مالي - كما ذكر السعدي - فاجرًا ظالمًا فاسقًا، ومن أخلاقه التلاعب بدينه، يترك الصلوات الخمس إلى الليل، أو الغد، ثم يومئ قاعدًا مرارًا متكررة ذاكرًا أسماءها «الصلوات»، ثم يسلم تسليمة واحدة، ويقول: أنتن تعرفن بعضكن بعضًا فاقتسمن، ومن أخلاقه أن يأمر بقتل إنسان ولو أعز الناس عنده بلا سبب، ثم يندم.

ولذا ليس من المستغرب عليه أن يدمر «مدينة الله»، ويقتل من لم يستطع الفرار من علمائها وفقهائها، ويسجن بعضهم، ويأمر بإحضار ثلاثين من بناتهم العذارى، ليتخذهن جواري، وألا يأتينه إلا سيرًا على الأقدام.

وكن - كما يذكر السعدي - ما برزن من خدورهن قط، أرسل خدامه وعبيده يسوقوهن إليه في «مرسى كابارا» على نهر النيجر، ولكن البنات لم يستطعن السير إلا نصف المسافة، فوصلن إلى موضع عجزن عنده عن المشي، فبعث إليه خدامه بالخبر، فأمر بقتلهن، وكان عمر بن «تنبكت كي» محمد نض - سلطان تمبكتو بعد وفاة والده وتوليه أمرها قد أعلن عدم ولائها - والذي كان عليه والده - السني علي فما كان منه إلا أن دخلها «873هـ/1468م» فأعمل فيها السيف فقتل منها خلقًا كثيرًا وحرقها وهدم بيوتها، فأحضر «أكل» سلطان

الطوارق ألف جمل رحّل عليها فقهاء «سنكري» إلى بيير - ولاتة - قائلا:إن شأنهم عليه هو الأهم وظل سُني علي لعامين يعمل القتل والإذلال في أهلها، ومنهم أولاد القاضي، وسبى من نسائها الكثير.

وكانت هذه الحملة من أبشع ما نكبت به تمبكتو، ولعلها كانت القدوة لما ستفعل ميليشيا «الجندكوي» وجنود الجيش المالي بعد ما يقرب من خمسمائة عام، ولم لا فإن قيل للجندكوي أنتم مسلمون ونحن مسلمون؛ فالرد أن المسلمين من بني جلدتكم فعلوها أبشع منا قبلًا.

بدأت الحملة مسيرها في منتصف أكتوبر 1590م مرورًا بمناجم الملح في تغازة وتاودني بعد أن مروا بتندوف، وهو نفس مسار الطائرات الفرنسية التي قصفت «كتائب القاعدة» في نفس المواقع بالمدينة وما حولها «يناير 2013» وإن كانت حملة المنصور قضت في مسيرها 135 يومًا؛ وصلت في 28 فبراير 1591 إلى تمبكتـو التـي كـانت تعـاني المجاعـة والجفاف، وعلـى رأسـها جـوادر باشا «الإسباني» وكـان معظـم حملـة البنـادق ورجـال المدفعية تقريبًا من الأسرى المسيحيين الذين اعتنقوا الإسلام لذلك لم يفهموا ما صرخ به التمبكتيون.

تمامًا مثلما كانت قبل الضربات الفرنسية فقد توقفت الحياة تقريبًا، وشهدت المدينة تراجعًا حادًّا في عدد من السلع الرئيسية مثل الأرز والزيت والدقيق وغيرها حتى ندرت تمامًا قبيل الضربات.

وانقطعت الكهرباء عن أغلب أحيائها العشرة، بعد تفجير الإسلامويين عددًا من المحولات الكهربائية، والتي كانت تعاني نقصًا حادًّا قبلها، فقد كان مرور التيار الكهربائي علـى الأحياء بالتناوب؛ فكل ليلة الحي الذي يصيبه دور «الإنارة» يحظى بست ساعات فقط.

وأصبحت «تمبكتو» مدينة جافة خربة، لا مياه، ولا كهرباء فور رحيل جماعة «أنصار الدين» التي دمرت عند هروبها عددًا من شبكات وغرف البنية الأساسية، وكذلك أبراج الهواتف المحمولة لمنع السكان من توفير معلومات عنهم وهم لا

حاجة لهم بالهواتف حيث كانوا يعتمدون في التواصل فيما بينهم على أجهزة اللاسلكي.

وقد تراجع سكان تمبكتو من 45 ألفًا إلى أقل من النصف وأصبح الزنوج الأكثرية، وكان شعبها رافضًا بنسبة كبيرة لفكرة سيطرة التنظيمات الإسلامية.

أما سكان «جاوا» فإن أغلبهم صنغيون متأكدون أن الجيوش المالية إذا دخلت فلن تعصف بهم أو تعمل فيهم مجازر كما تفعل في العرب أو على الأقل تتعنت معهم، كما فعل تنظيم القاعدة فبقوا في بيوتهم وهرب ما يقرب من 70 % من الطوارق والعرب من جاوا وتمبكتو إلى المخيمات في بوركينا والجزائر وموريتانيا وإن فرَّ 10 % فقط من الصنغي إلى جنوب مالي حيث العنصر الزنجي.

وهكذا فإن قصف طائرات فرنسا كان صورة جديدة من حملة المنصور الذهبي[144].

عندما وصل إليها قام قائدها محمود بن زرقون باتخاذ إجراءات بالغة القسوة ردًّا على ثورة الأهالي فقام بحملة إعدامات سريعة وتجريد الكثير من أعيان المدينة من ثرواتهم، وأصدر إعلانًا بعزمه على تفتيش كل بيوت تمبكتو ونفذ عزمه وأعمل فيها النهب والسلب بل وزاد بكشف عورات الحرائر وفعل الفواحش بهن[145]، وهو نفس ما فعلته ميليشيات «جندكوي» و«جندويز» وجنود الجيش النظامي، فعندما دخل جيش الرماة بقيادة محمود باشا إلى تمبكتو، نكل بعائلة الشريف الصقلي «من العباسيين»، ورحَّل أغلب العلماء إلى مراكش، وكانت آخر قافلة لهم تلك التي حملت فيها أحمد بابا التمبكتي في 27 إبريل 1594 م.

وعندما سقطت تمبكتو في قبضة الجيش المغربي لم يستطع أهلها فرارًا من وحشيته وغدره بالجميع؛ فأخذ جند السعديين ينهبون ويسلبون، حتى القتلى لم تسلم جثثهم من سلب ما عليهم من حُلي ذهبية.

وأشاعوا الفوضى وأجبروا من أسروهم على حمل الطين من الصباح حتى المساء، بعد معركة غير متكافئة وضارية، ورغم ذلك ثبت التمبكتيون للدفاع عن بلدهم ولكن أسلحة الجيش السعدي الحديثة كانت أقوى من رماحهم وسيوفهم.. ونادى العلماء والفقهاء «إننا أهل علم وفقه وليس لنا صلة بالحرب»[146].. ونادى العامة نحن مسلمون نحن من أهلكم، ولم ينفع الجميع ذلك ولم تنفعهم استرحاماتهم حتى أحدثوا ما عرف بـ«مذبحة العلماء» الذين اجتمعوا في مسجد «سنكري» وجمعوا أهل المدينة، وأغلقوه عليهم وشرعوا يقرءون القرآن والبخاري ومسلم، ويدعون الله للنجاة.. ولكن الرماة من جيش المنصور السعدي حاصروهم أمام الأبواب وعلى الأسطح ثم أعملوا فيهم المذبحة.

قام خليفة جوادر الباشا محمود بن زرقون بدخول تمبكتو وشنق أعضاء البيت الملكي، ولقيت تمبكتو التي ثارت ضد الغزاة عقابًا قاسيًا حيث يتم استئصال أيدي وأذرع اثنين من أهم الشخصيات بها، وتركا هكذا حتى ماتا وذُبح كثير من أهل العلم والدين والمرابطين الذين كانوا مثار فخر وإعزاز لمدينة الأسرار وسُجن بعضهم ونُفي آخرون إلى مراكش.

وإن تعرض الطوارق لذلك حاليًا فقد شارك بعضهم قديمًا في نهبها يقول السعدي: «وبعد أن غادرها محمود بن زرقون لم تسلم من نهب الطوارق الذين هاجموها فأرسل إليها من قواده مصطفى التركي فقتل أهل تمبكتو 76 من جيشه «الرماة» فعزم «زرقون» على إمداد مصطفى وأرسل مددًا على رأسه القائد «مامي» ومعه 700 رامٍ فسأله «مامي» قبل أن يتحرك عم يفعل بأهلها؟ فقال ابن زرقون له : إذا وصلت فأعمل فيهم السبيل سبعة أيام، وكأن «مدينة الله» لم تكتف بما حدث ولكن الله قيض لها هذا القائد ليخبر عنها الخبر الصحيح وكأنه أعلم الناس بها فقال: «بلد تنبكت لا يوسع للسبيل ساعة، وأهلها ألطف الناس، وأرقهم قلبًا» وإن قتلت منهم ثلاثة يموت سبعة بالفزع والروع[147].

وقبل أن يصل إليها كان أهلها قد تصالحوا مع القائد مصطفى وانقطع القتال في 12 ربيع أول 1011هـ «ليلة مولد المصطفى المختار ﷺ» ولكن أهلها هربوا خوفًا من الفناء، ويحكي السعدي «كم من أهلها خرجوا منها وتركوا أموالهم وأولادهم وأزواجهم وما حملوا من ديارهم حتى العصي وأصبح من فيها لم يفتح أحد منهم بابه».

وهو ما حدث مؤخرًا فور دخول الجيش الفرنسي جارًّا في ذيله الجيش المالي بدأت عمليات الإبادة والتصفية والقتل، أما الاعتقالات فغالبًا ما تنتهي بالقتل حتى ولو كان المعتقل مسنًّا أو شيخًا.

نفس ما فعل جيش السعدي، ولسلطان العلماء ومحبتهم قام الناس أو من بقي منهم بالسلاح والسهام وغيرها وصعدوا بها أعلى سطح جامع «سنكري» عندما رأوا القائد «مامي» يتجه إلى دار قاضيها «محمد بغيغ»، وكانت لهم تجربة مع زرقون عندما أراد أن يكتب للسلطان بشهادة أعيان المدينة أنه ما قبض على الفقهاء إلا لما في نفوسهم من عداوة للسلطان، رفض «بغيغ» الشهادة بذلك متعوذًا بالله، فأغلظ عليه القائد وهدده بقطع يد من لا يوقع فتبسم القاضي قائلًا: قطع اليد أفضل، وكان من شهداء الغزو السعدي من أعيان الفقهاء أحمد معيا أحد علماء سنكري البارزين ومؤلفيها المعروفين الذي تخصص في الشرعيات وعلوم الكلام[148].

ويذكر أحمد بابا التمبكتي أن مكتبته كانت تضم ألفًا ومائتي مجلد في حين أنها كانت من أصغر مكتبات تمبكتو.. وقد شهدت دمارًا وإحراقًا.

ولم يقتصر النهب والتدمير على المكتبات فقط ولكنه امتد إلى كل صور الحياة الفقهية والعلمية في تمبكتو بقتل أو قهر أو ترويع العلماء وترحيل بعضهم إلى مراكش، ونزوح آخرين هربًا إلى جنوب الصحراء في كتل بشرية، كما هرب أحفادهم مؤخرًا إلى المخيمات بعد دخول تنظيم القاعدة ثم دخول الفرنسيين والجندكوي، مما أحدث فراغًا كبيرًا في حياة تمبكتو العلمية بنهاية النشاطات

التعليمية والثقافية فيها إثر انهيار المجتمع الأهلي؛ فانهارت نهضتها الفكرية.

وكان لسقوط تمبكتو وانتهاء دولة «الأساكي» الصنغي أثره الكبير حيث يؤرخ سقوطها لنهاية العصر الصنهاجي الثاني[149]، والذي كان أثره قويًا على أحوال الصحراء بفعل انهيار المؤسسات الدينية والثقافية والاقتصادية شمال نهر النيجر في «تمبكتو» وهجرة العلماء غربًا، وصعود الإمارات الوثنية تزامنًا مع الوصول الأوروبي إلى الساحل الإفريقي وتشتت مسالك القوافل غربًا وشرقًا بانحرافها عن مسيرها الذي عرفته سواء للحج أو التجارة، نتيجة الارتباط بحاضرة جغرافية جديدة هي «مراكش»، وسيادتها على الصحراء.

وإن كان قد أفسح المجال لما أسماه المؤرخون بالعصر «الحساني» بعد تأكيد سيطرة بني حسان النهائية على هذا الجزء من العالم نتيجة سيطرتهم على عشائر «إدوعيش الصنهاجية»[150] إلى الدرجة العليا في سلم الطبقات الاجتماعية لكونهم المحاربين أهل الشوكة، وثبت الطلبة أو أهل العلم كطبقة ثانية في السلم الاجتماعي كـ«زوايا» أو ما عرفوا به، وانحصرت فيهم وظائف القضاء والإفتاء والإمامة والتدريس وتنظيم قوافل الحج.

وبهذه الحملة قضى المغاربة على النخبة المستنيرة في «تمبكتو» بتفريغ المدينة من العلماء والحفاظ، إما بجرهم قسرًا إلى «مراكش» كما فعل الغزاة العثمانيون في مصر وسوريا[151] بترحيل العلماء والصناع والحرفيين المهرة إلى إستانبول «إسلام بول» بعد الاستيلاء على كل الثروات الذهبية و«آثار الرسول ﷺ» كما استولى السعديون على مناجم الملح في تغازة وتاودني ومصادر الذهب ورحّلوا العلماء إلى مراكش.

وبعدما اضمحل حكم المغاربة كان أول من استغل الطوارق الصراع بين رؤساء المناطق؛ فاستولوا على تمبكتو عام 1800م بعد استيلائهم على جاوا 1770م.

وبعد 15 عامًا شن عليهم الشيخ أحمدو حربًا واستولى على تمبكتو، وأسس دويلة في «ماسينا» أو «نوكونا» وحمل اسم «أحمد لوبو» وادعى أنه من نسل

الرسول ﷺ.

وكشفت مصادر عُثر عليها في تمبكتو في كتاب نشره أحد رجال الدين التابعين لأحمدو مؤكدًا... لكل الشعوب التي تعتنق الإسلام خصوصًا في غرب إفريقيا والمغاربة وقريبًا من بحر الملح العظيم أن الخليفة الثاني عشر الذي يولد بعده المهدي المنتظر هو أمير المؤمنين أحمدو بن محمد الذي جاء لإعادة الشريعة الإسلامية وحكم تمبكتو.

وهكذا ظل المراكشيون في تمبكتو وكأنهم يجلسون فوق برميل من البارود، فلم تهدأ المقاومة سواء من الطوارق أو العرب حتى جاء عام 1791م وكان الرماة هم حكام تمبكتو، وبدأت مشاكلهم مع الشيخ «أحمد لوبو» مؤسس خلافة ماسينا إلى أن استطاع - بعد مناوشات - مد نفوذه شمالًا - عام 1825م - إلى تمبكتو، وكانت وقتها تحت السيطرة الفعلية لقبيلة كنته العربية.

وفي عام خمسة وثلاثين وثلاثمائة وألف هلكت إبل «أزواد» هلاكًا شديدًا بمرض «كعوان» فسُمي كعوان وهو المرض الذي يصيب الإبل ويقعدها، وعصف الجفاف بأسس الحياة الصحراوية في غرب إفريقيا في سبعينيات القرن الماضي، وكان من أشد أزمات الجفاف عنفًا على التمبكتيين ما حدث بين عامي 1970و1997 وسبب موجة من التصحر.

قبلها عانت القهر والإذلال والتعذيب على يد حكام ألهبت قسوتهم ظهور الثوار، ومزقت أجسادهم، وأسالت منها الدماء، وجمعت بينهم جميعًا غلظة الأكباد وقسوة القلوب، وإن لم يكن لبعضهم فضل الرحمة، وقليل من الشفقة على مسجونيهم، فإن لهم سبق ابتداع سبل جديدة أشد تنكيلًا وضراوة مع الضعفاء من أبناء أزواد، وهؤلاء حكام مالي «الزنوج» وضباطهم العنصريون الذين كرهوا وجود الجنس الأبيض فيما ظنوا أنها بلادهم مثل: «دبي سيلاسي جارا» الذي شكا له وفد من طوارق وعرب «تمبكتو» و«كيدال» أثناء مشاركتهم استقباله في «منكا» من اغتصاب ممتلكاتهم الزراعية ومواشيهم.. فقال لهم: يا

معشر البربر ارجعوا إلى بلادكم المغرب الأقصى، واخرجوا من بلادنا، إننا لا نقبلكم فيها.

ولأن الطوارق سكان الأرض الأصليون، ولكونهم الأغلبية في كيدال وسلسلة جبال «تغرغر» فدائمًا ما كانت حركات التمرد تنشأ من هذه المنطقة كما حدث في يناير 1963 عندما انطلقت أولى تمردات الطوارق من شمال «أدرار وكيدال» ولذلك فقد عبر قائد سرب المظليين في الجيش المالي أثناء مشاركته في إخماده بقوله «إبادة الطوارق هي الحل».

هذه العنصرية انتهجها حكام «باماكو» ضد العرب والطوارق وتبدت بجلاء في فنون التعذيب التي مارسوها لإخماد ثوراتهم التي واصلت كتيبة النقيب «بازاني» مطاردتهم في جبال أدرار «إيفوقاص» وجبال المناطق الحدودية مع الجزائر والنيجر، ولعجزه عن إتمام مهمته عمد إلى التخلص من زعماء الثوار، ولم تسلم الزعامات الروحية مثل: سيدي حيبل «حبيب الله» الكنتي[152] رجل الدين الضرير الذي - قيل - إنه يمارس السحر - بالقرآن - لتحصين الثوار وحمايتهم من الوقوع في أيدي رجال الديكتاتور المالي «موديبو كيتا»، فتوجه النقيب «بازاني» بأشد رجاله بأسًا وحاصر «حلة» سيدي «حيبل» واقتادوه مقيدًا ومنع الشيخ أولاده ومريديه من التصدي لقوة «بازاني» الذي احتجزه في مكان ضيق إلى أن جاء الأمر بإعدامه من «باماكو» فنقله في يوم مشمس حار في صيف عام 1963 إلى ساحة كيدال «الميدان الرئيسي» ونصب مشنقته ووضع حبلها في عنق الشيخ أمام الناس بعد أن أمرهم «بازاني» بالتجمع ليشهدوا قتل الرجل بزخات من مدفع رشاش عيار 12.7 لينتفض جسد الشيخ النحيل ويسقط على الأرض، ويأمر «بازاني» الجمهور بالتصفيق، فيصفقون ولكن تطلق النساء الزغاريد.

وإطلاق يد أي حاكم - حتى ولو كان ضابطًا صغيرًا يحكم مركزًا صغيرًا، أو سجنًا صغيرًا - يحيله إلى ديكتاتور متألّه، ولم لا، فهو الحاكم الآمر في فضائه فلا أحد ينازعه سلطانًا أو يرد عليه أمرًا، مثل الملازم «كانتاو» الذي استبدل

بالنقيب «بازاني» الذي عُزِل وحكم عليه بالسجن قبيل نهاية عام 1969، وقبله سقط موديبوكيتا بانقلاب في 19نوفمبر 1968 وأرسله موسى تراوري قائد الانقلاب الجديد إلى «كيدال» ليعيش في ظروف قاسية وإن كانت من بقايا ضحاياه وهو محمد أعلى أج الطاهر الأنصاري الذي عرفه فقال له محمد:هل تذكرني..؟ قال «كيتا»: لا، قال محمد: أنا محمد أعلى الطاهر الذي كان يعطيك البسكويت وغيرها وأنت تلميذ عندما تطلب ما في يدي!!.. لذا لم يكن غريبًا أن يتخذ لنفسه لقبًا إمبراطوريًّا «موروتابا»[153] يسجد له السجناء في «تاوْدنِّي» يُقبِّلون حذاءه فيدوس رقابهم به حتى تنغمس في التراب، يجبرهم على استخراج قوالب الملح من «سبخة تاودني» الغنية بأجود وأنقى أنواع الملح على الأرض، في حصائر ممتدة تحت الرمال، وهو عمل صعب لا يجيده إلا عمال محترفون دُربوا مع آبائهم الذين توارثوا المهنة.

فأجبر «كانتاو» سجناءه من ثوار الطوارق على استخراجها واختار لهم مكانًا للعمل يبعد عن السجن اثني عشر كيلو مترًا يقطعونها على أقدامهم الحافية فوق رمال الصحراء الساخنة التي تصل في الصيف إلى 50 درجة، فتلهبها وهي مثقلة بسلاسل حديدية مع سوقهم ضربًا بالسياط في الروحة والرجعة، ولم يكن للمريض منهم الحق في راحة البقاء في زنزانته، بل يحمله رفاقه إلى «مقلع الملح»، حتى ولو لم يقدر على مشاركتهم اقتلاع الملح، إنما يطرحونه تحت لهيب الشمس حتى ينتهي العمل قبل المغيب.

ولإثبات إخلاص «كانتاو» لرؤسائه في التنكيل بالثوار قرر أن يعدم منهم من يرفض الاعتراف بأسماء رفاقهم الذين لم يُقبض عليهم، ففرض على أحد جنوده الادعاء زورًا على سجناء بأنهم حاولوا رشوته للهرب، وساقهم إلى ساحة الإعدام مقيدين بالسلاسل.. بعد أن رفضوا الاعتراف فيكون عقابهم الضرب بأعقاب البنادق والعصي الغليظة ليتقيئوا دمًا حتى يموتوا.

وكانت قمة العذاب للسجناء عملهم الشاق في استخراج الملح تحت لهيب الشمس وسياط الجلادين وقلة الغذاء المقدم لهم، والذي لا يزيد على حفين من

حب الدُّخن الأحمر الغليظ، والذي يستخدم كعلف للماشية، يقدم لهم نصف مهروس غير مكتمل التسوية مخلوطًا بالتراب والحصى[154]، بالكاد يقيم أودهم وأصلابهم التي هزلت بمضي الوقت ورغم ذلك كان «كانتاو» يجبرهم بقسوته على استخراج «عدائل الملح» التي يهديها إلى سادته في «تمبكتو» و«باماكو» تحت عنوان «ما استخرجه الخونة من تاوْدنِّي»، ولأنه لا يفعل شيئًا سوى إذاقتهم العذاب بقسوة الجلادين فكان لديه وقت ليتفنن في إذلالهم واستغلالهم فقرر بناء حصن في «تاودني» على مساحة 2500 متر، أمرهم بحفر بئر لاستخراج الماء لصنع الطوب بأدوات بُدائية، وقدَّر إنتاج كل واحد منهم بـ 100 طوبة يوميًا.. وبعد أن صنعوا الآلاف منها ساقهم لبنائه، وهم لا يعرفون هذه المهنة لكنه الجبر والتعذيب، وكلما وقع جدار زادت قسوته عليهم ليعيدوا بناءه ومن مات منهم من شدة التعذيب كان"كانتاو» يرفض دفنه في مقبرة سبخة «تاودني» لأنه يرى أن جثث السجناء لا تستحق إلا الرمي لوحوش الصحراء.. وكان يتباهى بأنه أقام حصنًا يضارع الأهرامات التي بناها فراعنة مصر، لكن الريح التي تحمل عواصف الرمل كانت في ليالي البرد، كأنها أنين المعذبين المسفوحة دماؤهم المعجونة بطوب الحصن، وصراخًا لقتلى الاضطهاد العنصري حول هذا المركز، وتناوب على قيادته عدد من الضباط وصف الضباط ممن اشتهروا بالقسوة والتفنن في طرق التعذيب وسفك دماء الثوار، ومن تبلغ قيادته العليا أن به رحمة أو شفقة بهم يكون عقابه العزل أو الحرمان من الترقيات.

وأذاق «كانتاو» سلفه النقيب «بازاني» بعضًا مما أذاق الثوار بعد أن انتهى مصيره في نفس السجن بعد تغيير النظام ليصبح بين السجناء مجرد جثة متحركة يزحف على يديه وركبتيه من الوهن وهو يجمع «بعر» الإبل حول البئر بغرض الطهي فيشي به «كانتاو» للجندي الطارقي سالم أج سالم لأنه هو قاتل أخيه فيقتله سالم قتلة شنيعة، ورغم مرور عقود ظل تعذيب الطوارق وإذلالهم عادة للجيش المالي خصوصًا بعد إخماد كل تمرد تتم مطاردة الطوارق ومعهم العرب بالإيذاء والقتل بغرض التطهير العرقي والإرهاب، وبعد الضربات

الفرنسية لم تمض ساعات على هرب «المجاهدين»!! إلا ودخل جنود الجيش المالي إلى «تمبكتو» و«جاوا» ليمارسوا «العادة» العلنية المتكررة، ومنها السرقات.

وأُهْدِيَ منها جملٌ للرئيس الفرنسي هولاند عند دخوله «تمبكتو» وكان هذا الجمل فضيحة تندر بها الجميع في «شمال مالي» ومثّلت عنوانًا لمأساة «الأزواديين».. فهذا الجملُ سُرق من قطيع تاجر عربي من أبناء «تمبكتو» هرب تاركًا داره وبعيره خوفا من القتل الذي اعتاده الجيش المالي ضد العرب والطوارق وقال شاعر منهم:[155][156]

قال لي «حماتا ولد الداه» إذا بقيت حتى بداية الحرب الفرنسية، وهروب هؤلاء الأسود علينا فقط «يقصد«المجاهدين»!!» الذين ألبوا العالم، سترى ماذا ستفعله بنا الميليشيات المدنية والعسكرية النظامية، إنهم هذه المرة سيعملون على إفنائنا تمامًا لوأد أحلام الاستقلال.. ولماذا لا ترعى فرنسا ذلك ولها مطامعها الاستثمارية في خيرات أراضينا.وأصبح الصمت العربي الإسلامي تراثًا يعانونه منذ أن وعدتهم فرنسا بالاستقلال في دولة طارقية عام 1957 وعارض ثوار الجزائر - آنذاك - ودول المغرب وليبيا والنيجر وموريتانيا ليبدأ «الأزواديون» تمرداتهم كمحاولات للاستقلال منذ عام 1963 لتواجههم الدولة بقهر غير مسبوق وإذلال متعمد وقسوة نادرة الحدوث وبدأ مسلسل التنكيل بزعماء التمرد مثل «فيلي دابو سيسكو» و«حمادون ديكو» و«قاسم توري».

بعد أن حمَّلهم «موديبوكيتا» مسئولية مظاهرات التجار الكبرى في «باماكو» في 20 يوليو 1962 ضد التأميم فأرسلهم بعد الحكم عليهم بالإعدام - الذي استُبدل به السجنُ المؤبد - إلى «كيدال» ليعيشوا في ظروف شديدة القسوة لمدة عامين مع تنفيذ الأشغال الشاقة، حتى جاء الأمر للنقيب «بازاني» كما وصف العقيد «آسيمي دنبلي» في كتابه «التحويل الأخير» في رسالة مشفرة تقول: «التحويل النهائي للطرود الثلاثة» ليعهد بهم إلى الملازم «سام» لترحيلهم إلى «تازيجومت» وسط حراسة شديدة لا يعرف ولا هم يعرفون ما سيحل بهم،

غيرأن ضابط صف كان ينتظرهم في أحد الأودية بمنتصف المسافة بين «تازيجومت» و«بوجيسه» الذي توقف فيه الركب ليطلب من السجناء الثلاثة التوجه إلى مرتفع يحيط بهم جنود المجموعة القتالية خشية التعرض لهجوم من الثوار لفك أسرهم.

وصفَّهم الملازم «سام» أمامه وأخبرهم بقرار القيادة بإعدامهم، وأنه سيترك جثامينهم نهبًا لكلاب الصحراء، فيسترحمه «حمادون ديكو» ليسمح بدفنهم فيوافق على أن يحفر كل منهم قبره بيده وبسرعة، حتى لا يضيع الوقت ويهبط الظلام - كان ذلك قبيل مغيب الشمس - ولكن سيسكو وتوري لم يفلحا في إنجاز المهمة لضعفهما الشديد وكبر سنهما، وإن حفر حمادون قبره بحجر حاد - رغم وجود آلات لذلك في سيارات القافلة - وتقدم الثوار الثلاثة غير هيَّابين الموت أمام الحفرة دون أن تصدر منهم أي حركة تُفسر على أنها استرحام من أجل البقاء في الحياة لثوان أخرى بائسة، رافضين مساعدة الجنود المشفقين عليهم، وفي اللحظة الأخيرة خاطب «فيلي دابو سيسكو» الملازم «سام» قائلا: أيها الملازم قم بواجبك كجندي، ولكن واجبك كضابط لا يسمح لك بالغرق في الخزي.. لا تطلق علينا الرصاص من الخلف، لأنك إن فعلت ذلك سيلاحقك عارها ما تبقى لك من العمر.

فأمرهم بالوقوف على بعد 15 مترًا من فرقة الإعدام دون أن يُغمضوا أعينهم أو يصدر عنهم أنين الخوف أو تبدو عليهم رجعة الموت المنتظر من فوهة البنادق المصوبة إلى صدورهم، ويعطي الملازم الأمر بالضرب لتنطلق زخات الرصاص تخترق الأجساد الثلاثة ويغطيهم الجنود بالحصى الخشن مُكفَنين في دراريعهم المُشربة بالدم.

ورغم أنهم مسلمون لم يقرأ أحد عليهم الفاتحة أو يصلي عليهم غير أن أحد الجنود صاح بالتكبير ثلاثًا عوضًا عن الفاتحة.. ويبلغ سام رؤساءه بإنجاز المهمة في رسالة مشفَّرة «تمدرس الأطفال» وتعلن رواية النظام الحاكم الرسمية في صحفه أنهم قُضوا خلال اشتباك جرى مع الثوار عند نقلهم بعد محاولتهم الهرب

مما اضطر القوة لإطلاق النار عليهم[157].

وأُرغم المتهمون بمساعدة الثوار أو إيوائهم من المساجين على السير لمسافات طويلة تحت شمس الصحراء الحارقة ثم إعطائهم «البنزين» على أنه ماء فيعبون منه جرعات كبيرة حتى ينتبهوا فيتوقفوا عن الشرب شاعرين بآلام في بطونهم فيأمر السجان بسكب ما تبقى من البنزين فوق رءوسهم وإشعال النيران فيهم. وكان هذا أخف عقاب، كما اعتاد بعضهم الذبح البارد لنساء الطوارق والتباهي بغسل أيديهم في الدماء الساخنة بعد ذبحهن لمساعدتهن للثوار أو إخفائهن في منازلهن. ولأن التعذيب دائم والقتل للأزواديين ممنهج ومعتاد فلم يكن مستغربًا أن يغض العالم بصره مؤخرًا عما يحدث للأزواديين من اعتقال وذبح ونهب محلات التجار العرب كما تم في «جاوا» و«تمبكتو» وقتل أصحابها تحت سمع وبصر القوات الحكومية. بعد رحيل «الإسلامويين» عنها تحت ضربات الطيران الفرنسي وتكمل الميليشيا التي كونتها الدولة «جندكوي» من شباب الصنغي و«جنديزو» من البمبارا مسيرة الإعدامات الجماعية التي بدأت منذ تأسيسها من الزنوج السود بعد تمرد عام 1990، ولهما توجه عنصري:

الأولى هي «الجندكوي» حركة قومية عنصرية من «الصنغي» وتعني بلغتهم أصحاب الأرض - أنشأها الجيش المالي تحت ستار مدني وسلحها، وحظيت بدعم كبار قادته وعلى رأسهم «توماني توري» ويقودها بعض ضباط الجيش أبرزهم «ممادمان كيتا» كقائد للجناح العسكري لها، وترفع ميليشيا الجندكوي شعارات تطهير مالي من الطوارق من خلال نشرتها «صوت الشمال» معلنة أن أهم موقف يتخذه المواطنون «السود» هو القضاء على المتمردين واللصوص المسلحين «عرب وطوارق».

وأن الطوارق شعوب تائهة لا موطن لها ولا دول، وهم جسم غريب في النظام الاجتماعي المالي، ولذا لا بد من تطهيره.. وبالتالي فإن المشكلة ستستمر معبرة عما ترسخ من عقيدة عنصرية شائهة يدعمها الجيش المالي وترعاها فرنسا

التي أبلغت «حما أج محمود» مسئول العلاقات الخارجية بـ«مانيلا» أنها تعمل على «استعادة كامل الوحدة الترابية لمالي، وتسليم إقليم أزواد للدولة المالية بشكل نهائي وقاطع.

والثانية هي حركة «جنديزو»، وتتشابه في كل شيء تقريبًا مع «الجندكوي» لكنها من جنس «البمبارا» الزنجي أيضًا، وفي عام 2005 أعادت الحكومة تدريبها مع إضافة 70 شابًا آخرين جددًا من السود ومدهم بالسلاح. وعلى مدى تسعة الأيام الأخيرة في شهر مايو 1991 أعاد النقيب «كوني» قائد إحدى وحدات الجيش المالي إلى الأذهان الذكريات المأساوية لسلفه النقيب «بازاني».. حيث أمر جنود المدرعات التابعة له بالقصف العشوائي على آبار «آغما يمين"و"آرزبك» وقرية «الأرنب» مما أدى إلى مقتل العشرات من الأرواح - أغلبهم عرب - ورءوس ماشية، ومارس القصف والتدمير طوال الطريق باتجاه الجنوب الغربي، فإذا وجد تجمعات بشرية قصفها، وإن كانوا أفرادًا أسرهم وقتلهم أبشع القتل، وإن كانت آبارًا سممها، حتى وصل إلى مدينة «ليرا» لينهي رحلته بقتل 90 مدنيًا من المور والطوارق، لم يرحم شيخًا مسنًا عجز عن الهرب، ولا امرأة صرخت في وجه السماء مسترحمة بتقبيل أحذية جنوده..

وفي أغسطس1990 تم تعذيب العشرات، وإعدام آخرين منهم: أحمد أج مجاجا من أعيان طوارق «إيشاد نهاران» رغم عجزه حتى عن دفع يد جندي أمسك بكتفه لضعفه بعد أن بلغ من العمر أكثر من ثمانين عامًا، لم يشفع له عمره المتقدم، ولا انتشار الشيب في رأسه ولحيته ولا عجزه - حتى عن إطلاق التوسلات المسترحمة دون الشعور بالإجهاد والعجز - في نفس الوقت لم يرحم الجنود الطفل الطارقي بشار أج خامدين الذي لم يتعد عمره الأعوام العشرة، قُبِض عليه مع أكثر من ثلاثين طارقيًا آخرين أعدموا جميعًا، مثل هذه الإعدامات تمت لأعداد أخرى في «تيناساكو» في «كيدال»، وإعدامات أخرى قامت بها فرقة الإعدام العسكرية بعد محاكمات شكلية مفعمة بالكراهية الناتجة عن الخطاب العنصري داخل مجتمع النخبة الحاكمة في «باماكو»

و«عالي ولد كباد» الذي اختطفه الجيش المالي برفقة آخرين من عرب تمبكتو المسنين الذين كان الجنود يجرونهم على الأرض جرًّا لعدم قدرتهم على السير السريع.

فقبيل نهاية فبراير1991 قامت جماعات مسلحة من «الجندكوي» بالسطو على محلات التجار من المورو والطوارق في جاوا.. والعرب والطوارق في تمبكتو ونهبها كليًّا والقبض على أكثر من 120 مدنيًّا من التجار الذين توهموا قدرتهم على حماية مخازنهم من النهب بالاستعطاف أو الرشوة، وهو التصور الخاطئ الذي قادهم إلى الموت أو الإصابات العنيفة أو التعذيب الوحشي، فلا قوة كان يمكن أن تمنع الجندكوي أو جنود الجيش من الاستيلاء على ما يرغبون فيه، فإن كان بإمكانهم ذلك فلن تكون الرشوة بديلًا.

وفي قرية «وادي الشرف» التي تتكون من ثلاثة أحياء من قبائل «كل أسوك» ومن «كل بتورق» و«كل تجلت» و«كل تكرتن»[158]، قام الجيش المالي بالتعاون مع عصابات الجندكوي بتنفيذ مذبحة بشعة في آخر شهر أكتوبر1994 استهدفت كوكبة من العلماء والفقهاء منهم الشيخ الولي حماد، وفي حي «كل تيس» حدثت مجزرة أخرى على يد الجندكوي راح ضحيتها عدد من الأعيان مثل الشيخ حسان والمهندس المحمود.

وشهد سكان «هداري» اعتقال عدد من المدنيين العزل؛ منهم عمر أج سيد علي وأخوه محمد واعتدى الجنود الماليون على السيد محمد إبراهيم أج داود، وأُعْدِمَ عمر وأخوه موسى أج العتيق، والجمت أج بلال وأكلنين أج موسى مع نهب ممتلكاتهم، بل وقام الجنود بعد دفنهم بنبش قبورهم وإخراج جثثهم للتأكيد لقادتهم الذين حضروا على الخلاص منهم بالقتل.

وأعلن «جبريل ديالو» قائد إحدى ميليشيا الجندكوي الزنجية أنه جمع 2642 عضوًا ينتظرون السماح لهم بالقتال على الجبهة لسحق المتمردين الطوارق، كل ذلك يبعثه في النفوس تراث قديم للصنغي ضد الطوارق منذ أن كانت صحراء

أزواد ومدنها الرئيسية في نطاق إمبراطوري زنجي، منذ حكم «سني علي» إمبراطور الصنغي الذي قام بتصفيات عرقية ضد الطوارق، وهو ما تكرر حديثًا وفي نفس المواقع كما حدث في قرية «بمبا» - 200 كم شرق تمبكتو - وقرية «كيل السوق» 70 كم شمال جاوا - وتم إفناؤها بعد تطهيرها من 800 أسرة من الطوارق. وما زالت القرية خرابًا حتى الآن وإعدام 35 شابًّا في «ليرا» وتسميم آبار المياه كما حدث في قرية «أجوني» العربية فمن نجا من القتل ذبحًا قُضي بالسم.

ولم يكن غريبًا أن تتنكر جميع دول الجوار لطوارق وعرب أزواد منذ الاستقلال بل وتسلم للسلطات المالية الزعماء الهاربين إليها مثل محمد أعلى الطاهر الذي سلمته الجزائر.

وأنتالا أج الطاهر الذي سلمته المغرب وكذلك موريتانيا التي صمتت عما يُفعل بالعرب الماليين رغم أنهم امتدادات عرقية لسكانها في «الحوض الشرقي» نظير مصالحة المختار ولد داداه رئيس موريتانيا آنذاك وإغلاق مقرات «جيش تحرير موريتانيا في مالي وإبعاد زعيمه حتى جمال عبد الناصر الذي دعم حركات التحرر في العالم صمت على اغتيال أهم زعماء أزواد، وقيام الجيش المالي بمجزرة في يونية 1964، بأوامر من موديبوكيتا رئيس مالي وقتئذ الذي توجه بعد أيام إلى القاهرة لحضور ثاني قمة لمنظمة الوحدة الإفريقية، والذي اتهمه «فيلبيرأنانا» رئيس مدغشقر أمام عبد الناصر ورؤساء دول القارة بقتل مواطنيه ولم تجف دماؤهم حتى لحظة انعقاد المؤتمر.. ويردد الطوارق في «تمبكتو» أن جمال عبد الناصر أوصى «موديبو كيتا» بدمج الطوارق وأوعز إلى القذافي والجزائريين بمواجهة فكرة دولة أمازيغية لما لها من تأثير سلبي على فكرة القومية العربية التي كان يتزعمها، وهكذا بدا الأزواديون أيتامًا في العالم.. واستمر التنكيل بهم وليستمروا أيضًا في التمرد الذي عادة ما يعقبه حركة تطهير عرقي ومذابح منظمة مثل تمرد التسعينيات(1990.1996» وتمرد 2005.

الانتقام والمجازر دفعت أبناء هذا الإقليم بعد التمرد الأخير إلى الهرب من مدنهم وبواديهم لإدراكهم ما سيحل بهم. منهم صاحب الجمل المسروق الذي أُهدي إلى الرئيس الفرنسي، وقد تم الكشف عن مقابر جماعية بعد طرد أنصار الدين من إحداها قرب «تمبكتو» دُفن فيها خمسة من الشباب قتلوا بالرصاص منهم «محمد الأمين ولد حامودي ومحمد ولد التيجاني». وفي قرية طمبز «20 كم من مطار تمبكتو» قامت كتيبة من الجيش المالي بإضرام النيران في عائلة عربية من سبعة أفراد بعد سكب «الجاز» على رءوسهم، وفي «هومبري» تم إعدام عدد مماثل من قبيلة «أيفون» الطارقية بتهمة مناصرة «الإرهابيين». وفي قرية «لكراكر» 20 كم جنوب تمبكتو قتل الجيش المالي أربعة مسنين عرب منهم «محمد ولد أعبيد وسيدي محمد ولد بلخير وأحميده ولد أحمدو».

أما في تمبكتو مدينة «الأسرار والمخطوطات»، فقد بدت الحياة أملًا يتلاشى بين طرفة عين طفل تسبق شقاوة جسده ضحكة بريئة على شفتيه فيرى الموت فزعًا من جمود وحدة نظرة جندي مالي قبل إعدامه وفي وجوم سيدة شابة أطرقت إلى الأرض تتمنى لو ابتلعتها بدلًا من اغتصابها أو قتلها.. كان عبوس وجه «فاطمتو» التي لم تستطع الهرب من تمبكتو وهي واحدة من آلاف الراغبين في الهرب من جحيم الانتقام وبشاعة الموت برصاصة أو سكين أو سُم عنصري.. ممن لم تكتب لهم فرصة الخروج سالمين.. بعد أن انتشر جنود الجيش المالي ومرتزقة «الجندكوي» في كل أحياء تمبكتو لقتل أو سحل أو تمزيق كل من تطاله أيديهم.. فضلًا عن النهب المنظم لكل مكان حتى محلات ومخازن التجار الجزائريين والموريتانيين.

بعد انسحاب «القاعدة» منها ومن جاوا،اللتين بدتا خاويتين وفي فراغ كبير حمل الفزع والرعب من الإبادات الجماعية الجميع على الهرب، متعجبًا من تصديقهم القوة التي ظهرت بها جماعتا «التوحيد والجهاد» و«أنصار الدين» لأنها كانت وهمًا استدرجونا إليه، فما إن قامت القوات الفرنسية بقصف مواقعها حتى هربوا كالفئران ليتركونا للتطهير العرقي تحت سمع وبصر الفرنسيين.

وقد عُثر على مقبرة جماعية تضم عربًا وطوارق قرب فندق «أزالاي» في «تمبكتو» بينهم «محمد محمد الأمين ولد حمادي» مدير مدرسة «النور المبين» الذي تعرفت زوجته على جثته ضمن عدد ممن أعدموا... وفي طريق الهرب من «تمبكتو» إلى الحدود الموريتانية قال الأمين حماتا: كنت أعيش بالقرب من المدينة وأتردد عليها. والآن اضطررت للدوران حولها للهرب، فلو اقتربت منها الآن لذُبحت بدم بارد بسبب لون بشرتي وانتمائي لأزواد، وأما «جميلة بنت الفضيل و«لالا بنت سيدي» فقد استوقفهما الجيش المالي واستولى على السيارة التي استقلتاها وعلى حمولتها وألقاهما مع باقي الركاب على الطريق، وذلك كان أفضل وأخف عنفٍ يتعرضون له، أو كما قال أحدهم: كان ذلك رحمة بنا.. وتعرض «إحماده ولد الداه» هو وغيره من التجار العرب لنهب ممتلكاته، وشهد الفرنسيون إعدام 11 طارقيًا في مدينة «سيفاري» ولم يقتصر القتل في مكان واحد بل انتشر في كل مدن وبوادي شمال مالي على يد ميليشيا «جندكوي».. يكفي أن تكون أبيض أو تضع لثامًا على وجهك أو مطلق اللحية حتى تُقتل مثلما حدث - كما يقول محمد جوب - في قرية «نيمي نياما» على طريق «أدوينزا سفاري» عندما اعتقل الجيش المالي شيخ القرية وعثروا على جثته بعد أسبوع، وأيضًا في منطقة دوغوفري «15 كم جنوب جابلي» قام بقتل ثلاثة شيوخ من الطوارق بعد القبض عليهم وأيضًا ألقوا بجثثهم في الطريق. وتمت في «ليراوكوس» إعدامات عشوائية راح ضحيتها أكثر من 32 طارقيًا.

وقد بدأت معاناة العنصر الأبيض في مالي بمجرد إعلان الانفصال فتفجرت العنصرية الزنجية حتى في العاصمة «باماكو» ضد الطوارق والعرب المقيمين فيها واستهداف عدد منهم، ولم يسلم من يعيش في الجنوب داخل نطاق مجتمع السود، ممن يعملون في إطار الدولة كموظفين كبار وضباط جيش أو شرطة وأساتذة جامعات، وليس لهم نزعات انفصالية، ولم ينضموا قولًا أو فعلًا أو قبولًا لما حدث في الشمال ولكن الدولة تعاملت معهم بقدر من التخوين والعنصرية، ويمثل الدكتور أبو بكر الصديق أج حماهادي أستاذ الرياضيات الجامعي أحد هذه النماذج العديدة، فرغم ولادته في «باماكو» لأب عمل مدرسًا

للغة الفرنسية، واستقر مع أسرته، فيها ومنهم شقيقه الصيدلي الذي يمتلك مشروعًا علاجيًا خلف ثكنة عسكرية في منطقة «كاتي» وتم إحراق الصيدلية والعيادة وسيارات الإسعاف الخاصة به، ونهب كل ممتلكاته التي زادت على مليار فرنك إفريقي.

وحدث هجوم على منزل شقيقه الدكتور أبو بكر وإيذاءٌ جسديٌّ رغم أنه مقعد، وساعده ضباط من البمبارا لمعرفتهم الجيدة به وبنواياه بسبب عجزهم «عن استمرار حمايته من الهياج الشعبي الذي تدعمه الحكومة ضد أي طارقي أو عربي - كما قالوا له - فهرب إلى موريتانيا، وعمل في كلية العلوم والتقنية في نواكشوط حتى يستطيع الإنفاق، وحالة الدكتور أبو بكر الصديق أج حما هادي واحدة من حالات كثيرة فر أصحابها من باماكو إلى الجزائر وموريتانيا وبوركينا فاسو.

وهرب عشرات الآلاف من «الأزواديين» إلى مخيمات اللاجئين في بوركينا فاسو والنيجر وموريتانيا.. وخوفًا من الجيش المالي الذي سيعمل فينا الذبح دون تمييز إن كنت دعمت وساعدت الانفصاليين أم لم تفعل؛ فقط سيقتلوننا بسبب لون بشرتنا الأبيض وانتمائنا إلى عرق مختلف.

وغالبًا ما ينظر سكان مالي السود للعرب والطوارق على أنهم إرهابيون، وهي نظرة تاريخية راسخة تناقلتها الأجيال لما يزيد على 800عام.. وبعد دخول القوات الفرنسية باتوا لا يستطيعون الخروج لأنهم ملتحون أو يعتمرون الشاش «اللثام» رغم أن اللحية هي من تراث وثقافة العرب والطوارق هناك.. عمقتها عقود ما بعد رحيل فرنسا عن إفريقيا.. ونشرت صحيفة «لكسبريس» تقريرًا مصورًا أكدت فيه تنفيذ الجيش المالي إعدامات غير قانونية ضد طوارق وعرب استهدفهما الجيش المالي، فإن تكن عربيًا أو طارقيًا أو حتى ترتدي زيًا غربيًا فأنت مستهدف ويتم إعدامك فورًا!!

وهو ما حدث لسكان قرية صغيرة تقع في محيط منطقة «جابلي» في

24يناير2013 بقتل الجنود لعدد من المدنيين واختطاف عدد من النساء العربيات، وبعد أسبوع من هذا الحادث أبلغ سكان القرية موفد وكالة «أناضول» للأنباء أن جنودًا ماليين بدءوا يسألون عن أسماء لشخصيات من عائلات عربية وطارقية، وقتلوا أشخاصًا آخرين، وخطفوا مجموعة من النساء مرة ثانية.

قال موستامامادو: استيقظنا فزعين على صرخات تشق ظلام الليل، وتنطلق من منزل عرب يقيمون فيه منذ 30 عامًا، خفنا أن نخرج؛ خصوصًا ونحن متأكدون أن الأمر سيتعدى القبض والتوقيف إلى إبادة جماعية للقرية؛ ردًا على استقبال سكانها قبل فترة لـ«إرهابيين»، أقاموا فيها عدة أيام.. سمعنا بكاءً وصراخًا هستيريًا من ثلاثة أشقاء كانوا قد فتحوا منزلهم كمدرسة لتحفيظ القرآن وتعليم اللغة العربية.. كانوا يتوسلون لمن قبض عليهم ويسترحمون لتركهم.. سأل أحد الجنود قائده باللغة الفرنسية بلكنة أهل «باماكو» أيها الكابتن «النقيب» ماذا أفعل بهم؟، فقال: اقتلهم، أو ادفنهم أحياء، فهؤلاء لا يستحقون الحياة.. هذه الحثالة التي تريد أن تجعل مالي إسلامية، ثم التفت إلى الشبان الأشقاء الثلاثة قائلًا: لن ينفعكم «إرهابيون» بعد اليوم أبدًا.. وهم يواصلون توسلهم له واسترحامهم الذي سبب له إزعاجًا، فأطلق عليهم الرصاص، وترك جثثهم في العراء، عمهم محمد ولد محمود الخيري قال: أصبحت دماؤنا تراق على مرأى ومسمع من العالم، ولم ينس أن يؤكد أن الجنود الماليين وقائدهم «النقيب» كان بصحبتهم جنود فرنسيون عندما حطموا عليهم الباب واصطحبوا الشباب.. وقتلوهم بدم بارد بشهادة فرنسية.

أما في «سيفاري» و«موبتي» و«طونكي» ومدن أخرى، فقد كانت حصيلة القتل والتعذيب والاضطهاد العرقي كثيرة جدًا، لم يستطع من بقي من السكان حصرها، ما بين قتيل ضمن آخرين دفنوا في مقابر جماعية، وما بين فارين قتلوا بالمطاردة، وما بين من تحللت أجسادهم فلم تبق إلا عظامهم في الصحراء، غير كافية للتدليل على هوية أصحابها، فقد كان جنود الجيش المالي يستولون على ملابس القتلى، حتى سراويلهم الداخلية!!

كما حدث في حي «أبارادجو» قرب المدينة القديمة، عندما اقتحم المئات من الماليين السود مقرًّا هربت منه «أنصار الدين» واختبأ به عدد من الرجال، فنهبوه وقتلوا الرجال..

واستهدفوا أيضًا مخازن ومحلات تجارية للعرب بعد اتهامهم بالإرهاب ومساعدة ودعم «أنصار الدين» والعمل مع كتائب تنظيم قاعدة بلاد المغرب.

مامادو ديكو شاب من الصنغي قال: كلما وجدنا عربًا نسلمهم للسلطات إن لم نستطع قتلهم.

ونقل محمد البربوشي لي صرخات استنجاد من أقارب وذوي الضحايا المغدور بهم من العرب التمبكتيين، ممن قضوا في مجازر بشعة ارتكبتها عصابات الجندكوي وجنود الجيش، ومنهم خمسة عشر عربيًّا تم قتلهم ودفنهم في مقبرة جماعية، ومن الرعاة العرب الذين دخلوا تمبكتو قاصدين التزود بمؤن السوق أطلقت عليهم النار دون إنذار أو إشارة، هذا فضلًا عمن اعتقلهم الجيش، وكثير منهم من المسنين والأطفال، منهم من قضى نحبه غدرًا، ومنهم من اختفى ولم يظهر له أثر أو جثة.

كما قام الجيش بتصفية 51 من العرب والطوارق في «جابلي» و«سيفاري» منهم 16 موريتانيًّا بإطلاق الرصاص على الرءوس.

وفي مخيم «كل أسوق» 10 كم شرق كيدال في يوم25 فبراير 2012 أجرى الجيش مذبحة راح ضحيتها عدد من الأزواديين، لم يرحم حتى العلماء والفقهاء من الزعماء الروحيين من المشايخ التقليديين، ومنهم العلامة المنير ابن الولي العارف حمادوا المذكور شيخ طريقة صوفية، وزعيم عدة قبائل في أزواد مع من كان حوله من أبناء ومريدين، والسيد محمد أج حتبو «أغشوم» الذي ينتمي لقبيلة «كل جنهان» في «جاوا» قرية «تن أهما»، وكان من النخبة الثقافية ورأس الملتقى الثقافي الأول لقبائل «كل أسوك» عام 2009 وانتخب رئيسًا لاتحاد قبائلها وكان رئيسًا للمجلس الاستشاري لمدينة «جاوا» ضمن

الإدارة المالية، كما حدث مع الدكتور أبو بكر حما هادي.. أما رئيس غرفة الزراعة في «تمبكتو» وعضو حزب «أديما» الحاكم في عهد توماني توري فقد تم اختطافه أيضًا من الفندق الذي كان نزيله في باماكو في 18 سبتمبر 2012.

لم أكن بحاجة إلى شهادات الصحف لإطلاعي على كثير من المجازر، وإن كنت أرغب في تسجيل بعض ما ورد تحديدًا في الصحف الفرنسية!!

قال حرفي أفوا علي - من الطوارق - أفراد قلائل بقوا في مدينة «سيجو"270 كم شمال «باماكو» لمراسل صحفي لا تذكروا أسماءنا وإلا فإنهم سيقتلوننا.. [159]!!

وأكد التقرير مقتل عدد كبير من الطوارق في «سيجو» منهم الشيخ أبو بكر أج همو دعمه - 70عامًا - ، وكذلك مجازر في «موبتي» في حي «وايلهيردي» ضد 30 مواطنًا وأُلقيَت جثثهم داخل بئر مياه تحت سيطرة فكرة القتل، وتسميم آخرين من الماء، ونفذ الجيش مذبحة، وصفت كما جاء في الخبر المنشور عنها بـ«الفظيعة» ضد سكان منطقة «أنفيف» العرب بعد احتلالها إثر مناوشات مع مسلحين من حركة «مانيلا» مما دفع الحركة لإصدار بيان تؤكد فيه حقها في الدفاع عن النفس ضد الإبادات العرقية[160].

وتأكدت هذه المجازر دوليًا باعتراف «منظمة العفو الدولية» عبر موقعها على «الإنترنت» وتأكدها من ارتكاب الجيش المالي انتهاكات خطيرة علاوة على مخالفته لأحكام القانون الدولي الإنساني بشأن النزاعات مع جماعات مسلحة في البلاد.. والعارفون بدقائق الأرض ليسوا بحاجة - ولا المعنيون بالأمر - إلى هذه التأكيدات والاعترافات بالانتهاكات والمجازر والإعدامات الجماعية والفردية لمدنيين خارج الإطار القانوني، لكنهم لم يحركوا ساكنًا رغم توالي تقارير الإدانة الموثقة بالشهادات والصور والأدلة.. مثلما طالب الاتحاد الدولي لحقوق الإنسان بتشكيل لجنة تحقيق مستقلة فورًا[161]!! بسبب ارتكاب الجنود الماليين - حسب القرار - جرائم تعسفية وتصفيات عرقية غرب ووسط

مالي خصوصًا في «سيفاري» التي تمت تصفية 11 منها على الأقل في مقبرة جماعية، وفي «نيوورو» و«موبتي» وفي «باماكو» العاصمة قام الجنود بأعمال إرهاب وتفزيع للعرب والطوارق أثناء قيامهم بتفتيش منازلهم.. وهذه الإعدامات أكدها مختار ماريكو رئيس المنظمة المالية لحقوق الإنسان، مؤكدًا أن منظمته حصلت على صور لأشخاص يتم إعدامهم خارج القانون، مما دعا الحركة الوطنية لتحرير أزواد «مانيلا» بتكليف محاميها بمطالبة المدعي العام للمحكمة الجنائية الدولية بفتح تحقيق عاجل في جرائم الحرب التي ارتكبها الجيش المالي والجندكوي بحق الأزواديين في ضواحي مدن «تمبكتو» و«دونزا» و«جاوا» و«بوني» و«كونا» استنادًا إلى عدة تقارير صحفية نشرت في الأهرام المصرية[162]، ولوموند الفرنسية وعدة صحف أخرى تناولت هذه المذابح، مع الاستعانة بتقرير لمنظمات حقوقية دولية، ومنها الاتحاد الأوروبي الذي أعرب عن قلقه إزاء تجاوزات الجيش المالي وعصابات الجندكوي بداعي الثأر، ولكن للأسف رغم مرور عامين على هذه المذابح لكن شيئًا لم يحدث، وبقيت النفوس حزينة، وما يحدث هو تكرار لمجازر أفظع وأبشع تمت بعد كل محاولة للتمرد والاستقلال.

وعلى فرنسا المسئولية الأخلاقية والدولية في كل هذه المجازر حيث تدرك جيدًا التشكيل القبلي والعرقي المعقد، وتدرك أيضًا بشاعات انتقامات الجيش المالي، ولكن يبدو حسب ما يتردد بين الأزواديين أن ممارسة الجيش المالي لعنصريته المقيتة تتم دائمًا برعاية فرنسية.

وكانت السيدة فاتو بن سودة المدعي العام للمحكمة الجنائية الدولية - آنذاك - قد أقرت بتلقيها خطاب إحالة الوضع في مالي من قبل وزير العدل في الحكومة المالية المؤقتة الذي أكد فيه «انتهاكات جسيمة لحقوق الإنسان، وجرائم حرب واغتصاب النساء والفتيات الصغيرات وقتل المدنيين وتجنيد الأطفال والتعذيب والإخفاء القسري، ونهب وتدمير الممتلكات العامة والخاصة بما في ذلك المباني الحكومية ومنشآت الإغاثة الإنسانية والمؤسسات الدينية

والمقابر.. حول ما فعلته كتائب تنظيم القاعدة في «تمبكتو» و«جاوا»[163].

وهكذا فما بين التمرد والردع يُقهر الشعب من العامة.. يقتل ذبحًا أو بالرصاص، أو مسمومًا، أو كما شاء المتحكم في السلاح وبيده القوة، ويستطيع الغدر، وبعد مضي أكثر من عامين من الحرب الفرنسية عليه قام تنظيم «القاعدة» في تمبكتو بذبح الطبيب الطارقي حما أج سيدي أحمد في نفس الأسبوع الذي ذبحوا فيه الرهينة الفرنسي انتقامًا من فرنسا على انضمامها للتحالف ضد «داعش» وتركوا رسالة مع رأس الطبيب المعلقة تؤكد أنهم ذبحوه لأنه جاسوس للفرنسيين وحذروا الآخرين من التعاون مع فرنسا.

ولا يقتصر الانتقام على من بقوا في بيوتهم وأراضيهم بل يتعداه إلى مطاردة الفارين إلى مخيمات اللجوء في موريتانيا والجزائر وبوركينا، حيث طاردتهم الجماعات المسلحة وقتلت من اعتقلت، وقامت بقطع الطريق عليهم بين «ليرا» المالية و«فصالة» الحدودية الموريتانية، واستوقفت السيارات وأنزلت من فيها من العرب والطوارق مع أمتعتهم، واستمر كل ذلك حتى بعد إعادة سيطرة الدولة على الشمال مما دعا زعيم الطوارق في الجزائر غومة أج إبراهيم غومة أمين «عُقَّال» وأعيان «طاسيلي نازجر» بولاية «إيليزي» إلى إصدار بيان شديد اللهجة محمِّلًا المجتمع الدولي مسئولية ما يحدث من جرائم إبادة وقتل وتهجير ممنهج في حق الطوارق.

والسؤال هل لم يبلغ العرب وحكامهم في المشرق والمغرب ذلك؟ وهل لم تصل إليهم معاناة هؤلاء اللاجئين بردًا وجوعًا وشتاتًا في المخيمات التي تمثل لهم فصلًا جديدًا من فصول القهر؟!! فلا حكومة مالي ستتراجع عن قتلهم وإفقارهم ولا فرنسا والغرب سيساعدونهم لنيل أبسط حقوقهم فهل سيعمل العرب على مساعدتهم؟!

***

في المخيمات.. يطاردهم الجوع وذكريات المذابح

التقيت ماجد الشاب الأردني مسئول الأمن بمكتب المفوضية في تونس وشيخ أحمد ولد دهاه وسبيسيان أباتيتا نائب مدير مفوضية اللاجئين في موريتانيا.

انطلقنا إلى المخيم في الثامنة صباحًا، هناك تركتهم مصطحبًا سيدي محمد ولد عبد القادر متنقلًا بين أحياء المعسكر الذي أقيم على مساحة كبيرة من الأرض، حياة البشر هي نفس حياة أقرانهم في أي مكان، لا يختلف الأزواديون في مخيم «أمبَّره» عن السوريين في مخيم «الزعتري» نفس المعاناة والحظ البائس، نفس الانكسار في العيون والوجوم الذي يعلو الوجوه، بائسون هؤلاء الذين هربوا فزعًا من بلادهم إلى أمان الجوار،رحلة تتكرر منذ عشرات السنين إلى الحضن الموريتاني الآمن، لا فرق بين طوارق، وهم أغلبية اللاجئين في المخيم، وعرب وقليل من الصنغي والفُلّان.

بثت أشعة الشمس بعض الدفء في طقس ديسمبر، زادتها قلوب اللاجئين بالمحبة وتسكع عيون البنات عند النظر إلى عدسة «كاميرتي» بلا دهشة، كن يطوحن نظراتهن في الفضاء ثم يصوبنها تجاه أفق بعيد لا يعرف أحد كم مسافته، وعند أي مدى سيستقر؟ وكيف حال الجميع وقتها؟ فأفق هؤلاء التعساء حافل بكل احتمالات النجاة أو الموت، أيهما أقرب.

في مخيم «أمبَّره» كان مرح الأطفال الصغار والتفافهم حولي في شقاوة بريئة ومطاردتي حتى حين كنت أحاول الركض منهم. ركضوا ورائي، وهم يرددون «ماشي» وكأنها أغنية يرددونها، كلمة التقطوها من حديثي مع الزميل سيدي محمد ولد عبد القادر المصور الذي صاحبني في جولتي بالمخيم.

تكتشف من عيون الأطفال وانفراجات شفاههم عن ابتسامات بريئة أن الإنسان واحد.. في «أمبرَّه»، والنساء.. هن النساء اللواتي أراهن في ريفنا الطاهر في الصعيد والدلتا، حياؤهن ورفعهن «الطُّرَح» على وجوههن، نظراتهن الودود

الحافلة بالكرم وهن يدعونك للضيافة، تذكرت امرأة عجوزًا في قرية «بلاط» بالوادي الجديد، عندما توقفنا أمام منزلها أنا وزميلاي محمد عبده وعلاء البحيري لالتقاط بعض الصور، عندما فتحت الباب فوجدتنا أمامها، ابتسمت ورحبت ودعتنا لتناول الغداء أو الشاي، في كرم هو سمة العرب والطوارق.

رأيتها مرة أخرى في صورة العجوز التي انتفضت منتصبة من انحنائها على الرمل، كانت تخط بإصبعها فيه وكأنها ترسم مسار العودة إلى الديار التي شهدت حياتها عندما كنت أحاول التقاط صورة لها، ابتسمتْ وتفوهتْ بكلمات لم أتبينها، لمحتُ على البعد دمعة حسرة تفر من عينيها على خدها الأيسر.

مثلت تجاعيد وجهها الكثيرة أخاديد حزن حفرتها نوائب الزمن وعمقتها مآسي الشعب الأزوادي، «زيلا بنت سيدي عبد القادر ولد شيخ»، تلك العجوز التي أنهكها الحزن على حبس زوجها في سجن «كيدال» الرهيب في السبعينيات، وتعرضه للتعذيب الوحشي، والذي كان آخره إجباره على السير مسافات شاسعة في الصحراء تحت أشعة الشمس الحارقة لينهكه الظمأ فيمنحه جلادوه قربة بنزين ليعب منها ظنًّا منه أنه ماء، فعب حتى انتبه هو ورفاقه ويصب الحراس بقيته عليهم ويشعلون النار فيهم، كما أخبرها «الناجون من النار».

منع نحيبها عندما التقيتها في المخيم إكمال سردها لحكاية موت حفيدتها «مونيا بنت ابنها حم ولد أحمد» الذي قُتل برصاص شاب صنغي في قرية «أجوني» عام 1992، أكمل لي الحكاية عثمان أج إبراهيم الذي رافق مونيا ضمن أكثر من 40 امرأةً وطفلًا وشيخًا تكدسوا في صندوق سيارة نقل صغيرة مضت بهم هاربين من تمبكتو باتجاه الحدود الموريتانية، لم تحتمل «مونيا» وفي بطنها جنين في شهره الرابع رجرجة السيارة على الأرض الوعرة، فماتا لتُدفن به في أحشائها قبل وصولهما إلى الحدود بعشرين كيلو مترًا بالقرب من إحدى الآبار.

لم تستطع قدرتي تحمُّل البقاء مع «زيلا» أو تحمُّل إشعاع الأسى من وجهها ونهنهة البكاء. وشهيق الموت الذي تتمناه لتتخلص من عذاب العمر الطويل ومأساة التشرد الدائم لها ولشعبها بين المخيمات يعيشون منذ أن اندلعت أزمة الانفصال [164]وزادت أعدادهم بدخول جماعة «أنصار الدين» إلى «تمبكتو» والمدن القريبة خصوصًا بعد اشتعال الحرب بينها وبين «مانيلا» وهؤلاء يعيشون في ظروف مناخية وإنسانية سيئة جدًّا، رغم أن مفوضية الأمم المتحدة لشئون اللاجئين سارعت لنجدتهم حتى قبل إنشاء المخيم.

حمل الهاربون في أنفسهم ذكريات مريرة للفزع الذي دفعهم لترك بيوتهم حتى قبل أن تُطلق عليهم رصاصة واحدة... ولماذا ينتظرونها وهم يعلمون أنها آتية لتحصد أرواحهم، لذلك هربت مع 24 فردًا من أهلها أغلبهم من النساء والأطفال، يقول المحفوظ أكلود: تبادلنا الركوب على 6 حمير من ليرا حتى «أمبرَّه»، وهو نفس سبب هروب «بويا الزين ولد الشيخ» من قريته «الأرنب» إلى «ليرا»، وهناك فَزِعَ ومن معه من الرصاص المتبادل بين حركة تحرير أزواد «مانيلا» وجنود الكتيبة المالية التي أصابت بعض البنات... ففررنا بهن مع آخرين إلى «فصاله» ثم حضرنا إلى المخيم.. متمنيًا بقاءه لمحاربة الجيش المالي ضمن صفوف «مانيلا» لو به قوة، لأننا نطالب بحقوقنا التي سرقتها حكومة مالي على مدى عقود.

أما هَدّيَ ولد محمد الذي يعيش وأولاده السبعة الصغار في المخيم - تحت الشمس دون خيمة - فقد هرب من «تمبكتو» مع عدد من موظفي البلدية تاركًا تجارته لخوفه من «تنظيم القاعدة»، وكتائبها مثل «أنصار الدين» و«الملثمين»، بعد ما رآه من تعنتهم وتضييقهم على المواطنين وتعسفهم في تطبيق الحدود ومنعهم أي مظاهر للحياة المدنية بالقوة، فضلًا عن شعوره بالخوف هو ومن هرب رفقته من القتل المعلوم، نخاف أن تجيء القوات المالية وتهزم «القاعدة» ثم تعمل فينا القتل كما حدث قبل ذلك.

وفي «أمبرَّة» لا يشعر بالخوف لكنه يعاني مع أولاده العيش في العراء تحت

الشمس الحارقة وفي برد ليل الصحاري، ويقاسي جوعًا لا يكفي لإشباعه ما يحصل عليه تسولًا من بعض اللاجئين الذين سُجلت أسماؤهم وتوزع عليهم معونات غذائية رغم سوئها وقلتها، نفس المعاناة التي تعانيها «فاطمة بنت أمحمد» ومعها «مونا بنت الداه» وأخواتها الهاربات من «ليرا» بعد أن تركهن والدهن والتحق بقوات «مانيلا».

و«لا لا زيني» 28 سنة التي صحبت أختها للهرب مع آخرين عندما رأت الناس تهرب: قالت: حملنا ما خف من متاعنا، وهو بعض الملابس التي نحتفل في الأعياد منذ سنوات بارتدائها وبعض الحُلي الجلدية المقلدة رديئة الصنع، ولكنها بالنسبة لنا ثروة، حملناها وهربنا على الأقدام... بعد أن تذكرتُ مقتل والدي عام 1996، وتعاني «لا لا» مثل غيرها عدم وجود خيام ورداءة الأغذية التي توزع عليهم وسوء حالتها، وهي في ذلك مثل كل من يمكنه الحصول على الغذاء، فإنه يشكو سوءه وعدم تعودهم على بعضه وسوء ما يعرفونه، «ألد ولد شيخنا» رئيس الحي 73 داخل المخيم الذي فر من «ليرا» يؤكد انتشار الجوع بين اللاجئين لقلة كميات المواد الغذائية وعدم كفاية ما يوزع عليهم، فالمفوضية توزع 13 كيلو جرامًا من القمح شهريًّا لكل فرد، كمية لا تكفي لنصف المدة، ومن الزيت زجاجة واحدة و 600 جرام من السكر، و 5 كيلو جرامات دقيق، فضلًا عن سوء رائحة الدقيق التي شممتها عندما قربته إلى أنفي؛ لم أستطع تحمل رائحة عفونته، ولونه يميل إلى الاصفرار، نفس الشكوى حدثتني بها العجوز فاطمة بنت ولد حاماه «63 سنة» بصوت عالٍ صارخة وكأنها تُشهِد من التفوا حولنا عليه مؤكدة أن القمح يوزع كحب دون طحن فيؤدي إلى وجع البطن والإسهال، وهو ما اتفق معها فيه محمد صالح الذي هرب مع أسرته من «تمبكتو»، موضحًا تزايد حالات الإسهال في المخيم، وأن عددًا كبيرًا من اللاجئين الذين يحصلون عليه يحجمون عن تناوله ويهدونه لمن ليست لديهم بطاقات تعريفية ورقم يحصلون به على المعونة، تخلصًا منه، ويقول الخليفة ولد الناقة: اللوبيا لا يعطوننا منها سوى كيلو ونصف الكيلو شهريًّا لكل أسرة، وهي لا تكفي لفرد طوال شهر كامل، فضلًا عن تسببها في آلام

بالبطن أيضًا. أما الشكوى العامة أيضًا في كل أحياء المخيم فهي عدم وجود لحوم ولا ألبان وهما يمثلان أغذية أساسية لأهل هذه المناطق الذين اعتادوا تناول اللحوم في كل وجباتهم اليومية تقريبًا لتوافر الثروة الحيوانية رخيصة الثمن، وعدم كفاية أعداد الأطباء كان سببًا في موت كثير من الأطفال بسبب الملاريا والهُزال، وهو ما يبكي لأجله أحمد ولد علي مصطفى الذي توفي طفله بعد إصابته بحمى الملاريا التي تنتشر ويزداد البعوض الحامل لها في شهور الخريف.

وبجولتي في المخيم تناثرت حولي شكاوى عديدة من عدم توزيع خيام للسكن والإيواء، وهو ما جعل ما يزيد على 10 % من سكانه - حسب سيدي محمد ولد عبد القادر- يعيشون في العراء. أما الحمامات التي أقامتها المفوضية من عيدان خشبية لُفت حولها شرائح بلاستيكية سميكة، تطيح بها الريح عادة. تتكسر العيدان وتطمر الرمال «العيون»؛ فمحمد أج إبراهيم - الهارب من «ليرا» - تحدث عن الحرائق التي اشتعلت بسبب أعقاب سجائر أو تطاير شرر من نيران موقد في الليل للطبخ أو للتدفئة، وقد احترقت بسبب ذلك خيام كثيرة، واحترقت معها أوراق ثبوتية وبطاقات كان يحصل بها أصحابها على المعونات، فتوقف حصولهم على الغذاء، وهو ما حدث مع فاطمة بنت الداها وأولادها وأسر غيرها.

في المخيم يرى «محمد صالح» أنه لا فرق كبيرًا بين العراء الذي يعيشون فيه طوال رحلة هروبهم والذي يعيشونه في المخيم الذي جازفوا ليصلوا إليه، ولكن الحياة سيئة، والجوع قاتل، والبرد وحرارة الشمس تعذب المحرومين من الخيام بسبب البيروقراطية والفساد. ويشكو عدد منهم من عدم حصولهم على بطاقات تعريفية في المخيم لعدم وجود بطاقات هوية مالية معهم لأنهم -كما يقول الحسن ولد بيكا- ولدنا في بوادي الصحراء بعيدًا عن المدن والقرى، وليس لدينا لا مدارس ولا مستشفات ولا إدارات حكومية تسجلنا في كشوف الدولة، ولما حدث الانفصال، وتبادلت «مانيلا» النار مع تنظيم القاعدة، هربنا

خوفًا على أنفسنا وأولادنا، وعتب على المفوضية أنها لم تهتم بإقامة مساجد أو كتاتيب ومدارس في «باسكنو».. كانت أحوال اللاجئين وشكاواهم حديث المنتديات والجلسات وقامت حملة تزعمها بعض أعيان المدينة، ومنهم «الفاضل عبد الله ولد سيدي حننا» من أبناء داود أكبر قبائل الحوض الشرقي، والتي تمتد إلى أزواد، عملوا على جمع مساعدات لهؤلاء البائسين في «أمبرَّة»، ويتساءل عبد الله ولد سيدي حننا: ماذا فعلت الدول الإسلامية العربية الغنية لإخوانهم في الدم والدين، هؤلاء الذين يتجرعون كأس الذُلّ على مدى عقود وهروبهم المتكرر إلى دول الجوار لاجئين؟! ولم تقدم هذه الحكومات شيئًا، وربما لم تسمع عنهم أساسًا، وأهملت مساعدة هؤلاء اللاجئين الفقراء وتركتهم في عراء الصحراء، وذل الفقر، وإحسانات المفوضية المتواضعة، ولا تستطيع الحكومة الموريتانية أن تقدم لهم سوى الأمن في أحضانها.

وإن كانت شكاوى سوء الغذاء، وعدم كفاية الخيام عامة في المخيم، فإن مفوضية اللاجئين قدمت الكثير - حسبما قال سبستياني أباتيتا مدير مكتبها بالإنابة في موريتانيا - مؤكدًا أن عدم الوصول إلى الرقم الصحيح للاجئين نتيجة الارتباك وتباين الأرقام التي تقدم بها أرباب الأسر - أدى إلى بعض الفوضى. ولا تألو المفوضية، بالتعاون مع شركاء من منظمات إنسانية مثل اليونيسيف وبرنامج الغذاء العالمي ومنظمة الصحة العالمية، في تقديم العون والدعم والرعاية إلى اللاجئين، خصوصًا الرعاية الصحية بداية من الوقاية، فقد وزعنا «ناموسيات» للعائلات والحوامل والمولودين حديثًا لحمايتهم من الملاريا وتوزيع مواد التنظيف، والقيام بحملات توعية للنظافة والصحة، فضلًا عن إنشاء عيادتين طبيتين، إحداهما حكومية بها ممرضون، وعيادة أقامتها منظمة «أطباء بلا حدود» البلجيكية وبها 3 أطباء، وأن أي حالة تحتاج تدخلًا جراحيًا متخصصًا يتم نقلها إلى مستشفى النعمة، وإن كانت نوعية الأمراض المنتشرة في المخيم هي الملاريا والإسهال لدى الأطفال، ولكن عدد الأطباء غير كافٍ وكذا المستشفيات الحكومية، وانتشار أمراض تتعلق بالرضاعة. ولا توجد بها جميع الأدوية، أما عن شكوى اللاجئين من عدم توزيع اللحوم والألبان

فيقول شيخ أحمد ولد دهاه مسئول الدعم الميداني، لأنهم معتادون على أكل اللحوم وشرب الحليب، فقد فكرنا في توزيع بدل نقدي لشرائها من المحلات التي بدأ البعض في إنشائها لبيع اللحوم.

* * *



مع أحد السائقين أمام بئر حولها قطيع الماعز



يشارك في ذبح عنزة



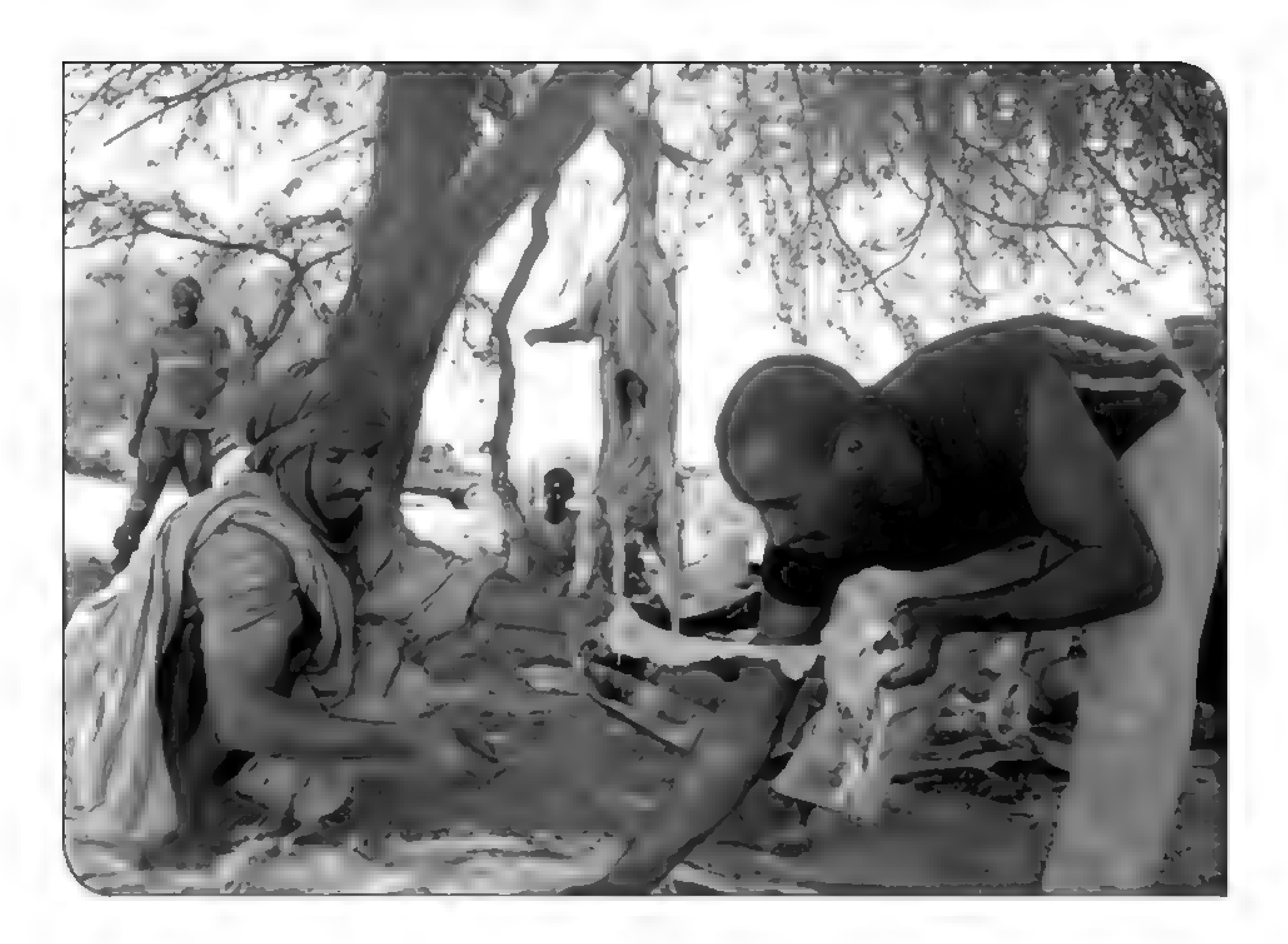
مع مجموعة السائقين أثناء الرحلة



بالزي الطارقي وسط قطيع ماعز وما أكثر القطعان



استراحة على حدود قرية «الأرنب» في أول حدود «أزواد



تقطيع اللحم يقوم به علي ولد الداه

لثام الطوارق

واللثام الذي عُرف به الطوارق دون غيرهم من سكان الصحراوات العربية، له أصول مرتبطة بالتقاليد والثقافات الأمازيغية.

في «باسكنو» قبل أن يُسلمني «أميرها» عبد الله ولد سيدي حننا إلى السائق أحمد منحني «شالًا» طوله لا يقل عن ثلاثة أمتار حاولت شكره ممتنعًا عن أخذه فلم أعتد وضع شيء على رأسي. قال عبد الله : ستضعه على وجهك، قلت مازحًا: لستُ طارقيًا، فقال: ستحتاج إليه، وأصرّ إلى أن أخذته.. عند عودتي كان الشال أو اللثام قد تحول من نصاعة البياض إلى لون الصحراء.. بالفعل كانت له أهمية حيث وقاني الله به سوافي الرمال التي تعمي العين وتملأ الأنف والفم إذا لم يتلثم الإنسان.. !!

في مخيم «إمبرّة» رأيت أحد اللاجئين في ثوانٍ معدودة وبحركات سريعة خفيفة يلفه حول رأسه ويغطي به وجهه، وهذا اللثام الذي اشتهر به الطوارق دون غيرهم من قبائل الصحراء، لا يُظهر من وجه الرجل سوى العينين، يقيهم - كما حدث معي - غبار الصحراء وسوافيها، وبعضهم لا يخلعه أبدًا، عندهم - كما قال لي البعض - أن الفم عيب أو عورة يجب إخفاؤها!! رأيت بعضهم يضع في فمه الطعام من تحت اللثام، كما سجل ذلك عدد من الرحالة، ومنهم «رولف» الذي قال: «عادة ما يأكلون وهم ملثمون في حضرة الغرباء.. ويضعون اللقيمات في أفواههم تحت اللثام»[165]..

قال لي البعض إن طول اللثام دليل على العز، فكلما طال اللثام كان معبرًا عن مدى ثراء المتلفح به.

أما لماذا تميز هؤلاء عن غيرهم من سكان الصحاري العربية والإفريقية به؟ فقيل إن السبب أن طائفة من «لمتونة» خرجوا مغيرين على عدو لهم، فخالفهم العدو إلى بيوتهم ولم يكن بها سوى الشيوخ والصبية والنساء، فلما تحقق

الشيوخ أن القادم هم العدو أمروا النساء أن يلبسن ملابس الرجال ويتلثمن ويضيقنه حتى لا يُعرفن ويلبسن السلاح ففعلن وتقدم الشيوخ والصبية أمامهن ووقفت النساء أمام البيوت فلما وصل العدو رأى جمعًا عظيمًا من المحاربين فظنه الرجال، فقال قائدهم هؤلاء الطوارق يقاتلون عن حريمهم قتال الموت، والرأي أن نسوق النعم ونمضي عنهم، فإن تبعونا قاتلناهم، وبينما هم يجمعون النعم من المراعي عاد الرجال وحصروا العدو بينهم فقتلوهم، ومن ذلك الوقت جعلوا اللثام علامة عليهم، وداوموا ارتداءه وفيه قال شاعرهم:

وقال البكري: «لا يبدو منه إلا محاجر العينين، ولا يفارقون ذلك في حال من الأحوال ولا يميز رجله منهم وليّه ولا حميّه إلا إذا تنقب باللثام، وكذلك في المعارك إذا قتل منهم القتيل وزال قناعه لم يعلم من هو حتى يعاد عليه القناع.وصار ذلك ألزم لهم من جلودهم[166]، وكلمة «الملثمين» هي أشهر التسميات التي تطلق عليهم،أما كلمة «الطوارق» فلا يُعرف لها أصل محدد ولا زمن ابتداء إطلاقها عليهم، ولكن حسب عدة دراسات يحتمل أن تكون قد اشتقت من اسم الوادي الذي سكن فيه الملثمون وهو وادي درعة الواقع جنوب مراكش الذي يسمى «تاركا» بالأمازيغية، ومعناه الوادي أو مجرى النهر، وجمعها توارك.. ويرى آخرون أن كلمة طوارق نسبة لقبيلة «تارغا» إحدى قبائل البربر القاطنة في الصحراء.

وعن لفظ الطوارق قال ابن خلدون إنها «كيل تماهق» مشتق من «ترك حب» لأنهم تركوا المسيحية لاعتناق الإسلام، وقيل إنها كلمة من مقطعين «طوا» بمعنى شعب، و«رق» اسم لمكانهم، ورأي آخر يقول إن الأصل نسبة إلى قبيلة «تارغا» أو «تاركا» كما نطقها العرب «الغزاة». أما الاسم المتعارف عليه وهو «أموهاغ» وتطلق على طوارق ليبيا، أما في النيجر فيطلق على طوارقها «أموجاغ»، وفي «أزواد» يعرفون باسم «أمو شاغ»، وقيل إن أصلهم فرع من صنهاجة وهي قبيلة عربية، ومنهم من يقول إنها جاءت من اليمن إلى الشام فمصر ثم دخلوا المغرب مع موسى بن نصير، وقيل إن عدد قبائلهم سبع منها

«لمتونة»، و«مسوفة» قَدِمتا من اليمن إلى الشمال الإفريقي ومنها إلى جنوب الصحراء والغرب عبر هجرات متتالية، واشتركت قبيلة مسوفة وعناصر لمتونية مما يسكن التراب الموريتاني في مجال الطوارق ذات الأصول الصنهاجية المختلفة ويذكر أساتذة التاريخ ولاتة وتمبكتو كامتداد ترابي وجغرافي وعرقي واحد[167].. ويشتهرون كما قال محمد محمود ودادي[168] بأنهم «الرجال الشرفاء الذين لا يكذبون»، وكلمة «إيموهاغ» التي تطلق عليهم؛ تعني ذلك «الرجال الشرفاء».

ومن قوانينهم في الحرب عدم قتل النساء والأطفال والشيوخ وذوي العاهات والأسرى والجرحى ولا يمنعون هؤلاء من أخذ الماء والمؤن اللازمة لهم.

والطوارق أو من يُعرفون أنفسهم بـ«أمازيغن» «أمو هاغ، أمو شاغ، أمو جاغ» ينتشرون في الصحراء الكبرى بين ليبيا والجزائر وموريتانيا وتشاد وبوركينا فاسو والنيجر ومالي، وفي المغرب.

* * *

البربريست والعداء للعرب

يقول بعض المؤرخين إن العرب تعايشوا مع الأمازيغ لفترة طويلة جدًّا قبل دخول الإسلام، وإن التوتر الحقيقي بينهما حديث العهد، ويعود لما حدث فترة الاحتلال الأوروبي للشمال الإفريقي ولكن هناك من الأمازيغ من يؤكد أن الأمر غير ذلك، ويستخدم اسم وتاريخ كُسَيْلَة أحد زعماء الأمازيغ إبان الموجة الأولى للفتوح الإسلامية لشمال إفريقيا للتدليل على قدم العداء. وكان قد أسلم ضمن من أسلموا وصادق أبا المهاجر دينار أحد قادة المسلمين العرب الذي استمال كُسَيْلَة، لإدراكه قدره وتأثيره على قبيلته «أوربة» التي أسلمت بإسلامه وعندما استُخلف يزيد بن معاوية بن أبي سفيان عزل أبا المهاجر دينار «عام 62هـ» وأرسل عقبة بن نافع ليخلفه فاعتقل «عقبة» أبا المهاجر وكبله بالقيود وصادر أمواله ومتاعه، وهي قصة مشهورة في التاريخ الإسلامي بهذه المنطقة.

ويومًا - كما ذكر المالكي وابن عذاري - أتى عقبة بزود من الغنم للعسكر فذُبحت ومر عقبة يتفقد الناس فرأى كُسَيْلَة جالسًا فأمره أن يسلخ مع السالخين، فقال له كُسَيْلَة: أصلح الله الأمير، هؤلاء فتياني وغلماني يكفونني، فنهره عقبة وقال له: قمْ فاسلخ، فقام كُسَيْلَة غاضبًا ليسلخ وكان كلما دمس في الشاة مسح يده بلحيته مما علق بيده من بلل الدم[169].

وجعل العرب يمرون عليه وهو يسلخ فيقولون له: ما هذا الذي تصنع؟ فيقول: هذا جيد للشعر. فمر به شيخ من العرب فقال: «كلا إنه ليتوعدكم».. ويبدو أن هذه الحركة هي التي استمرت إلى الآن في الثقافة الشعبية خصوصًا لدى عرب إفريقيا وتعني «التوعد بالأذى».

وقال أبو المهاجر لعقبة: ما هذا الذي صنعت؟! كان رسول الله يستألف جبابرة العرب كالأقرع بن حابس التميمي، وعُيَيْنة بن حصن، وأنت تجيء إلى رجل هو خيار قومه، وفي دار عزه وقريب عهد بالكفر فتفسد قلبه، توثَّق من الرجل فإني أخاف فتكه، فتهاون عقبة، لما انصرف، نكث كُسيلة ومن معه من البربر ما

كانوا عليه وتمردوا، وفروا إلى جبال الأوراس، وجمع الجموع وترصد لعقبة وهو عائد من المغرب الأقصى وقتله، وأباد كل من كان معه، ثم دفع العرب إلى طرابلس، وأُخليت القيروان من الجنود.

وهذه الحكاية التي يراها «البربريست» مدعاة لطرد العرب اقتفاء لآثار كُسيلة، ويراها عثمان سعدي الكاتب الأمازيغي المؤمن بعروبة جنسه دليلًا على أن كُسيلة لم يكن يريد إنهاء الوجود العربي، وإنما أراد فقط الانتقام من شخص «عقبة»، فهو لم يمح القيروان، بل مضى خمس سنوات كاملة يحكمها، حتى اقترب جيش المسلمين منها بقيادة زهير بن قيس قادمًا من مصر، فخرج كُسيلة من المدينة قائلًا لأتباعه: «إني رأيت أن أرحل عن هذه المدينة، فإن بها أقوامًا من المسلمين لهم علينا عهود، ونحن نخاف إن أخذنا القتال مع إخوانهم أن يكونوا علينا»[170]، وانتهت حياة كُسيلة بمقتله على يد زهير بن قيس في معركة «ممس».

ويستنتج عثمان من ذلك أن مقاومة كُسيلة لعقبة والجيش العربي.. جاءت كرد فعل شخصي عاطفي غريزي فقط، ولم تكن من منطلق إيمانه ببربريته ضد غزو عربي - كما يزعمون، وأن فشله في تصفية الوجود العربي ربما لأنه لم يكن مقتنعًا بما يفعل.

وهو ما ينطبق أيضًا على قصة «الكاهنة»، التي ظلت مع قبيلتها «جروة» في جبال الأوراس، حتى احتكت بالعرب في حربها معهم، وقبل انهزامها الذي تيقنت منه أوصت ولديها باعتناق الإسلام، فعمدت إلى دقيق الشعير فلتته بزيت وجعلته على ثديها، ودعت ولديها وقالت كُلا معه، تقصد القائد العربي المسلم خالد بن يزيد العبسي الذي أسرته مع ثمانين من المسلمين في معركة «مسكيانه» ففعلا، ثم قالت لهم: «صرتم إخوة»[171] وتركتهم، ورحلت من جبال الأوراس قبل وصول الجيش العربي بقيادة حسان بن النعمان، وأوصت خالد بن يزيد أن يصحب ولديها ويستأمن لهما عند حسان، فأمنهما «وتقبلهما حسان، وحسُن إسلامهما، واستقامت طاعتهما، وعقد لهما على قومهما»[172]،

ويرى عثمان سعدي أن الكاهنة حاربت العرب لأنها كانت تجهلهم، وعندما احتكت بهم من خلال نقاش الأسرى، اكتشفت في لغتهم وعاداتهم وطريقة حياتهم تشابهًا كبيرًا، بل وتطابقًا مع لغتها وعاداتها وطريقة حياة قومها، فتراجع الإصرار على دحر العرب من نفسها، ولكنها قررت - وهي التي عاهدت قومها على القتال - أن تقاتل حتى الموت، ويضيف: ليس من المعقول أن يقدم قائد عسكري مثلها على تسليم فلذات كبده إلى عدوه، يربيهم على دينه، وعلى لغته وثقافته[173] إن لم يكن على قناعة بهذا الدين وتلك اللغة.

وكانت بعد دخولها القيروان عاصمة المسلمين إثر انتصارها عليهم في موقعة «مسكيانه75هـ» قد تجولت في شوارعها، ثم غادرتها دون أن تتعرض لا للمدينة، ولا لأهلها بسوء.

وفي العصر الحديث عندما دخل الفرنسيون الجزائر عام 1830م لم يكن في المغرب العربي شخص واحد يقول إن البربر غير عرب، وهنا لابد أن نمضي مع المؤرخين والنسابين الذين ذهبوا إلى الأصل العربي للبربر.. مثل هاني بن بكور الضريبي، وسابق سليمان المطماطي، وكهلان ابن أبي لؤي، وأيوب بن أبي يزيد، مؤكدين أن البربر فرقتان: البرانس وهما بنو برنس بن سفجو بن أبرج بن جناح بن واليل بن شراط بن تام ابن دويم بن دام بن «مازيغ» بن كنعان بن حام، وهذا هو ما يعتمده نسابة البربر[174].. والثاني البتر، من ولد بر بن قيس بن عيلان.

ويورد ابن خلدون شعر تماضر:

وشعرًا لـ«قيس بن خالد البربري» يفتخر بأصله العربي:

ويؤكد ابن خلدون عروبة أكبر قبيلتين بربريتين وهما صنهاجة وكتامة، ويقر بأنهما قدمتا من اليمن في هجرات سابقة للفتح الإسلامي.

وقال المسعودي: البربر من غسان وغيرهم، تفرقوا إثر سيل العرم وقيل من لخم وجذام كانت منازلهم بفلسطين وأخرجهم منها بعض ملوك فارس فلما

وصلوا إلى مصر منعهم ملك مصر النزول فعبروا النيل وانتشروا بالبلاد[175]، وقال أبو عمر بن عبد البر: ادعت طوائف من البربر أنهم من ولد النعمان بن حمير بن سبأ قال: ورأيت في كتاب «الاسفندار الحكيم» أن النعمان كان ملك زمانه، واستدعى أبناءه، وقال لهم: أريد أن أبعث منكم للمغرب من يميزه، وأنه بعث منهم لمت أبا لمتونة ومسفو أبا مسوفة، ومرطا أبا مسكورة، وأصناك أبا صنهاجة، ولمط أبا لمطة وإيلان أبا هيلانة.. فنزل بعضهم بجبل «دون» وبعضهم بالسوس... إلخ[176].

ويقول عبد الرحمن باغي في كتابه «حياة القيروان»: فليس مما يناقض الحق أن يكون البربر جيلًا من الحاميين، قديمًا استوطن الغرب مدة طويلة من الزمن القديم، ثم تلاحقت به بقية من كنعان من الشام واختلطوا بهم وامتزجوا، ويقول محمد بلو: إن الأمازيغ من ولد إبراهيم الخليل وقيل من ولد يافث وقيل من «يأجوج ومأجوج» الذين جعل ذو القرنين عليهم سدًّا، وقد خرج منهم طائفة يغيرون، فسدَّ من دونهم فبقوا وتناكحوا مع الترك والتتر، وقيل من ولد الجان بعد أن ذهبت رفقة منهم الأمازيغ إلى بيت المقدس فباتوا في قاع، فأصبحوا وقد حملت نساؤهم من جان تلك البقعة، فولدنهم.. وهم أمة جبلوا على سفك الدماء ونهب الأموال والحرابة وقيل إنهم هم الذين قتلوا النبي حنظلة! وقيل إنهم هم الذين بغوا على بني إسرائيل، فأخرجوهم من ديارهم حتى قاتلهم طالوت فقُتل أميرهم جالوت وكانوا إذ ذاك بفلسطين فخرجوا منها متجهين إلى المغرب حتى انتهوا إلى لوينة ومراقبة وهما كورتان من كور مصر الغربية، ومن هناك تفرعوا إلى زناتة ومغيلة إلى المغرب وسكنوا الجبال[177] ويزيد عثمان سعدي: «وليس ما يناقض الصواب أبدًا أن يكون البربر جيلًا من الساميين الحاميين، لأن أكثر المؤرخين حديثًا توصلوا إلى نتيجة عدم وجود سلالتين منفصلتين بعضهما عن الأخرى في البربر، وإنما هم سلالة واحدة، كان مهدها الأول شرق إفريقيا واليمن.

والوجود البربري في حوض حضاري لا عرقي[178]، امتداده الجغرافي من

عُمان «السلطنة» شرقًا إلى نواكشوط غربًا، والذي مثل مسرحًا لحركة بشرية من الشرق إلى الغرب والعكس يقول الطاهر الزاوي في كتابه «تاريخ الفتح العربي في ليبيا» إن البربر كانت مواطنهم من الإسكندرية. في مصر - إلى بحر الظلمات - المحيط الأطلسي - ومن البحر المتوسط شمالًا إلى حدود السودان جنوب الصحراء، ويقول الشاوي للإله البكاي إن أصح ما قيل في أصلهم ونسبهم هو ما قال ابن خلدون.

وإن كان عالم الجيولوجيا المصري الدكتور محمد البهي عيسوي يرى أن علم الأجناس لم يحدد أصل الجنس البشري في مصر، فإن المؤرخ الفرنسي «جوتيه» EF.Gautier يرى احتمال أن الإنسان الذي عمَّر وادي النيل قد هاجر من الصحراء الكبرى[179]، ويتحجج لهذا الاحتمال بتحرك شيشنق الأول مع قبائله من ليبيا عام 950 ق.م إلى مصر، وانتصاره على فرعون، وتأسيسه لأسرتين فرعونيتين هما الثانية والعشرون والثالثة والعشرون، اتخذتا نفس الألقاب الملكية الفرعونية المتعارف عليها، وإذا تذكرنا فترة احتلال الهكسوس للمنطقة الشرقية في مصر سيناء ومحافظة الشرقية الحالية، فإننا في مقارنتنا هذه نخرج بأن الهكسوس كانوا عنصرًا دخيلًا حيث واجههم المصريون حتى انتصروا عليهم وطردوهم خارج حدود مصر ولم يستمروا إلا عقودًا قليلة من الزمن كما أن مَلِكَهُم لم يتخذ اسم ولا سمت الفراعنة عكس العنصر الأمازيغي.. وكذلك الدولة الفاطمية التي نشأت في بلاد القبائل بالجزائر ثم امتدت إلى مصر.

ويذهب المؤرخان.. العراقي أحمد سوسة، والفرنسي بيير روسيه.
«P.Rossi» إلى أن الموجات البشرية الخارجة من الجزيرة العربية.. هي التي عمرت الشمال الإفريقي، وحوض المتوسط قبل عشرين ألف سنة.

وفي استنتاج ذكي ومهم توصل الباحثون فيه إلى العلاقة الأزلية بين العرب في المشرق، والبربر في المغرب، والتي تؤكد وحدة الأصل، ومنها ديانة قرطاج التي كانت منتشرة بين البربر في المغرب، وآلهتهم مثل «بعل عمون» وأنه هو

نفس الإله، أو استنساخ من «بعل» الموجود في المشرق[180].. في لبنان، والجزيرة العربية، والعراق.

وقد أكد ذلك القرآن بذكره)أَتَدْعُونَ بَعْلًا وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ([181] وهنا القصد بما كان في الجزيرة العربية.

كما أن الأسماء التي أطلقت على مدن قرطاج الساحلية، مثل راسكور و«دلس» وروس كاد «سكيكدة»، وروس قونيه «ماتيفون» هي أسماء سامية.

وهناك من الأدلة التاريخية وكتابات المؤرخين ما يؤكد هذا الطرح مما تضيق عنه مساحة هذا الأمر في كتابي[182].

ولكني هنا أتوقف عند مشاهداتي طوال رحلة استمرت ما يقرب من ثلاثة أسابيع من نواكشوط إلى شمال مالي، والعودة، فلم أستطع تمييز عربي عن طارقي، ففي هذه الرحلة كان اختلاطي بهم كبيرًا.. تحدثنا في كل شيء، كنت لا أستطيع تمييز العرب من الطوارق، الجميع يتحدث باللهجة الحسانية ربما لأني أتحدث العربية ولكنه يعني معرفتها لديهم واستخدامها في حياتهم... أسرّ لي بعض الطوارق أنهم لا يرون فارقًا لا عرقيًا ولا إنسانيًا بينهم وبين العرب، وأن تحركهم للتحرير من قبضة الجنوب إلى الاستقلال هو تحرك مشترك، كانت خيامهم متشابهة إلى حد كبير.. في أصول الضيافة وطرق الترحيب والطهي والأكل.. حتى في مكانة المرأة، والتي تعد «سيدة الخيمة» ومرشدة الحي، وللانخراط الإنساني والتداخل العضوي الشديد.. امتدت هذه الثقافة الاجتماعية على كل مساحة الأرض التاريخية للطوارق، بداية من نهر صنهاجة الذي حُرّف إلى «نهر السنجال»، وحتى أوباري وغدامس.. وبدا لي من التبجيل والاحترام الذي تتمتع به المرأة في موريتانيا، إن لم يخلُ الأمر من بعض التعصب وهو أمر إنساني نمارسه نحن العرب بصورة يومية وفي كل بقاع هذا الوطن المنكوب ففي القرى أو النجوع عادة ما تجد عائلة كبرى تماثل القبيلة في «مرابع» الصحراء، أو عائلتين تضرب العصبية لهما من أبنائهما، أو

المنتسبين والمحبين والمصاهرين.. وبين القرية والقرية تجد هذا التعصب الأعمى، حتى إذا بحثت في صفحات الحوادث في الصحف بين فينة وأخرى، تطالع هجومًا من قرية على قرية.

وبين الصعيد وهو جنوب مصر، وبين بحري شمالها، وما أكثر ما راجت تلك النكات المنبعثة من روح الفكاهة التي يتميز بها المصريون، وفيها بالتأكيد جزء من التعصب الجهوي المكاني.

وبين مصراتة والزنتان في ليبيا، بل وبين شرق ليبيا المعروف تاريخيًّا باسم «برقة»، والغرب، وبين حمص مثلًا ودمشق في سوريا، وهكذا.

ولكن هذا لا ينفي التعصب ضد العرب الأمر في جنوب الصحراء الكبرى من البعض.. بحكم رؤيته لهم كغزاة.

زميلي الصحفي الطارقي عثمان أج محمد عثمان - وهو بالمناسبة متعصب لطيف - فسر لي اسم البرابيش الذي أطلق على واحدة من أكبر وأهم القبائل العربية في أزواد بقوله: عندما حل العرب بين الطوارق قال أحد أمرائهم: لقد حل علينا بلاء بلا ريش أي طائر البلاء وأنه سيستوطن لأنه بلا ريش ولذا لن يطير مرة أخرى.

ويعاير الطوارق بعضهم من ذوي الأصول العربية بعروبتهم، فالأمازيغ يطلقون على العرب «الغزاة»، والمثل لديهم «لاتقتل الأفعى أو العقرب بل اقتل الأمازيغي إذا استعرب» ويرون كما تقول الناشطة الطارقية الليبية تحية تان تينيري : «نحن من قمم الأوراس ولسنا من نجد أو حلب، أجدادنا أمازيغ ولم يكونوا ذات يوم من العرب .

«مفدي زكريا» شاعر الثورة الجزائرية.

ولذلك فإن نفوسهم تتمنى - كما قيل لي من بعضهم - «أن نعيش في وطن لنا نحن فقط «طوارق»، وكل علاقاتنا بالآخرين علاقة أجانب، ولا يهم أن كنا من

نفس الدين، وتكون لغة «تماشقت» هي اللغة الرسمية الوحيدة للشعب كله، يتكلم بها أينما ذهب، ومما يعبر عن هذه النفسية حكاية متداولة في أوساطهم تقول إن الشيطان هرب من الوطن العربي، فسألوه لماذا هربت رغم أن مشاريعك جيدة وناجحة مع العرب؟، فقال: علمتهم الغش والرشوة والسرقة والكذب وجني الأموال الحرام، اشتروا بها القصور والسيارات والمزارع والمكاتب، وكتبوا عليها «هذا من فضل ربي».. وهذا شيء يُقْهِر..!!

والحكاية على طرافتها.. تدين العرب أشد الإدانة.. وتصمهم بالخسة والنذالة، فضلًا عن كل الموبقات التي علمهم إياها إبليس، وأنهم غير مأمونين، فحتى هذا الذي علمهم أنكروا عليه الفضل، وهو مترسخ في بعض الذهنية الأمازيغية.ومن هذا وغيره نجد أن العرب والطوارق وحّد بينهما الإسلام ولون البشرة، والأصول العرقية وعنصرية المواجهة مع أعراق أخرى، ولكن فصل بينهما الاستعمار طوال ستة عقود، فخلّف ندوبًا في القلوب وتوجسًا «متبادلًا»، وتصرفات الزعامات التاريخية لـ«باماكو» ونخبتها «الزنجية» الحاكمة، فاستمرت المواجهة واستفحل الغضب، وتجذرت الكراهية بينهما، وإن كانت الكراهية بينهما وبين الزنوج من الناحية الأخرى، وقد وحدت بين أصحاب البشرة البيضاء، لكنها لم تؤدِّ إلى الاتفاق على وحدة المصير بسبب العنصرية التي تمسك بها الطوارق ضد العرب ففي أمثالهم التي سمعتها.. أن تهدم جبلًا بمسمار أسهل من إفهام عربي «حمار».. هذه النظرة إلى العرب الذين يراهم الطوارق الأمازيغ غزاة امتطوا الإسلام، لاستنزاف خيرات بلادهم التي يرونها - حسب ما سمعت منهم وخريطة نشرها الكثيرون منهم على صفحات التواصل الاجتماعي - تبدأ من شاطئ إفريقيا الشمالي الغربي على المحيط الأطلسي حتى ساحل البحر الأحمر.

لديهم طموح - كما لدى الأكراد - لتكوين دولة أمازيغية تضم شمال مالي مع جزء من الحوض الشرقي الموريتاني مع جنوب المغرب وجنوب الجزائر وجنوب ليبيا وشمال النيجر.

ويتواصل كثير منهم مع «الكونجرس الأمازيغي» أو مجلس الأمازيغ العالمي في «بروكسل».

وكثيرًا ما صادفت من أصدقائي الأمازيغ أو الطوارق من يؤكد أن الحل الوحيد لـ«تماشق» هو «الانفصال» بأراضيهم في هذه البلاد[183] لتكوين دولة طارقية «أمازيغية» 100 % وفي جلسة من هذه الجلسات اعترض أحد الأمازيغ الجزائريين قائلًا: لماذا ونحن نعيش نحن وإخوتنا العرب حياة واحدة؟ فردت عليه فتاة ليبية «أمازيغية» قائلة: ليس صحيحًا أنكم تعيشون مثل العرب، فالعرب يحيون في نعيم وبحبوحة الشمال، وأنتم في شظف الجنوب فقراء، رغم أن أراضيكم بها البترول وثروات أخرى، ومع ذلك مهمشون ومدنكم فقيرة حتى «تمنراست»، ويجري منذ عقود تعريبكم وتعريب بلادكم... وبهذا التعصب يمكن إثارة أزمات قد تنتهي بحروب أعراق. والكل مستعد ومهيأ لها، وقودها الفقراء المعدمون والجهلاء المتعصبون، وما أكثرهم بيننا أهل العالم الثالث أو البلدان المتخلفة العربية والإفريقية، وهو أمر يحمل كراهية للعرب ورغبة في طردهم في عدة دول، وأزمة قد تتفجر بمغذيات العنصرية والتفريق بواسطة الجمعيات والمنظمات المدنية والحقوقية الغربية التي تنشط في موريتانيا ودارفور في السودان وفي مصر وليبيا ودول أخرى.

والأمازيغ لديهم تعصب قوي ونزعات عنصرية غذتها الأحداث والاستعمار.

ومنذ عقود طُرحت أسئلة كثيرة مؤرقة في محيط الحركة الأمازيغية، ومشهديها الثقافي والسياسي في بلدان وجودها في دول الشمال الإفريقي.

هذا مع قطع مسافات جيدة في سبيل إقامة بناء نخبوي، ربما لأن الشعوب في فقرها وجهلها تسير قطعانًا وراء النخب؛ هذا مع شديد الأسف لأن النخب في بلادنا في أغلبها فاسدة وأنانية، وانتهازية تتاجر بتعصب العامة للعرق وجهلهم النكبات الجماعية في الحياة التي تتطلب العيش الآمن خصوصًا في حال التميز العرقي الشديد كما في حالتي الأكراد والأمازيغ.

وإن كان الخطاب العرقي الأمازيغي قد وُلد في المغرب، بتأسيس جمعية البحث والتبادل الثقافي، وجمعية «الانطلاقة الثقافية»، وجمعية «الجامعة الصيفية».. فإن هذه الولادة باتت متعثرة أثناء المد القومي العروبي وسيادته للمشهدين السياسي والثقافي النخبوي، كحاجة لإبراز النصر على الاستعمار وتأكيد الهوية الوطنية فترتي الخمسينيات والستينيات الذي تراجع الآن ليبدأ الصعود العرقي الجهوي وما يحدث في ليبيا وشمال العراق وسوريا وما كان في الجزائر في «عشرية الدم» شاهد على ذلك.. لكن شمال مالي شهد ضعفًا ارتبط بالقهر الذي مورس ضدهم ثم بحالتي الضعف البنيوي الجسدي للجسم الطارقي بهجرة غالبية النخب إلى ليبيا وشُح المياه سواء بعد بناء سد مريكلا وعصف الجفاف بالمنطقة حتى هلك الضرع والزرع والإنسان .

***

عودة على طريق الألم

قضيتُ ساعاتي الأخيرة في «باسكنو» متحرقًا إلى العودة مشبعًا بألم الرغبة فيها رغم تأكدي من مشقتها على طول الطريق إلى النعمة.

جاهدت كي أعبئ النفس بقدرة الاحتمال أملًا في الخلاص من رحلة عذاب وتوجس في الصباح، لم يكن هناك شيء أفعله سوى تناول الطعام مع عبد اللّٰه وضيوفه في أحد أجنحة منزله الكبير وسط أعيان المدينة وأشرافها من كبار السن الذين يمتلكون حكمة القول والإنصات. وإن لم أعد أحتمل مجادلات الأحاديث، فقد كان يمكنني الاستزادة من المعرفة ولكن الإفراط في الشقاء كان يلجم لساني عن الحديث وسمعي عن الإنصات وقلبي عن تقبل وافدين جدد إليه، فقط كنت أريد السفر. موعدنا بعد العصر.. هكذا هي ساعات السفر في هذي المناطق من العالم. زرت علي إدريس في منزل الأمين صالح، وجلسنا ومعنا محمد رمضان المناضل العربي الشاب أحد القيادات المدنية للحركة العربية لتحرير أزواد.. معهم كنت أشعر براحة شديدة وود أصيل واستئناس.. معهم فكرت في تحويل موضوعاتي الصحفية إلى كتاب يسجل للشرف العربي نثارًا من تاريخ الغرب.. منحني الأمين صالح هاتف عادل ابن الشيخ محمد محمود «الأرواني» قاضي محروسة «تمبكتو» الذي يعيش في «نواكشوط».

في طريق العودة إلى منزل عبد اللّٰه.. بقينا في وسط المدينة بجوار محطة السفر بعض الوقت في أحد «الدكاكين» كان بائع اللحم المشوي المقدد يدور به على الزبائن في الدكاكين فيما يشبه مشنة أو قصعة.. أشار له أحد الجلوس، وضع قصعته، اختار كل منهم جزءًا ليقطعه البائع.. منعني سأم الانتظار وتوحش الرغبة في العودة وحرارة الظهيرة من تناول علبة حليب كانت كافية في منزل عبد اللّٰه.جهزت حقيبتي وصففت أوراقي. فزعت فزعًا شديدًا عندما مددت يدي إلى جيب صغير حفظت فيه «فلاشة» خزنت فيها جزءًا مهمًّا مما التقطته كاميرتي الصغيرة من صور. كان حجمها صغيرًا للدرجة التي جعلتني -

كالمجنون - أفرغ كل الحقيبة وأنزع أغلب ملابسي وأفتش بين أركان كنبات الغرفة وتحت المقاعد والسجاجيد.. فعلت ذلك مرات عدة حتى انتبه عبد الله وسيدي محمد ولد عبد القادر الذي جاءني حسب موعد اتفقنا عليه.. أخبرتهما. قاما يبحثان معي، نادى عبد الله على «بوبو».. سألته عنها، فاستفسر مني عن شكلها، أخبرته فأخرجها من جيبه يا ألله.. أنقذني بوبو من غم لا أعرف مداه.. قال إنه وجدها صباحًا أثناء تنظيفه أمام الغرفة، لا بد أنها وقعت مني سهوًا.. حمدت الله وشكرت بوبو وعبد الله.. وطلبت من سيدي محمد التحرك.. كانت المسافة غير بعيدة حتى مركز المدينة ولكنها كانت كافية لأن أرى الشوارع بصورة أفضل من مشاهدتي لها من نوافذ سيارة مسرعة.. مدينة بسيطة متواضعة ولكنها عابقة بكرم وطيبة أهلها.

اتجهت مع سيدي محمد ولد عبد القادر إلى عبد الرحمن ديسك المهندس الزراعي الذي يدير إحدى المؤسسات المدنية العاملة في مجال الزراعة من خلال المنح والمشاريع التجريبية وتمول من الخارج. كان هدف الزيارة نقل لقطات الفيديو التي التقطها لي ولد عبد القادر في المخيم بكاميرا فيديو يسجل بها الأحداث إلى «فلاشة»، سعدت بالتعرف إلى الرجل الذي بدا هادئًا متواضعًا يحمل طيبة وفطرة هذه الأرض وهؤلاء البشر المسالمين، حزنت لعدم التعرف إليه قبل ذلك وتألمت جدًّا لكلامه وهو آخر ما سمعت في «باسكنو» قبل الرحيل عن اتفاق جمعيته مع مكتب الأمم المتحدة في نواكشوط على حمل زوارهم أو مندوبيهم على طائرتها الأسبوعية إلى «باسكنو» وتهبط في النعمة في طريقها. أضاف الرجل: لو كنت عرفتك لساعدتك في الحضور إليها، كاد يغمى عليَّ من المفاجأة وأنا أتذكر شقاء الرحلة ووعورة المسافة المتبقية وطولها الذي سيستغرق يومين. عرض عليَّ أن أنتظر ليوم الأربعاء موعد الرحلة التي ستصل إلى نواكشوط الرابعة عصرًا، فكرت قليلًا، كيف سأقضي يومي الإثنين والثلاثاء ونصف نهار الأربعاء وقد مللت كل شيء. فقررت إنفاذ العزم بالسفر في سيارة اتفقت مع سائقها وستنطلق بعد نصف ساعة لأقطع الوقت بالسفر، خصوصًا أن المتوقع الوصول بالسيارة إلى نواكشوط في

السابعة صباح الأربعاء فأكسب ساعات النهار الأولى، مما يتيح لي سرعة حجز تذكرة العودة إلى القاهرة على طائرة اليوم التالي «الخميس»، وألتقي أصدقائي الدكتور محمد ولد أحظانا، والدكتور محمد البرناوي، والمستشار محمد شيخ سيديا، وأحمد جدو وجمال عمر.

كنت قد دفعت خمسة آلاف أوقية حجزًا لمقعد بالسيارة، فاعتمدت على من تـوكلت عليـه، كـانت مشكلتي هـي استبدال الـدولارات بالعملـة الموريتانيـة «الأوقيـة». لـم أجـد، فالعملـة الأكثـر قبـولًا هنـا وفـي مالي هي «اليورو». قبل الانطـلاق سـألني السـائق الشـاب الأسـوأ بـاقي ثمـن الرحلـة، سـألته أن يغير الدولارات، طلب أن يأخذها بأقل من سعرها بـ 5 آلاف أوقية، رفضت وأخبرته أنني سأستبدلها في «النعمة»، وأعطيه الآلاف المتبقية له، فأصر على أن يمسك ورقة الدولار في يده حتى نصل.

تشاءمت من هذا السائق الذي كان الإنسان الأسوأ الذي قابلته طوال وجودي في موريتانيا، شجعت نفسي على تحمل سخافته فوق مشقة الطريق، عبئًا على عبء، كما أن سيارته كانت أسوأ السيارات التي ركبتها وأكثرها تهالكًا.. ما إن بـدأ المسير ظننـت أنـه سيواصل ولكنـه توقف كثيرًا لإنزال ركاب وحمل غيرهم بعد مسافات قليلة، كان يحمل في المقعد الخلفي أربعة ظلوا مختلفين طوال الرحلة وفي شبه عراك نتيجة الضيق الشديد، خصوصًا أن أحدهم كان يتمتع بجسد سمين بعض الشيء والمقعد مخصص في الأصل لاثنين فقط، وفي الصندوق حمل أكثر من عشرة ركاب بعضهم من الهاربين من مالي، توقفنا مرة أخرى عند مكتب الجوازات خارج البلدة.. كان مغلقًا.. تطوع أحد الركاب بالاتصال بالضابط حتى يحضر ليختم لنا الجوازات. ويسجل أسماء المسافرين الموريتانيين، وأدينا صلاة المغرب أمام مكتب الجوازات. عندما توضأت انفعل أحد الشباب طالبًا مني استبدال المسح على الجورب بنزعه وغسل القدمين، فأوضحت له أن مذهبي حنفي، وهم مالكيون، فعارضني السائق «الغشيم» رغم أنه لم يتوضأ، فضحكت منه، وصليت، عندما حل ظلام الليل كانت السيارة

الفقيرة المتهالكة تتدحرج على الطريق وكأنها في عراك معه وهي تسير فوق موضع العجلات الغائرة في الأرض الطينية أو في الرمال الناعمة أو هي تشق تشابك أغصان شجر الشوك عندما ازدادت كثافتها.كانت السيارة تخترقها فتخربش في أجساد الركاب داخل صندوقها وشقت وجه أحدهم، فظل يدق على كابينة السيارة لطلب ماء يغسل به الجراح.

وعندما حاول السير وجدها قد تعطلت، ففتح «الكابوت» ودق بحجر كان يضعه تحت قدميه على شيء في الموتور ودعا الركاب لدفعها ففعلوا، دارت فركبها وقبل أن ينطلق التفت إليّ وساومني على تغيير الدولارات المائة بمبلغ ينقص خمسة آلاف عن السعر المتداول، فأعدت الرفض!! وظلت السيارة تتدحرج على الطريق الوعرة «تهبد» أجسادنا وأتخبط وكأنني حجر في علبة يمينًا ويسارًا وأرتفع بقوة اهتزاز السيارة على الأرض فيصطدم رأسي بسقفها، ليس بها مقبض لأمسك فيه في حالة الارتطام، ثم تتوقف وينزل بالحجر ليدق على شيء في الموتور ويطلب من الركاب دفعها، ونعود إليها لتعيد مرحلة تكسير عظامنا حتى وصلنا عند الكيلو 80 من الطريق، عندها أصر أن يستريح ساعتين لأن النعاس يغالبه فدخل معه الركاب في خناقة حادة تقريبًا هي الخناقة الوحيدة التي رأيتها في موريتانيا، ورغم غضبي و«قرفي» من هذا السائق البائس فإنني فضلت الصمت، فلا حيلة لهم أو لي، ولا رغبة لدي في الحديث ولا قدرة لي عليه من التعب، والوقت وإن طال أو قصر فلا مشكلة عندي، لأننا مع كل التسكع والتلكع سنصل إلى «النعمة» قبل موعد انطلاق حافلة «المسافر» التي طلبت من مديرها «الشيخ علي» هاتفيًا أن يحجز لي مقعدين بجوار سائقها، وقد وعدني. نزل الركاب رغمًا عنهم ونزلت بدون رغبة ولا رفض.

كنت منهكًا، ألقيت جسدي على حصير الأرض أمام البناء الطيني الذي توقفنا أمامه في الريح غير عابئ، وما إن غفوت حتى نبهني أحد رفاق الطريق إلى استعدادهم للرحيل، لتعاود السيارة تهاديها الممل على الطريق لنقطع 60 كيلو في 4 ساعات زاد من ضيقي ما صمَّ أذني به مما يشبه الغناء الشعبي الدارج

الذي تستخدم فيه كل آلات الطرقعة والقعقعة بتنافر واضح. العجيب أنه ككل سائقي هذه النوعية من السيارات في بلادنا كلها لا ينسجم إلا برفع صوت «المسجل» إلى آخر مدى .رجوته مرات أن يخفضه. مرة يستجيب ومرات لا يلقي لي بالًا وكأنه لم يسمعني. وأنا أواصل الضغط على أعصابي ممسكًا ببعض خيوط الحلم والأناة حتى لم أستطع التحمل فانفجرت فيه غاضبًا طالبًا خفض الصوت، ففعل. بعد فترة عاد، ليتوقف مرة أخرى قبيل الفجر أمام أحد المنازل في قرية قليلة البيوت، خمنت أن التوقف لعارض بالسائق أو سيارته. أسندت ظهري على الأرض ومددت قدمي، فأيقظني أحد الرفاق وهو يشير - لي - إلى غرفة كبيرة مستطيلة في البيت، وأخبرني أننا سنبيت بها، فكرت.. ربما هو بيت السائق. وعندما دخلته طرحت جسدي على الحصير فبدأ توافد الركاب إلى جواري، كانت نساء المنزل يقمن بنقل عدد من الكراتين والبراميل والصفائح منها لتتسع للجميع. ألقى اثنان من الماليين السود أنفسهما بجواري فأصبح المكان ضيقًا، حاولت إزاحة أحدهما بدفعه بيدي بعيدًا عني مرتين لم يهتم أو حتى ينظر إليّ، وظل في حديثه وضحكاته العالية التي بدت كالصراخ في صندوق مغلق، ولا أحد يستغرب، انتقلت إلى ركن الحجرة على التراب، كانوا جميعًا يتحدثون ويضحكون بصوت عالٍ وكأن التعب لم يطل أبدانهم، صرخت فيهم ليصمتوا، لم يلتفت إليّ أحد ولم يهتم، ولم يصمتوا وكأنهم لم يفهموا قولي. صمتُّ أنا واستسلمت للنوم رغم كل هذا الصراخ ورغم عويل الريح في الخارج وتخبط البراميل والصفائح بفعلها في اصطدام متكرر ومزعج، ولكن هدني التعب فنمت حتى استيقظت بعد ساعة تقريبًا على حكات شديدة في جسدي ولسعات كأنها وخز آلاف الإبر أو قرصات نمل أو لسعات عقارب.

اشتد ذلك في جانبي الأيسر وظهري.. ما يشبه «أكلان» شديدًا، بدأت أهرش جسدي بعنف وبلا وعي، ولا نتيجة. أضأتُ نور الهاتف المحمول ونظرت إلى جسدي بعد أن أرخيت ملابسي فوجدت مئات من النمل الأسود وقد احتل جسدي، وبدأ يمرح في سيره وكأنه في مهرجان للألعاب أو حديقة أطفال.. رفعت حافة الفانلة الداخلية وأفرغت زجاجة ماء على جسدي وبدأت في

تنظيفه، خرجت أقاتل النمل على جسدي إلى الخارج، جلست أمام المنزل في مواجهة الرياح العاتية، سرت إلى السيارة فوجدت أحدهم نائمًا في المقعد الخلفي، فاضطررت للنوم جالسًا في المقعد الأمامي.عاودتني آلام مبرحة في عظام ظهري ورقبتي، وعاندتني الريح التي تخللت فتحات السيارة المفككة والمتهالكة، ولكن الإرهاق والتعب أخذاني إلى النوم، بعد ساعة دار موتور السيارة وعلا صخب الركاب، وعدنا نتهادى ونتدحرج بسيارتنا البائسة على الأرض الوعرة. وبعد مرور الوقت اعتدلت السيارة في سيرها، وأصبحت شبه آمن من الاندفاعات داخلها وخفت الدحرجة بعد قلة المطبات، مما ساعدني على معاودة النوم، حتى استيقظت من الآلام في ضوء النهار وقد بدت مباني «النعمة» لنا عن بُعد حتى وصلنا إليها، وهناك عاود السائق الذميم مساومتي على الدولارات، فسقته إلى مكتب «المسافر» وطلبت من مدير المحطة إعطاء السائق بقية الثمن، وأن يأخذ منه الدولارات، ففعل مشكورًا، بعدها هاتف «الشيخ علي» وأعطاني التليفون.. طمأنني المدير على المقعدين وطلب مني أن آخذ من مدير المحطة أي مبلغ أحتاج إليه في السفر، فشكرتُ له صنيعه وتعاونه وأدبه، وأخذت خمسة آلاف أوقية من الرجل وأعاد لي الدولارات كي أستبدلها من عليٍّ، فلا حاجة له بها ولا تُغيِّر في النعمة.

كنت أتمنى أن أزور «شياخ» وأمضي معه يومًا أو يومين أزور فيهما «ولاتة» هذه المدينة التراثية العظيمة التي لها من الثقل في نشر الإسلام في غرب إفريقيا وحفظ تراثه الحضاري والفقهي، ولكن طرقها وعرة وأحتاج لكل وقت للعودة.. نفسي أعود لبلدي.. اشتقت إلى مصر. طلبت من الرجل مكانًا خاليًا أنام فيه حتى تستعد السيارة، ولم أنم وظللت أردد في نفسي أغنيات وطنية تأخذني إلى بلادي.. أحيائها.. شوارعها.. ناسها الطيبين.. أمي وابنتي ورد. دقائق قليلة غفوت فيها بعدها استيقظت.

يا لهذه الرحلة المتعبة، لا أكاد أغيب في نوم إلا وأستيقظ، إما بفعل فاعل وإما قرصة نمل وإما سفالة ضفادع.

العودة إلى القاهرة

كان مبنى سيارات «المسافر» أفضل مما سواه فمنيتُ نفسي - نظرًا لطيب المعاملة من موظفيه - أن أستلقي في إحدى غرفه حتى موعد قيام رحلة العودة إلى نواكشوط بعد ساعتين، ثم عدلت الفكرة إلى ساعة فقط، مما يساعدني على مهاتفة شياخ ولقائه ولو في المحطة.. طلبت من الموظف الودود أن يسمح لي بالراحة. وافق مبديًا تعاطفه وإشفاقه عليَّ من سوء الطريق ومشاق المراحل التي قطعتها، فتح بابًا فوجد به امرأة معها بعض الأطفال فأغلقه، فتح بابًا آخر وجدنا به عددًا من الرجال في جلسة لا تسمح لي بالاسترخاء، كانت الفرصة في الباب الأخير.كانت بالفعل خالية إلا من بعض حقائب وزكائب تبدو أنها لمسافرين، وكالعادة كانت مفاصلي وعظام جسدي كله تؤلمني أشد الألم فضلًا عما بدا نوبة برد أو حُمَّى.

استلقيت لم أمتلك قدرة على استعمال الهاتف لطلب شياخ، نمت نومًا متقطعًا حتى دار موتور السيارة وعلا صخب الركاب وضجيجهم، فاعتدلت على مقعدين وحدي بجوار السائق الطيب، واعتدلت السيارة على الأسفلت واستوت في سيرها، كنت أنظر إلى الأسفلت في فرح أختلس إليه النظرات كمن ينظر إلى معشوقة.. كدت من فرحتي باستواء الطريق أن أحتضن الأسفلت وأقَبِّلهُ سعيدًا بالسير الناعم وراحة الجلوس وتكييف الهواء داخل السيارة. لم يشغلني إلا تحرق الكبد للعودة إلى بلادي.. شعرت طوال رحلة العودة براحة افتقدتها منذ وطئت أقدامي هذي البلاد. لم يزعجني سوى توقفات السائق للراحة أو الغداء، وإن كان انزعاج المتلهف.. عدت إلى طبيعتي الراضية الهادئة. استسلمت طوعًا للحديث أثناء محطات التوقف مع سيد أحمد التاجر الشاب الذي صحبنا ضمن الركاب من النعمة وضابط الصف العجوز اللذين تقاسمت معهما الوقت والحكايات وثمن الغداء في «العيون». هونا عليَّ ما خلته غير محتمل من أكل لحم معرض للذباب طوال النهار غير ناضج بعد شيِّه على الجمر تقلبه أياد غير نظيفة، وأكواب «الأتاي» ربما لم تغسل جيدًا منذ استعمالها

يقدمها صبية سود شديدو القذارة في البدن والملابس.. هذا غير مكان الاستراحة وهو عبارة عن بسط ووسائد اتكاء ومراتب «سفري» صغيرة شديدة اللزوجة من العرق والماء وما سكب عليها من بقايا طعام تنبعث منها روائح غير جيدة. كان الجلوس عليها نوعًا من القدر المحتوم طلبًا لبعض راحة للجسد المنهك.

ولكني رأيت أن لا غرابة فيها وفي بدن وملابس الصبيين اللذين قدما لنا الطعام عن بدني وملابسي.. كنت أشبه بهم وبالوسائد من اللزوجة والاتساخ مما نبهني لقبول ذلك راضيًا محتسبًا، خسرت رفقة سيد أحمد عندما غادرنا في إحدى محطات السفر ليواصل السفر إلى نواكشوط على متن سيارة جيب حديثة لأصدقاء كانوا في انتظاره عرض عليّ رفقتهم.. شكرته مستأنسًا بـ«عم عليٍّ» ضابط الصف العجوز.. في «مقطع لحجار» توقفنا ليلًا لأداء صلاتي المغرب والعشاء وتناول طعام وراحة لساعتين، وكانت أفضل المحطات طوال السفر.تناولنا العشاء في الهواء الذي لم يكن باردًا.. بل شبه دافئ تتقاطعه بعض النسمات الباردة.

بدت نواكشوط شاحبة مرهقة من نافذة السيارة وهي تقطع بر شوارعها إلى المطار فجرًا، كما بدت لي من السماء عندما حلقت الطائرة فوقها كنتُ في غاية الإرهاق.. جسدي يؤلمني؛ ذراعاي وظهري ورقبتي من شقاء أحد عشر يومًا قطعتُها في السفر والعودة من شمال مالي. زاد ضجري معاملة مضيفي الخطوط المغربية السيئة للركاب، وهي من أسوأ ما رأيت من تعامل مضيفي الطيران مع الركاب، تمامًا كسوء معاملة موظفي وعناصر الأمن في مطار محمد الخامس بالدار البيضاء، نفس تكشيرات الوجوه وعبوسها في استقبالنا كما حدث في رحلة الذهاب.. وهو ما حدث في رحلة العودة عبر هذا المطار الذي اضطرتني الظروف للمكوث فيه ثلاث ساعات في انتظار الطائرة المتجهة إلى القاهرة، والتي اشتقت وأحرق كبدي الشوقُ إلى العودة إليها، بعد سفر متواصل لمدة ستة أيام من «تمبكتو» شمال مالي. حرصت أن أحمل حقائبي الصغيرة

معي ولا أتركها للشحن خوفًا على ضياع أي من الأوراق أو الكتب كما ضاعت زجاجة العطر، نزعًا بعد كسر القفل الصغير في رحلة الذهاب.. وهو ما ذكرني بعودتي من موريتانيا بطريق البر عبر صحراء الجريجرات قبل اثني عشر عامًا ويومها أيضًا فقدت هاتفي المحمول بعد إجراءات التفتيش التي تعرضت لها يومها.. لم أعرف رحلة نظرت فيها إلى ساعتي كل هذه المرات. فكأني كل دقيقة أستحث العقارب لتمضي بي إلى نهاية الوقت، لأجد نفسي في القاهرة بعد هذه الرحلة التي عانيت فيها كما لم أتعرض لمعاناة من قبل تعبًا.. مطاردة الموت والخطف كانت دائمة، والتحذيرات من جمود الجماعات الإسلامية وصلفها وقسوتها واحتمالات الفناء في الصحراء.

* * *

... قطر لتخريب المنطقة

لم يكن لقطر في ظل حكم الشيخ خليفة آل ثان[184] أي نشاط خارج حدودها، اكتفاء بالعيش في إطار حجمها الحقيقي، ولكن مع التمتع بالثراء الذي تفجر من الأرض في صورة غاز وبترول قبيل نهاية القرن العشرين، بدأت الرغبة القطرية في لعب دور في عالميها العربي والإسلامي أو أريد لها ذلك وتشظى بافتتاح قناة الجزيرة، وتبنيها سياسات تأليبية تسللية لبؤر الإرهاب في الوطن العربي، والعمل على تفعيل تنظيماته التكفيرية لصالح مشروعي التخريب والتقسيم، وبدأت خطة الامتداد في قارة إفريقيا لنفس الغرض، لتطبيق مخطط الشرق الأوسط الجديد، وهو الدور الممتد من العراق، وحتى تمبكتو في شمال مالي.

وتحاول قطر وراثة الدور السعودي في دعم هذه الجماعات لتحقيق ما عملت السعودية على تحقيقه لعقود حتى اكتوت هي بما أنفقت ورعت، وهو تطور لنظرية العدو القريب الذي باتت قطر جزءًا منه، ولذلك فإن احتضانها للعديد من أمراء حرب طالبان الأفغانية كان أمرًا عاديًّا.. وآخرون من دونهم «لا نعلمهم» الله يعلمهم، وهو ما استدعى توجه مولانا فضل الرحمن رئيس جمعية علماء الإسلام في إسلام آباد التي تخرج فيها عدد كبير من زعماء حركة طالبان - إلى السفر إليهم أوائل فبراير 2013 للتفاوض معهم.

مما حفظ لها مشاركة جوهرية في نجاح المفاوضات الأمريكية مع طالبان لتحرير سجين الحرب الأمريكي الرقيب «بوبا جدال» مقابل تحرير 5 عناصر من طالبان من سجن جوانتانامو.. تم بعدها استقبالهم علنًا وبحرارة في الدوحة.

وكان الهلال الأحمر القطري عقب إعلان إمارتين إسلاميتين في شمال مالي قد عقد اتفاقًا مع فرع الصليب الأحمر الدولي في مالي للسماح بتقديم مساعدات وإعانات في الشمال موطن الأزمة، وتحديدًا في مثلث الانفصال «جاوا تمبكتو

كيدال»، وهو معقل جماعتي: التوحيد والجهاد، وأنصار الدين.. حتى يمكن توفير الغطاء الأمني الرسمي لتحركات قطر المخزية في دعم هذه الجماعات[185]، وهو ما فضحه عمدة مدينة جاوا «سادوا ديالو» بشكل واضح متهمًا قطر بتمويل الإرهاب والجماعات المتطرفة في المدينة ودعم جماعة «التوحيد والجهاد» وتأكيده أن المؤسسات القطرية كانت الوحيدة التي يسمح لها بالعمل، وتحدث عن هبوط طائرات قطرية في مطار «تمبكتو»، هذه الطائرات حسب «حم أج هانتال» ساهمت في نقل ذخائر إلى الجماعة، فضلًا عن الدعم المالي الذي كانت تقدمه.

وهو ما أكدته صحيفة «لوكانار» الفرنسية في يونية 2012 بأن قطر «الحليف الوفي للولايات المتحدة» مولت مختلف الكيانات الإرهابية في مالي بما فيها جماعة أنصار الدين، والتوحيد والجهاد.

كما تلقى متمردو حركة تحرير أزواد العلمانية أيضًا المال القطري لإذكاء النيران.

وكان وصول طائرة قطرية محملة بالأسلحة والمال في مطار جاوا، وتمويلها لكل المجموعات أو التنظيمات وتقارير الهيئة العامة للأمن الخارجي الفرنسي المقدمة إلى وزارة الدفاع أكدت ذلك الدعم القطري للإرهاب في «DG SE» مالي.

ولعل الموقف الصلب لحاكم نواكشوط الجنرال «محمد ولد عبد العزيز» مع حمد بن خليفة «شيخ قطر السابق» عام 2011 كان دليلًا قاطعًا على الرعاية والتمويل القطري للإرهاب، بمحاولة التدخل لدى حكومة ورئيس موريتانيا لتخفيف وطأة المتابعة الأمنية، وهو ما سجلته صحيفة «السراج» الموريتانية مؤكدة أن «شيخ» قطر حاول - في شكل نصيحة أخوية، أو أمر نفطي - نصح محمد ولد عبد العزيز بضرورة التسامح مع ما أسماه تيار الإصلاح الديني، وخصوصًا رئيسه الشيخ محمد الحسن ولد الددو - إخواني - وتخفيف القبضة

الأمنية على الإسلاميين، وهو ما أدى إلى انفعال ولد عبد العزيز، ومغادرة قاعة الاستقبال بالمطار، وترك «الشيخ القطري» وحده، الذي استدار عائدًا إلى طائرته الخاصة، ومُنِعَ مصورو التليفزيون الموريتاني، والمصورون الصحفيون من تسجيل هذه المغادرة!!

بعدها بدأت الجزيرة - قناة قطر الفضائية - في نشر وإذاعة حلقات وأفلام وثائقية عن الرق والعبودية في موريتانيا، ولم تنته الأزمة إلا بعد تدخل رئيس حزب تواصل - الإخواني - لدى يوسف القرضاوي، والاتفاق على ترك الحرية لدعم جماعات الإرهاب في مالي عبر الحدود الموريتانية المالية.

وهو ما يتردد كثيرًا في موريتانيا خصوصًا بعد القبض على دبلوماسي قطري في سفارتها بـ«نواكشوط» متلبسًا بدفع أموال لمتشددين موريتانيين ينتمون إلى تنظيم القاعدة وإجراء اتصالات مشبوهة مع عناصر «القاعدة» وتسهيل وصول خليجيين وتوفير الحماية القنصلية لهم وتهريب الأموال إليهم سواء من موريتانيا أو من ليبيا، خصوصًا بعد أن تم تغيير جميع ضباط ومسئولي المنافذ الحدودية والموانئ الليبية بآخرين ينتمون إلى تنظيم «أنصار الشريعة» و«الإخوان» و«الجماعة الليبية المقاتلة» في ظل سيطرتهم على المؤتمر الوطني العام ووزارتي الدفاع والمالية في ليبيا قبل أن ينتهي ذلك بانتخاب «مجلس نواب» جديد.

ومما لا شك فيه أن دور قطر الداعم للإرهاب في غرب إفريقيا قبل وفي أثناء وبعد انفصال شمال مالي «أزواد».. ساعد على إشعال المنطقة، وقد أكد ذلك ساندا ولد بو عمامة الرجل الثاني في «جماعة أنصار الدين»، ووصول هذا الدعم المالي من خلال عدد من الموريتانيين، سواء ممن يعملون في الخليج بحمل حقائب المال وإيصالها إلى مدينة النعمة، ثم «باسكنو»، ومنها كان يُنقَل عبر كثير من عناصر هذه الجماعة من الموريتانيين من سُكَّانِ المدينتين إلى تمبكتو، وأحيانًا كانت تتسلم «الجماعة» حقائب المال في مدينة «طونكي»، وأحيانًا يتم تسلم المال من موظف السفارة القطرية في نواكشوط.

وقد انتبه الأمن الموريتاني إلى ذلك في شهري أكتوبر ونوفمبر 2012 حتى تم توقيف موظف بالسفارة القطرية بنواكشوط في الطريق بين «كوبني» و«نيو»، بعد أن أكدت التحريات حقيقة عمله كضابط مخابرات، وأنه كان ينوي التسلل إلى تمبكتو عبر حدود موريتانيا مع مالي[186]، ورغبتها في استكمال الهيكل الإرهابي لتصديره فيما بعد، وإيقاف هذه الخطة بالضربات الفرنسية؛ فقد أبدت قطر على لسان حمد بن جاسم رئيس وزرائها - في أثناء حرب فرنسا على هذه الجماعات المتطرفة - شكوكًا حول جدوى التدخل الفرنسي في مالي ضد الجماعات الإرهابية.. طبعًا كان حمد يقصد رفض الحرب، ولكن العلاقات السياسية وأصول الدبلوماسية فرضت عليه فقط إبداء الشك، وهي رسالة تصل بمعانيها للطرف الآخر، ولذلك لم يكن أمام الفرنسيين سوى فضح دور قطر في دعم هذه الجماعات.

واستدعى مارين لوبان زعيم الجبهة الوطنية «حزب اليمين المتطرف»، وميشيل ديشمين عضو مجلس الشيوخ في فرنسا، إلى الإشارة والتنديد بالدعم الذي تقدمه قطر ماليًا ولوجستيًا «لمجموعات متشددة» في مالي، وسياسيًا بتصريح أمير قطر بأن القوة لن تحل مشكلة شمال مالي، وأن قطر غير راضية عن التدخل العسكري، وفي يونية 2012 أكد تقرير لمجلة «لو كانار أنشينه» الأسبوعية الباريسية عن مصادر مخابرات فرنسية أن أمير قطر منح مساعدات مالية لجماعات متشددة في مالي.

وأشار أندريه بورجو، الباحث المتخصص في الشأن المالي في المركز الوطني الفرنسي للبحوث العلمية، إلى وجود أدلة - مخابراتية - دامغة عن وجود ارتباطات وثيقة بين الجماعات المسلحة في مالي وقطر، وهو ما أكده أيضًا إيريك دينيس - رئيس المركز الفرنسي لبحوث الاستخبارات - باعتياد قطر لعب أدوار كثيرة في المناطق التي توجد فيها جماعات مسلحة مثل ليبيا وسوريا وشمال مالي، حيث تسعى لرفع مستوى تأثيرها الاستراتيجي في دول غرب إفريقيا والساحل لمنافسة السعودية! وهو الأمر الذي لمسته عن قرب إبان

تغطيتي أحداث ثورة «17 فبراير» في ليبيا والثورة السورية التي لم تحدد لها تاريخًا أو عنوانًا حتى الآن، سواء في المناطق الملتهبة أو دمشق أو في الأردن، وكشفه أحد العناصر القيادية بالتوحيد والجهاد «عمران أج أحمدو» بقوله: إن قطر تدعم جماعته «التوحيد والجهاد»، وجماعة «أنصار الدين» ماليًّا بشكل جيد وعسكريًّا بدفع أموال لأطراف ليبية ثمنًا لـ«صواريخ وذخيرة وسيارات دفع رباعي» جاءت بها سفينة إلى ميناء طبرق، ومنها اتخذت مسارها إلى سبها عبر إجدابيا وسرت، ثم إلى وادي الآجال ومنها إلى حدود النيجر ثم جاوا في شمال مالي.

ولأنها - قطر - لا تريد الابتعاد عن الغرب الإفريقي بعد هزيمة جماعاتها هناك عملت على إيجاد صيغ جديدة بوجود رسمي يتيح لها الحركة بطريقة مشروعة، وهو ما يثير الشك في استمرار الأزمات في مثلث التكفير «مالي والنيجر وليبيا» بعدما سعت للحصول على أربعة تراخيص للتنقيب عن المعادن لـ«شركة قطر للتعدين» في مالي - كما صرح وزير المناجم المالي في منتصف يوليو2014، والذي أكد أن قطر افتتحت مشروعًا للتعدين في بلاده إثر لقاء الرئيس أبو بكر كيتا مع وفد مستثمرين قطريين، وقال لاسانا جيندو المسئول بوزارة المناجم: إن هذه الشركة ستمثل مصالح قطر في مالي والمنطقة حيث يرغبون أن تكون مالي «قاعدة» لهم في غرب إفريقيا.

وعمليات الإمداد القطري والسوداني بالسلاح للجماعات المسلحة المتطرفة في ليبيا لم تعد خافية على أحد، ففي ليبيا لا يخفى سر، وإن ظلت لشهور طويلة عبارة عن أخبار تتناقلها الألسن، وتنتشر عبر صفحات التواصل الاجتماعي إلى أن أعلنها عبدالله الثني، رئيس الوزراء، مؤكدًا أن الدعم القطري للجماعات الليبية مستمر حتى بعد انتهاء أعمال المؤتمر الوطني العام الذي كان يوفر الغطاء السياسي لكل تحركاتها، واضطلاع «مجلس النواب» المنتخب بالمسئولية الكاملة، ورغم ذلك ظلت الطائرات القطرية تحط في مطار «إمعتيقة» العسكري بطرابلس محملة بالسلاح لخضوع المطار «العسكري»

لسيطرة الجماعات الإرهابيـة.. مما حـدا بـه إلى إعلان ذلك والتهديد بقطع العلاقـات، ورغم تأكيـده قيام السودان بنفس الفعل وهو تهريب السلاح إلى الجماعات في ليبيا فإنه لم يشر إلى أن هذا السلاح المهرب من السودان على متن طائرات سودانية إلى مطار الكفرة، أو المهرب بريًّا إلى الجنوب الليبي - مدفوع ثمنه بالكامل وتكاليف نقله من خزانة قطر، وكشف الجيش الوطني الليبي في أكتوبر 2014 - أثناء مداهمته مزرعة الإخواني «سالم الجابر» صهر وسام بن حميد زعيم إحدى الميليشيات المتطرفة - عن وجود صناديق ذخائر وأسلحة روسية الصنع لم تفتح بعد ومخصصة لدولة قطر كما هو مسجل على صناديقها QATAR ARMED FORCES، نفس الذي فعلته في ليبيا ويشهد عليه الكـاتب الخليجي نـايف العويـد، مؤكـدًا «أن قطـر مـولت الإخـوان فـي ليبيـا وجناحها العسكري «تنظيم القاعدة» بمبلغ يزيد على مليار دولار»، وهو معروف ومشهود لمن قام بتغطية الحرب من الصحفيين ورؤية عشرات الحاويات التي كانت تحملها السفن إلى ميناء طبرق، تضم ذخائر ومعدات عسكرية متطورة وأجهزة اتصالات وتجسس، فضلًا عن عشرات سيارات الدفع الرباعي، وبعضها مصفح، وكذلك ما كانت تهبط به طائراتها المدنية في مطار طبرق الدولي، وكان ذلك كله لا يصل إلى الثوار، بل كان يتم تخزينه مع ما سُرق من معسكرات ومخـازن الأسـلحة فـي ليبيـا، فـي كـهوف الجبـال والوديـان ومزارع ومخازن عناصر كتائب وميليشيات القاعدة في درنة وبنغازي، خصوصًا شهري فبراير ومارس 2011.

وقـد سـاهمت قاعـدة بـلاد المغـرب بالعديد من عناصرها القيـاديين مع جبهة النصرة في سوريا بعد هروبهم من ضربات الطيران الفرنسية إلى ولاية شمال دارفور بدعم قطري سواء ماديًّا أو حماية على طول الطريق بأوامر مباشرة إلى الجماعة الليبية المقاتلة وأنصار الشريعة في سبها وأوباري وغدامس والكفرة لتأمين وصولهم، ومن السودان سافر عدد منهم بجوازات سفر ليبية إلى تركيا ومنها إلى سوريا.

وفي مطار بنينا الدولي ببنغازي ضبط 5 قطريين بجوازات سفر ليبية مزورة ومعهم أكثر من سبع حقائب مليئة بملايين الدولارات كانت في طريقها إلى قيادة الدروع[187] - وحصلوا على جوازات السفر من خلال عبد الوهاب قايد - عضو المؤتمر الوطني العام والقيادي في «الليبية المقاتلة».

وفي ذلك أكدت التقارير الصحفية[188] وجود معسكرات ليبية أنشأتها جماعة «أنصار الشريعة» للتدريب على حدود الجزائر بتمويل قطري لتأكد هذا الأمر من خلال عدد منهم - وقد استقبلت هذه المعسكرات - في غدامس 70 كم من حدود تونس - عناصر تونسية نقلوا بعد التدريب الأولي فيها إلى مدينة الزاوية لاستكمال التدريب، بعضهم سافر بحرًا من ميناء طبرق إلى إسطنبول، ومنها إلى سوريا التي سبق نظامها الحاكم الاتفاق مع شركة «الديار» القطرية العقارية ضمن «بيزنس» الفساد بالتخطيط لإنشاء مركز تجاري في مدينة حمص الاستراتيجية السورية، وحصلت الشركة القطرية بموجبه من سلطات دمشق على كل خرائط المدينة بما فيها خرائط شبكات المرافق والبنية التحتية في المدينة عام 2009، وهو ما استخدمه «الثوار» والجماعات المسلحة في حمص بعد اشتعال الأحداث في سوريا مارس 2011 ضمن مخطط تفجير المنطقة وتقسيمها.

وهناك صور مختلفة للتمويل القطري للإرهاب، تحت مسميات تحمل الصفة الشرعية.. منها ما يدفع فديات للإفراج عن المختطفين.. حسب أحد رجال الأمن الجزائريين بأن هناك اتفاقًا بين الأمريكان والقطريين.. يعتمد في تنفيذه على الجماعات الإرهابية، بأن تقوم باختطاف أوروبيين وتحديدًا فرنسيين لإرهاب المجتمع الفرنسي، كمحاولة لزحزحة القدم الفرنسية عن منطقة الغرب الإفريقي لصالح أمريكا، وتفي أيضًا بالغرض الرئيسي وهو تمويل هذه الجماعات الإرهابية.. وفي إشارة أسبق بعشر سنوات تقريبًا، قال الضابط المظلي الجزائري حبيب سويدية: «في شهر سبتمبر - أيلول - عام 1993 أُخْتُطِفَ مهندسان فرنسيان، وقتلا في «سيدي بلعباس»، وفي ديسمبر - كانون

أول - قُتل اثنا عشر بوسنيًّا وكرواتيًّا بالسلاح الأبيض في «تمسغيدة» قرب «المدية» على يد جماعة «سايح عطية» الإرهابية، وخلال بضعة شهور قتل أكثر من عشرين أجنبيًّا: شيء واحد لم أفهمه - والكلام للضابط الجزائري - لماذا لم يستهدف الأمريكان قط[189] ثم تتدخل قطر للإفراج عنهم بدفع مبالغ الفديات التي يطلبونها، وبذلك يتم الدعم القطري للإرهاب تحت مسمى ومسوغ مقبول، وبذلك فإن هذا المال الذي يدفع لا يكون لإنقاذ حياة البشر بل لإيجاد غطاء شرعي لتمويل الإرهاب.

ففي اليمن قامت قطر بتسليم تنظيم القاعدة في محافظة «شبوه» منتصف عام 2012 مبلغ 5 ملايين دولار للإفراج عن المعلمة السويسرية سيلفيا أيبر هارت التي خطفت في 14 مارس 2012.

وأيضًا دفعت المبلغ الذي طُلِبَ للإفراج عن الرهينة الأمريكي «بيتر ثيوكيرنس»، ولتبرئة نفسها من هذه العلاقات التي باتت «مفضوحة» أعلنت أمريكا على لسان «جوش برنست» المتحدث باسم البيت الأبيض أن الحكومة الأمريكية لم تطلب من قطر دفع أي فدية مقابل الإفراج عن «كيرتس».. انسجامًا مع سياستنا التي نتبعها دائمًا.!!!!

هذا رغم أن قطر نفسها تدخلت قبل عامين من هذا الحدث أي عام 2012 للإفراج عن 4 أمريكيين كانوا قد احتجزوا في سوريا.

وواصلت قطر تمويل الإرهاب في مناطق ما سُمي زورًا بـ«الربيع العربي»[190].

ولهذا صرح خالد العطية وزير خارجيتها - آنذاك - بأن وساطة بلاده أمَّنت إطلاق سراح راهبات الكنيسة الأرثوذكسية «معلولا» الثلاث عشرة اللاتي اختطفتهن واحتجزتهن «جبهة النصرة» لفترة بعد احتجازهن لدى مقاتلين إسلاميين، لأن لها علاقات طيبة جدًّا مع هذه الجماعات.

وكانت ممارسة قطر دور المتبرع لإنقاذ رهينة «داعش» الأمريكي في

أغسطس2014 استمرارًا لنفس النهج الذي انتهجته لتمويل كتائب تنظيم القاعدة في بلاد المغرب الإسلامي في صورة تبرع بدفع الفديات.

فضلًا عن تدخلها الرسمي والمعلن لتحرير 11 لبنانيًا اختطفهم «لواء عاصفة الشمال» التابع لجبهة النصرة في إعزاز بريف حلب الشمالي، ثم العسكريين اللبنانيين العشرة الذين اختطفهم «داعش» بعد ذبح الرقيب في الجيش اللبناني - علي السيد - والذين تم خطفهم بعد معارك مع الجيش في «عرسال».. وقد انتقل وفدها عبر بلدة «عرسال» إلى التلال الحدودية للقاء «أبو مالك التلي» أمير «جبهة النصرة»، والذي عاد إلى بيروت حاملًا قائمة بأسماء 400 سجين إسلامي في سجن «رومية»، كانوا قد ألقي القبض عليهم أثناء أحداث «نهر البارد» شمال لبنان 2007، وأحداث «عبرا» 2013، ومارست ضغوطًا قوية ومؤثرة على الحكومة اللبنانية للقبول بتنفيذ الطلب والإفراج - على الأقل - عن بعضهم من ذوي الأهمية محذرة في صورة نصيحة بعد أن أعلنت عن تطور غريب وعنيف على لسان وسيطها أن «جبهة النصرة» أعلمتها أنها ستباشر إعدام العسكريين إذا لم تنفذ الحكومة اللبنانية مطلبها بالإفراج عن التكفيريين المسجونين وتفتح الطرقات التي أغلقها الجيش بين عرسال والجرود.

في نفس الوقت كانت تقوم بالوساطة على جبهة أخرى وهي جبهة «حوران» الجولان لإطلاق سراح الـ45 جنديًا التابعين لدولة «فيجي» من قوات حفظ السلام التابعة للأمم المتحدة لمراقبة وقف إطلاق النار في الجولان السوري المحتل.. كانوا محتجزين لدى «جبهة النصرة» منذ 28 أغسطس2014، وتمت الوساطة أيضًا عن طريق أحد أقطاب الإخوان في حوران «الشيخ أ.ح»، الذي يرتبط بعلاقات طيبة مع عدد كبير من قيادات «جبهة النصرة»، هو وابن شقيقه «ي» الذي كان يجلب لهم الدعم من الكويت وقطر.

وغالبًا ما كان يتم دعم هذه المجموعات والتنظيمات عن طريق أفراد بحجة الدعم لفقراء من خلال أفراد من المجتمع القطري، وعادة هم من المقربين من الفئة الحاكمة في الدوحة.. مثل: عبد الرحمن بن عمير النعيمي الذي جرمته

الحكومة البريطانية في أكتوبر 2014 ومنعت دخوله بلادها وكان قد أسس ورأس جمعية «الكرامة» لجمع الأموال لصالح «القاعدة» في العراق ضد المحتل الأمريكي!!

وأيضًا في سوريا، وكذلك في الصومال، واليمن.. وقد رصدتُ منتصف مايو2010مندوب هذه الجمعية «فضل العمري» في مدينة المكلا[191]، وقد سير مندوبًا إلى مدينة «بوصاصو» الصومالية بمبالغ مالية قيل إنها لدعم الفقراء في مدن بونت لاند.. أما في حضرموت فكانت المساعدات تقدم لبعض فقراء حضرموت خصوصًا في المكلا وتريم وسيئون، ولعدد من الصوماليين الذين فروا من بلادهم[192].. هذا الشخص نفسه عاد من المكلا بعد أن قضى فيها أسبوعين إلى صنعاء، ومنها طار على متن الخطوط الإفريقية إلى مقديشيو العاصمة الصومالية التي كانت مجموعة ما يسمى بـ«شباب المجاهدين» تسيطر على جزء كبير منها.

وجمعية النعيمي «الكرامة» شريك وممثل لمنظمة العفو الدولية «أمنستي»، و«هيومان رايتس ووتش» الأمريكية في قطر.. فضلًا عن منظمات دولية أخرى أغلبها أمريكي تنشط في أغلب دول العالم - النامي بالتأكيد - للدفاع عن حقوق الإنسان.. !!

وهو ما اعترفت به «منظمة العفو الدولية» في رسالة بالبريد الإلكتروني إلى «فيتا بيكر» محرر جريدة «ذي ناشيونال» التي تصدر بالإنجليزية في الإمارات، مقررة أن جمعية «الكرامة» هي شريك لها في جمع المعلومات عن انتهاكات حقوق الإنسان في الخليج العربي وشمال إفريقيا.

وبالتالي فليس من عجيب القول بأن ما يتم في الساحة العربية هو مسرحية حقيقية يقوم بأداء أدوار البطولة فيها كل اللاعبين الدوليين، فهذه المنظمات الدولية التي تسوّق نفسها بأنها تدافع عن حقوق الضعفاء والمحرومين والمنتهكين، هي إما أمريكية تمول من «الداخل» الأمريكي، وإما دولية تمول

أيضًا من الداخل العربي، وتأتمر بأمر «الداخل» الأمريكي.. مثل تمويل النعيمي وجمعيته وغيرها بدأ الداخل القطري لـ«مجاهدي العراق» ضد الاحتلال الأمريكي!! في نفس الوقت الذي يرتع فيه أكثر من 70 ألف جندي أمريكي في قاعدتي «السيلية والعيديد» على الأرض القطرية.

ويُخصص جزءٌ من هذه التمويلات لمنظمة «حماس» في غزة..!، وكان النعيمي ضمن الوفد القطري الذي رأسه «شيخ قطر» السابق حمد بن خليفة أثناء زيارة لغزة أكتوبر 2012، وليس من العجيب أن يتحدث أمريكيون عن دولة قطر في تمويل الإرهاب - فتلك أدوار متبادلة - مثل خوان زاراتي نائب مستشار سابق للأمن القومي الأمريكي لمكافحة الإرهاب الذي صرح بأن قطر تفرض نفسها كرائد للدول المساندة للقاعدة والجماعات التابعة له. وفي عام 2003 تسلم الكونجرس الأمريكي تقريرًا عن المؤسسات الخيرية التي تدعم الإرهاب، خاصة التي لها صلة بتنظيم القاعدة، ومنها مؤسسات قطرية تساعد الإرهاب وتعمل في غسل الأموال وتوفير فرص العمل للإرهابيين مثل المطعم الكائن خلف المركز التجاري بالقرب من وسط الدوحة، ويمتلكه - ومطاعم أخرى فاخرة - شخص سوري يدعى حسام - يقود فرقة عسكرية في سوريا ضمن الجيش الحر مكونة من 13 ألف شخص - حسب ما جاء في تقرير لمجلة فورين بوليسي وله علاقات واسعة ضمن مجتمع الصفوة القطري، فضلًا عن شبكة واسعة من الرجال القطريين ذوي الميول الإسلامية، تعمل على جمع التبرعات علنًا في قطر لصالح جبهة النصرة[193].

أما سعد بن سعد الكعبي فهو ذلك القطري الذي يعد أحد أبرز تجليات عمليات غسل الأموال وتحويلها للتنظيمات الإرهابية المتطرفة، ومن أهم المشرفين على تمويلها في سوريا منذ بدأت الأحداث فيها - مارس 2011 - والذي عمل من خلال حملة أطلقها لذلك تحت اسم «مدد أهل الشام» بالتعاون مع مركز العمل التطوعي القطري تحت إشراف وزارة الثقافة القطرية، وعلى «اليوتيوب» تجد جماعة مدد أهل الشام ينشرون «فيديوهات» يشكرون فيها متبرعين قطريين

على إمدادهم بالمال.

ولأن هـذه الأمـوال التـي تـدفع كفديات تمثل مصدرًا تمويليًا مهمًّا لهذه الجماعات، فقد واصلت قطر دورها الداعم بدفع 150 مليون دولار لجبهة النصرة لتحرير اللبنانيين السبعة الذين أُختطفوا في «إعزاز» بوابة الحدود مع تركيا.!!

لذلك لم يكن من قبيل المصادفة أن تحتضن قطر فرعًا جديدًا لمؤسسة «راند» البحثية الأمريكية في الدوحة[194] وأن تتعاون مؤسسة قطر للتربية والعلوم وتنمية المجتمع مع «راند» لتأسيس معهد «راند قطر للسياسات» التي قامت بإنتاج تقرير «الإسلام الديمقراطي المدني» كرؤية استراتيجية موجهة للإدارة الأمريكية في البيت الأبيض لتنفيذها في المنطقة العربية وكان غير بعيد عن «وثيقة الاسترحام» التي وقعها ألف شخصية عربية منهم عبد العظيم حماد رئـيس تحـرير الأهـرام الأسبق[195] وآخـرون مـن البـاحثين بمـركز الأهـرام للدراسـات السـياسية والاسـتراتيجية بـالتعاون مـع منظمـة «فريـدوم هـاوس» وقدمت للرئيس الأمريكي باراك أوباما لاستعداء الولايات المتحدة إلى المنطقة بحجة نشر الديمقراطية في العالم العربي مؤكدين براءة الإسلاميين من العنف والإرهاب!! وقدرتهم على إدارة البلاد[196] وتشارك مؤسسة «راند قطر» في مشروعاتها لتطوير مناهج التعليم القطرية، وكانت هذه المؤسسة قد أنتجت ونشـرت تقـريرين عـامي 2004و2007 هـدفًا - كمـا قـالت - إلـى تقـديم العـون للزعماء المعتدلين تحت عنوان «الإسلام المدني: بناء شبكات إسلامية معتدلة» الذي يرسم سياسة أمريكا في الشرق الأوسط ويقع في 217 صفحة.

وقامت المؤسسة بالتعاون مع مؤسسة قطر للتربية والعلوم وتنمية المجتمع بتأسيس معهد «راند قطر» للسياسات.. ولا أعتقد أن دورها سيتوقف إلا بعد وأد المخطط الأمريكي وإنهائه والقضاء على ذيوله في المنطقة.

* * *



أمام بئر قرب مدينة «ليرا» وطريقة بدائية لاستخراج الماء



أمام إحدى الآبار مع عبيد الأرض



أمام مسجد تمبكتو القديم



باب القيامة في مسجد سيدي يحيى الذي هدمه تنظيم القاعدة وأعاد الناس بناءه



ليل الصحراء أثاي (الشاي الأخضر)، وأرض للمبيت في صحراء مفتوحة

الوعي المتأخر

جاء تأخر العالم العربي في الوعي بالإرهاب - رغم صراخ دائم من مصر وبعض دول العالم - حتى أغسطس 1989[197] نتيجة سيادة «الحقبة النفطية» خلال عقدي السبعينيات والثمانينيات، والتي صرفت فيها السعودية مليارات الدولارات على الإعلام العربي شراءً وإسكاتًا، فكان الحديث عن تأصيل الإرهاب، وربطه بالمد الوهابي أمرًا غاية في الصعوبة حتى بدأ المجتمع السعودي نفسه ينضج إرهابيًّا، وينزع رداء الخوف من السلطة ويتخذ العنف وسيلة لمحاولات التغيير فيضج منه حكامه فيجيء وعي «السعوديين» متأخرًا جدًّا.

ورغم ما تتمتع به السعودية من عقول واعية من مثقفين وخبراء أمنيين وعلماء اجتماع وسياسيين؛ فإنها لم تنتبه إلى مؤشرات تحمل بذور تفكيكها بفعل المنهج التكفيري الذي استشرى في مناحي حياتها.. ولا حتى ظهور جُهَيمان العُتيبي عندما احتل مع مجموعة من الشباب الحرم المكي وتبادلوا إطلاق الرصاص مع الشرطة في أول تمرد مسلح يقع في «مكة المكرمة» منذ «ثورة الزنج» ليسقط أكثر من مائة قتيل ويعلن المهاجمون... «وقوع الحرم في أيدي المسلمين المخلصين لأول مرة منذ قرون» - كما قالوا، ودعوا الحُجاج إلى سماع خطبة زعيمهم جُهيمان بن محمد سيف العتيبي الذي بشرهم بالنصر الذي وعد به الرسول!! ووضْع حد للحكم الفاسد والمنحل من قِبَل الذين لعنهم الله لعنة أبدية وجلبوا العار للبلاد وشعبها المسلم بما يعيشونه من أشكال فساد - يقصد آل سعود - وأنهم لا يهمهم سوى الخمر والنساء والميسر والغناء بعد أن هجروا الإسلام منذ زمن طويل، في نفس الوقت الذي وقعت فيه سلسلة انفجارات في مناطق مهمة في مكة والمدينة وجدة والرياض، وقامت قبيلتا «قحطان والعتيبة» بتمردين منفصلين وجرت مظاهرات معادية للحكم السعودي في 87 مدينة خصوصًا في المنطقة الشرقية وقام متظاهرون بمهاجمة عدة مساجد في المدن الكبرى، وذلك كله على مدى أسبوعين.. وصل

فيهما عدد القتلى داخل الحرم الشريف فقط إلى ما يقرب من ألف قتيل، ولم ينه الأزمة إلا الضعف الذي أصاب المتمردين المحاصرين نتيجة إحكام الحصار وطول مدته عليهم ومساعدة قوة الكوماندوز الفرنسية التي أرسلها «جيسكار ديستان» بناء على طلب الملك فهد - ولي العهد آنذاك - بقيادة الكابتن «باريل» ليتم إعدام ثمانية وستين شخصًا من التكفيريين المتمردين بقطع رءوسهم أمام جماهير ومواطني أربع عشرة مدينة في المملكة وهو القصاص بالذبح الذي اتخذته السعودية وانتقل إلى كل الجماعات التكفيرية فيما بعد.

ولم تكن قسوة أبي مسلم فارس الشيشاني - ذي الأصل السعودي - المتمثلة في نشوته الشديدة بقطع الرءوس سوى انعكاس لما ترسخ في المجتمع السعودي من الذبح كحد من الحدود، والذي يتم على مرأى ومسمع آلاف من البشر، وقد ذاع صيت أبي مسلم كذبّاح في ريف اللاذقية، ومناطق الشمال السورية لتسجيله رقمًا قياسيًّا في عمليات نحر البشر.. فقد رصد ذبحه لـ378 من جنود النظام السوري والموالين له، ويذكر أحد متابعيه ورفاقه لفترة - عضو في جبهة النصرة - أنه كان يتلذذ بالذبح ويجد فيه نفسه للدرجة التي دفعته في إحدى المرات للسير لمسافة 18 كم لذبح جندي سوري في ريف اللاذقية، كان أمير جبهة النصرة قد أعلن إقامة الحد الشرعي عليه.

وكان هدف جهيمان هو تطبيق الشريعة بالقوة، ليس في الأماكن العامة فقط بل داخل كل بيت، وكان رأيه أنه لا يكفي ألا يشرب الناس الخمر
أو يلعبوا القمار علنًا، بل يجب أن «يُجْبَرُوا» إذا لزم الأمر على التصرف بنفس الطريقة داخل بيوتهم[198].

وجاء «التبشير» الإعلامي بانتهاج خطة المواجهة بإنشاء المركز الدولي لمكافحة الإرهاب ودعمه بـ100 مليون دولار، في حين أن أحد الخبراء في المملكة يؤكد أن 75 مليار دولار أنفقتها المؤسسات الخيرية السعودية[199]، وإن لم يصرح بأن هذه الأموال ذهبت في طريق صناعة الإرهاب لكننا جميعا نعرف كيف دعمت المؤسسات الخيرية - السعودية والكويتية - هذه الصناعة،

والأمثلة عديدة لا حصر لها.. هذا بالطبع غير الدعم الرسمي الذي وصل إلى مليارات.

ولكن ذلك جاء بعد فوات الوقت، وتراخت سلطة وقوة الدولة أمام رجال الدين وتشددهم في مواجهتها ومواجهة الأمراء والأسرة الحاكمة جهرًا، وراعى حكامها العقد الاجتماعي بينهم وبين آل الشيخ ومريديه ومعتنقي فكره فتجاهلوا أو تناسوا، وأهملوا المواجهة على الأقل من خلال الفكر التنويري الذي لا نعتقد أن المملكة تخلو منه.. لأن قادتها آمنوا بأن تعاليم ابن عبد الوهاب أساس شرعيتها، ولذلك فإن أسلمة المجتمع أو تدينه على هذا المذهب هو تأكيد هذه الشرعية وهو ما تجلى في رضوخ الدولة لمطالب مجموعة منهم فيما عُرِف بـ«خطاب المطالب» الذي وجه إلى الملك الراحل فهد في مايو 1991 لإنشاء مجلس شورى واستقلال القضاء وتحقيق المساواة بين المواطنين. والعدل في توزيع المال العام، وكفالة حقوق الأفراد وغيرها من المطالب، وأُتبع ذلك بـ«مذكرة النصيحة» التي سُلمت إلى المفتي عبد العزيز بن باز ليسلمها للملك في يوليو 1992، طالبوا فيها باستقلالية العلماء والدعاة عن الحكومة وأن يكون لهم دور أكبر في شئون الحكم والأمة وأن يكونوا المرجعية لبيان الحكم الشرعي لسائر أمور الدين والدنيا!! للحكام والمحكومين[200].

وهو من الخطورة بما يؤكد سطوة رجال الدين من ورثة وأتباع ابن عبد الوهاب على الدولة وعلى الحكام السعوديين الذين لم يعبئوا بخطورة ذلك، والذي تجلى فيه تأكيد على أسر الدعوة للملكية وانصياعها شبه الكامل لمشايخها، وهو ما أعجز الدولة عن نسف هذه المناهج التكفيرية من تعليمها، أو على الأقل تنقيحها أو إحاطتها بدوائر تنويرية تمهيدًا لحصرها في أضيق الأطر، حفاظًا على النظام الملكي والمملكة واستمرار بقائها موحدة، ولم تتخذ خطوات جادة وحقيقية باستثناء بعض الأشكال الدعائية «الساذجة» كي تنفي التهمة عنها خصوصًا في المؤتمرات التي يحرص المؤتمرون عادة في البيان الختامي - كما في مؤتمر «مكافحة الإرهاب» - على تعريف الإرهاب بأنه ظاهرة عالمية لا

يُنسب لدين ولا يختص بقوم!! وهو ناتج عن التطرف الذي لا يكاد يخلو منه مجتمع من المجتمعات المعاصرة وهي كلمات مصوغة لغويًا بشكل جيد. تلك أفضل نتائج المؤتمر!!

وهـذه المواجـهات التـي تـدعيها السـعودية مـن خـلال النـدوات والمؤتمـرات ودعوات كبار رجال المملكة تظل محصورة في حيز ذر الرماد في العيون، فإذا تابعنا التوصيات التي صدرت عن المؤتمر الدولي لمكافحة الإرهاب الذي عقد في الرياض «2013م - 1431هـ» فسنجدها حملت تأكيد المشاركين على جذرية الأسـباب الاجتماعيـة والفسـاد والاحتـلال والانتـهاك المنظـم لحقـوق الإنسـان والتمييز والتهميش، وحملت في 45 بندًا عبارات إنشائية من قبيل «ينبغي دعم جهود الإصلاح الوطني، ووضع وتنفيذ برامج ترمي إلى تعزيز الحوار، والتعاون الفني والمخابراتي و.. و.. و.. » مما لا يرقى على الإطلاق لفكرة الحل الدائم أو إيجاد آلية حقيقية سواء على مستوى تغيير مناهج التعليم أو الخطاب الديني العام في مؤسسات الدول، أو المشاركة الإيجابية في تنمية المناطق المهمشة والعشـوائية المفرخـة للإرهـاب والمكونـة للنفوس المعقدة والمسببة للأمراض الاجتماعية التي تدفع الشباب إلى الانحراف الفكري سواء في السعودية ذاتها، وفيها مناطق أكثر فقرًا أو في الدول التي نما فيها الإرهاب بدافع الفقر والحقد على المجتمع.

وهو ما نبه مثقفيها إلى ضرورة القيام بخطوات جدية في محاولة لإيجاد أفكار لدعم هذا التوجه، بل دعا البعض إلى إنشاء هيئة لمكافحة الإرهاب على غرار اللجنة الوطنية لمكافحة المخدرات[201]، وهي دعوة تؤكد أن مركز محمد بن نايف للمناصحة والرعاية الذي أنشأته ليقوم بمعالجة ظاهرة الإرهاب لم يؤت مـأمولًا منـه، فضلًا عن مؤتمر جدة الذي شارك فيه وزراء خارجية 11 دولة لبحـث التصـدي للتنظيمـات الإرهابيـة المتطرفـة، عقـد وانفض - أيضًا - ببيان ختامي جيد الصياغة بكلمات منمقة ولكن..!

وهو أمر غاية في الغرابة، فهذا مجتمع يهزأ منا بالضحك على نفسه وعلينا،

فالسعودية هي من أنبتت هذا الإرهاب ورعته ودعمت فكرته الرئيسية، ومساره في العالم أجمع من خلال «التمويل المالي» سواء من طريق تلك العناصرمباشرة التي ينتمي بعضها إلى أسر ميسورة تجاريًا أو عبر مؤسسات خيرية أو رجال أعمال وقوى مجتمعية مولت[202] كثيرًا من التجمعات التكفيرية في العالم الإسلامي وجماعاته، ومنها تنظيم «القاعدة» وشاركت الدولة نفسها في إنشائها وتمويلها، ولكن ذلك يستخدم دعائيًا لنفي التهمة مع بعض الخطوات التنظيمية مثل: إنشاء مركز الملك عبد العزيز للحوار الوطني 2003، وقرار دمج رئاسة تعليم البنات في إدارة المعارف التي أنشئت عام 1960 وأوكلت إدارتها إلى رجال الدين وقتها رضوخًا لسطوتهم وامتصاصًا لغضبهم الرافض لقرار تعليم البنات.

وهذه السذاجة «المؤتمرية» بنفس السذاجة التي حوتها بطون ومتون كتب ومقالات تناولت الإرهاب على مدى العقدين الماضيين، وللأسف أغلبها لم يقدم حلًّا حقيقيًا.. والذي لا تمتلكه ولا تقدر عليه سوى الحكومات الغنية كالسعودية ودول الخليج بديلًا عن هذه الحركات «الإعلامية» التي لا يستفيد منها سوى المؤتمرين وموظفي المنظمات، في حين تم إهمال الشباب نتيجة الاضطرابات، وغياب بناء العقل النقدي المستقل لدى الفرد فيها - وفي كل الدول العربية - والاعتماد على الثقافة الوهابية الموجهة صانعة الإرهاب وصاحبة الراية السوداء التي ترفعها التنظيمات التكفيرية تحمل دلالة المنبع والمصدر لهذه الأفكار وهو ما سجلته أحداث مايو قبل 200عام 1809م عندما مر بمصر مجموعة من الحجاج المغاربة يحملون إلى والي مصر محمد علي باشا عريضة شكوى واستنجاد من أهل الحرمين يشكون فيها من سوء معاملة سعود بن عبد العزيز لهم ولسائر الحجاج ومنعه ذكر اسم السلطان «الخليفة العثماني» في الخطبة ورفعه لستارة الكعبة «الكسوة الشريفة» واستبداله بها عباءة سوداء مكتوبًا عليها لا إله إلا الله سعود خليفة الله، وأخبر هؤلاء أن غرض سعود إعلان خلافته على المسلمين للعالم واستنجد أهل مكة والمدينة في عريضتهم بمحمد علي لإنقاذ الحرمين الشريفين وإنقاذهم[203].

وما منع المواجهة إلا فقه اعتماد الحكم لفكر الدعوة، ولذلك لم يكن غريبًا أن يتصدر شباب المملكة «السعودية» لوائح المنتمين إلى التنظيمات الإرهابية التي يمكن لأي متابع لمواقع التواصل الاجتماعي التأكد من ذلك من خلال مئات اللقطات المصورة لشباب سعوديين قبل إقدامهم على تنفيذ عمليات انتحارية، وتشير التقديرات إلى وجود ما بين 2000 إلى 2500 مقاتل سعودي ضمن صفوف «داعش» و«النصرة»، مما دعا وزارة الداخلية السعودية - مؤخرًا 2014 - على لسان الناطق الرسمي بها إلى الإشارة إلى تهديدات أمنية تواجهها البلاد، تتمثل في محاولات الجماعات الإرهابية تجنيد الشبان السعوديين للذهاب إلى مناطق الاقتتال أو تهديد أمنها من الداخل[204].

في الوقت نفسه كانت تقوم أجهزتها بدعم وتجنيد 4 آلاف إرهابي، وتم تدريبهم في معسكرات بالأردن للمشاركة في إسقاط نظام بشار الأسد، وبعدها في المشاركة لدعم بعض التنظيمات الإرهابية في العراق من خلال «الصحوات»!!

مع بعض المواجهات التي أصبح لا غنى عنها - قضائيًا - بالحكم بالإعدام على بعض المنتمين للتنظيم.. ففي 20 سبتمبر 2014 أصدرت المحكمة الجزائية بالرياض أحكامًا بإعدام ثلاثة متهمين سعوديين وسجن 20 آخرين بمدد من 5 حتى 25 سنة ومنع السفر لـ94 متهمًا يمثلون المجموعة الثانية من خلية إرهابية داخل البلاد تتبع تنظيم «القاعدة» الإرهابي المناهض للدولة!! واعتناقهم المنهج التكفيري المخالف للكتاب والسنة وإجماع سلف الأمة !! وخلعهم للبيعة التي في أعناقهم لولاة الأمر ومبايعتهم لزعماء تنظيم «القاعدة»[205] وصناعة متفجرات وخطف وإحراق - حسب ما جاء في نص الخبر المنشور[206].. في نفس الوقت الذي ألزمت فيه وزارة الشئون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد في السعودية الخطباء بالدعاء لولاة الأمر وقادة البلاد، بعد أن لوحظ من قبل مفتشي فروع الوزارة تجاهل الخطباء الدعاء لهم في خطب الجمعة.

ثم بدأت الأحكام تنهال على أعضاء في الخلايا الإرهابية كما قالت المصادر القضائية السعودية والمنتمين لتنظيم القاعدة في خطوة ظنها أصحابها رادعة، وأحسب أنها خطوة تأخرت عقودًا طويلة من السنوات، ليس على سبيل المحاكمات، ولكن في إطار مواجهة التطرف، ورفض الحكومة نشر أو طبع كتاب من تأليف مجموعة من العلماء حول تفجيرات الرياض عام 2003 «مسائل في الجهاد»، فهل هذه القرارات ومثيلاتها محاولة على استحياء لتفكيك تحالف الدولة مع المؤسسة الدينية؟ فإن كان ذلك هو الهدف فإنه ليس سوى نزر يسير لما يجب أن يتخذ من خطوات إذا أرادت المملكة الحفاظ على كيانها موحدًا دون تفكيك، فالأمور باتت أشد من تركها إلى اللهو والحلول الجزئية المسكنة سيما وأن أراضي المملكة لم تعرف تاريخًا واحدًا لا على المستوى الإداري ولا التنظيمي ولا المذهبي.

ولا أدل على تفخيخ المناهج في التعليم السعودي مما أدين به أحد السعوديين بنقل الفكر الإرهابي التكفيري الذي انتهجه إلى حلقات تحفيظ القرآن، حيث كان يدرسه للطلاب، مع نشر الأفكار التحريضية وانتقاد علماء السعودية، وهنا تطل السذاجة برأسها مرة أخرى، مؤكدة الإهمال الواضح وعدم متابعة ما يُلقى في حصص المدارس ومراكز تحفيظ القرآن.. فقط وكأن ذلك اكتُشِف مصادفة عندما تورط أحدهم في قضية.

واستمرت المناهج التكفيرية في التعليم السعودي، وإرشادات «هيئة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر» رغم أن الله عز وجل قال: ﴿ وَقُلِ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ﴾[207] لتسهم السعودية - نتيجة الغنى النفطي الذي سببته حرب أكتوبر1973بارتفاع سعر برميل النفط من 6 إلى 36 دولارًا - والفقر المصري في تفخيخ المدن والقرى والأحياء المصرية من خلال تشبيع العمالة المصرية - وغالبها من القرى والأحياء الفقيرة من منعدمي أو محدودي التعليم والثقافة - بالفكر الوهابي الذي عادوا به، وأيضًا بأمراض اجتماعية وشذوذ بعد قضائهم فترات بحثهم عن رزق ضنت به البلاد في

حالات وفي حالات عجزت عنه بسبب تسخير الإمكانيات للدفاع عن فلسطين في حروب متتالية، طبقًا مع الإدراك ببلورة وتطوير هذا الفكر الوهابي لمراحل أكثر تكفيرية وتشددًا من مجموعات الإخوان التي قضت فترة هروبها في السعودية أو الممولين منها داخل مصر وكذلك هؤلاء الفقراء. مثال قرية «كحك» بلد الشوقيين في الفيوم وغيرها من قرى المنيا وأسيوط وهي المحافظات الأكثر فقرًا وجهلًا في مصر، تزامنًا مع ما فعلت السعودية في أفغانستان ضمن أكبر عملية سرية في تاريخ الولايات المتحدة ووكالة مخابراتها المركزية، وقامت فيها السعودية بوضع مناهج 79 مدرسة أنشأتها في أفغانستان وباكستان وأشرف على إعدادها ومنهجتها خبراء الـC.I.A وطُبعت في ولاية «نبراسكا» الأمريكية بدعم سعودي مالي، والمساعدة أيضًا في التحاق 35 ألف مسلم أصولي من 40 دولة للقتال قي أفغانستان بين عامي 1992.1982.

ووصف «دييجو كوردونيز» و«سليج هاريسون» اعتمادًا على وثائق سوفييتية جهود الولايات المتحدة وإيران والسعودية وباكستان في تعبئة اليمين الإسلامي.

وشاركت مصر بشحنات إمدادات عسكرية إلى هؤلاء «المجاهدين» ومنهم بالطبع المصريون والسعوديون الذين عادوا لنشر التكفير في بلادهم، وتم تحويل مصنع للسلاح قديم بالقرب من حلوان لتوريد نفس النوعية من السلاح الذي يستخدمونه[208] ويدربهم عليه عناصر مصرية تدربت على يد مدربين من الجيش الأمريكي، ومنهم تعلم المتطوعون العرب وتدربوا على الاغتيالات وتفجير السيارات.

وبلغ تمويل «المجاهدين» في عام 1984 نحو 250 مليون دولار.. و470 مليونًا عام 1987 وبلغ 630 مليونًا[209] عام 1988 وحصل «المجاهدون» الأفغان على سلاح أمريكي وصيني وإسرائيلي لمواجهة الجيش الأحمر وتكلفت هذه الحرب 3 مليارات دولار.

وقد فضح «مايك شوير» مسئول المخابرات الأمريكية والذي تولى بعد منتصف ثمانينيات القرن العشرين - في كتاب أصدره عام 2002 بعنوان «في أعين عدونا» - دور المخابرات الأمريكية مع المملكة العربية السعودية في صناعة أسامة بن لادن كقائد ديني وصناعة تنظيمه «القاعدة»، قال شوير: «اتجه بن لادن إلى تأسيس المنظمات غير الحكومية الإسلامية لتنفيذ الأنشطة المدعومة عسكريًّا عندما انضم إلى الشيخ عبد الله عزام لتأسيس مكتب الخدمات المعروف باسم «ماك» في بيشاور في منتصف الثمانينيات، كانت وظيفته - في الظاهر - إغاثة ضحايا الحرب الأفغانية، لكنه كان يستقبل المتطوعين - العرب - وينظمهم وينقلهم إلى أفغانستان ويتلقى أموالًا وأسلحة تتدفق عليهم.. ففي المجال المالي تلقى بين عامي 1979 - 1989 نحو 600مليون دولار من الهيئات الخيرية الخليجية، خصوصًا من السعودية والكويت وقطر.. يقول مسئولون في المخابرات الأمريكية شاركوا في تنظيم «الجهاد»[210]، وقال مايك شوير: «إن المخابرات الأمريكية درست الطرق والوسائل التي تؤدي إلى زيادة المشاركة في الجهاد واعتبر بيل كايسي مدير المخابرات الأمريكية حينئذ أن السعودية أكثر من مجرد مصدر تمويل لدعم «الجهاد» وأكثر من مركز ديني للتشدد الإسلامي».

وهو نفس ما حدث في دولة الكويت، والتي بدأت تستفيق مؤخرًا، لتطلق وزارة الداخلية حملة «مكبرة» لضبط عدد من المنتمين فكريًّا لهذه التنظيمات الإرهابية، واعتقال بعضهم، ومنع البعض الآخر من خطباء المساجد من دعم الفكر الإرهابي في خطبهم، رغم قدم وأهمية المشاركة الكويتية في تنظيم القاعدة، على المستويين: التمويل والتجنيد وبروز كويتيين ضمن دائرة النخبة الضيقة في تنظيم القاعدة مثل محسن فاضل الفاضلي زعيم التنظيم القاعدي الأشد خطورة ودموية في سوريا - خراسان - ويعد من الجيل الثالث للقاعدة من أخطر الإرهابيين على مستوى العالم، والذي كان له الدور الأهم في إعلان الظواهري دعمه وتحيزه لجبهة النصرة في سوريا.

وهو ما أكده شافي العجمي، الأستاذ بجامعة الكويت، بأن «كل النشاطات التي يقوم بها تأتي ضمن إطار الجهود المشهودة التي عرفت بها دولة الكويت على الصعيدين الرسمي والشعبي التي تحرص دائمًا على أن تكون في نطاقها الخيري الإسلامي والإنساني في تقديم العون والمساعدة لكل محتاج في كل أصقاع الأرض، ومرة أخرى يعترف العجمي بأن جماعته ذبحت شيخ إحدى القرى السورية - لعمالته - وأضاف: ذبحنا عياله - في إشارة إلى الطفل السوري الذي ذبحوه أمام والده.. هذا العجمي الإرهابي وهو ابن عم شقيق لوزير العدل الكويتي نايف العجمي الذي أعلنت وزارة الخارجية الأمريكية أنه يقف وراء تمويل الإرهاب في سوريا وغيرها، ورغم ذلك أعلن مجلس الوزراء الكويتي - منتصف عام2014 ثقته في وزير العدل الذي أعلنت أمريكا رأيها في تعيينه وزيرًا: إنها خطوة في الاتجاه الخطأ.. وصرح مساعد وزير الخزانة الأمريكي لشئون الإرهاب والمعلومات المالية ديفيد كوهين بأن الكويت باتت مركزًا لجمع التبرعات لصالح الجماعات الإرهابية في سوريا، وهو ما لاحظته من خلال رحلتي مع «الثوار» على الحدود الأردنية السورية من خلال ياسر الحريري، وسامر العويدات، ومحمود حربين.. ثلاثتهم سوريون يعيشون بالكويت ولديهم مصالح مالية، شجعهم عدد كبير من رجال الأعمال الكويتيين على اتخاذ الأردن - خصوصًا محافظتي إربد والمفرق الحدوديتين مع سوريا - كمركز دعم وإطلاق لـ«الثورة السورية ومجاهديها».

وساهمت السعودية بتفخيخ المجتمع المصري عبر الاحتياج المالي بالثقافة الوهابية التي عاد بها أكثر من 20 مليون عامل ومهني مصري عادوا من السعودية بعد العمل فيها لفترات تتراوح من عام إلى 5 أعوام على مدى أكثر من أربعين عامًا، وهذا الأثر لم يظهر على العمال دون المستوى الثقافي والتعليمي فقط ولكن أيضًا في المهنيين والمتعلمين من أطباء ومهندسين ومعلمين ومهن أخرى نتيجة إما أن هؤلاء خرجوا من قراهم مباشرة إلى المدن السعودية، وأصبحت نسبة لا تقل عن 15 % من المجتمع السعودي في تقديرات البعض وهابيين إرهابيين[211] وفي تقديرات أخرى تزيد النسبة على 25 % من

المجتمع السعودي حتى في النساء، وهو ما كشفت عنه التحقيقات والأحكام القضائية مؤخرًا بثبوت تورط نساء عديدات في الدعوة للتكفير بل تعليم الأطفال من الصغر لغة الدم والذبح والإرهاب بعرض أفلام ومقاطع قتالية وعمليات ذبح رهائن و«كُفَّار» عليهم.. مثل أروى البغدادي.. التي قدحت هي وغيرها - حتى - في أمانة مفتي عام المملكة العربية السعودية واصفة إياه بأنه شيخ السلطة[212].

وقد تأخر سقوط الملكيات العربية نتيجة عوامل عدة منها الاحتياج الأمريكي الإسرائيلي لها للقيام بدور التهدئة في الصراع على فلسطين ولضمان وصول النفط والمشاركة ماليًا وبشريًا في أفغانستان؛ وهو ما ساهم في التفخيخ من الداخل بعودة المقاتلين بعد اكتساب خبرات ومهارات حروب العصابات وصناعة القنابل وتفخيخ السيارات والتفجير عن بُعد، ونتيجة التهميش والإفقار والفساد الحتمية كانت الاشتعال من الداخل وقبول مواطني هذه الدول للانفجار بوقوع أحداث يتم استغلالها ودعم أبطالها، حالة مصر وسوريا وليبيا فيما سُمي بـ«ثورات الربيع العربي»، والتي تمت محاولات استغلالها نتيجة فقدان شرعية الأنظمة بناء على وضوح ظاهرة التزوير في كل الانتخابات سواء البرلمانية أو الرئاسية واستفتاءات الدستور، إضافة إلى الأسباب السابقة كمقدمة لإسقاط هذه الملكيات، ولم يعد من الصعب تصور مجموعة من الأنظمة الإسلامية من شمال إفريقيا عبر مصر إلى السودان إلى سوريا والعراق إلى السعودية.

بعد أن قادت حرب أفغانستان ونجاح «ثورة الخميني» إلى إحداث تحول مهم في الحركة الإسلامية بالتعبئة الجهادية ونشر فكرة الانتقام من الغرب الكافر المستبد الذي استنزف خيرات المسلمين من الهند حتى المغرب طوال عقود طويلة، ومنذ ذلك الوقت بدأت المخابرات الأمريكية تلعب دورًا أكثر حيوية نيابة عن المسلمين الأفغان، ونقلًا عن نصير الله بابر المساعد الخاص لـ«بنازير بوتو» عام 1989أن أمريكا كانت تمول المنشقين الأفغان منذ 1973وأنها

وضعت قلب الدين حكمتيار الرجل الأكثر تشددًا تحت جناحيها قبل أشهر من غزو السوفييت للبلاد[213]، وبدأت السعودية تحالفها مع المخابرات الأمريكية والباكستانية لإنشاء جبهة مسلحة مدعومة منهم جميعًا وبموافقات عربية إسلامية مثل: مصر وسوريا والجزائر، واستخدام أسامة بن لادن ذلك الشاب السعودي المتحمس ودعمه وكذلك رابطة العالم الإسلامي.

ومع تخمُّر الفكر الوهابي واشتداد سواعد معتنقيه لم يجد الحكام إلا بَدْء محاربته علنًا ولخطورته على كيان المملكة الآن كما كان في بدايتها رابط «التوحيد» لأجزائها قبل خمسة عقود فيُصدر مجمع الفقه الإسلامي في يناير 2002 بمقر رابطة العالم الإسلامي بمكة المكرمة بيانه الذي يؤكد فيه أن التطرف والعنف والإرهاب ليست من الإسلام في شيء وأنها أعمال خطيرة لها آثار فاحشة[214].

وكان «كايسي» قد عبأ سلاح النفط السعودي في الثمانينيات، ومنذ عام 1984 دفع السعودية في تحالف مع باكستان[215].

* * *

إيران ملاذ القاعدة

رغم العداء العقائدي التقليدي من الجماعات التكفيرية للشيعة «الروافض» كما يطلق المتشددون السُّنة عليهم - فإن الملاحظ أن هذه التنظيمات القاعدية كلها لم تؤذِ إيران أو إيرانيين على كثرة ما قتلوا من السُّنة، وما فجروا في بلادهم وخربوا، كما أن الدولة الفاطمية «الشيعية» قديمًا لم تتجه في توسعها إلى إفريقيا جنوب الصحراء حيث بقايا الوثنية واختلاط البدع بالإسلام، إنما كان هدف توغلها بلاد الإسلام «السُّنيَّة» كما فعلت في مصر، وحديثًا لم تسعَ إيران الخميني لتصدير ثورتها «الإسلامية» إلا إلى البلاد المسلمة «السُّنيَّة».

ومؤخرًا لم يقم تنظيم القاعدة «السُّنِّي» بعملية إرهابية واحدة من التي يقوم بها في بلاد السُّنَّة ضد إيران، وهو ما يفتح باب التساؤل حول العلاقة «المَرَضية» بين إيران وهذا التنظيم.. وتحدثت به تقارير مخابراتية، وتأكد من أحاديث عدد من العناصر القاعدية وخطابات التواصل بينهم وأوضحها ما أرسله أيمن الظواهري إلى أبي مصعب الزرقاوي في العراق مطالبًا بعدم التعرض للشيعة والإيرانيين[216]، والأمر أبعد من ذلك.. العلاقة أقدم، فقد بدأت منذ التأسيس الأول للتنظيم، وفسرها تأصيل المشاركة الإيرانية في إنشاء وتمدد هذا التنظيم - رغم العلاقة العدائية المعلنة بين من أنفق ومدها بالوقود من المال والرجال «السعودية» والرعاية والدعم التنظيمي والمعلوماتي «أمريكا» وبين إيران.

فإن كانت إيران نعتت أمريكا بـ«الشيطان الأكبر» فلا يمنع من تعاون في دعم هذا التوجه أو التمدد القاعدي كحركة بما يمثل ثورة فارسية شعوبية ضد الهيمنة العربية متماهية ومستخدمة الإرث التاريخي في نزوع العباسيين اعتمادًا على الفارسيين متمثلًا في أبي مسلم الخراساني وجنوده لاستلاب الحكم من الأمويين القائم على العنصر العربي تحت مسمى رد الحق إلى أصحابه بتمكين أبناء علي بن أبي طالب ﵁ من مغتصبي الخلافة من آل سفيان

بن حرب، ومضت الدعوة السرية سنوات طويلة لأخذ البيعة لـ«الرضي من آل علي»، ولا تختلف المطالب الحالية التي تتبناها التنظيمات الإسلاموية التكفيرية باستعادة «الخلافة» على اتساع مدلولها عن مسألة «إعادة الخلافة» للمستحق من آل علي.

فبعد نجاح «الثورة الإسلامية» في إيران اندفع الأصوليون السُّنة من شتى أقطار العالم الإسلامي إلى إيران، واستغله الإيرانيون منذ بَدْء حكم «آيات الله الملالي». يأتي إخواننا من أرجاء المعمورة ليشاهدوا معجزة الإسلام.. كما كتب أحد الأصوليين الشيعة الإيرانيين، ونجحت شركات سياحية أنشأتها الثورة الإسلامية الإيرانية في إرسال عشرات الآلاف إلى إيران في رحلات كانت توصف بـ«الحج إلى الثورة»[217] وبالطبع كان عدد كبير من قيادات الإخوان ممن نما نفوذهم الديني والمالي في السعودية التي احتضنتهم نكاية في جمال عبد الناصر من هؤلاء ولكن ليسوا كسياح يريدون «الحج إلى الثورة» ولكن كمنظرين وقادة أسهموا في هيكلة نظام الحكم فيها على نمط مكتب الإرشاد للإخوان[218] وفي دعم الاقتصاد الإيراني أثناء الحصار.. تزامن ذلك مع الغزو السوفييتي لأفغانستان واستخدام الولايات المتحدة هذه الحرب في دعم «المجاهدين»!! لهزيمة الاتحاد السوفييتي وتخريبه، وكان للسوفييت في إيران شبكة كبيرة من العملاء والمتعاونين والاشتراكيين، زودت الـCIA الأمريكية والـMI6 الإنجليزية مخابرات الثورة الإيرانية في إطار التعاون المخابراتي بأسمائهم كاملة ومدى تعاونهم بعد أن حصلت عليها من «فلاديمير كوجشين» ضابط المخابرات الروسي السابق في طهران والذي هرب إلى بريطانيا عام 1982 وضمت القائمة أكثر من ألف إيراني.

وسعت إيران لتصدير ثورتها داخل جمهوريات الاتحاد السوفييتي وخاضت معه حربًا مخابراتية تقليدية بين جيران أبرزها دعم «المجاهدين» الأفغان اتفاقًا وتعاونًا مع السعودية وباكستان والولايات المتحدة، وظلت إيران ممرًّا مهمًّا للأفغان ثم لـ«تنظيم القاعدة» ثم مقرًّا لقيادتها بعد خروجهم من

أفغانستان، وهنا تأتي الإجابة عن السؤال الأول، بأن إيران مثلث الملجأ و«الحضن القريب» لقيادات وعناصر التنظيم خصوصًا بعد انهيار حكم طالبان عام 2001، وقتها أوفدت طهران وفدًا حكوميًا رسميًا لأفغانستان للعمل على ضمان السفر الآمن لقيادات القاعدة وعائلاتهم إلى أراضيها.

وكان مسئول هذا السفر والتمرير ياسين الشاب السوري[219]، ومنهم مجموعة من الموريتانيين والمصريين والسعوديين، وكويتيون منهم محسن فاضل إياد الفاضلي - الكويتي 33 عامًا؛ الذي انتقل من أفغانستان في نهاية 2011 إلى إيران ومنها قام بإدارة حركة الدعم المالي الخليجي والإيراني، وتوجيه الإرهابيين للحركة في المنطقة، ومنها تدمير المدمرة «كول» الأمريكية في خليج عدن، وأعلنت إيران وقتها أن الجماعة «مجموعة قيادات تنظيم القاعدة» يعيشون تحت الإقامة الجبرية.

لكن أبو حفص الموريتاني أكد أن إقامتهم في إيران لم تكن جبرية، بل كانت ضيافة، ونفى أن يكون قد تعرض للتحقيق معه خلال إقامته بها، وأن عددًا من الشخصيات القيادية في القاعدة حظي بحرية الدخول والخروج لمرات عديدة، وأنهم كانوا يخططون في إيران للهجوم على بعض الأماكن في السعودية، وأضاف في حديث لـ«صحراء ميديا»: إيران لم تسلمني لموريتانيا.. وهو ما أكده أيضًا تقرير لجنة 11سبتمبر[220] بأن إيران كانت تعمل مع تنظيم القاعدة، وفضحت ذلك كتابات سيف العدل أحد قيادات القاعدة وهي متاحة على الإنترنت، مشيرًا فيها إلى دور إيران في دعم «القاعدة»، خصوصًا في السنوات السابقة على 2001م.

أوردت صحيفة إنجليزية في تقرير لها عنه حسب مصادر مخابراتية رفيعة المستوى - كما قالت - [221] أن أحمدي نجاد الرئيس الإيراني السابق سعى بقوة لدى زعماء القاعدة تحت ضيافة النظام في طهران لاختيار سيف العدل المصري ليكون الرجل الثالث في التنظيم بعد بن لادن والظواهري[222] لكونه أحد من يحظون برعاية خاصة من أحمدي نجاد، وأن الحرس الثوري الإيراني

يقدم لمقاتلي القاعدة تسهيلات كبيرة، وهو ما تحدث به «جون ماكين» مؤكدًا أن عناصر تنظيم القاعدة يتلقون تدريبات قتالية في إيران.

كما كشفت التحقيقات السعودية مع أحد الإرهابيين تمكنه من تسليم مبلغ 750ألف ريال سعودي لشخص إيراني لدعم التنظيمات الإرهابية التابعة للقاعدة في أفغانستان والعراق[223]، وفضح تقرير صادر عن مركز مكافحة الإرهاب الأمريكي في مايو 2012 ذلك أيضًا بناء على وثائق عثر عليها الأمريكان بعد الغارة التي شنوها على مجمع بن لادن في باكستان.

وفي رسالة من أسامة بن لادن مؤرخة في 17 رمضان 1431 إلى الشيخ محمود الليبي «عطية عبد الرحمن» مذكرًا فيها بما قاله «بخصوص ما ذكرتم في رسالة سابقة بأنه قد يذهب بعض الإخوة إلى إيران ضمن خطة المحافظة عليهم!!.. و«كان فيهم أبناء بن لادن: محمد وسعد وعثمان وإيمان»، وإليها هرب أيضًا أبو مصعب الزرقاوي من أفغانستان 2001 ومكث فيها عدة أشهر قبل التوجه إلى العراق، ولم تكن الجزائر بعيدة عن أعين الإيرانيين حيث أنشأت ودعمت بالتمويل المالي «كتائب القدس» وهي حركة شيعية ساهم في تمويلها حزب الله اللبناني[224].

وضمت القائمة المسربة عددًا من الأسماء القاعدية :أبو مصطفى حامد، وسليمان أبو غيث «المتحدث باسم القاعدة»، وأبو حفص «محفوظ ولد الوالد» الموريتاني وأسماء أخرى عديدة.

واعتقل فيها اليمني القاعدي ناصر الوحيشي، وتم تسليمه إلى اليمن مقابل مطالب للحوثيين من النظام اليمني، وهو ما كشفه ناصر في حوار صحفي له فيما بعد[225] مشيرًا إلى علاقة المخابرات الإيرانية بالمتمردين الحوثيين وتنظيم قاعدة جزيرة العرب في اليمن، ومدهم بالمال والسلاح والتخطيط الاستراتيجي للقيام بعمليات إرهابية ضد النظام.

واعترف أبو جندل - ناصر البحري - أحد الحراس الشخصيين لأسامة بن لادن

في لقاء تليفزيوني «برنامج إضاءات» بأن تنظيم القاعدة له علاقة وصلة جيدة مع إيران، وأن وجود شخصيات قيادية من القاعدة في إيران كان غرضه التنسيق، وكتب سيف العدل: «إحدى النقاط التي طرحناها على أبو مصعب ومن يوجد معه هي إنشاء محطتين في طهران ودمشق من أجل عبور الإخوة دخولًا وخروجًا من أفغانستان»... ولا شك أن هذه الفكرة قد تطورت إلى خطة رعاية.

وفي رسالة - انتقادية - من أبو محمد العدناني لأيمن الظواهري واجهه فيها بـ«أنه وجماعته داعش» لا يعترفون به زعيمًا له حق البيعة، بسبب ثبوت إخفاق أيمن الظواهري نفسه في «العمل الجهادي» خصوصًا في طبيعة العلاقة مع إيران الخمينية، وقال: «ظلت الدولة الإسلامية - يقصد التنظيم «في العراق» قبل أن يتحول إلى «داعش» تلتزم نصائح وتوجيهات شيوخ «الجهاد» ورموزه»؛ ولذلك لم تضرب «الدولة الإسلامية» الروافض في إيران منذ نشأتها امتثالًا لأمر القاعدة، للحفاظ على مصالحها وخطوط إمدادها في إيران، لأن ذلك فيما تفسره مجريات الأحداث بالعلاقة المتشابكة المعقدة بين القاعدة والمخابرات الإيرانية وحرسها الثوري وهذه التنظيمات التكفيرية.. ومنها «داعش»، وهو ما سنتناوله في فصل آخر.

ومما كشفته قوائم العقوبات المالية التي أصدرتها وزارة الخزانة الأمريكية، الدعم الإيراني المالي للقاعدة، إذ تبين أن شركات وأشخاصًا إيرانيين كانوا يتولون نقل الأسلحة والمقاتلين لتنظيم القاعدة في سوريا، الغرض المعلن كان هو خدمة النظام السوري لتمزيق المعارضة السورية - الجيش الحر - أما الغرض «الأسطوري» فهو اكتمال النص أو سيناريو - المعركة «الأسطورية» في «مرج دابق».. وكان السعودي القاعدي ماجد الماجد - أمير كتائب عبدالله عزام - قد اعترف بعد إلقاء القبض عليه في لبنان فيما بعد - بأنه تلقى تمويلًا إيرانيًا وتدريبًا على المهارة القتالية والمراوغة على يد الحرس الثوري الإيراني الذي تكفل بتسهيل عبوره للأراضي العراقية باتجاه سوريا.

وكذلك جعفر الأوزبكي أو لمزون أحمدوفيتش صادقيف، المسئول المهم في القاعدة الذي ظل مقيمًا لسنوات في مدينة «مشهد» الإيرانية، وبدأ بعدها ضمن «اتحاد الجهاد الإسلامي» في نقل المقاتلين الأجانب من تركيا إلى سوريا للانضمام إلى جبهة النصرة برعاية ودعم المخابرات الإيرانية والحرس الثوري.. وهذه العلاقات دفعت «العوفي» السعودي - بعد الفهم - إلى العدول عن انضمامه للقاعدة والعودة إلى السعودية معلنًا توبته وكاشفًا هذا الدور الإيراني، خصوصًا في محاولات التخريب للمملكة السعودية، ومن ذلك أيضًا دعم إيران أحزابًا سياسية في السعودية والكويت والإمارات «الأمة» التي تبنت خطابًا معارضًا لأنظمتها ومثلت جيوبًا طائفية ستستخدم في الوقت المناسب للحروب الطائفية.

وغير بعيد عن كل ذلك ما ينتج من العداء التاريخي الكامن بين إيران والسعودية، التي تعج المنطقة الشرقية منها بأتباع المذهب الشيعي الذين تتجه أبصارهم تلقاء «قم»، والذين بدءوا منذ عام 1979بتأثير نجاح ثورة الخميني في الاستقواء بها وبدءوا بتعيين فقهاء لهم «ملالي» في «حُسينيات» تم إنشاؤها لأول مرة في السعودية، والاحتفال بذكرى استشهاد الحسين، داخل البيوت في الظهران في البداية[226] تزامن ذلك مع إعلان مبدأ أو شعار «تصدير الثورة» في طهران وبداية الأنشطة الدعائية بتهريب كميات كبيرة من الأشرطة والكتب والمنشورات واللافتات، وتدريب عشرات السعوديين في معسكرات داخل أراضيها وفي لبنان، والشيعة لا يحترمون المذهب الوهابي ويرونه كما قال الخميني في أحد كتبه التي ألفها في الأربعينيات تشويهًا للإسلام ونسيجًا من الأكاذيب، وذهب آية الله منتظري خليفة الخميني عام 1986 إلى وصفه بأنه «طقوس جاهلية»[227].

ولم يُخفِ تنظيم القاعدة على لسان زعيمه أيمن الظواهري استهداف التنظيم للسعودية ونظامها الحاكم، وأنه من الأهداف الرئيسية للقاعدة، وهو ما تجذر في أذهان عناصر التنظيم بتسمياته المختلفة سواء في العراق «بلاد الرافدين»

أو في سوريا «جبهة النصرة» أو في ليبيا «أنصار الشريعة» أو في مالي «قاعدة بلاد المغرب الإسلامي».

وأكدته كل عناصر هذه التنظيمات الذين التقيتهم مع ملاحظة أن تنظيم القاعدة نشط بعملياته التفجيرية التخريبية في السعودية بداية من عام 2003، وكانت قيادات وعناصر التنظيم الذين تم طردهم أو التضييق عليهم من قبل طالبان في أفغانستان بعد عام 2001 بدءوا في الخروج منها إلى إيران ليقضوا فيها عامين تقريبًا، ومنهم عدد من السعوديين.

***



مع عبد الجليل الاسم العربي الذي اتخذه الجاسوس الفرنسي

وعاش وسط «أنصار الدين» على أنه «مجاهد»



مع السيد علي إدريس مسئول الجبهة العربية في فرنسا

اختراق الاستخبارات للتكفيريين

لم يفاجئني خبر نقل الجاسوس الفرنسي باعتباره «مجاهدًا» ضمن جماعة أنصار الدين اتخذ لنفسه اسم «عبد الجليل» إثر إلقاء القبض عليه في منتصف مارس 2013 بعد أن هدأ غبار المعارك على الجماعات الإسلاموية في شمال مالي.. وحسب موقع - صحراء ميديا - فإنه نُقل إلى باريس على متن طائرة عسكرية، وأودع حبسًا احترازيًّا!! في مقر جهاز مكافحة التجسس الفرنسي!!

أما وكالة الصحافة الفرنسية «فرانس برس» فقد أفادت بأن هذا «المقاتل» الفرنسي الذي يبلغ من العمر 37 عامًا!! كان ضمن خمسة مقاتلين أُسروا في مطلع مارس 2013 بعد معارك عنيفة.. وهو كذب فاضح.. يمكن أن يمر عليّ لو لم أعرفه أو ألْتَقِه في تمبكتو، فقد تأكدت ظنوني وشكوكي التي راودتني في جاسوسيته للمخابرات الفرنسية.. وظل يجول أثناء الحرب بين تمبكتو وبين كيدال دالًّا بهاتفه وإحداثيات حركته على بعض تجمعات «المغفلين» من الشباب الذين انضموا إلى الجماعة بهدف نُصرة الإسلام مثل محمد أج موسى الذي لم يكن مهمًّا لفرنسا فتركته كصيد سهل لحركة تحرير أزواد «مانيلا» لتمسك به في مدينة «الخليل» أقصى الشمال المالي مع بعض إخوانه في 13 مارس2013، وبعد يومين قُبض على هذا «الجهادي» المزعوم أثناء معارك بين القوات الفرنسية والتشادية من جهة وبين مقاتلي «أنصار الدين» من جهة أخرى.. وأنقصت فرانس برس من عمر «عبد الجليل» عشرين عامًا حين ادعت أنه يبلغ 37 عامًا، وهو أمر غير صحيح - في تقديري - فملامح الرجل «عبد الجليل» ومشوار حياته - الذي لا شك فيه بعض الصدق الذي يؤكد عمله كجاسوس - يدل على أنه يتعدى الخمسين، فقد أخبرني في فندق «نُزل الصحراء» بتمبكتو أنه أسلم عام 1985 في فرنسا بعد أن تعلم الإسلام وقرأ عنه.. وقتها كان يعمل قبطانًا لباخرة «جابس» لنقل الفوسفات والفسفور من المغرب، وظل يعمل بها لمدة 4 سنوات.. ثم ذهب إلى إثيوبيا للعمل بها مع منظمة «أطباء بلا حدود» في قطاع الدعم اللوجستي، ثم سافر إلى جيبوتي -

لاحظ أن بها أكبر قاعدة عسكرية فرنسية في إفريقيا - ثم سافر منها إلى السعودية، وبعد عام عاد إلى موريتانيا وتعلم قراءة القرآن في محضرة أحمد «داداه» لمدة ثمانية شهور ثم عاد إلى فرنسا، وظل بها لعامين، ثم سافر إلى المغرب، وتزوج مغربية، ومنها انطلق إلى موريتانيا في إبريل 2011، ثم عبر إلى الحدود إلى مالي بعد شهرين.. هذه هي الرواية التي سمعتها منه، ولا شك تحمل بعض الحقائق.

التقيته على غير موعد جالسًا في الفندق مع عثمان وعدد من عناصر الجماعة وبدا في حديثه أكثر تشددًا من «الإسلامويين العرب والطوارق» في أزواد، كان يكثر من إظهار كراهيته لإسرائيل، وأنه أكثر بغضًا لليهود، وكان يتبنى استخدام حديث الغيبيات - والتي عادة ما تروق للمسلمين - عن قرب إنجاز الوعد الإلهي لهم بالنصر على اليهود مؤكدًا أن نهاية إسرائيل في الحرب الكبرى هي كما يقول علماء الديانات الثلاث «اليهودية والمسيحية والإسلام» حسب زعمه ستكون في شهر ديسمبر هذا العام «كنا في نوفمبر2012».. والذي سيصادف بداية العام الهجري 1434 الذي إن جمعت أرقامه«4+3+4+1» سيكون الناتج الرقم 12 وأن هذا الرقم يرتبط ارتباطًا شرطيًا وتاريخيًا باليهود، فالأسباط أبناء إسرائيل(يعقوب)12، والأبواب المتفرقة التي أمرهم أبوهم أن يدخلوا منها مصر 11 بابًا غيرالباب الذي دخل منه يوسف في أول قدومه لمصر - حسب الميثولوجيا اليهودية، والعيون التي شرب منها اليهود في رحلة التيه «اثنتا عشرة عينًا قد علم كل أناس مشربهم»، واختار موسى منهم «اثني عشر نقيبًا» وغيرها من الافتراضات المؤدية إلى النهاية المدمرة لإسرائيل وهلل له الصحفي الأمازيغي - عثمان أج محمد عثمان - أو ادّعى وكان يجلس معنا أنا وعبد الجليل، وهكذا كان عبد الجليل يحاول جذب انتباهي لإسلاميته، وتشدده ضد اليهود لظنه أنني أحد إخوانه «المجاهدين» معه في الجماعة، وظل على تبجيله لي لعدة ساعات حتى وشى بي عثمان لديه وعرّفه بهويتي الصحفية، الأغرب أن الفرنسي لم يحدثني بل أسرَّ إلى يوسف «أمير الإعلام» بذلك في صوت خفيض وأداء مهذب.. وظل معهم لعدة شهور أظنها كانت

كافية لنقل كل شيء يهم الفرنسيين.

وعندما أنهى المهمة عاد إلى بلاده بهذه المسرحية، وهناك فرنسي آخر «سيدريك لوبوا» اعتقل أيضًا - كما أعلنت فرنسا - في نيامي عاصمة النيجر وكان في طريقه إلى مدينة «جاوا» للانضمام لجماعة «التوحيد والجهاد» فيها، ولتأكيد التدليس فقد صرح وزير الدفاع الفرنسي - وقتها - جان رايف لودريان عند الحديث عنهما بقوله: «ذلك يدل على وجود شبكة إرهابية تستقبل بعض الشباب الباحثين عن التطرف!!». وبالطبع لن يتحدث عن كونهما جاسوسين، وهذه الاختراقات متعددة ومتراكبة في قاعدة بلاد المغرب الإسلامي سواء من مخابرات محلية أو دولية.

ومنها التعاون الفرنسي الأمريكي باستخدام بعض عناصر هذه الجماعات مؤخرًا في حادثة قتل زعيم شباب المجاهدين الصومالي أحمد عبدي جودان «أبو الزبير» أول سبتمبر 2014 في عملية تعاون مخابراتية فرنسية، وغارة جوية أمريكية بصواريخ هلفاير، استهدفت «أبو الزبير» في مكمنه بجنوب مقديشيو، ولم تكن هذه العملية انتقامًا من فرنسا لقيام «جودان أبو الزبير» باختطاف عميلين للمخابرات الفرنسية في يوليو 2009 «مارك أوبريا.. الاسم مستعار» واستطاع الفرار، والثاني «دوني أليكس» الذي ظل رهينة الحركة تحت معاملة شديدة القسوة، وقد حاولت فرنسا في 11 يناير 2013 تحريره ولكنه قُتل مع عنصرين من الكوماندوز الفرنسيين و17 من شباب المجاهدين، ولم تكن في حقيقتها إلا انتقامًا مؤجلًا حسب الخطة التي تتوزع تفاصيلها على المنطقة كلها.

كما جاء مقتل الصحفي الأمريكي «ستيف سوتلوف» على يد عناصر «داعش» ذبحًا في العراق أواخر شهر أغسطس 2014، كنهاية حتمية لعلاقة شديدة التعقيد بين الأمريكان والجماعات الإرهابية، وهو ما قاله لي «ستيف» نفسه يومًا عند بوابة «إجدابيا» في مارس 2011، التي كان يتجمع عندها كل المراسلين الميدانيين، في انتظار أخبار المعارك في «البريقة»، أو«وادي الأحمر»،

أو «بن جواد» للحصول على معلومات عن المعارك، أو لإجراء مقابلات مع المقاتلين، وكان أغلب المراسلين الأجانب في كل الأحوال يقومون بتصوير المقاتلين الموجودين أثناء الصلاة، وحصر أغلب اللقاءات الصحفية ولقطات التصوير التليفزيونية مع الملتحين، راعني التركيز المتعمد على تصدير الوجه «الإسلاموي» الملتحي للعالم كطليعة للثوار.. وكان لدى بعض المراسلين ومنهم «ستيفان ستولوف».. رغبة في مصاحبة المقاتلين إلى مواقعهم الأمامية.. أشار مرة إلى مجموعة ذات لحى وقال: «ربما يقتلونني يومًا ما».. قبلها كنت قد التقيته عند عبوري من السلوم إلى «مساعد» الليبية، صاحبني حتى مدينة طبرق، رأيته مفعمًا بالفرح من هذه الثورات أكثر من «السذج» العرب أمثالي من الراغبين في الخلاص من نظم فاسدة.. وكنت لا أجد له مبررًا في هذه الفرحة، كان أحيانًا يتحدث العربية بلهجة يمنية.. ساعده إدريس لاغا على التحرك بحرية في مدينة بنغازي، وأوصى به لدى محمد سالم المنيفي مدير المركز الصحفي، لمساعدته في إنجاز أعماله وإرسال تقاريره باعتباره صوتًا مهمًّا ومفيدًا للثورة!!

كان في جبهة إجدابيا أكثر قربًا لبعض «عناصر الجماعة الليبية المقاتلة»، وبعض الإسلاميين.

أحد الملتحين على بوابة إجدابيا، أبدى شكًّا في جاسوسية هذا الصحفي الأمريكي، وفيما يحمله معه من أجهزة اتصالات، ولكنهم رغم ذلك كانوا أكثر تعاونًا معه - عكسنا كمراسلين عرب - كانوا يرتابون فينا، أرجعتُ ذلك إلى رغبتهم في الاستفادة منه.

كان تخميني وقتها أن هذه الاستفادة ربما تكون قناة اتصال بشكل ما، ولكن الأمر بدا أكبر من ذلك، وربما جاء مقتله ذبحًا ليس انتقامًا من الأمريكيين بسبب الضربات الجوية على «داعش»، فهذه الضربات بالفعل لن تؤدي إلى خسارة حقيقية لـ«داعش».. لا في الأفراد، ولا في المعدات، ولكنني أعتقد أن ذبحه كان لعلاقتهم المتشابكة ما بين C.I.A والموساد، والتنظيمات الإسلاموية،

بداية من جماعة القاعدة في اليمن التي عاش ستيف بينها، حتى «داعش».. مرورًا بالجماعة الليبية المقاتلة التي حاول أحد أفرادها «مصعب الفيتوري» أو توهم في إجدابيا أنه سيهديه إلى الإسلام، بعد أن سمع منه «الفاتحة» التي قرأها ستيف عليه.

ولو اهتم أحد بالبحث وراءه قليلًا، لاكتشف تفاصيل صغيرة تقود إلى تقارب عمله مع عمل «ريتا كاتز»، أو تعاونهما، وإن كان الافتراض الأخير ليس أقوى، وينطبق ذلك على غيره ممن يتجولون بيننا ولا نعرفهم، وإن عرفهم بعض الزملاء من الصحفيين العرب والمصريين، فإن مصالحهم وأهدافهم تمنعهم من الخوض في مثل هذا الحديث.

وأعتقد أنهم في ليبيا وفي مصر - صحافيين وعناصر إسلاموية - كانوا يعرفون أنه يهودي متشدد أو إسرائيلي، ألمح لي بذلك عبد القادر عزوز مفتي كتيبة «شهداء بو سليم»، خلال حديثي معه في منزل عمه سليمان في درنة وحدثني أيضًا أنه اكتشف جاسوسية ريتا كاتز عندما التقاها أول أحداث 17 فبراير في طبرق ولم يوصِ بقتلها ذبحًا مثلما أوصى بي أحد عناصر «أنصار الشريعة» الذي اصطحبني من فندق «تبستي» في بنغازي إلى معسكر «وسام بن حميد» في «قنفوده» وأخبروني ببرود محترفي الإجرام والقتل أنهم سيذبحونني تقربًا لله لأنني جاسوس!! ونقلت وسائل إعلام عالمية اعترافات إسرائيلية رسمية بعد ذبحه، تؤكد أن «ستيف سوتلوف»[228] مواطن إسرائيلي عمل لعدة صحف إسرائيلية منها: «جيروزاليم بوست»، و«جيروزاليم ريبورت»، وإن كان عمله المعلن في مواقع أخرى غير إسرائيلية يتحرك باسمها علنًا كصحفي أمريكي حر - يحمل أيضًا جنسية الولايات المتحدة - مثل «جارديان» و«فورين بوليسي» و«كريستيان سيانس مونيتور»، ومن المعلومات التي أعلنت من إسرائيل أيضًا: أنه درس الشئون السياسية الدولية في معهد «هرتزليا» للتخصصات المتعددة، وهناك حكايات عديدة له في بلدان «الربيع العربي»! وبالطبع استغل فيها صحفيين عربًا لتحقيق أهدافه التجسسية، ربما عن غير قصد منهم أو حُسن

نيـة.. وربما عن قصد وذلك حسب الصحيفة ومالكيها وتوجهاتهم، ومنها ما يمول من دولة عربية كبرى، ومنها ما يمول من دولة صغيرة.

والسؤال: هل هم في الغرب يستغفلوننا إلى هذا الحد؟ الإجابة: نعم، بدليل أن أحدًا فينا لم يفكر في طرح سؤال حقيقي آخر هو: لماذا لا تصل بيانات وتسجيلات جميع أفرع تنظيم القاعدة بداية من العولقي وداعش وقاعدة بلاد المغرب الإسلامي إلا عبر موقع «سايت» الأمريكي في بداية إعلانها؟ هل لأن صحفيي هذا الموقع أكثر مهارة من الصحفيين العرب والأجانب الآخرين؟ أم لأنهم أكثر مصداقية وشطارة؟ أم لأنهم يدفعون؟!!!

وتلك إجابات افتراضية غير قابلة للتصديق؛ لأن حقيقة الواقع غير ذلك كله!!

والإجابة نجدها عند «ريتا كاتز» الصحفية اليهودية عراقية الأصل، وقد سجلتها في كتابها المهم «صائدة الجواسيس»، بعد أن تقاعدت وسجلت فيه تجربتها التجسسية داخل المجتمعات والجماعات «الإسلاموية»، بعد اندساسها بينهم واتخاذها لأسماء إسلامية مثل زينب، فاطمة، سارة، والتزيي بالزي الإسلامي، والتسلل إلى المساجد والمؤتمرات الإسلامية، حاملة أجهزة تسجيل دقيقة الحجم مخبأة تحت عباءتها.

وهي الابنة الصغرى للتاجر اليهودي العراقي فؤاد كباي، أحد أثرياء تجار البصرة.. اتهم عام 1968 مع ثمانية يهود عراقيين بالتجسس لصالح إسرائيل، وحُكم عليه بالإعدام في يناير 1969، ونُفذ الحكم شنقًا في ميدان التحرير ببغداد. فهربت زوجته بأطفالها الصغار ومنهم ريتا - والتي ولدت عام 1963 - سيرًا على الأقدام إلى إيران، التي سهلت لهم الوصول إلى إسرائيل، لتستقر العائلة في قرية «يام» على الساحل، ودرست «ريتا» التاريخ في جامعة تل أبيب، وخدمت بالجيش الإسرائيلي.. وفي عام 1997 سافرت إلى الولايات المتحدة، لتبدأ العمل في معهد بحوث الشرق الأوسط، وهناك تخصصت في التجسس على المراكز الإسلامية في الولايات المتحدة بادعاء الإسلام،

والمشاركة في مسيرات التأييد للفلسطينيين، وجمع التبرعات لهم وللمساجد، وعملت عام 1998 مع «الكولونيل» إيجال كرمون[229] في مركز الأبحاث الإعلامية للشرق الأوسط «ميمري» الذي أسسه بهدف مراقبة الإعلام في الشرق الأوسط، خصوصًا أخبار الجماعات المتطرفة من الإسلامويين، اعتمادًا على خبرته لخمس سنوات كمستشار أمني لمكافحة الإرهاب لرئيس وزراء إسرائيل في تلك الفترة إسحاق شامير «1993.1998» وكان معه ضمن المشاركين في تأسيس وإدارة «ميمري» البروفيسور «مناحيم ميلون» عميد كلية الإنسانيات، ورئيس قسم اللغة العربية في الجامعة العبرية، وهو ضابط سابق تقاعد برتبة مقدم في الجيش الإسرائيلي.. ومعهم مديرة مركز سياسات الشرق الأوسط في معهد هدسون، أحد معاقل المحافظين الأمريكيين الجدد الدكتورة «ميراف روسر»، والتي عمل زوجها «ديفيد روسر» مستشارًا لنائب الرئيس الأمريكي الأسبق ديك تشيني، والمعروف عنهما «ميراف وزوجها» تشددهما الصهيوني، وافتتح هذا المعهد فرعًا له في شارع أبي نواس ببغداد عام 2004.

بعدها تركت ريتا معهد «ميمري» ظاهريًا لذيوع شهرته كواجهة من واجهات الموساد.. في حين ظلت تتعاون مع واحد من أكثر اليهود الأمريكيين كراهية للإسلام والمسلمين العرب منهم خاصة، وهو «ستيفن إيمرسون» من الذين يبدعون في نهج الصحافة الموجهة ضد العرب والمسلمين، من خلال قصص لعرب مسلمين، وكثير منها مختلق مفبرك عن نواياهم لنقل الإرهاب إلى أمريكا، وإن كان بعضها حقيقيًا، وكلها كانت تُنشر لإشاعة الذعر من المسلمين في الولايات المتحدة الأمريكية والغرب الأوروبي، وتجديد الكراهية لهم، ولإعطاء هؤلاء الإسلامويين الشعور بالقوة «الزائفة بالطبع»، خصوصًا أن بعض هؤلاء عندما يشعر بضعف أمريكا يشعر تلقائيًا بقوته، وهو ما أشار لي به طلحة مدير أمن تمبكتو من قيادات جماعة «أنصار الدين»، مزهوًا وهو يتذكر تحوله من «قومي عربي» إلى متشدد تكفيري.. فقال: عندما ضربت عناصر تنظيم القاعدة الأبراج في 11 سبتمبر، وجدتني فرحًا بها جدًا، وبعد أن كنت أؤمن بأن أمريكا دولة قوية، وتعرف «دبة النملة»، سقطت من عيني، المهم أن ريتا كاتز اكتسبت

مهارة إضافية في فنون التزييف والكذب.

وافتتحت مركزها الخاص بمساعدة عدد من الصحفيين اليهود، وهو موقع سايت«SITE» في يوليو 2002، الذي ترد إليه بيانات القاعدة وكتائبها المنتشرة، وجماعاتها في كل المناطق الإسلامية، وتبث أو تنشر منها.

ولكن لماذا هذا الموقع؟ الإجابة أنه ارتبط وأنشأ منتديات «إسلامية جهادية» عديدة، أجادت جذب المفتونين من السذج من الشباب الطاهر المراهق البريء بفكرة الجهاد، واستعادة القدس، وإحياء دولة الخلافة، ثم السيطرة عليهم وتجنيدهم لأفكار القاعدة من خلال ما يبث عن تاريخ «مشرف ومضيء» - كما يقولون - لشيخ المشايخ، وقائد وقدوة الجهاد أسامة بن لادن، ثم رفاقه من بعده أيمن الظواهري والزرقاوي وغيرهما.. مع نشر صور «مفبركة» لجهاديين، يكتب أنهم قاموا بعمليات «جهادية استشهادية»، ووصاياهم بمتابعة الجهاد والاستشهاد لمن سيشاهدهم أو يقرأ لهم، أو بالأحرى - للأسف - الانتحار الوهمي الساذج، كما يتم نشر بعض أفلام كثير منها مفبرك لعمليات «جهادية»، لهؤلاء الشباب ضد اليهود الإسرائيليين، أو ضد الأمريكان في العراق، أو في أفغانستان، ويتم عرض وتنزيل روابط أفلام مع التنبيه للمتصفحين إلى ضرورة تنزيلها سريعًا، قبل أن تحذفها أو تغلقها المخابرات الأمريكية أو الإسرائيلية، فيهرع الشباب إلى تحميلها على أجهزتهم.. هنا يمكن التقاطهم ومواصلة تزويدهم بالأفكار الهدامة لشعوبهم التي يصورونها لهم على أنهم مرتدون، وحكامهم على أنهم كفرة وطواغيت، مع ترديد نظرية العدو القريب التي اخترعها الأمريكان، على لسان أسامة بن لادن، ومن هذا التتبع تتم السيطرة والتوجيه.

وهناك أبو بكر ناجي الذي لا يُعرف صاحبه وتعد كتاباته مرجعية لهؤلاء السلفيين الجهاديين ونشر كتابًا إلكترونيًا بعنوان «إدارة التوحش» الذي ذهب إلى أهمية تأسيس ملاذات آمنة وأن يكون للتيار السلفي «الجهادي» دولة أو دويلات تكون الغلبة فيها لها فيما يعرف لديهم بالتمكين حيث يستطيع

الجهاديون من خلالها شن عمليات ضد الولايات المتحدة ووكلائها في المنطقة بغية جر الأولى إلى معركة كتلك التي شهدها العراق، وليس أبو بكر ناجي هذا إلّا ريتا كاتز!!

ولا شك أن هذه الاختراقات لها أبعاد متعامدة أحيانًا ومتوازية أحيانًا أخرى، وأهداف قصيرة المدى وأخرى بعيدته.. هذا كله بشكل معقد جدًّا.

وفي مواقع هؤلاء، في ليبيا ومالي والجزائر وموريتانيا وسوريا والأردن والصومال واليمن والسودان.. أستطيع القول باطمئنان إن أغلب وقود الجماعات التكفيرية والقاعدية الإرهابية جُندت عن طريق «الإنترنت»، ويؤكد العديد من المحللين الفنيين والسياسيين.. أن معظم هذه المواقع والمنتديات «الجهادية» على مواقع الإنترنت، من صنع مركز «سايت» وصاحبته ومديرته ريتا كاتز، وعلى أي متشكك أو مشكك من النابهين العرب والمسلمين في هذه المسائل التكنولوجية، وخصوصًا من يسمون «هاكرز» أن يتتبعوا أرقام تعريفات عناوين الإنترنت في أمريكا وإسرائيل، وسيتأكدون أن الـ SERVER الخاص بهذه المواقع يشير إلى أجهزة خوادم IP ADRESS في إسرائيل وأمريكا.

لم تعد العلاقات الجنسية لـ«تسيفني ليفي» وزيرة خارجية إسرائيل «الجميلة» السابقة، وأركان الحكم في بعض الدول العربية خافية، بعد أن تم فضحها في أكثر من كتاب ولقاء، بل إن تسيفني نفسها صرحت في أكثر من لقاء صحفي وتليفزيوني - دون خجل - أنها استأذنت أو استفتت الحاخام الأكبر في إسرائيل في الزنا مع الغرباء، فأحل لها الزنا ما دامت هذه العلاقات ولقاءاتها لصالح إسرائيل.. وقت أن كانت تعمل ضابطًا في الموساد الإسرائيلي.. وكانت هذه العلاقات تتم في غرف مجهزة بكاميرات سرية، لتستخدم أشرطتها المسجلة بالصوت والصورة في إخضاع هؤلاء بعد تهديدهم بنشرها، مع العلم أن هذا ليس هو أسلوب السيطرة الوحيد في عالم التجسس وإدارة الدول القزمية عن قرب.

فلا شك أن أول أهدافه هو تشويه الإسلام، وتشويه الجهاد الذي فرضه الدين ضد المحتلين والمعتدين على الدول الإسلامية، أوعلى الأقل تفريغ الجهاد من مضمونه، فتنصرف الناس عنه، خصوصًا في الموضوع الأهم وهو الاحتلال الإسرائيلي لفلسطين، وسواء اتفقنا أو اختلفنا على ما عُرف عن جماعات وفصائل فلسطينية بأنه جهاد بداية من العمليات الفدائية المنطلقة من الأردن في حقبة الستينيات، والتي انتهت - نتيجة نزق وسوء فهم وتقدير وعمل هذه الفصائل - بحرب ضد الدولة المضيفة وهي الأردن بما عُرف بأيلول الأسود عام 1970، ثـم فـي جنـوب لبنان التـي رحلـت إليها، وأساءت أيضًا إلى لبنان واللبنانيين حتى خروجها منه في منتصف الثمانينيات بعد اجتياح العدو الإسرائيلي لبيروت عام 1982مع الاعتراف بنبل وصدق بعض الفصائل.

وسواء أخلصت الفصائل كلها أو بعضها لقضيتها الوطنية، أم أنهكتها العمالة للعدو من بعض قياداتها وسخرتها الاختراقات الاستخباراتية لإنهاء القضية وإرباك مسارات الحلول فإن الاختراقات الجديدة لما أطلق عليه زورًا وكذبًا العمل الجهادي، أسقطت «الجهاد» الفلسطيني وشوهت سمعته تماهيًا مع ما فعلت حركة حماس سواء في مصر أو غيرها مما دفع باتجاه التأثير السلبي على القضية الفلسطينية، ولا شك أن ظهور بعض الأصوات الإعلامية في مصر ترفض التعاطف مع فلسطينيي غزة خصوصًا حماس - سواء وافقنا على ما قالت هذه الأصوات أم رفضنا - كان محصلة هذا الجهاد «العكسي» الذي دأب على سب اليهود وقتل الجنود المصريين، وبالتالي فإنها نتيجة «رائعة» لصالح اليهود والغرب بصفة عامة، ما كانوا ليصلوا إليها إلا عبر هذه الجماعات التي تجد الهم الأبرز في أحاديثهم القدس وقضية فلسطين، وفي كل أحاديثهم يصبون الغضب على مسببي هذه الأزمة، بداية من بلفور حتى آخر رئيس أمريكي «ولا يذكرون في تاريخ السلطان عبد الحميد سوى رفضه بيع الأرض - فلسطين، أو التنازل عنها لليهود، هنا تجد أن الخلافة صنو لهذه القضية؛ لأن الخلافة في نظرهم هي التي تحمي الأرض، وتشبثهم بالخلافة كحلم «وهمي» يرغبون استعادتها هو بسبب حديث السلطان هذا حول فلسطين».. ولكنهم لم

يوجهوا بنادقهم صوب هذا العدو الذي يحتلها، إنما وجهوها للداخل لسذاجة ألمت بهم وقلة حيلة، وضعف واختراق، فلم نر تفجيرًا أو عملية انتحارية، أو استشهادية - كما يسمونها - في إسرائيل ضد اليهود، وإنما كل عملياتهم ضد بني جلدتهم ودينهم ولغتهم.. ولنا أن نتساءل من حيث لا تصيد ولا ترصد: هل قرأنا عن ضرورة القيام بعمليات مواجهة مع المحتل الإسرائيلي في أدبياتهم على تنوعها وكثرتها؟!

وقد حولت هذه الجماعات الإرهابية هذا «الجهاد» إلى أبناء بلادهم وجيوشها بدلًا من توجيهه ضد العدو الفعلي، وحتى لا نفكر كثيرًا دعونا نتساءل عن كل هؤلاء الشباب الذين فخخوا وفجروا سوريا أما كان أجدى لهم تهديد إسرائيل أو تدميرها، ولديهم ذرائع حقيقية وملحة لهذا الفعل «الجهادي»؟

ففي حواره مع أسامة خالد قال الإرهابي إبراهيم التونسي أحد قادة هذا الفكر «التكفيري» في تونس: «بعد الثورة لم نعد نجاهد في تونس وهي من توصيات الشيخ أيمن الظواهري الذي أمرهم أن تكون تونس أرض دعوة فقط، وعندما سُئل لماذا لا تجاهدون في إسرائيل أو توجهون جهادكم نحو إسرائيل ظل يتحدث أحاديث العراة ثم قال: نحن كـ«جهاديين» قمنا بالعديد من المراحل في الجهاد ولكن المرحلة الحالية هي مرحلة جلب أمريكا إلى بلاد المسلمين، وإنهاكها وتدميرها اقتصاديًا وعسكريًا وأخلاقيًا حتى تنكمش على نفسها»!!

وهنا لن نستخدم لغة السخرية والاستهزاء - وهي الأليق بالرد على هذه الترهات - ولكن نقول إذا كان هذا هو فكر الجهاد عند المسلمين فهم بذلك لا يتبعون من أوصى بالجهاد وهو الله الذي يقول: ﴿ادْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَالِبُونَ﴾[230]، وهي النظرية العسكرية التي تدرس في كل المعاهد والأكاديميات الحربية في العالم، وهي أن تنقض على العدو في أرضه فتحفظ أرضك من التدمير وتوفر الغطاء والمدد، وهو ما فعله النبي ﷺ بعد استقرار الدعوة في المدينة.

وهذا الأمر شرحه يطول، ونعود إلى ما قال فنجده يكمل: «وتعود - أمريكا - لمشكلاتها وحلها فلا تستطيع أن تدعم إسرائيل أو تتدخل في شئون البلاد الأخرى، وحينما نقوم نحن بهذه العملية تصبح إسرائيل فاقدة لأي دعم، في هذا الوقت يمكن أن نواجه إسرائيل»[231].

وتلك نتيجة لم تكن إسرائيل تحلم بإنجازها بهذا الشكل لو لم تقم بتوظيف هذا التيار الذي يُسمى زورًا «جهادي» لأهدافها مع تحقيق الهدف الأسمى، وهو الحرب ضد الإسلام نفسه كدين بعد الخلاص من الشيوعية الدولية، وتفكك الاتحاد السوفييتي عام 1990.

وهناك هدف مرحلي يصب في صالح أعداء البلدان الإسلامية من القوى الاستعمارية الراغبة في استمرار استنزاف هذه البلدان تحت ضغط ووطأة الإرباك الذي تسببه هذه الجماعات وممارساتها مما يدفع الأنظمة فيها إلى الرضوخ والمقايضة - وعادة ما تكون لصالح الغرب الاستكباري الاستعماري - بحاجتها إلى السلاح والمعلومات والمساندة والمؤازرة السياسية بقرارات دولية.

وتاريخ الاختراقات الغربية لمجتمعاتنا الهشة وعقولنا الساذجة يمتد منذ بدأت الأنظار تتجه إلى هذه المناطق من العالم.

وتعددت أساليب الاختراقات الخفية والعلنية منذ أن بدءوا في إرسال الجواسيس في صورة سياح ومستشرقين. والاستفادة من سياح الجنسيات والدول الأخرى، ولذلك نشطت السياحة في الغرب الإفريقي مثلًا أثناء دولة «سُكُتُو» وكان أول من زارها هو كلابرتون عام 1827.26، ثم فليجل عام 1880، وتومسون عام 1885، ومائيل عام 1891، ولاسي عام 1894 وغيرهم.

ولطبيعة كرم وإنسانية الإسلام فإن احتضان الغرباء ومساعدتهم يبقى أمرًا طبيعيًا، بل ومحببًا، ويتمثل في «إكرام الضيف»؛ ولذلك بقي كلابرتون في ضيافة الوزير جدادو وأخيه مودي ثمانية أشهر، استطاع فيها جمع معلومات

مهمة، وتدوين كثير من المعلومات ووصف الزراعة وصفًا دقيقًا، وهو ما فعله بارث بعدها 1853 فقد جاء اهتمامه بـ«سُكُتُو» أكبر؛ ولذا مكث فيها عامين يتجول في أنحاء مختلفة منها، لكونها من أعظم ممالك الغرب الإفريقي آنذاك.

واستاوند ننفر عام 1886 فقد مكث لمدة ستة أشهر، أما بروفيسور موري لاست الإنجليزي فقد كتب رسالة جامعية تحت عنوان «خلافة سُكُتُو» زار لها 600 موقع أثري تاريخي في النيجر، ونيجيريا، وكامرون، وداهومي، وتوجو، وتشاد.

واطلع على كتب مخطوطة في خمسين مكتبة عامة وخاصة.

وكذلك استورت - أمريكي - تخصص في تاريخ «إيدو علي» والطرق الموريتانية جنوب شرق موريتانيا، وتتبع ابن اللئيمة مخطوطًا يقع في 5 صفحات كتبها الشيخ محمد بلو(1817. 1837» حدد فيها كيفية بسط الأمن في بلاده الواسعة.

أما «جون بيدان» فقد اشترى مكتبة الشيخ عمر الفلكي التيجاني «1899. 1965» من ورثته في مدينة «كنو»، ونقلها إلى مكتبة جامعة ييل الأمريكية، وغيرهم الكثير في بلاد الغرب الإسلامي أو في المشرق.

وكان لورانس العرب أعتى هذه الدرجة من الاختراقات، وحكايته معروفة في تفتيت العرب قبيل وأثناء الحرب العالمية الأولى.

وفي غرب إفريقيا جاءت «الحركات الإسلاموية المخْتَرَقَة» إلى الشمال المالي، لتكون وبالًا على الأزواديين، لتفرِّغ قضيتهم من محتواها الحقيقي، وبُدِّلت واجهة القضية من مطالب شعب ذي خصوصية عرقية وثقافية، إلى إرهاب يقتل ويفجر وينهب ويحمي طرق المخدرات، وبالتالي فالحرب ضدهم باتت أوجب على العالم، ولها مبرراتها الأخلاقية، وبينت هذه الحملة الصليبية - كما قال أبو الغيث الموريتاني أحد قادة القاعدة - مدى البغض والكراهية التي تحملها فرنسا الصليبية للإسلام وأهله، وهذا الكلام هو بالتحديد ما سعت إليه

فرنسا؛ أن تظهر الحرب كأنها بينها وبين إرهابيين بعيدًا عن حقيقة قضية الطوارق، وهو ما يقودنا إلى التشكك في نوايا قادة القاعدة حتى الأزواديين منهم وتوفرهم للاختراق الاستخباراتي، سواء الدولي منه أو الإقليمي المحلي لهذه التنظيمات الإرهابية جميعها وعمالة قادتها المعروفين إعلاميًّا ودوليًّا: «بلعور» أو خالد أبو العباس المكنى «مختار بلمختار»، وأياد أج غالي المكنى «أبا الفضل»، ويعرف الأخير حسب رغبة وترويج قبائل «الإيفوقاص» المنتمي إليها بـ«أسد الصحراء».. الذي لم يتقلب في مدارج العمالة كما وصفه بعض الأزواديين، ولكنه بدأ كمرتزق أجير لدى القذافي.

ولعل الحقائق «تُفجر» بعضها بعضًا، ويُعرف الرجال ببعضهم، فقد كشف ساندا ولد بو عمامه[232] بعد وصوله إلى موطنه البديل «باسكنو» التي نشأ بها.. وفيها تعيش أسرته، أنه اكتشف عمالة أياد أج غالي لفرنسا، وتبين له ذلك تأكيدًا بعد أن جرَّ الجماعة إلى حرب بشكل مفاجئ بتوجيه قواته إلى مدينة «كونا» وسط البلاد - الطريق إلى باماكو - بداية شهر يناير.. وقد انتابت أعضاءَ الجماعة شكوكٌ حول اتصالات أياد مع مخابرات فرنسا.. وتأكدوا من ذلك بعد قراره بالحرب رغم أن الجماعة لم يَدُر بذهن أي من قادتها التفكير في الزحف نحو مدن الوسط.

الأمر الثاني الذي يؤكد عمالة أياد أج غالي للفرنسيين وهو امتلاك جماعته «أنصار الدين» لصواريخ سام 7 المضادة للطائرات، والتي تم تهريبها من ليبيا عن طريق معاونيه السابقين في كتيبة «المغاوير» ورفاقه القدامى في اللواء «32معزز»، وبعض شباب من عائلة عزوز الدرناوية الليبية، والتي رأيتها عند عقدي لقاء مع «حَلَيِ تكنا» القائد العسكري لـ«أنصار الدين» في تمبكتو -
وهي صواريخ تعمل بالتوجيه الحراري ويصل مداها إلى 3700متر بسرعة 430مترًا في الثانية الواحدة، وبها كان يمكن - على الأقل - عرقلة عمليات الطيران الحربي الفرنسي وإسقاط بعضها إذا تمت مواجهته بها، وهو الأمر الذي ينطبق أيضًا على جماعة «التوحيد والجهاد» في «جاوا» لامتلاكها نفس

الصواريخ المسروقة من ذات البلد.

وما يؤكد عمالة المختار هو القيام بعملية أميناس، ودفع عمر ولد إحماه للاتجاه بعناصره صوب الجنوب، لاحتلال مدنها في اتفاق مع تحرك أياد إلى «كونا»، مما أعطى انطباعًا وأرسل رسالة واضحة للعالم مفادها أن سقوط باماكو العاصمة في يد الإرهابيين بات قريبًا.

تزامن ذلك مع كلمات صدرت من أياد، بأنه لا يرغب في الانفصال، ولكن الهدف تطبيق الشرع في مالي كلها، خصوصًا أن 90 % من سكان البلاد من المسلمين، وهو ما أفزع العالم لأن سقوط باماكو في أيدي جماعات القاعدة ستكون له نتائج أكثر خطورة على المنطقة بأسرها مما سيحدث التمدد جنوبًا بالتلاحم مع بوكو حرام في نيجيريا وجماعات أخرى محلية في عدة دول، وسيعمل على تنشيط جماعات ثالثة في دول مجاورة، عكس التمدد في الدول العربية المدعوم استخباراتيًا، أعطى ذلك المبرر القوي لفرنسا للحرب.. خصوصًا أن الأمر خرج من إطار رغبة عرقية وقومية «الأزواديين» في الانفصال استقلالًا.

ومن الخيانات التي اعترف بها بعضهم بعد الحرب مقتل «أبو أسامة الأفغاني» في موقع بالقرب من «كيدال» كان ضمن حراس لعدد من الرهائن الفرنسيين بعد أن أرشد عنهم بالهاتف أحد زملاء أبو البراء!! ولكن أحد زملائه أرشد عنه فنقلوا الرهائن وقتل البعض وهرب أبو البراء.

الإشارة الثانية هي بشاعة الذي قام به بلمختار وجماعته في عين أم الناس - وهو الاسم الصحيح - واستحداث اسم أكثر رعبًا، وهو «الموقعون بالدم»، وكأنهم في حفل اختيار اسم لفيلم سينمائي.

وفي بيان لوزارة الخارجية الأمريكية اعتبرت جمادة ولد محمد الخيري وأحمد التلمسي من قيادات التوحيد والجهاد من وجهة نظر القانون الأمريكي إرهابيين، وهو ما حدث فقد تم إعلان جماعة التوحيد والجهاد وقيادييها كإرهابيين بعد انتهاء حركتهم في شمال مالي، ودخول القوات الفرنسية إلى

جاوا وتمبكتو.

وهنا يثور السؤال: لماذا يترك هذا القانون الأمريكي وبيانات وزاراته هؤلاء دون الوصم بالإرهاب، حتى يقوموا بعمليات عدة؟ ربما يقول قائل إن هذه العمليات هي التي تدرجهم تحت هذا الوصف، ولكنني أرى غير ذلك، فهؤلاء يقومون بأعمال تخريبية وإرهابية عديدة، وكان يمكن توصيفهم بالإرهاب بعد الأولى، أو الثانية، أو الثالثة.. ولكن القانون الأمريكي لا يصنفهم بذلك إلا بعد أن يحترقوا تمامًا، ويكون وجودهم في جماعاتهم الإرهابية أخطر على المصالح الأمريكية من اختفائهم، أو يدفعهم ذلك للإيغال في العمالة وتحقيق أكبر قدر من الخسائر لأوطانهم إرضاء لهذه الأجهزة، وهو ما حدث بعد ذلك فقد انتقل بلمختار إلى ليبيا للتعاون مع سفيان بن قمو في درنة على تخريب مصر بعد إفشالها لمخطط أمريكا في المنطقة وتفعيل دور بلمختار في ليبيا، بمعنى أدق أنهم قاموا بما كان مؤملًا فيهم ومنهم، وبالتالي فإن اختفاءهم يكون لصالح أمريكا.

«أحمد بو ختالة» في ليبيا، والذي قُبض عليه قبل إتمام الجيش الوطني الليبي بقيادة اللواء خليفة حفتر تنظيف «بنغازي» للمرة الأولى، لأن القبض عليه من قبل هذا الجيش واستجوابه كان سيفتح ملفات أمريكا وقطر.. فعلاقته هو وصهره الإخواني بقطر بجماعات القاعدة، وما سُمي بـ«أنصار الشريعة» في ليبيا بدأت تتسرب تفاصيلها.

وقد سربت فرنسا علاقة المخابرات الأمريكية بتنظيمي «المقاتلة الليبية» و«أنصار الشريعة».. من خلال معلوماتها التي وصلت عبر أمير الصحراء أبو مصعب عبد الودود الذي كان يعلم بتحركات مقاتلي باقي الجماعات الإرهابية وعلاقتهم بالأمريكان.. وفضحت تدريب القوات الأمريكية للعناصر التكفيرية من «المقاتلة الليبية» وتنظيم «أنصار الشريعة» في الجنوب الليبي، وقد فضحت فرنسا ذلك نهاية عام 2013 بنشر تفاصيله في الصحف، ولعل حادثة الهجوم على القنصلية الأمريكية في بنغازي كشفت بعضًا من تفاصيل هذه

العلاقة.. وقد وضح حجم الاختراق الأمريكي لهذه الجماعات وعناصرها، عندما أرادت دفع بعضهم من كتيبة شهداء بو سليم للتصدي للمهاجمين، ولكنهم «جماعة بو سليم» خشوا اتساع نطاق المواجهات بينهم وبين الجماعات المسلحة الأخرى سيما أن هناك خلافات عميقة بينهم فأحجموا بعد أن أبلغوا ضابط المخابرات الأمريكية في بنغازي بالموافقة، مما تسبب في تأخر إنقاذ السفير ورجال القنصلية بعرقلة قوات الكوماندوز عن التقدم نحو السفارة الذين أمرهم بالتريث والانتظار في سياراتهم لمدة 20 دقيقة، في حين كان مسئول الأمن بالسفارة يصرخ عبر هاتفه الشخصي لهم طالبًا النجدة حتى لا يقتلوا.. ولكن ضابط المخابرات أو قائد قاعدتها في بنغازي أمرهم بالتمهل على مسئوليته الخاصة، حيث سيتم استخدام ميليشيا إسلامية محلية للتعامل مع الموقف، ولتجنب تعريض قاعدة وكالة المخابرات الأمريكية في ليبيا للخطر، لم تتحرك القوة إلا بعد 40 دقيقة من الهجوم، مما جعل الجمهوريين يلقون باللوم على أوباما وهيلاري كلينتون.

ولا شك أن اصطياد قوات الكوماندوز، وفريق من مكتب التحقيقات الفيدرالية الأمريكية لأحمد أبو ختالة منتصف شهر يونية 2014، دون إطلاق رصاصة واحدة على مشارف بنغازي، يحمل دلالات الاختراق، لأن تحركاته لمدة أسبوعين قبل اصطياده، كانت معروفة للأمريكان من خلال ثلاثة عناصر يعملون معه، اثنان من ليبيا والثالث سوري.

بعدها حدث هجوم آخر، ولكن «للاستحمام» على مبنى السفارة الرئيسي في طرابلس، وأذيعت لقطات لهذا الاقتحام، ولكن خبرًا عجيبًا نُشر في نهاية أغسطس 2014 من تدوينة السفيرة الأمريكية لدى ليبيا «ديبورا جونز»، نافية فيه خبر اقتحام إسلاميين للسفارة الأمريكية : «لا صحة للأنباء حول سيطرة المسلحين على السفارة، وهو ما تأكدنا منه بشكل موثوق».

رغم أن خبر اقتحام السفارة من قبل مسلحين من عملية «فجر ليبيا»، التي يقودها إسلامويون قد انتشر في كل المواقع والصحف، موثقًا بتصوير فيديو

أذيع في كل محطات التلفزة، ورغم كل ذلك أنكرت سفيرة أمريكا!!

وقد كشف إدوارد سنودن الضابط السابق في وكالة الأمن القومي الأمريكي، عن أن حقيقة المدعو أبو بكر البغدادي هي نتاج عمل مخابراتي للولايات المتحدة وإسرائيل وبريطانيا، لخلق هذا التنظيم «داعش»، على أن يعمل على استقطاب المتطرفين من أنحاء العالم في مكان واحد، في عملية رمز لها بعنوان «عش الدبابير»، وهي خطة بريطانية قديمة لجهاز مخابرات إنجلترا M16، بنفس العنوان لحماية إسرائيل، بإنشاء مكون «جهادي إسلامي» تدفع شعاراته المتطرفة العالم لحماية إسرائيل، وكشفت هذه التسريبات عن أن أبا بكر البغدادي خضع لدورة مكثفة لعام كامل، خضع فيه لتدريب عسكري، ودورات في فن الخطابة والإلقاء والتأثير، ودروس في علم اللاهوت، ولذلك لم يكن غريبًا أن تظهر له فيما بعد صورعديدة مع «جون ماكين» في صيف 2013 في سوريا، وبُعيْد إطلاق سراحه من سجن «بوكا» في العراق، نشرها جون ماكين نفسه على حسابه في تويتر حول زيارة سابقة لسوريا، ولقاءات مع مقاتلين شجعان - حسب قوله - .

ومثله بلمختار الذي لم ينكر تلقيه التدريب العسكري عند عمر 19 سنة في أفغانستان على يد عناصر أمريكية قبل أن يعود للجزائرعام 1993م.

وتناثرت الحكايات في أزواد بين عناصر التنظيمات عن عمالة بلمختار للمخابرات الأمريكية، وتسهيل الأخيرة لمخابرات الجزائر السيطرة عليه، فتقاسمته الثانية مع الفرنسية حتى صار مشبوهًا مخابراتيًا وإن أكد البعض أن المخابرات الأمريكية ما زالت تدعمه - وإن لم تكن سبل التحقق مؤكدة لهذه المعلومات - لكن الواضح والمعلوم تاريخيًا هو الدور المخابراتي الأمريكي في صناعة القاعدة ومقاتليها، سواء في بيشاور أو«كويتا»، أو جبال «تورا بورا»،والتعاون «الملفوف» بين هذه المخابرات، والمخابرات الباكستانية، والتي كانت تشرف على كل كبيرة وصغيرة في مواطن وملاجئ وحركة «الأفغان العرب».

وتزامن «بيع العميل أو إقراضه» مع بداية العقد الأول من الألفية الثالثة 2001 بعد الخلافات الحادة بينه وبين «حسان حطاب» أمير الصحراء السابق عندما أراد استبدال بلمختار بـ«عبد الرازق البارا» أميرًا على الصحراء.. كما حدث مع حسان حطاب وعبد الحق العيايدة، واستفادتهما من العفو.

ولا شك أن عملية «عين أميناس» من قبل بلمختار وفرت المبرر الدعائي الإنساني الكافي للتدخل العسكري الفرنسي مع المساهمة اللوجستية والمخابراتية للأمريكان، كما ساهمت في توفير الغطاء الأخلاقي أيضًا تحركات أياد أغ غالي بقواته «أنصار الدين» باتجاه مدن الوسط.

فالمبلغ المالي الذي استخدمه بلمختار في تنفيذ عمليته،10ملايين دولار.. أكبر من أن يخصص لمثل هذه العملية التي لم تكن لها دواعٍ حقيقية، وحسب سياق العمليات في المنطقة؛ فإن الحرب كانت على الأبواب مما سيجعل الاستعداد لها والتمترس في انتظارها أولى من تشتيت الجهود وهو ما يؤكد العمالة خصوصًا مع رقم الإنفاق الذي بلغ في رواية أخرى 15 مليون دولار هي تكلفة سيارات الدفع الرباعي ومنها فئة تويوتا v8 المشابهة تمامًا لسيارات فرق الأمن في شركة «سوناطراك» الجزائرية، حاملة صواريخ مضادة للدروع، وصواريخ أرض جو، وأموال سائلة كثيرة، لزوم احتياجات الرحلة عبر أراضي النيجر وليبيا.. وتتعامد خطوط العمالة وتتلاقى ما بين بلمختار وجماعة أنصار الشريعة في ليبيا التي زودتهم بالسيارات وأجهزة المراقبة والاتصال.

وليست عملية «بلمختار» وغيره من قادة التنظيم القندهاري إلا استمرارًا للاختراقات الأمنية الجزائرية التي بدأت في الوضوح عند نزوع الجماعات «الإسلاموية» في الجزائر للإرهاب، والتي أكدها حبيب سويدية الضابط المظلي في الجيش الجزائري ضمن تأكيدات لآخرين بقوله: «علمت أن عبد القادر شبوطي زعيم الحركة الإسلامية المسلحة قد جرح في أثناء عملية ضرب «المدية»، وفي فبراير صُرع جعفر الأفغاني أمير الجماعة الإسلامية المسلحة

في مدينة الجزائر على يد رجال الكتيبة 90 شرطة عسكرية في فيلا لجأ إليها، بعدها بوقت قصير عرفنا على نحو يثير العجب اسم بديله، وسيتكرر الأمر كثيرًا كلما صُفي زعيم للجماعة الإسلامية ويُختار أمير جديد، ويتم إعلام الجيش به على الفور، وهو ما حدث مع شريف قواسمي وجمال زيتوني وعنتر الزوابري، وأيضًا حسان حطاب.

وإن كانت مواطن الجماعات التكفيرية الأساسية في شمال إفريقيا بالجزائر، ويعد منتسبو القاعدة في أفغانستان والعائدون منها نواة هذه الجماعات العائدة بشبكات اختراقية أمريكية، فلا شك أن للأمن الجزائري نصيبه الوافر داخلها.

حيث اخترقت أجهزة المخابرات الجزائرية الجماعة الإسلامية المسلحة عند اعتقال قائدها عبد الحق العيايدة في المغرب، وتسليمه إلى السلطات الجزائرية، والحكم عليه بالإعدام، وأبدى ذعرًا وهلعًا، فأظهر استعداده للتعاون مع الأجهزة لتصفية أوكار الإرهاب، مقابل الإفراج عنه، وهو ما وفَّر لأجهزة الأمن الجزائرية معلومات مهمة عن هذه الجماعات، وساعدها على زرع عناصر منها، أو عميلة لها داخلها.

ويذكر أن هذه لعبة احترفها الجيش الجزائري وأذرعه الأمنية منذ إنشائها على يد محمد بوضياف في سياق تنشئة وخلق الولاءات.. أما الجيش الجزائري فهو شبه متفرغ لضمان الأمن الداخلي، واستمرار النظام الحاكم الذي خلفه الجيش، وتكونت زعامته منهم ويصنف المراقبون ما بين عامي 1994، و1996 كأخطر مراحل الجماعة الإسلامية بإعلان الكتائب الموالية لجبهة الإنقاذ «الوحدة الجهادية»، وهو ما سمح للورم التكفيري بالتضخم في الجماعة «عناصر جمال زيتون وعنتر الزاوبري»، والذي بدأ بتصفية شيخي جبهة الإنقاذ محمد السعيد وعبد الرازق رجّام، وغيرهما، ثم امتد لتصفية كل من يخالف الفكر التكفيري داخل الجماعة نفسها، وقيام مجازر بحق عدد من المواطنين المسلمين، وبرز هذا التيار الذي يتفق مع طائفة من الخوارج الذي يرى الرعية كافرة بالتبعية

إذن لكفر الحاكم.

ومن عمليات الاختراق ما قام به عميل المخابرات الجزائرية «كريم مولاي» من اختراق الجماعات الجزائرية المعارضة المقيمة في المغرب، حيث قام بتجنيد رجل أمن في مدينة الرشيدية، لتبليغه بحركات وقوائم جزائريين أصوليين يقيمون في المغرب، وتنقلاتهم وأرقام هواتفهم وأرقام سياراتهم وعناوين إقامتهم.

ومن ضمن الاختراقات توريط نجل عباس مدني في تنفيذ تفجير مطار «هواري بو مدين» في الجزائر العاصمة عام 1992، ثم حاولوا اغتياله في أول يناير 2001 في ماليزيا عن طريق العميل كريم مولاي نفسه.

ثم أصبح جبل الشعانبي مأوى هذه الجماعات، ومنها جماعة «الجيا»، والجماعة السلفية للدعوة والقتال، ولطريف المصادفات فقد أووا إلى نفس الكهوف والمخابئ التي كان يستعملها مجاهدو جيش التحرير الوطني الجزائري خلال محاربة الاستعمار الفرنسي وقدرت وقتها مصادر استخبارية جزائرية أعدادهم من القيادات بـ 53 عنصرًا منهم ليبيون ينتمون إلى كتيبة عقبة بن نافع التابعة لـ«سيابيسي».. الجماعة السلفية للدعوة والقتال «وهو الاسم السابق لتنظيم القاعدة في بلاد المغرب الإسلامي».

وأكدت شهادة المظلي السابق في الجيش الجزائري حبيب سويدية[233] اختراق جهاز الاستخبارات الجزائرية، في عهد محمد مدين «توفيق» لهذه الجماعات تزامنًا مع ظهور النشاط الفعلي لـ«الجيا» عام 1993، خصوصًا بعد الوحدة بينها وبين فصيل من جبهة الإنقاذ عام 1994، وفي العام التالي 1995 كانت أكبر عمليات الإبادة للجماعات الأخرى، أكثرها في مثلث الموت «البليدة - المدية - يمين الدفلي»، وبحسب المحللين المحليين فإن «الجيا» وضحت معالمها عام 1996 كجماعة تكفيرية مخترقة أمنيًا، فبدأ عدد من عناصرها ممن كانوا يظنون أنهم يعملون حقًّا للجهاد، من هؤلاء الشباب المخدوعين التسلل

منها والانضمام إلى جماعات أخرى مما حدا بـ«الجيا»، أو من يديرونها من العناصر الأمنية إلى تغيير اسمها إلى «الجماعة الإسلامية السلفية للدعوة والقتال».. وهو ما كشف عنه «شارل باسكوا» وزير الداخلية الفرنسي آنذاك باتهام واشنطن بمحاباة المتشددين الإسلاميين، وهاجم الفرنسيون الدوافع الأمريكية وراء الاتصال مع الإسلاميين.. مشيرًا إلى أنور هدام ممثل الجبهة في واشنطن الذي واصل اتصالاته مع المسئولين الأمريكيين[234].

«لم يعد الموضوع يتعلق بجماعة إسلامية مسلحة، بل جماعات إسلامية خاصة بالجيش، ومخترقة من قبل مديرية الاستخبارات الأمنية»[235] ويعد الأعور أو بلمختار هو نجم هذه الجماعة التي تحولت إلى قاعدة بلاد المغرب الإسلامي، والذي نزح بها من الجزائر إلى مالي ليسهم بعد سنوات في تصفية قضية الطوارق بعمالته المخزية.

وإعلان بلمختار رغبته في إنهاء حياة الهرب وتسليم نفسه على أن يستفيد من العفو الرئاسي - كما حدث مع حطاب - ولكن كان قرار جهاز الأمن الجزائري هو العفو الخفي وضمان عدم المساس به في حال القبض عليه على أن يستمر مستخدمًا لهم وهي الفترة التي تمت فيها عمليات «بيعه أو إقراضه»، وما يؤكد ذلك هو الظهور العلني أثناء الانفصال في مالي، والحديث مع وسيلة إعلامية موريتانية، والذي يعد أول لقاء صحفي يجريه قيادي بالصف الأول في جماعة القاعدة[236] وأن اللقاء تم في مدينة «باسكنو» الحدودية تحت رعاية الأمن الموريتاني، رغم كونه مطلوبًا لهم لعمليات إرهابية قام بها في موريتانيا، ولذا لم يكن من المستغرب أن يردد بلمختار في كل مكان أن القاعدة صنيعة مخابرات دول غربية تريد استغلال مبرر مكافحة الإرهاب للتدخل في المنطقة مشيرًا إلى أنه بعد تأكده من رغبة دورد كال في التخلص منه قرر أن يعلن الحرب على الجماعات الإرهابية التابعة للقاعدة وسيعمل على تصفية قادتها[237].

أما «الجماعة الإسلامية الليبية المقاتلة» فقد أقامت صلات مع تنظيم القاعدة

في المغرب الإسلامي عام 2007.

وكان قادتها قد تلقوا تجنيدًا وتدريبًا على يد وكالة المخابرات المركزية في أفغانستان، وقدمت الـ CIA الأمريكية والـM16 البريطانية دعمًا سريًا لهذه الجماعة وهو ما تأكد بالتعاون المفرط والدعم المتميز، لها من قوات «الناتو» بتسهيل تهريب ووصول الأسلحة النوعية لهم وتدريب عدد منهم تدريبًا خاصًا، وأرسلت بريطانيا من القوات الخاصة SAS عددًا بصفة مستشارين للجماعة.

وقد جاءت اعترافات «جون بايدن» نائب الرئيس الأمريكي المشهور أثناء محاضرة ألقاها في جامعة هارفارد[238] باتهام حلفاء واشنطن في الخليج والسعودية وقطر والإمارات بدعم وتسليح الجماعات الإرهابية المتطرفة مثل تنظيمات القاعدة وجبهة النصرة وداعش، وأن هذه الدول قدمت لها عشرات الآلاف من أطنان الأسلحة والذخائر ومئات الملايين من الدولارات، وإن تجاهل بايدن دور الولايات المتحدة في هذا الدعم، وأن هذه الدول لا تتحرك في أمر كهذا دون تنسيق معها، فضلًا عن مراقبتها الدقيقة عبر عملاء وأدوات تجسس، وكانت أحيانًا توقف على الأراضي التركية شحنات أسلحة متجهة إلى المعارضة والجيش الحر! وهو ما كان يصب في خانة تقوية «داعش» و«النصرة».. ولم تنكر أنها لم يكن هدفها إسقاط نظام الأسد، بل إضعافه، وقد تحدث بذلك مسئولون أمريكيون، ونقله وكتبه صحفيون أمريكيون.وهي قناعة وليست زلة؛ لأنها جاءت في محاضرة معدة ومجهزة، وليست في لقاء تليفزيوني عفوي ومباشر دون معرفة الأسئلة، وقد استغربت كثيرًا من ذكر الإمارات ضمن هذه الشلة ولذلك أعتبر أن ذلك عتب عنيف «قرصة أذن» للإمارات على ما أشيع حول علاقاتها مع المعتدلين، والقوى الوطنية غير المتطرفة وغير المؤدلجة في ليبيا، وكذلك موقفها الداعم لمصر ضد قوى التطرف والإرهاب.

ولأن خطة أمريكا وأوروبا في نشر الفوضى في العالم العربي تمهيدًا لتقسيمه؛ فإنهم لما يعلمون عن إمكانية تجذير مثل هذا الفكر في نفوس مواطنيهم، ومن

ثم تكوين خلايا إرهابية أوروبية اليد والوجه واللسان مما سينعكس عليهم سلبًا.

فهنا يتم الاختراق بالترك أو بالتسهيل وغض البصر عمن لديهم بذور أو بدايات تطرف للانضمام إلى داعش والنصرة، وهو ما حدث، ونجحت الخطة في تحديد أعداد المتطرفين في بلادهم ومعرفة الأسماء والمحيط الاجتماعي والعائلي والعملي لهؤلاء الشباب وهو ما سيعمل على القضاء على هذه البذور أو على الأقل تأخير نموها في أراضيهم لعقد من السنوات تقريبًا.

وهو ما تحقق بالفعل في أستراليا بمتابعة محمد علي بريالي الذي ظهر في سوريا كضابط برتبة ملازم أول في جيش داعش؛ فالتقطت المخابرات الأسترالية الإشارة وتابعت أصدقاءه، وتتبعت مهاتفة له مع شاب أسترالي يكلفه فيها بعمل إرهابي، وهكذا تم رصد عدد من المؤهلين نفسيًّا وعقائديًّا للانضمام إلى «داعش»، وبالفعل ألغت سفر100شاب وتحفظت على جوازاتهم، ووضعت 150 من السكان تحت المراقبة[239] وهو نفس ما حدث في أمريكا التي رصدت أكثر من 100 مواطن يحملون جنسيتها انضموا إلى «داعش»، وفي بريطانيا التي رصدت أجهزة الأمن بها أكثر من 500 مواطن انضموا لداعش، وكذلك الحال في فرنسا وألمانيا.

وهو ما اعترف به «لود فيج شير جهوفر» رئيس قسم مكافحة الإرهاب بولاية «بافاريا» الألمانية قائلًا: عندما يتبنى شخص أفكارًا أصولية، ويريد مغادرة ألمانيا كنا نسعى إلى تسهيل مغادرته أو نعجل بذلك من خلال الإجراءات الخاصة.. واستند شير جهوفر إلى وثيقة سرية لوزارة الداخلية الألمانية عام 2009، تنظم دخول وخروج الإسلاميين المستعدين لارتكاب أعمال عنف.

وقد صرح مدير الاستخبارات الوطنية الأمريكية «جيمس كلابر» الخميس 18 سبتمبر 2014، بأن التركيز المكثف على «داعش» عمل على تحريف صورة التهديد الإرهابي الذي ظهر من فوضى الحرب السورية.

وأن التهديدات الأكثر مباشرة تتمثل في تنظيمات إرهابية تقليدية مثل خراسان وجبهة النصرة[240]، وبالتالي فإن داعش ليست خطرًا على أمريكا.

ولكن هل هناك ثمة رابط - اختراقي - بين من دربتهم الولايات المتحدة عسكريًا من ضباط وجنود الجيش المالي وانضمامهم بعد التدريب إلى الجماعات التكفيرية في أزواد؟ وهل إقرار الجنرال الأمريكي الفشل في تدريب الجيش المالي على القيم والروح العسكرية يصب في هذه الخانة.

ولا شك أن العمالة أو الاختراق لا يطالانِ الشباب البريء المغرر بهم الذين انضموا لهذه التنظيمات حبًا لله، توهمًا أنهم سيقيمون دينه ويحيون سنة نبيه المصطفى ﷺ لأنها في نظرهم قد خبت وأنهم مكلفون بنشر الدين - بالجهاد - في كل بقاع الأرض غير عابئين أو ملتفتين لآيات القرآن التي تؤكد أن الله لو شاء لآمن من في الأرض كلهم جميعًا، يؤمنون فقط بإراقة الدماء لتنفيذ أمر الله !!هكذا قال لي يوسف الشنقيطي.

وهو أمر ليس ببعيد عن هذه الجماعات الإسلاموية التكفيرية، بداية من «الاختراق الكبير»، أو التأسيس الأول لتنظيم القاعدة سواء بشكل مباشر من خلال الدعم السعودي، والتفعيل الإخواني والغطاء الإيراني.. وتلك كانت المرحلة الأولى في البناء الهيكلي للتنظيم.

أما البناء الفكري والتكفيري المحدد، وهو الذي بدأ ظهوره بعد هروب أسامة بن لادن إلى السودان، وبقائه فيها لأربع سنوات صبت في نفسه المتوهجة مؤثرات المخابرات الأمريكية والإيرانية، من خلال عدد من شخصيات التنظيم الإخواني، وأهمهم الترابي الذي يجيد التنظير لقضايا العالم الإسلامي كله، فلفت نظر أسامة بشكل واضح ومحدد إلى امتداد الهم الإسلامي، وضياع المسلمين على مساحة الكرة الأرضية من أمريكا إلى الصين، ليبدأ التحول في إطار محاربة أعداء الإسلام، وقد جمع غير الإسلاميين كلهم في سلة واحدة.. يهودًا ونصارى وعلى رأسهم أمريكا وإسرائيل.. وفي معسكرات القاعدة التي

افتتحها في السودان برعاية الحكومة السودانية، وتوجيه الترابي بأن العدو الثاني هو حكومات الطواغيت العرب التي تحول دون انتقام المسلمين من اليهود، وتخليص بيت المقدس، وبالتالي فهم العدو الأول فعليًا، وبذلك تبلورت في ذهن أسامة الفكرة التي ستبنى عليها قواعد وأسس تنظيم «القاعدة» فيما بعد، وهي فكرة العدو القريب «العرب المسلمون من الشعوب العربية وحكامهم الطواغيت»، والعدو البعيد وهو أمريكا وإسرائيل.

وتكتمل الإشارات إلى الدور الأمريكي في صناعة هذا «الغول المدمر» تنظيم القاعدة.. بما ثبت عن دور الأمريكان في إنشاء وصناعة قناة الجزيرة، وباستخدامها المنهجي في التخابر، وتدمير المجتمعات العربية وتهيئتها للثورات، وثالثًا تسريب وجهات النظر العبرية الصهيونية إلى مخادع الشعوب العربية.

وفي المسار الأول ثبت بشهادات متعددة ووقائع محددة دور يسري فودة - خريج الجامعة الأمريكية بالقاهرة، والذي شارك وعمل في قناة الجزيرة منذ إنشائها - في القبض على رمزي بن الشيبة العضو القيادي في تنظيم القاعدة، والمسئول عن التخطيط وقيادة عملية تفجيرات 11 سبتمبر2001م، والذي اعتقلته المخابرات الأمريكية في سبتمبر2002، وقد كتب عدد من الصحفيين المصريين عن حصوله على مبلغ 5 ملايين دولار من المخابرات الأمريكية، وإن لم يوثق أحدهم هذه المعلومة، فإن يسري أيضًا لم ينفها.. فهل بالفعل تورط معهم يسري؟!!

وليس غريبًا في ضوء هذه العلاقة الدائرية بين المخابرات الأمريكية والجزيرة وتنظيم القاعدة، أن يبرئ المكتب الإعلامي للتنظيم يسري فودة وقناة الجزيرة من تهمة الإبلاغ عن مكان ابن الشيبة للمخابرات الأمريكية.

ولذلك لم يبرئ الكاتب المصري محمود الكردوسي يسري من مسئولية اعتقال ابن الشيبة، بعد إذاعة حلقة برنامجه التي تضمنت الحوار بكل ما فيه من

شفرات، وما يمكن أن يتيحه من إمكانية تتبع المعلومات الواردة فيه، والذي أرشد ودل على مكان ابن الشيبة ليس الحوار أو ديكورات المكان، ولكن إحداثيات المكان التي نقلها الهاتف كخاصية تتبع من خلال خاصية الـG.B.S وذلك ما عرفته عندما بحث عناصر «أنصار الشريعة» في هاتفي بعد احتجازي للتأكد من جاسوسيتي بوجودها وأنقذ رقبتي وقتها مؤقتًا أني لا أستخدمها.

ويحفل تاريخ هذه الجماعات بالاختراقات سواء لأجهزة مخابرات محلية، أو إقليمية، أو أساسية في اللعبة مثل الموساد والـC.I.A.

وقد كشفت الصحفية الأمريكية «جين ماير» في كتابها «الجانب المظلم» أن يسري فودة وهب مخبأ ابن الشيبة إلى المخابرات الأمريكية C.I.A عن طريق حمد بن جاسم آل ثان رئيس القناة آنذاك، وقد أكد جمال إسماعيل مراسل الجزيرة السابق في أفغانستان في كتابه «أنا والجزيرة» أن القناة كانت تكلفه بعمل تحقيقات ذات طابع استخباري لصالح جهات أجنبية!!

ويمثل عبد الحق العيايدة حلقة من حلقات الاختراقات المخابراتية لجماعات العنف الإسلاموية في الجزائر بعد ما تم اعتقاله في المغرب وتسليمه إلى السلطات الجزائرية، وكان هلعه الشديد وخوفه المتجذر في قلبه سببين رئيسيين مع استعداده النفسي للقبول بالعمالة للأمن واستعداده التام للعمل الجدي لتصفية بؤر الإرهاب مقابل الإفراج عنه.. وهو ما أسهم بالفعل في تحديد موقع أمير الجماعة «جعفر الأفغاني» واغتياله بعد مضي أشهر قليلة على توليه «الإمارة».

وقد أكد لي مصدر قريب من قياداته أن نسبة الاختراق المخابراتي المتعدد لهذه القيادات لا تقل عن 30 % منهم، وهو ما اعترف ببعضه أبومحمد العدناني، مؤكدًا أن لديهم اختراقات.

***

إيران وإسرائيل يخرجان المهدي المنتظر

ملأت فكرة المهدي المنتظرحيزًا غير بسيط من الأدبيات الإسلامية، فكانت من تراديد التراث وظلت محورًا لكثير من الحركات والادعاءات في التاريخ الإسلامي، خصوصًا لدى أصحاب المذهب السني، وبالتحديد في القسم الغربي من العالم الإسلامي الممتد من الشاطئ الغربي للبحر الأحمر حتى المحيط الأطلسي، وقد استند كل من ادعى المهدية على ثوابت فكرة المهدي المنتظر في التراث الإسلامي، المبني والمستند على أحاديث سيد الخلق ﷺ، التي أخرجها عدد من الأئمة كالترمذي وأبي داود وابن ماجه والبزار.. ومنها ما روى أبو داود: «لو لم يبق من الدنيا إلا يوم واحد لطوّل الله تعالى ذلك اليوم، حتى يبعث الله تعالى فيه رجلًا من أهل بيتي، يواطئ اسمه اسمي واسم أبيه اسم أبي»[241].

واستعرض ابن خلدون ثمانية وعشرين حديثًا وردت في المهدي وناقش بعض أسانيدها، وقال: جملة الأحاديث التي خَرَّجَهَا الأئمة في شأن المهدي وخروجه في آخر الزمان لم يخلص منها من النقد إلا القليل.

وتشكك ابن خلدون في عقيدة المهدي واستبعدها لكونها عقيدة أسطورية استغلت سذاجة العقل المسلم وتوقفه عند الورقات الصفر مصدقًا ومؤمنًا دون إعمال لروح النقد.. وهو ما أدى في فترات كثيرة إلى أحداث جسيمة أدت إلى إراقة دماء كثيرة من دماء المسلمين في مواقع عديدة من عالمنا الإسلامي بسبب غياب العقل والمنطق، وتظل الفكرة العقدية الأسطورية عن خروج المهدي شاغلًا لقطاعات غير قليلة من المسلمين، فهي لدى الشيعة عقيدة راسخة لارتباطها بتاريخ الأئمة الأشراف من آل بيت النبوة صلوات الله وسلامه على جدهم وعليهم، ورسخوها نتيجة فكرة «الغيبة الكبرى» للإمام المهدي.

ومن الثابت أن لفظ المهدي وخروجه لم يرد صراحة في القرآن الكريم، لكنه ورد في اثنين وثلاثين حديثًا مما روي عن النبي ﷺ، وإن كان ابن خلدون قد

حققها وذكر ما يأخذه على رواتها، وقال إنها لم ترد في صحيحي البخاري ومسلم، لكنه اعترف بقوة أسانيد بعضها، منها ما رواه الحاكم قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تقوم الساعة حتى تملأ الأرض جورًا وظلمًا وعدوانًا، ثم يخرج من أهل بيتي رجل يملؤها قسطًا وعدلًا،كما مُلئت ظلمًا وجورًا»[242].

وذهاب ابن خلدون إلى ضعف جل هذه الأحاديث، يختمه بقوله: «اعلم أن المشهور بين الكافة من أهل الإسلام على مر الأعصار، أنه لا بد في آخر الزمان من ظهور رجل من أهل البيت يؤيد الدين ويُظهر العدل، ويتبعه المسلمون فيستولي على الممالك ويسمى بالمهدي[243] وإن كان ذلك ليس رأيًا له، ولكنه تقرير بما هو متداول ومشهور بين المسلمين، وربما يكون السبب في الإصرار على هذا الترديد والتداول هو ما جرى لآل البيت خلال الخلافتين الأموية والعباسية من ظلم لهم.

وفي نهاية القرن الثامن عشر الميلادي تعرض الشيخ عُثمان بن فُودي لفكرة المهدي المنتظر التي سادت بين عامة الناس في الغرب الإفريقي، وكان ذيوعها بهذه القوة دليلًا على كثرة الظلم في هذه البلاد، والحاجة الملحة إلى قائد أو إمام يُعيد اتزان ميزان العدل، فينصف الضعيف ويرفع الظلم عن المظلومين، ويهنأ تحت رايته الناس... ولا شك أن انتشار هذه الدعوة يؤكد حجم الجهل والضحالة الفكرية، والسذاجة المجتمعية التي كانت تعم هذه الأنحاء، لما فيها من غيبيات اختلطت في كثير من تفاصيلها بالأساطير، وورد في الكثير من مؤلفات الشيخ عثمان بن فودي[244] وأعوانه عن ظهور المهدي، مما يؤكد أنهم كانوا على قناعة كبيرة، فأعلنوه وروجوا له بين أتباعهم ومريديهم، وذاعت فكرة قرب ظهور المهدي المنتظر، ودنو قيام الساعة في المنطقة الواقعة بين النيجر وتشاد[245].

ونتيجة الأحداث الكبرى والتقلبات في تاريخ هذه الأمم في غرب إفريقيا، كان البحث عن مخلص سببًا رئيسيًّا من أسباب انتشار فكرة المهدي المنتظر.

ولمصادفة ظهور عُثمان بن فُودي على رأس القرن الثاني عشر وبداية الثالث عشر الهجري، وهو القرن الذي اعتقد البعض هناك ظهور المهدي فيه، جعلت أتباعه يعتقدون أنه المهدي، نتيجة ما أظهره الشيخ من عدل في رعيته خصوصًا بعد تكوينه دولته «سوكوتو»[246] ولبراعته الفقهية وشمولية دعوته وعداده في أقطاب الصوفية، ولكنه نفى ذلك في مناسبات عدة، ففي مراحل دعوته الأولى ألّف كتابًا بعنوان «تنبيه الأمة على قرب هجوم أشراط الساعة» أورد فيه أن بعض تلك الأشراط قد ظهر، وقال «مقصدنا في تنبيههم على قرب هجوم تلك الأشراط حثهم على الاحتياط على أنفسهم بالتوبة». وذكر الشيخُ عُثمانُ 10 شروط، رابعها ما ورد في خروج المهدي رضي الله عنه.. ومن مؤلفاته «القول المختصر في أمر الإمام المنتظر» و«تنبيه الإفهام على أن المهدي هو الختام»[247].

وقد حدد أنه ستكون هناك إرهاصات لظهور المهدي وهي التي سمّاها أشراط الساعة، ففي كتابه «أمر الساعة وأشراطها» الذي كتبه عام(1223هـ/ 1808م» أورد تلك المؤشرات، واستشهد بكلام السيوطي[248] بأن المهدي سيظهر ما بين عامي «1194هـ 1786م - 1196 هـ/ 1788م).

ولنفي اعتقاد الناس أنه المهدي كتب الشيخُ عُثمانُ مبينًا بكثير من التفصيل والنقاش المستفيض، محتجًّا بالأدلة وما ورد من الأحاديث وكتابات الفقهاء، في كتابه «تحذير الإخوان من ادعاء المهدية الموعودة في آخر الزمان»، ولعل هذا الكتاب جاء كإصرار منه لنهي أتباعه عن الحديث عن أنه هو المهدي، وإزالة ما علق في أذهان العامة وحبب إلى نفوسهم، وأملهم فيه نتيجة حبهم له وقناعتهم به.

وفي النيجر انتحل صفة المهدي «حما الطارقي» الذي أعلن مهديته بين الأمازيغ، وحقق بينهم انتشارًا كبيرًا، وعلق الشيخ عُثمان بن فودي: «العجب أنني رأيت رجلًا في العوام يدعي الولاية وقد جاءنا زائرًا ولم نتعرض لنهيه عن ادعائه بذلك ثم جاءنا ثانيًا زائرًا وهو يدعي المهدية فنهيناه عن ذلك، فرجع

إلى مكانه ولكنه لم يرجع عن ادعائه بل تمادى حتى فشا أمره بين التوارك «الطوارق» فأشكل عليهم أمره[249] ورأى الشيخُ عُثمانُ أنّ ادعاء المهدية صورة من صور الابتلاء الذي ادّعاه البعض «مما ابتلي به الناس قديمًا وحديثًا» ورغم ذلك فإن أمر المهدي حقيقي مؤكدًا أنّ «خروج المهدي أمرٌ مقطوعٌ به وإنّ كونه شَريفًا أمرٌ مقطوعٌ به»[250].

ويُقَررُ الشيخُ عُثمانُ: «وللإمام المهدي رضي الله عنه أوصاف وأسرار لا يتَّصف بها مثلي ولا غيري ممن ادعوها.. وقد كثر ادعاء المهدية في الناس ونحن نعُوذ بالله من ادعائها لأنفسنا ولغيرنا قبل ظهورها، وقد وردت النصوص الصحيحة والسنن الصريحة التي تواترت الأخبار بها واستفاضت بكثرة رواتها من أن المهدي رضي الله عنه الموعود بظهوره في آخر الزمان يخرج مع سيدنا عيسى ويساعده عيسى على قتل الدجال»[251].

ثم يعود للحديث عن «حما محمد» الطارقي مُدَّعي المهدية الذي لم يرتدع من نهي الشيخ عُثمان وجماعته عن غيه بل استمر في ادعاء كونه المهدي المنتظر حتى شاع أمره بين الطوارق مما حدا بالعقلاء منهم أن يسألوا الشيخ عُثمان نفسه.. يقول: فأرسلوا إلينا بوثيقة «من الفقير الذليل الجاهل يوسف بن أسامة إلى الولي العارف بالله أمير المؤمنين عُثمان بن فُودي وإلى أخيه قطب العلم عبدالله، بايعناك على السمع والطاعة في العسر واليسر، نريد منك يا شيخ عُثمان أن تعدنا من رعيتك.. وأننا بلغنا أمر فظيع وهو أنه جاء فتى شاب من عشيرتنا وأخبرنا أنه خرج من عند رجل من المسلمين يسمى مُحمد «حما» قال إنه هو المهدي فتحيرنا في أمره فأرسلنا إليه شابًا لا نتهمه في أمر دينه ولا في عقله ولا في فهمه ولا في علمه حتى وصل إليه وما أرسلناه إليه إلا ليعرف لنا الأمر الذي ادعاه وأخبرنا بما رأى من علاماته». ويسأل يوسف بن أسامة أحد أعيان الطوارق الشيخ عُثمان عن صحة أمر هذا الرجل ويطلب رده، فيبين لهم الحق والحقيقة موضحًا شرط هذه المهدية وهو أن يكون في صاحبها - بعد ذكر صفاته وتطابق اسمه واسم أبيه مع اسم النبي ﷺ وأنه من آل بيت النبوة -

لا بد أن يتمتع بصفات الكشف[252] وأن يكون من أهل الصوفية بل يكون في زمنه قطب الأقطاب وهي أعلى مراتب الصوفية.

فلم يرفض الشيخُ عُثمانُ مهدية هذا الرجل فقط بل راح في خطابه إلى الطوارق يفند حيلته ويكشف قدرته وحجمه الذي لا يؤهله لبلوغ هذه المرتبة فضلًا عن الاختلافات المبينة في السمت والاسم ومكان الميلاد مما أخبر به النبي ﷺ فقال الرجل: «كيف يدَّعي هذا الخبر العامي المهدية وبينه وبينها مفاوز، هذا بالنظر إلى مراتب أهل الفقه وأما بالنظر إلى مراتب التصوف فإن هذا الرجل عامي لم يبلغ مقام السالكين إذ مقام السالكين ومقام العارفين فوق مقام المريدين ومقام المحققين فوق مقام العارفين ومقام الأقطاب فوق مقام المحققين ومقام قطب الأقطاب فوق مقام الأقطاب والإمام المهدي في زمانه سيكون هو قطب الأقطاب[253].

وهنا شهادة للمهدي «بالعلم اللدُنِّي وعلم الجبروت وعلم الحال وهي مراتب تفوق من قد يدعي ذلك»، ولذلك يقول الشيخُ عُثمانُ في رده: «فإن هذا الرجل العامي الذي يدعي المهدية أقل كثيرًا جدًّا من مجرد ادعائها لأنّ «بينه وبينها مفاوز... ولا يتبع هذا الرجل على هذا الجهل إلا الجاهل الذي كان من الهمج». وهكذا فقد كان يقين الشيخ قاطعًا بعدم صحة هذا الادعاء للأسباب السابقة وأيضًا لأنه آمن أن المهدي يخرج من الشرق وإن كان ظهوره قد اقترب لذلك أوصى مؤيديه باتباعه إن لحقوه.

وذكر ما جاء على لسان الإمام علي بن أبي طالب ما أخرجه نعيم بن حماد أنه قال: «المهدي مولده بالمدينة».

وشرح الشيخُ عُثمان عددًا من الروايات التي رويت عن المهدي المنتظر وخروجه مما روي عن النبي ﷺ وأنّه من ذرية فاطمة بنت النبي ﷺ لأنه سيكون من عترته.

وحسب الدكتور محمد أحمد الحاج بأن مصنفات عُثمان في فترة ما قبل

سقوط مدينة «القضاوا» معقل أعدائه تحدثت عن قرب ظهوره، بينما مؤلفاته في فترة ما بعد ذلك أشارت إلى الابتعاد عن محاولات تحديد وقت قيام الساعة وميله لاعتزال حياة الترف واللجوء إلى التصوف والارتقاء، فكتب «تحذير الإخوان من الادعاء ظهور المهدي في آخر الزمان» عام «1226هـ/ 1881م».

وكان من ذكائه وصدقه عدم انتحال صفة المهدي رغم تشبع الفضاء الديني الذي خلقه حوله وتوافر المناخ للقبول بالفكرة، خصوصًا أن علماء الغرب الإفريقي تشبعوا بنبوءة الإمام جلال الدين السيوطي التي حدَّث بها وأخبر أن المهدي المنتظر سيظهر على رأس المائة الثانية عشرة للهجرة 1204هـ الموافق للعام 1789م[254].

وكان الشيخُ عُثمان بن فُودي آنذاك في أوج تألقه الفقهي والدعوي ولكنه رفض ذلك، بل أفرد كتابًا للرد على ذلك[255] تحدث فيه عن أنه نفسه لن يكون المهدي لأنه ولد «في البلاد السودانية» وقد عُرف من الأحاديث النبوية أن المهدي سيولد في المدينة المنورة.

وإن كان الشيخُ عُثمان بن فُودي قد أنكر كونه المهدي ونبه أتباعه إلى ذلك ونفيه الواضح فإنه لم ينكر الاعتقاد الذي ساد في العالم الإسلامي وقتها بأن ظهور المهدي قريب.. ولهذا نجده قد دعا الناس إلى تأييد دعوة المهدي وجاء في رسالته إلى بعض جماعته من أهل زنفرا وكاتسينا وكانوا ودورا أن يجيبوه، يقول مُحمد بلو: «أخبرت الكل بأن الوالد حياهم وأمرهم بالمبايعة على السمع والطاعة واتباع السنة قولًا وعملًا وفعلًا... وأخبرتهم بأنه يبشرهم بقرب ظهور المهدي وأن جماعة الشيخ «ستكون» طلائعه، ولا ينقضي بإذن الله هذا الجهاد حتى يفضي إلى المهدي فسمعوا واستبشروا[256].

وفكرة المهدي وإن كانت قد ظهرت في أذهان المسلمين في الغرب الإفريقي بشكل كبير لكن ما جاء في كتب التراث الإسلامي أكد أن المهدي سيظهر في

المشرق وبالتحديد في المدينة المنورة لكن ترديد الحديث عن المهدي وظهوره بهذه الكثرة في كتابات وأحاديث الشيخ عُثمان كان متعمدًا لربط ذلك باقتراب فناء العالم، وبالتالي فإن الحرص على الدنيا وملذاتها ونعيمها يصبح غير ذي قيمة مقابل ما ينتظر المسلم من نعيم في جنة الخلد جزاء التزامه وجهاده وهو بغية الشيخ من تحفيز جماعته، وأدى ربطه للجهاد بظهور المهدي ودنو الساعة إلى اشتعال الحماس الديني في نفوس سكان النيجر وتشاد، وغرس فيهم حُب الشهادة ونكران الدنيا الفانية[257] وهو ما تجلى في تأكيده على أن الجهاد لن ينتهي إلا بخروج المهدي ويشرع في بَدْء مهمته.. وهو استغلال لفكرة المهدي وقرب ظهوره لشحذ همم رجاله وتعبئة أرواحهم لمواصلة الجهاد على قاعدة أن الجهاد مستمر حتى يظهر المهدي، وأن ظهوره قد اقترب.

إذن فإن الحديث عن المهدي المنتظر واقتراب ظهوره وضرورة استمرار الجهاد حتى يظهر ويقيم العدل كان له أثرٌ كبيرٌ في تحفيز الرجال وتثبيتهم على فكرة الجهاد.

وفي وصيته أوضح الشيخُ عُثمانُ أيضًا أن ظهور المهدي لم يحن بعد، وذلك في حديثه عن «شدة غلبة الكفار والفجار وأهل النفاق».. و«يستمرون على ذلك إلى أن يظهر عليهم الإمام المهدي ويجدهم على ذلك ويهلكهم جميعًا»، وربط بين هذا الظهور ومضي «اثنتا عشرة سنة» هي سنوات العطش المسمى بالقحط الأكبر والجدب الأعظم المسبب للجوع والعطش عند اقتراب ظهور الإمام المهدي.. وهو ما استغله محمد بن أحمد السوداني الذي عُرف تاريخيًّا باسم المهدي في السودان.

ويذكر الحسن سعد العبادي أن محمد أحمد «المهدي» سمع في سنة 1291هـ من أحد الأولياء الصالحين أن الإمام المهدي سيخرج في عام 1298هـ.

ومن الروايات المتداولة حينذاك ما ذكره محمد أحمد أن أستاذه محمد شريف نور الدائم كان يحدثهم في مجالسه عن كرامات المهدي المنتظر ومقامه،

وهكذا نجد أن العامة تنتشر بينهم فكرة المهدي ويقبلون عليها ويروجون لها أملًا في قرب خلاصهم من واقع أليم يعيشونه، أما الخاصة خصوصًا من أبناء الطرق الصوفية فإنه من أبجديات الفكر الصوفي.. وكلاهما في جهل وسذاجة ولا شك أن كل ذلك أسهم مع ما سمعه محمد أحمد من الشيخ أحمد الطيب البشر مؤسس الطريقة السمانية أن زوال مُلك الترك «حكم الأتراك» مقرون بظهور المهدي وأنه سيكون عن طريقتهم، فأجج ذلك ما جاءت به الركبان في قوافل السودان الغربي عن قرب موعد ظهور المهدي المنتظر في بحر النيل، وساعد محمد أحمد ومهد له التربة جيدًا لتأكيد زعمه بكونه المهدي وساعده بشكل أكبر وبصورة رسخت ذلك في نفس أتباعه ومريديه من أبناء الطريقة السمانية ما فعله عبد الله بن محمد آدم تورشين الذي عُرف فيما بعد بـ«عبد الله التعايشي»[258] عندما قدم إليه في جزيرة أبا «فلما رأى محمد أحمد وقع مغشيًّا عليه ولم يفق من غشيته إلا بعد مدة، فلما أفاق عاد فنظر إلى محمد أحمد وتقدم إليه وصافحه وأغمى عليه مرة أخرى، ثم أفاق وتقدم إليه حبوًا على الأرض فأخذ بيده وشرعَ يقبلها وهو يرتعد ويبكي، فسأله محمد أحمد عن هويته وشأنه فرد قائلًا: أنا عبد الله.. من قبيلة التعايشة - البقارة - وقد سمعت بصلاحك فجئت لأخذ الطريق عنك. وكان لي أب صالح من أهل الكشف، وقد قال لي قبل وفاته إنك ستقابل المهدي وتكون وزيره وقد أخبرني بعلامات المهدي وصفاته، فلما وقع نظري عليك رأيت فيك العلامات التي أخبرني بها والدي فابتهج قلبي لرؤية مهدي الله وخليفة رسوله».

وهنا لا بد من العودة إلى أصل عبد الله «التعايشي» لندرك كيف وصلت فكرة المهدي التي تحدث عنها الشيخ عثمان إلى السودان، فالجد الأكبر لعبد الله اسمه «علي الكرار» هاجر من بلاد «فترى» الواقعة بين «واداي» شمال تشاد حاليًّا - و«بورونو» في أحد أفواج الهجرة المتجهة شرقًا للقاء المهدي المنتظر، ولكن فقره اضطره للتخلف في ديار «البقارة» التعايشة؛ فاستقر وتزوج منهم وانتسب إليهم واشتهر ابنه محمد آدم بالصلاح وضرب الرمل، ونجح الحفيد عبد الله «التعايشي» في الاتصال بالزبير رحمت باشا في دارفور عام 1873م

وقال له في رسالة: «رأيت في الحلم أنك المهدي المنتظر وأني أحد أتباعك فأخبرني إن كنت مهدي الزمان لأتبعك». فزجره الزبير.

ويقول البروفيسور يوسف فضل حسن: «يبدو أن محاولة كهذه قد تمت مع الشيخ محمد شريف نور الدائم فقوبلت بالرفض أيضًا»[259]، وبالتالي فإن هذه الفكرة كانت راسخة في أذهان هؤلاء ومنهم والد عبد الله التعايشي ولحاجته الشديدة نتيجة الفقر حاول استغلالها لتوفير فرصة عيش جيدة في ظل واحد من الأثرياء المعروفين « الزبير رحمت» وجاء ابنه لينتهج نفس النهج مع محمد أحمد الذي وإن لم يكن ثريًا فإن سلوكه الصوفي واشتهار أمره وفر له بحبوحة في العيش، ولعل هذا اللقاء - بين عبد الله ومحمد أحمد - كانت له دلالة، وكان عاملًا حاسمًا في تطور الأحداث إذ استبشر محمد أحمد بقول عبد الله ولا بد أنه قد دفعه للتفكير في أمر ادعاء المهدية؛ خاصة أنه كان عارفًا بما يتبادله الناس عن ظهور المهدي في أفق الترقب والأمل، ويقول نعوم شقير: «منذ ذلك الوقت أخذ محمد أحمد يبحث عن كنه المهدي وصفاته وعلاماته وما تكون به نصرته ويطبق عليه صفاته» وكان هذا اللقاء بمثابة الشرارة الأولى التي طمأنت نفس محمد أحمد على صدق ما يراه في نفسه من جدارة وأهلية ليكون مهديًا خصوصًا وأنه ولد لأسرة عرفت بأن نسبها يعود إلى الحسن السبط بن الإمام علي - ونشأ في جو سوداني تقليدي لمثل هذه الأسر من حفظ القرآن ودراسة الفقه والنحو والتوحيد، ومالت نفسه إلى التصوف والزهد وانخرط في الطريقة السمانية وانقطع للصلاة والعبادة، وبعد 7 سنوات عُين شيخًا وأُعطي الراية.

وبعد فترة انقطع إلى العبادة في جزيرة «آبا» وشيد مسجدًا ومنها قام برحلات متعددة لأقاليم السودان داعيًا إلى الإصلاح والأمر بالمعروف وتجنب المفاسد والبدع والتجأ إلى الشيخ القرشي ولد الزين وبعد وفاته تبوأ زعامة طريقته، وواجه نظام الحكم المصري التركي، وتشكل وعيه بفكرة المهدي المنتظر من أدبيات المتصوفة وكتب التاريخ الإسلامي وما تداولته قطاعات كبيرة من الشعب السوداني وما نُقِلَ عن الشيخ عثمان مع المهاجرين من السودان الغربي.

وأطلق عبد الله «التعايشي» في نفسه شرارة الادعاء عندما قَبَّلَ يديه وأخبره أن به علامات المهدي، فبدأ الاقتناع الداخلي وأسرَّ لخاصته من الفقهاء والأعيان بذلك، وبدأ الناس يبايعونه على مهديته بعد أن قال لهم «إن الله قد اصطفاه ليُطهِّر البلاد من الظلم والفساد»، وأعلن مهديته في يونية 1881م واستولى على الأُبَيِّض.

ولعل أقدم مُؤَلَّف لدى السنة حول ظهور المهدي هو ما سجله الحافظ نعيم بن حماد المروزي «توفي 227هـ» وتوجد منه نسخة في المكتبة الظاهرية بدمشق تحت رقم 62/أدب.

وأقدمُ مؤلف شيعي في عقيدة المهدي، كتاب «الغيبة» أو كتاب «القائم» للفضل بن شاذار الأزدي النيسابوري - معاصر لنعيم بن حماد - وبالتالي فإن وضعه لهذا الكتاب كان قبل ولادة الإمام المهدي وغيبته.

وترتبط فكرة المهدية بالإمامة لدى الشيعة، والتي تمثل لهم القيادتين السياسية والدينية، وبالتالي فإن سُلطة الإمام تشمل الأرض كلها، باعتبار أن الله قد أوكل إليه أمرها، ويتحقق ذلك بخروج المهدي المنتظر «عودة الإمام المختفي»[260].

ويعتقد أصحاب المذهب الشيعي أن المهدي قد ظهر في أواخر القرن الثالث الهجري، في شخص محمد بن الحسن الخالص بن علي الهادي، الذي اختفى في سرداب في مدينة «سامراء»، واختفى من يومها وهو الإمام الثاني عشر بعد الإمام علي كرم الله وجهه[261].

ويعتقد الشيعة أن الإمام الثاني عشر «المهدي المنتظر» بعد موت أبيه قد اختفى في سرداب ببغداد يحرسه رجال الحكومة، وكانوا يقودون كل جمعة فرسًا مسرجًا إلى السرداب وينادون الإمام[262].

ويروي ابن بطوطة في وصفه لرحلته في العراق، أنه جاء إلى مدينة «الحِلّة»،

وشاهد كيف يأتي بعد صلاة العصر مائة رجل إلى حاكم المدينة، ويأخذون فرسًا مسرجًا ملجمًا أو بغلة يتقدمها 50 رجلًا ويتبعها 50 رجلًا، وهم يضربون الطبل وينفخون البوقات، ويذهبون إلى المسجد الكبير، وينادون الإمام من أمام باب مغطى بستار من الحرير، وبعد مغيب الشمس يعود الموكب، وينصرف الناس عائدين إلى بيوتهم، وهذا المسجد الذي بني على السرداب يعرف باسم مشهد صاحب الزمان أو مقام صاحب الزمان[263].. في كتب الشيعة أنه لما مات الإمام الحادي عشر، ترك ولدًا في السادسة من عمره يدعى محمدًا، وكان الخليفة العباسي قد حبسه في «الحلة»، حيث مات في عمر الثانية عشرة، وقيل إنه مات مسمومًا، لكن الشيعة لم يصدقوا موته، وادعوا أنه اختفى في السرداب، وأنه سيخرج منه عندما يحين وقت ظهوره.

ونجد في أغلب كتب الشيعة أن الأئمة كثيرًا ما سُئلوا عن ظهور المهدي، ومنها ما يروى عن الإمام جعفر الصادق عندما سُئل عن يوم القيامة وعلاماتها، فذكر أن من علامات القيامة ظهور المهدي[264].

وتتحدث أدبيات الشيعة أن المهدي عندما يظهر سيُعلِن أنه جاء ليحكُم العالم، فيتردد النداء في أنحاء المعمورة، ويجتمع الناس له، ويظهر فجأة رجل من بين الناس ويهتف: «أيها الناس، لقد ظهر إلٰهُكم في الوادي اليابس في فلسطين».

وإنه هو عُثمان بن عنبسة الأموي من عقب يزيد بن معاوية، فينادي المهدي على الجماهير: أن من أراد أن يرى إبراهيم وإسماعيل فلينظر إليّ، ومن أراد أن يرى موسى وعيسى فلينظر إليّ، إلى أن يأتي إلى ذكر النبي ﷺ ثم يقرأ كل أقوال النبي ﷺ ليظهر ما ألحقته بها أيدي البشر من تزييف!! ويأمر بهدم المسجد الحرام باستثناء قواعده التي وضعها آدم وإبراهيم وإسماعيل، ويأمر ببنائه من جديد حسب الخطة القديمة التي أمر الله بها، وبعد أن يتولى الحكم في مكة ينتقل إلى فتح العالم.

ويرسل عاصفة إلى دمشق تكون سببًا في ثورة أتباع السفياني عليه واغتياله، بعدها يجتمع المهدي مع النبي والأئمة الأحد عشر وهو ما يسمى «الرجعة».

ويتولى المهدي حكم العالم من الكوفة التي يتخذها عاصمة له، وبعدها تمطر السماء جرادًا من الذهب وجميع الكنوز فتوزع على البشر بالتساوي. أما فكرة المهدي عند أهل السنة فلا تعتمد على الغيبة، بل تعتمد على الأمل في مواجهة الظلم والرغبة في العدل، وينتظر أهل السنة ظهوره ليملأ الأرض عدلًا في آخر الزمان، بعد أن مُلئت جورًا فيؤيد الدين ويُظهره ويتبعه المسلمون، ويخرج بعده المسيخ الدجال كأحد أشراط الساعة كما ثبت في الصحاح[265].

وتمثل فكرة المهدي جزءًا أساسيًا ومهمًا من الفكر المذهبي الشيعي وحالة عامة لدى الشيعة، وبالتالي فإن إيران - بحكم ما لها من الزعامة الدينية لدى المسلمين الشيعة - تظل حارسة على الحُلم والفكرة، وبالتالي تفسر التحركات الإيرانية لدعم تنظيم القاعدة وإنشاء وتقوية «داعش والنصرة وخراسان» التصور النموذجي لدعم إخراج القائم المهدي أكثر من مجرد خطوات لمواجهة حركة «الانتفاضة الشعبية» ضد النظام السوري، وبالتالي فإن الديني يفسر ما هو سياسي في صورة دعم بشار ونظامه المتصل بهم عقديًا وذلك لتحقيق النبوءة! وتحدثت روايات كثيرة عن شخصية السفياني واحتلت في العقل الإسلامي مساحة كبيرة، يرتبط فيها بفكرة خروج «المهدي المنتظر»، وأن هذا الخروج للأول وللثاني أمر حتمي.

وهو ما أكدته أدبيات الشيعة وسجلات أئمتهم في أحاديث كثيرة منها ما جاء في رواية الفضيل بن يسار عن أبي جعفر الباقر: «إني لأرجو أن يكون أجل السفياني من الموقوف، فقال أبو جعفر: لا والله إنه لمن المحتوم»[266] ويعتبر أمر خروج السفياني من الوعود الإلهية لدى الشيعة وأن وجوده أو ظهوره يرتبط شرطيًا - في رواياتهم - بخروج المهدي إذ «لا يكون قائمًا إلا بسفياني» وذُكر أن سيدنا الإمام علي بن الحسين قال: «إن أمر القائم حتمٌ من الله وأمر السفياني حتمٌ من الله، ولا يكون قائمًا إلا بسفياني»[267].

وفي السياق التاريخي والارتداد الزمني فإن أمر السفياني والمهدي مردود إلى الخلاف بين سيدنا علي بن أبي طالب ومعاوية بن أبي سفيان وكأنهما تجسيد لنفس الخلاف، وحربهما هي امتداد واستعادة لتلك الحروب «صفين وغيرها»، والانتصار بالتأكيد سيكون لسليل البيت النبوي على سليل مغتصب الخلافة..

وأجمعت كل الروايات على انحدار السفياني من النسل الأموي، وبالتحديد من نسل معاوية.. أما أوصافه - كما ذكرت الأدبيات والأحاديث الشيعية - فهو رجل ربعة لا طويل ولا قصير معتدل الطول - وفي رواية أنه رديء الوجه - أي قبيح الشكل، أو «وحش الوجه؛ أي عليه علامات الوحشية والقسوة، وأن من يراه يستوحش ولا يأتنس بمشاهدته»، وأنه ضخم الهامة، بوجهه أثر جدري نتيجة مرض أصيب به قبل ظهوره، وفي إحدى عينيه خلل، يُخَيَّل إلى من يراه أنه أعور، وفي رواية.. عن أبي عبد الله الصادق أنه قال: قال أبي : قال أمير المؤمنين علي ﷺ: يخرج ابن آكلة الأكباد من الوادي اليابس، وهو رجل ربعة وحش الوجه ضخم الهامة، بوجهه أثر جدري إذا رأيته حسبته أعور.. اسمه عثمان بن عنبسة، وهو من ولد أبي سفيان[268]، وقال أبو عبد الله الصادق لعمر بن يزيد: لو رأيت السفياني لرأيت أخبث الناس، وقد ورد أيضًا في كتابات الشيعة.. أنه ربما يتخذ اسمًا آخر يختفي وراءه ويستتر به، والمهم أن نعرف باقي ميزاته، والتي منها أنه سيحكم الكُوَرَ الخمس.. وعن أبي عبد الله بن أبي منصور البجلي قال: سألت أبا عبد الله عن اسم السفياني فقال: وما تصنع باسمه؟ إذا ملك كور الشام الخمس: دمشق وحمص وفلسطين والأردن وقنسرين فتوقعوا عند ذلك الفرج.. قلت يملك تسعة أشهر؟ قال: لا، ولكن يملك ثمانية أشهر لا يزيد يومًا[269].. وفي رواية أخرى نجد فيها تفصيلًا أكثر وزيادة في مدة الحكم، وهي عن عيسى بن أعين عن أبي عبد الله الصادق قال: من أول خروجه إلى آخره خمسة عشر شهرًا، ويملك الكور الخمس تسعة أشهر، وجاء عن الإمام الباقر: وإنما فتنته حمل امرأة ولا يجوزها[270] أي لا يجاوزها أو يزيد عنها.

وتغولت الروايات الشيعية عليه بنعته بالصليبية، بمعنى أنه لديه توجهات صليبية لا تتفق مع الإسلام فجاء فيها أن: «خروج السفيان براية خضراء وصليب من ذهب»[271].

وعن بشير بن غالب قال: «يقبل السفياني من بلاد الروم منتصرًا وفي عنقه صليب وهو صاحب القوم[272]، وهو من الذين لا يعرفون بأحكام الله ولا يؤدون فروضه».

فعن الإمام الباقر: «السفياني.. لم يعبد الله قط، ولم ير مكة ولا المدينة قط»[273].

وقد حددت الروايات ظهوره في شهر رجب، وقد جاء عن المعلى بن خنيس عن عبد الله الصادق: «إن أمر السفياني من الأمر المحتوم وخروجه في رجب».. وأن خروجه والمهدي «القائم» سيكون في نفس العام.. قال أبو جعفر: «يخرج «القائم» عليه السلام يوم السبت يوم عاشوراء، اليوم الذي قُتل فيه الحسين»[274]، وبالتالي فإن بينه وبين السفياني ستة أشهر أما الحدث الأهم، والذي تروج له الفئتان «الشيعة وتكفيريو القاعدة - داعش» وهما الآن متفقتان عليه، وهو انشغال السفياني بالحروب الطاحنة للسيطرة على الكور الخمس فيقتل في سبيل السيطرة على الحكم خلقًا كثيرًا من غير الشيعة.. ولكنه ما إن يستقر في حكمه حتى يستدير إلى الشيعة معملًا فيهم القتل والإبادة.. وعن أبي عبد الله الصادق: «كأني بالسفياني قد طرح رَحْلَهُ في رحبتكم بالكوفة فنادى مناديه من جاء برأس رجل من شيعة علي «يقصد سيدنا الإمام عليًا رضي الله عنه» فإن له ألف درهم فيشي الجار على جاره يقول هذا منهم، فيُضرب عنقه، ويأخذ ألف درهم».

ولا يكون خروجه إلا مع اثنين.. اليماني «من صنعاء»، فعن أبي عبيد بن زرارة.. قال: ذُكر السفياني عند أبي عبد الله، فقال: أنى يخرج ذلك، ولما يخرج كاسر عينيه بصنعاء، والثاني الخراساني من أرض خراسان؟! قال الإمام الصادق:

خروج الثلاثة.. الخراساني، والسفياني، واليماني، في سنة واحدة، في شهر واحد، في يوم واحد.

ونلاحظ هنا أن السفياني ليس المقصود به المسيخ الدجال، حتى لا يلتبس الأمر على قارئ فيظنه هو لأن المسيخ لا وجود له لدى الشيعة، ولم يُذكر في أدبياتهم ولا أحاديث أئمتهم، ورد ذكره فقط في كتب السنة.

وبتطبيق الأحداث الحالية على العقيدة الشيعية نستنتج أن حركة اليماني والسفياني ليست علمية وفقهية فقط بل سياسية عسكرية وتنظيمات مسلحة مقاتلة موقعها الآن سوريا أو أريد لها ذلك حتى تتطابق.

وأن عامة من يتبعه من «كلب» «قبيلة كلاب» يبقر بطون النساء ويقتل الصبيان فتجمع لهم قيس «قبائل القيسية» فيقتلها.

وقد روى الطبري في تفسيره عن حذيفة مرفوعًا... ذكر فتنة تكون بين أهل المشرق والمغرب.. فبينما هم كذلك إذ يخرج عليهم السفياني من الوادي اليابس في فورة ذلك حتى ينزل دمشق فيبعث جيشين.. جيشًا إلى المدينة حتى ينزل بأرض بابل فيقتلون أكثر من ثلاثة آلاف، ويبقرون أكثر من مائة امرأة، ثم ينحدرون إلى الكوفة فيلحق ذلك الجيش منها على الفئتين فيقتلونهم لا يفلت منهم مخبر.

وحتى تنسجم الروايات وتستقيم أحداث هذي الحرب الخراب التي تُستغل من قبل أمريكا وإسرائيل لإشعال المنطقة وتقسيمها[275] باستغلال الروايات الأسطورية لتأجيج حماس التكفيريين والعملاء والخونة، فقد صرح عدنان العرعور - نجم السلفية الثورية التكفيرية في الثورة السورية - في قناة «شذا»: «نتمنى أن نكون تحت راية جيش السفياني الذي سيفرون منه».

وتمضي الروايات في إعلان الأحداث - المتنبأ بها - قبل حدوثها، فتقول إن الشام ستكون مسرحًا لحروب داخلية بين فئات ثلاث: الأبقع، والأصهب

«الأشهب»، والسفياني.. وبعد أن يملك الكور الخمس يرسل جيشه إلى الحجاز لاحتلالها خوفًا من سيطرة الإمام المهدي الذي سيكون بالمدينة وقتئذ فيدخل السفياني المدينة فيخرج المهدي إلى مكة ويدخلها خائفًا يترقب فيتبعه السفياني بجيشه نحو مكة بعد أن ينهب المدينة ثلاثة أيام ويُخَرِّبُ مسجدَ النبي ﷺ - وبين مكة والمدينة يحدث الإعجاز الإلهي فيُخْسَفُ بجيشه.

وعن الإمام الصادق قال: السفياني من المحتوم، وخروجه من أوله إلى آخره خمسة عشر شهرًا، وستة أشهر يقاتل فيها، فإذا ملك الكور الخمس ملك تسعة أشهر ولم يزد عليها يومًا!! والكور الخمس حسب التقسيم الولائي القديم في دولتي الخلافة الأوليين الأموية والعباسية هي: دمشق، والأردن، وحمص، وحلب، وقنسرين.

وأكدت أحاديث أئمة الشيعة أن «فتنة بلاد الشام طويلة متمادية، كلما قالوا انفضت تمادت».

وهو ما بدا للجميع من أزمة الأحداث في سوريا، فبعد اندلاعها في شهر مارس 2011م، تبرع كثير من المحللين، وكذلك «الثوار» بالتأكيد أنها ستنتهي خلال ثلاثة أشهر فلما طالت أحداث «17 فبراير» في ليبيا - وقد ربطوا النهايتين لتشابه أحدثوه بين البلدين - عادوا ليقولوا أخطأنا التقدير، وستمتد شهرين آخرين.. وهكذا حتى شجعهم سقوط طرابلس الغرب في أغسطس من نفس العام، ثم قتل القذافي على إعادة التنبؤ بأن عام 2011م لن ينصرم إلا بانتهائها في سوريا بسقوط دمشق ومقتل الأسد.. وهكذا دواليك إلى الآن.. «كلما قالوا انفضت تمادت، وأنهم يطلبون منها الخراج فلا يجدونه» «البحار 298/52»، وكلما «رتقوها من جانب انفتقت من جانب آخر أو جاشت» ويفسرونها بحديث سعيد بن المسيب كما جاء في مخطوطة ابن حماد ص 92 قال «تكون فتنة كان أولها لعب صبيان - كلما سكنت من جانب طمت من جانب آخر»، ومعروف أن أحداث الفتنة السورية بدأت في مدينة درعا بحوران على يد عدد من الصبية من طلاب المدرسة الإعدادية الذين كتبوا على جدران مدرستهم شعار

إسقاط النظام.. فقتلهم النظام، ومنهم الفتى «الشهيد» حمزة الخطيب.

أما أبرز صفات السفياني فحقده على آل البيت عليهم رضوان الله وسلامه، ودوره السياسي هو إثارة الفتنة المذهبية بين المسلمين وتحريك السنة ضد الشيعة تحت شعار نُصرة التسنن، وفي نفس الوقت يكون عميلًا لأئمة الكفر.

أما متى يظهر السفياني.. فقيل: «إذا اختلف الرمحان بالشام لم تنجل إلا عن آية من آيات الله.. قيل وما هي يا «أمير المؤمنين».. قال: رجفة تكون بالشام يهلك فيها أكثر من مائة ألف، فإذا كان ذلك فانظروا إلى أصحاب البراذين الشهب المحذوقة والرايات الصفر، تقبل من المغرب حتى تحل بأرض الشام». ولعل هذا ينطبق على القادمين من ليبيا والجزائر والمغرب وموريتانيا وتونس وهي كلها بلاد تخضع للتقسيم الولائي العربي الإسلامي القديم جغرافيًّا بأنها بلاد المغرب العربي، وقد ورد بلاد الشام للقتال ضد نظام الأسد الآلاف من ليبيا بتعليمات وتوجيه من علي بلحاج والجماعة الليبية المقاتلة وكتيبة شهداء بو سليم وجماعة أنصار الشريعة بدعم قطري مادي ومن الجزائر وتونس والمغرب.

وقد أسهم ذلك بالتأكيد في ترسيخ هذه الفكرة العقدية، حتى بين المسلمين السنة من أهل الفكر التكفيري الوهابي، ونعود لتنبؤات أئمة الشيعة.. وذلك عند الجزع الأكبر والموت الأحمر «فإذا كان ذلك، فانظروا خسف قرية في دمشق يقال لها (حرستا)، وفي رواية أخرى (الجابية)».. وأن ذلك سبب في أن «تخرب الشام» حسب ما جاء على لسان الإمام الباقر في حديث آخر.

وإذا مددنا النظر إلى الخريطة العربية التي تتلاطم فيها أمواج الإرهاب والفوضى تمهيدًا للتقسيم والخراب، ووجهنا أبصارنا صوب اليمن التي نشطت فيها جماعات «تنظيم القاعدة في جزيرة العرب»، واضطرم فيها الأمر وتصاعدت قوة الشيعة الحوثيين فسنجد أنها - اليمن - تمثل رأس المثلث الممتد ضلعه الأول إلى العراق مرورًا بالسعودية وجماعات القاعدة النشطة فيها، والضلع قاعدة المثلث يمتد من العراق إلى سوريا إلى ليبيا والجزائر

وموريتانيا.. فإن ذلك يفسر لنا التلاحق السريع للأحداث الدموية العنيفة والنشطة في هذه البقع المتفجرة والمؤججة من قبل إيران في ظل عدائها التاريخي القومي[276] مع العرب والمؤدلجة ببعض مبثوثات الإسرائيليات في أدبياتهم وكتبهم القديمة التي لاقت دعمًا وترويجًا من الصهيونية العالمية والأمريكان خلال السنوات الأخيرة بأهدافها الواضحة وضوح الدم المتفجر[277]، وسنجد أن الاتفاق الأسطوري يقبع في تفاصيل التراث الشيعي التي تمهد بما يحدث الآن لظهور المهدي المنتظر «القائم» وخروجه حسب الميثولوجيا الأسطورية مؤكدة حسب تفسيرات علمائها لعدد من أحاديث السنة والكثير منها لديهم أن سنة ظهور القائم هي سنة 2015م، وهي السنة الموعودة، ويدلل عليها الشيخ الكوراني بحسابات الغيبة للإمام المهدي المنتظر «سيدي محمد بن الحسن العسكري» وتوافقها العددي الرقمي مع عدد الآيات في بعض سور القرآن مع تاريخ ولادة النبي المصطفى ﷺ ووفاته وميلاد المهدي «الإمام القائم» وبالطبع لن تهمل هذه الفكرة الأسطورية استخدام التراث اليهودي وحسابات بني إسرائيل لتكتمل الحسبة العددية على النحو الذي يبرر ويؤكد حقيقة الأسطورة.. مستدلًّا بأحاديث عن أئمة الشيعة من آل بيت النبوة عليهم جميعًا صلوات الله وسلامه؛ فعن الإمام الباقر أن القائم يملك ثلاثمائة وتسع سنوات!! وهي نفس المدة التي أشار إليها القرآن لغيبة أهل الكهف نومًا، وأن عمره يوم غاب الغيبة الكبرى «329هـ/941م» كان 72 عامًا، وأن عدد السنين الميلادية من وفاة الرسول ﷺ إلى سنة الغيبة الكبرى 309 سنوات كعدة أصحاب الكهف، وهو نفس حساب عدد الكلمات من بداية الآية رقم 9 في سورة الكهف «ولا أدري لماذا اختيار هذه الآية تحديدًا» إلى الآية رقم 25 عند كلمة «ثلاث» سنجدها تساوي 309، وهي سنوات عربية - حسب القرآن أي قمرية - أما بحسبة السنوات الشمسية الميلادية فهي 300 عام وهي نفس عدد السنوات بين ميلادي الرسول وحفيده الإمام الغائب وأنه بعد خروجه الذي سيحدث عام 2015م سيملك سبع سنين!! «بحار الأنوار 51/102». وهذا غير ما ورد عن الإمام الصادق أيضًا مرويًا عن عيسي بن أعين، والوارد

في «كمال الدين وتمام النعمة» للشيخ الصدوق - أشرنا إليه سابقًا، ولكن هنا عند الشيخ الكوراني أن هذه السنوات السبع بتمامها بعد خروجه عام 2015م سيوافق العام الهجري 1444/2022م، وأن تاريخ الظهور تحديدًا سيكون 10 من المحرم «فعن أحاديث أهل البيت أن الإمام المهدي يخرج يوم الجمعة العاشر من المحرم - عاشوراء وهو اليوم الذي استشهد فيه سيد الشهداء سيدنا الإمام الحسين عليه السلام - وتكون مبايعته يوم السبت؛ أي أن الظهور في 10 من المحرم 1437هـ الذي يقابله يوم 23 أكتوبر 2015م ويقابلهما في التاريخ العبري - اليهودي 10che sh vanعام 5776 حسب التقويم اليهودي وهذا العام - اليهودي - 5776 إذا قُسِم على رقم 4 يساوي1444 الذي هو أيضًا حاصل حساب الكلمات في سورة المائدة من بداية الحديث عن بني إسرائيل من الآية رقم 12﴿ وَلَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ..﴾ إلى آية رقم 26 التي تتحدث عن تيههم في الأرض: ﴿قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً﴾، وعددها 361 كلمة إذا ضُرب في رقم 4 وهو عدد كلمات البسملة - بسم الله الرحمن الرحيم «ولا ندري لماذا البسملة تحديدًا، وليس الحمد؟» سنجدها تساوي 1444 وأيضًا إذا قُسم رقم سنة الظهور في التاريخ اليهودي 5776 في عدد كلمات البسملة سيكون الناتج 1444 وهو السنة الهجرية التي سيظهر فيها الإمام المهدي، وهذه تهويمات عددية لآمال مرجوة وتمنيات نفسية تماثل ما سمعته من «الجهادي» الفرنسي «الشيخ» عبد الجليل في «تمبكتو» الذي تحدث عن سر الرقم 12 ونهاية اليهود، وإن كانت كلمات عبد الجليل الجاسوس الفرنسي جاءت في سياق دغدغة مشاعر أعضاء تنظيم القاعدة في مالي وتخديرهم حتى لاحقتهم ضربات الطيران الفرنسي، فإن هذه الحسبة الشيعية التي تم تطويع الأرقام وتشكيلها حسب الهوى المراد لتأكيد تلك المسألة الأسطورية - ليس بخروج القائم فقط - ولكن لتبرير هذه الحروب التي تهرق فيها دماء المسلمين، ولم ينس الحاسب الشيعي الكوراني أن يوفق الأرقام للبلد الحرام «مكة المكرمة» الهدف الأصيل في المسألة، وهو تدمير المملكة العربية السعودية، وتفكيكها، فيؤكد أن حساب عدد الآيات من بداية سورة البقرة إلى

نهاية سورة الإسراء - لاحظ أنه يبدأ من حيث يريد وينتهي إلى حيث يريد - تساوي 2133 آية وهو نفس عدد المسافة الكيلومترية بين مكة المكرمة - وهي المكان الذي سيخرج منه المهدي - والكوفة التي سيتجه إليها ليتخذها عاصمة لملكه، ثم القدس الشريف الذي سيكون تحريره على يديه الشريفتين بفتح المدينة المنورة والحجاز.

وما كنت لأقف عند هذه التهويمات العددية أو استخدامها لولا أن سمعت رهطًا من أصدقائي الشيعة من لبنان والعراق وموريتانيا - بدأ ظهور التشيُّع فيها منذ أعوام والآن يقترب من الثلاثة آلاف شيعي[278] - يؤكدون لي ذلك ورأيت إيمانهم به عظيمًا، ويطوع الحاسب الشيعي أحاديث الأئمة لما تهدف إليه السياسة الإيرانية وهو تفكيك المملكة العربية السعودية من خلال تفسيره لحديث أبي بصير عن الإمام الصادق: «يا أبا محمد ليس ترى لأمة محمد صلى الله عليه وآله فرجًا ما دام لولد بني فلان مُلك حتى ينقرض ملكهم». وقد جاء في الحديث «ابن فلان» أي لم يتم تحديد اسم فلان هذا!! وفُسِّرت هنا بأنها ابن سعود أو آل سعود مستندًا إلى الأحاديث التي تؤكد أن مقدمة ظهور المهدي في الحجاز هي حدوث فراغ سياسي فيه وصراع على السلطة بين قبائله، وأن ذلك يحدث على إثر موت ملك أو خليفة يكون في موته الفرج.. وللتدليل التأكيدي يقول الشيخ الكوراني[279] صراحة عن هذا الملك: «تسميه بعض الروايات عبد الله!! ويحدد بعضها إعلان خبر موته ويستند في التصريح باسم «الملك» عبد الله إلى حديث الإمام الصادق الذي قال فيه: «من يضمن لي موت عبد الله أضمن له القائم»، ثم قال «إذا مات عبد الله لم يجتمع الناس بعده على أحد...» وأظن المعنى المقصود في حديث الإمام إن كان صحيحًا هو أي إنسان عبدٌ لله، ولكن المراد حسب الذهنية الشيعية أن يكون المقصود هو ملك السعودية الذي صادف أن يكون المقصود هو ملك السعودية الآن، وهو ما يعد تركيبًا لحدث على حدث حتى يقع الكلام كحافر على حافر مستغلًّا ما يتسرب عن خلافات بين أهل البيت المالك في السعودية والفساد الذي تحدث به بعض الأمراء وتزايد نشاط الإرهاب وأن التماسك الحالي في السعودية هو بضمانة

الملك عبد الله الذي إن انقضى الأجل انفرطت المملكة نتيجة هذه الخلافات وأيضًا تحفُز الشيعة في الشرق، وتوثُب القندهاريين من عناصر القاعدة سواء داخل المملكة أو على حدودها في اليمن أو العراق أو الكويت والأردن.

ويورد الكوراني أحاديث كثيرة عن الصراع على السلطة في الحجاز بعد مقتل هذا الملك، ومنها عن البيزنطي عن الإمام الرضا قال: «إن من علامات الفرج حدثًا يكون بين الحرمين ويقتل فلان من ولد فلان خمسة عشر كبشًا - فسرهم بالعبيد - ». «البحار 52/210».

وبالتالي فإن الهدف الرئيسي لذلك فيما بعد هو دخول المملكة العربية السعودية وتخريبها، والذي يعني عندهم تحريرالحرم، وأن هذا الاحتشاد يكون بقيادة الخراساني في بيضاء اصطخر قرب الأهواز.

وتتفق هذه مع روايات المصادر السنية التي تؤكد أن حركة الإيرانيين واحتشادهم في جنوب إيران «التي يحتمل» أن تكون زحفًا جماهيريًا باتجاه الحجاز «وتقر المصادر الشيعية في اتفاق مدهش على تخريب المملكة، وهو ما تحدث به معي عدد من أعضاء القاعدة في بلاد المغرب الإسلامي سواء من «حركة التوحيد والجهاد» أبو القعقاع الشنقيطي - أو«جماعة أنصار الدين» طلحة الليبي ويوسف الموريتاني، والشاب المصري الذي رفض إخباري باسمه - والتي تؤكد أن حصار السعودية قريب وتفكيكها حادث لا محالة، ونحن نضيق عليها من اليمن ومن سوريا بعد أن عاش الإخوة هناك في ضيق المرجئة، وفتحت جبهة العراق وقربت في الأردن والكويت وأن الأخيرتين ستكونان شوكتين عظيمتين في خصر مملكة آل سلول»[280] وقد كرروا هذا التوصيف لآل سعود «وأن الأمل في اكتمال نصر «المجاهدين» في الثورة السورية واكتمال سيطرتهم على العراق - لاحظ هنا أن الكلام كان قبل عامين من اشتعال الأحداث بـ«داعش»[281] نفس ما يتحدثون به الآن - وبعد ظهور «المجاهدين» في العراق سينهض الإخوة في اليمن لإحكام السيطرة على السعودية و«تحريرها». لاحظ اتفاق المفردات - من حكم آل سلول الخونة

والتخلص من هؤلاء اليهود!!

وبالتالي فإن المبشرات الشيعية تتفق مع الفكر التكفيري القاعدي، الذي كان له دور مؤثر في صعود القوة الحوثية في اليمن، وإن كان على مستوى إرباك الدولة وتشتيت قواها وإنهاكها من قبل تنظيم القاعدة في الجزيرة العربية، مما مهد للحوثيين هذا الظهور مدعومًا ماديًّا وعسكريًّا من إيران، والذي أكده علي أكبر ولاياتي مستشار مرشد الثورة آية الله خامنئي عندما استقبل مندوبي الحوثيين في طهران نهاية أكتوبر 2014م مهنئًا برفعهم علم الثورة الإسلامية في اليمن مؤكدًا أن الطريق إلى القدس يمر عبر اليمن، وبالتالي فإن الأحداث التي تشهدها ساحتا العراق وسوريا غير بعيدة عما يحدث في اليمن، وتعاظم قوة الشيعة بشكل غير مسبوق وبخيانات إما مدفوعة أو موعود بمقابلها، ولإيران القدح المعلى في تحريكها - وهو ما يمثل الضلع الثالث لمثلث الرغبة في السيطرة على الحجاز كجزء من التهيئة الدموية لأسطورة «خروج المهدي» ولا ينكر الإيرانيون ذلك، فالمصادر الشيعية تضيف إلى الإيرانيين شخصية الخراساني وصاحبه شعيب بن صالح ممهدين آخرين لدولة المهدي عليه السلام هم اليمانيون.. حسب الشيخ الكوراني[282] الذي يؤكد الدور الإيراني المذكور ضمن الأحاديث الواردة في الأسانيد الشيعية فيقول: «والأحاديث الدالة على ظهور ممهدين قبل ظهوره تنطبق على الممهدين الإيرانيين واليمانيين.. وتسهب الروايات الشيعية في الحديث عن الخراساني وصاحبه شعيب بن صالح أو صالح بن شعيب «عن محمد ابن الحنفية»، وعن الإمام الصادق في «خروج الثلاثة الخراساني والسفياني واليماني في سنة واحدة» وهو ما يؤكد الضلوع الإيراني في إشعال اليمن.. فضلًا عن أنه بات واضحًا مؤكدًا.

وفيها تأكيدات على دخول القوات الإيرانية إلى العراق «تنزل الرايات السود التي تخرج من خراسان إلى الكوفة» «البحار: 52/517».

وبالتالي فإن تصريح وزير الدفاع الإيراني في منتصف شهر أكتوبر 2014م للتليفزيون الإيراني: أن طهران تهيئ الأرض لتحويل تدخلها العسكري «القائم»

أصلًا في العراق إلى غزو صريح... وهذا ما يدلل لنا على أن المخطط يسير وفق هذا «السيناريو الأسطوري» وإن فسّر بعض المحللين العسكريين والسياسيين هذا الحديث بأنه استعراض للقوة التفزيعية لتأكيد الحضور المشار إليه في العراق مع التدليل على هذا الاستعراض بالصورة التي نُشرت قبل الحديث للفريق «قاسم سليماني» قائد فيلق القدس بين مقاتلي البشمركة في العراق ولكن هذا الحديث ليس إلا تعبيرًا عن الحالة الذهنية للإيرانيين وتلبسهم بفكرة المهدي وخروجه بعد إشعال هذه الأحداث التي كان لإيران - بلا شك - دور كامل فيها.. والتي تم استغلال وجود «نوري المالكي الشيعي» على رأس الحكومة في وقت سابق لتسريب قيادات عسكرية إيرانية إلى قيادة القوات العراقية ومشاركتها بالتخطيط وذلك بدوره يفسر الغموض الذي اكتنف ملابسات الانهيار المفاجئ للجيش العراقي الذي بدأ في يونية 2014م في الموصل بانسحاب جميع قادة قوات الجيش والشرطة العراقيين مما تبعه انسحاب 60 ألف جندي عراقي في الموصل تاركين أسلحتهم لتسقط هي والمحافظة في يد «داعش» هو نفس ما حدث ليلة سقوط بغداد باختفاء مفاجئ لقيادات وقوات الجيش العراقي - وأيضًا هو نفس ما حدث من تداعي الجيش وتخلي قواته عن مواقعها وعتادها لـ«داعش» في نينوى وأجزاء من «صلاح الدين» و«ديالى» و«الأنبار» وهو الأمر الذي استغله رئيس الوزراء العراقي السابق نور المالكي إلى الاستنجاد بإيران! وتبعه ظهور ميليشيات شيعية انتشرت في البلاد، وقد صحح رئيس الوزراء التالي ذلك بإقالة أكبر عدد من قيادات جيش تتم في وقت واحد منتصف شهر نوفمبر 2014م، وأكد هذا التواطؤ ما تكشف بعد ذلك من معرفة القوات العراقية بموعد الهجوم من خلال سبعة عناصر من داعش تم اعتقالهم في أول شهر مايو، وعلم به اللواء مهدي الغراوي «شيعي» لكنه لم يقم بأي استعداد في حين أن اللواء السادس في حي مشرفة «نقطة دخول المدينة» لم يكن به ليلة الهجوم سوى أربعين جنديًا فقط، والكتيبة الرابعة «حامية حي 17 تموز» لم تكن تمتلك سوى مدفع رشاش واحد كما قال قائدها العقيد ذياب العبيدي، والمؤكد أن داعش لم يأمل سوى

الاستيلاء على إحدى الضواحي لعدة ساعات كما أسر أحدهم لصديق. «جريدة الشرق الأوسط 16 أكتوبر 2014م».. تفاصيل الساعات التي سبقت سقوط الموصل. ولم يتوقعوا أن تنهار سيطرة الدولة؛ يؤكد ذلك أن عدد من قام بالهجوم 6 يونية «لم يزد على المئات» لا يكفي سوى للسيطرة على عدة أحياء، وزادوا إلى أكثر من ألفي مقاتل بعد أيام!!

وبالطبع رحب كثير من أهل الموصل بهم نكاية في اللواء الشيعي مهدي الغراوي الذي عمل طوال الفترة قبل الهجوم على التضييق على سكانها ومضايقتهم، أو كما قال محافظ نينوى «لجريدة الشرق الأوسط 16 أكتوبر 2014م» إن الغراوي استعدى الأغلبية السنية في الموصل قبل المعركة، كما أن نور المالكي رئيس الوزراء الشيعي رفض عرضًا من رئيس إقليم كردستان بإمداد الموصل بقوات من البشمركة.. كما أن تصريح العميد «محمد باك بور» قائد القوات البرية للحرس الثوري الإيراني، والذي صدر بعد أيام «20أكتوبر2014م» في مناسبة إحياء ذكرى «قتلى» القوات البرية للحرس الثوري خلال الحرب العراقية في مدينة «قم»، والتي أكد فيها أن بلاده «تتحكم استخباراتيًا بعمق في الأراضي العراقية.. «نحن نتحكم في الأمور، وفي الأحداث التي تجري في العراق بشكل كامل، ولدينا السيطرة المخابراتية الكاملة في عمق الأراضي العراقية»، وبذلك ينكشف إشرافهم الكامل على مجريات الأمور في العراق، فهل هذه السيطرة وهذا الإشراف الكامل لم يستطيعا منع تطور «داعش» بهذا الشكل أو خروجها من الأساس، هذا صعب التصديق، ولكن إذا رجعنا للفكرة الأسطورية المهدوية سنجد أن إيران قامت بدور اللاعب الرئيسي لتهيئة المسرح و«تلقين» الممثلين، وإلا فإنهم - الإيرانيين - قادرون بلا شك أو كانوا على منع ظهور داعش، وهو ما تؤكده الجملة الأخيرة من كلمات العميد «باك بور» في نفس الحدث: «نحتفظ بحقنا في تجفيف أي حركة إرهابية أينما كانت وفي أي زمان» يؤكد هذه الاستنتاجات.

وفي رواياتهم أيضًا أن هذا الخراساني سيكون تميميًّا؛ فـ«أكثر الروايات تذكر

أنه من أهل الرَّي، وأن له علاقة ببني تميم أو من بني «تميم بن مخزوم» أو أنه مولى لبني تميم، وإذا صح ذلك يكون أصله من جنوب إيران حيث توجد إلى الآن عشائر من بني تميم، استوطنوا خراسان منذ صدر الإسلام.. وبقي منهم إلى اليوم بضع قرى قرب مدينة «مشهد».

وقد روى ابن حماد في مخطوطته ص 59 أكثر من عشرين حديثًا عن الأزمة السياسية الحجازية، وصراع القبائل على السلطة في سنة ظهور المهدي، منها ما جاء مرويًّا عن سعيد بن المسيب قال: «يأتي زمان على المسلمين يكون فيه صوت في رمضان، وفي شوال تكون همهمة وفي ذي القعدة تنحاز القبائل إلى قبائلها، وفي ذي الحجة يُنْهَبُ فيه الحاج والمُحْرِمِ، وفي أحاديث أخرى «فسارت القبائل إلى بعض فاقتتلوا حتى تسيل العقبة دمًا».

وتتضمن الأسطورة «المهدوية» أحاديث نزول الترك بالجزيرة والفرات.. ومنها أحاديث قتال المهدي للترك، فعن الإمام الصادق قال: «أول لواء يعقده المهدي يبعثه إلى الترك فيهزمهم» ويؤكد العاملي أن المقصود بالترك في أحاديث الظهور هم الروس، ومن حولهم، لأنهم - حسب رأيه - ادعوا وراثة الإمبراطورية الرومانية!! وقال أيضًا: «المقصود في التاريخ الإسلامي بـ«قبائل الترك، وأمم الترك» يشمل الروس والبلغار إضافة إلى أتراك تركيا»، وهو تطويع النص لخدمة التفسير الأحادي الهوائي للفكرة «الأسطورية»، وأن أحاديث حرب السفياني مع الترك كثيرة منها معركتهم في «قرقيسيا» على الحدود السورية العراقية.

ويقول الشيخ الكوراني العاملي «غرض الإمام المهدي عليه السلام أن يفتح المجال لعمله وعمل المسيح أن يأخذ مجراه الطبيعي في هداية الشعوب الغربية وتحقيق التحول العقائدي والسياسي فيها، وهو نفس ما ذهب إليه قادة تنظيم «القاعدة» بأن هدفهم هو نشر الإسلام من الصين وحتى أمريكا ويصم الكوراني العرب الذين انضموا إلى تحالف قصف «داعش» بأنهم من «ضعاف النفوس والمرتدين كفارًا تفسيرًا لما روى ابن حماد «ص 12» عن محمد بن كعب في تفسير قوله تعالى: ﴿قُل لِّلْمُخَلَّفِينَ مِنَ الْأَعْرَابِ سَتُدْعَوْنَ إِلَىٰ قَوْمٍ أُولِي بَأْسٍ

شَدِيدٍ}[283] قال: هم الروم في يوم الملحمة، وقال: «قد استنفر الله الأعراب في بدء الإسلام فقالت: «شغلتنا أموالنا وأهلونا» فقال: «ستدعون إلى قوم أولي بأس شديد» يوم الملحمة فيقولون كما قالوا في بَدْء الإسلام، فتحل بهم الآية: «يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا»، وقال صفوان: حدثنا شيخنا أن من الأعراب من يرتد يومئذ كافرًا، ومنهم من يتولى عن نصرة الإسلام وعسكره شاكًّا»، وهو ما يرمي من طرف خفي إلى صحة موقف داعش.

ويستشهدون في ذلك بتفسير العدوي المصري حول المهدي الذي «يقبل الناس عليه ويشربون حبه وأنه يملك الأرض.. ثم تأتيه أبدال الشام ونجباء مصر أهل الشرق وأشباههم، وبالتالي فإن هؤلاء الأبدال والنجباء والعصائب هم القاعديون القندهاريون من عناصر «داعش» التكفيرية وهنا يبرز توعد «داعش» بغزو السعودية.. وهتافهم «يا أبا بكر بعد الشام.على حائل يا مقدام» أما لماذا اختاروا «حائل» بالذات علامة على السعودية في هذا الهتاف: فلأنها من المدن التي عارضت حكم عبد العزيز آل سعود ولم تُخلص الولاء لعقود، بل كان ولاء أهلها لآل الرشيد حكام حائل السابقين، كما أن موقعها جغرافي مميز يتوسط مدن الشمال، وبعيد عن الرياض «حجر اليمامة» وقريبة من القصيم المليئة بالإخوان 280 كم جنوبًا، وخطها المباشر مستقيم إلى المدينة، وقيل إن فيها السجن الذي يقبع فيه «العلوان».

واختلاف صنفين من العجم وسفك دماء كثيرة فيما بينهم، وخروج العبيد عن طاعات ساداتهم، وقتلهم مواليهم.. وغلبة العبيد على بلاد السادات.

وهو ما فسره المقاتل «ولد سيدي بوه الباركلي» الموريتاني ممن انضم إلى داعش في الرقة - بما يحدث في موريتانيا حاليًا من إثارة أزمة الرق والعبودية في موريتانيا[284].

ولتأكيد تطابق أحداث الحروب الدموية الحالية في عالمنا العربي لخدمة الفكرة والمضي في تنفيذها إثباتًا لصحتها، وطلبًا للخروج الشريف للمهدي

«القائم» فيؤكد الشيعة أن العراقيين يخشون من نفوذ الممهدين الإيرانيين فيه وضعف حكومته، وأما الحجاز فيخضع - من الفراغ السياسي وصراع القبائل فيه على السلطة - لنفوذ الممهدين اليمانيين، وتلك هي التهديدات الصادرة في اليمن للسعودية سواء من الحوثيين أو تنظيم القاعدة.

«وستأخذ الدولتان الممهدتان له اليمانية والإيرانية موقعًا سياسيًّا مهمًّا في أحداث العالم وتطلعات شعوبه».

أما الإشارة الأهم في هذه الروايات الأسطورية، فهي التي جاء فيها ذكر قرية «مرج دابق» الواقعة شمال حلب بالقرب من الحدود التركية، ولـ«دابق» دلالات دينية في أدبيات وتراث الأديان الثلاثة.. ففي حديث لأبي هريرة ﵁ أن النبي ﷺ قال: «لا تقوم الساعة حتى ينزل الروم بالأعماق، «أو بدابق» فيخرج إليهم جلب من المدينة من خيار أهل الأرض يومئذ، فإذا تصافوا قالت الروم: خلوا بيننا وبين الذين سُبُوا منا نقاتلهم. فيقول المسلمون: لا والله لا نخلي بينكم وبين إخواننا فيقاتلونهم، فينهزم ثلث لا يتوب الله عليهم أبدًا، ويقتل ثلث هم أفضل الشهداء عند الله عز وجل، ويصبح ثلث لا يفتنون أبدًا، فيبلغون القسطنطينية فيفتحون، فبينما هم يقسمون غنائمهم وقد علقوا سلاحهم بالزيتون، إذ صاح فيهم الشيطان: إن المسيح قد خلفكم في أهليكم، فيخرجون، وذلك باطل، فإذا جاءوا الشام خرج، فبينما هم يعدون للقتال يسوون الصفوف، إذ أقيمت الصلاة، فينزل عيسى ابن مريم فأمَّهم فإذا رآه عدو الله ذاب كما يذوب الملح في الماء، فلو تركه لانذاب حتى يهلك، ولكن يقتله الله بيده، فيريهم دمه في حربته»[285].

وعند اليهود نجد أن أسطورة معركة «هرمجدون» التي تتفق مع هذا التصور ستدور رحاها على أرض مجدون في فلسطين، وهو تعبير عن عقيدة يهودية مسيحية تشتركان في الإيمان بيوم تصطدم فيه قوى الخير والشر، وتؤكد الأسطورة أن تلك المعركة في «مجدُّو» أو «وادي مجدُّو» ستكون من مائتي مليون جندي!! ويستند اليهود في تصديق هذه الأسطورة إلى نص عبري ورد

في سفر الرؤيا 16 يقول «أن المسيح سوف ينزل من السماء ويقود جيوشهم ليحقق لهم النصر على الكفار»، وفي دابق ستحدث الملحمة الكبرى، وأن هذا المرج المبسوط بالخضرة سيصبح بحرًا من الدماء في وقت الملحمة - وهو نفس ما قاله أحد الدواعش على تويتر، وقال داعشي آخر: «لا تقوم الساعة حتى ينزل الروم بدابق» «في إشارة إلى الحديث». وقال ثالث مخاطبًا أحد المشككين: هل تُراك يا مسكين تستطيع تكذيب رسولنا الكريم بأنكم آتون إلى مهلكة بني الأصفر في دابق.. وسيتم كسر الصليب. «وعبارة كسر الصليب هي ترديد لما جاء في حديث النبي ﷺ المروي في الصحاح وفي «البحار»: «والذي نفسي بيده ليوشكن أن ينزل فيكم ابن مريم حكمًا عدلًا وإمامًا مقسطًا، يكسر الصليب ويقتل الخنزير ويضع الجزية»[286].

ولذلك فقد أصدر تنظيم «داعش» مجلته التي حملت اسم «دابق» تأكيدًا على تصديقهم وإيمانهم بها.

وفي مجلة «دابق» أورد محرروها كلمات سابقة عن نفس الفكرة للمقتول «أبو مصعب الزرقاوي» «لقد أشعلتُ الشرارة هنا - في العراق - وحرها سيتصاعد بإذن الله حتى تحرق الجيوش الصليبية في (دابق)».

وبالتالي فإن النشوء والصعود السريع والتطور لـ«داعش» في العراق، ثم امتداده السريع أيضًا في سوريا أمر متفق عليه بين إسرائيل وإيران ربطًا للروايات المشتركة بينهما، باستخدام تنظيم متطور من «القاعدة»، و«داعش» إحدى تفريخاتها؛ تحقيقًا للروايات حول «دابق»، والمهدي المنتظر في أدبيات ونصوص السنة؛ ليفسر ظهور السفياني لدى الشيعة ومعركة دابق لدى السنة - وهرمجدون والنصر الإلهي لدى اليهود.

وقد عملت إيران على خلق عدو آخر حتى يكتمل التكوين الأسطوري للحرب المرادة، أو المصطنعة لإخراج القائم.. فمن المعروف في الأدبيات الأسطورية العقائدية أن الأمر لن يكتمل إلا بثلاث.. السفياني والأشهب والخراساني.. فإذا

توافرالسفياني الذي سيخرج من «داعش» وتوافر الأشهب أو «الأصهب» وهو بشار الأسد.. فالباقي إذن توفير الثالث، ولهذا دعمت إنشاء جماعة «خراسان» التي تضم خليطًا من القاعديين القندهاريين من البلاد العربية المشرقية، وشمال إفريقيا بقيادة محسن الفضلي الكويتي أحد أبرز خمسة وجوه كانت مقربة من بن لادن، والذي هرب إلى إيران، ومكث فيها تحت إمرة الحرس الثوري الإيراني.

وقد ورد اسمه على لسان جورج بوش الابن في خطاب ألقاه في بروكسل 2005م عندما وجه الشكر إلى دول أوروبية لتقديمها مساعدات لمكافحة الإرهاب[287] ذاكرًا أن «الفضلي» ساعد الإرهابيين الذين فجروا ناقلة النفط «ليمبورج» أمام السواحل اليمنية وأدى لتسرب 50 ألف برميل، وإذا كان المعلن أن «جبهة النصرة» تحارب بشار الأسد ونظامه في سوريا والمعلن أيضًا أن إيران تساند بشار ونظامه.

والمعلن مؤخرًا إنشاء تنظيم خراسان على يد «محسن الفضلي» الذي عاش مختبئًا في إيران لسنوات آمنًا من المطاردات سواء المحلية في الكويت أو الدولية «رصدت الولايات المتحدة مبلغ 7 ملايين دولار كمكافأة لمن يدلي بمعلومات تؤدي للقبض عليه»[288] فإن ذلك يقودنا إلى افتراضية الدور الإيراني - حسب العقيدة المؤدلجة لخروج القائم - في نشر الفوضى في المنطقة بالمساهمة في إنشاء «داعش» وخراسان.

* * *



مع لاجئي أزواد في مخيم «إمبرَّه»



هؤلاء الصبية اتخذهم تنظيم القاعدة حراسًا لبوابات المدن وفي «طونكى» رحبوا بالاستسلام لعدسة المؤلف على عكس باقي أعضاء القاعدة في مختلف البلدان



مع قادة وعناصر حركة تحرير أزواد «مانيلا»



بؤس اللجوء في مخيم «إمبرَّه»

قصف داعش.. التطور والتمدد

لم يكن القرار الأمريكي بتكوين تحالف دولي لضرب «داعش» إلا مرحلة جديدة من استحلاب العرب وترويج للسلاح الأمريكي وتصفية المخزون منه.. واستمرار إرباك المنطقة والسيطرة عليها، أما نتائج هذا القرار فستكون «وبالًا» على العالم العربي، وعلى السعودية ومصر تحديدًا، وهما القوتان الباقيتان المتماسكتان ماليًّا وعسكريًّا.

فالقصف الجوي الأمريكي لن يحقق خسائر مادية أو بشرية يرجوها العالم العربي، وبذلك فالهدف ليس استعراضيًّا فحسب لخداع العالم بأنهم يحاربون الإرهاب، ولكنه خطة بديلة تمثل المرحلة الثانية لمواجهة إخفاقهم في تقسيم المنطقة بعد نجاح ثورة 30 يونية في وقف مخططهم، وبالتالي فإن الهدف أصبح بحاجة إلى خطة بديلة وهو ما كشفته الصحف الأمريكية[289] بقولها: «يبدو أن الصراع على مصر سيدخل مرحلة خطيرة من التصعيد، فالممولون الأساسيون للجهاديين في سوريا «الولايات المتحدة وقطر وتركيا» سيدفعون تلك العناصر المسلحة للانتقال إلى القاهرة»، وهو أمر صحيح تمامًا ولكنَّا نضيف: وإلى السعودية أيضًا.

أما المرحلة الأولى فكانت بإطلاق «داعش» بهذه القوة والتنظيم بالتعاون الإيراني.. فإذا عُدنا قليلًا للوراء فسنجد أن ذلك كان تاليًا على نجاح ثورة 30 يونية في مصر وإبعاد الإخوان، وضرب المخطط الأمريكي الصهيوني الذي هدف في جزء منه لحل القضية الفلسطينية - حسب رؤية إسرائيل - بنقل الفلسطينيين إلى رفح المصرية ضمن مخطط إعلان يهودية إسرائيل، بعد نقل فلسطينيي الضفة أيضًا ودائرة أوسع هي تقسيم المنطقة إلى كيانات صغيرة أساسها ديني لإيجاد المبرر ليهودية الدولة الإسرائيلية، ثم سيطرة إسرائيل وأمريكا سيطرة كاملة على الكيانات العربية الصغيرة، وجاءت ثورة 30 يونية وأحدثت في مصر تغييرًا دراماتيكيًّا هائلًا في العالم سيمنع التغيير

الجيوسياسي في خطة أمريكا، وفي المنطقة ذاتها مما دفع الدول الخليجية النفطية في الخليج والسعودية إلى محاولة الإمساك ببعض خيوط اللعبة السياسية التي كانت قد سلمتها طوعًا للسيد الأمريكي خلال العقود الماضية، والتراجع عن نظرية «الحماية الأمريكية» لصالح الحماية الذاتية المعتمدة على الجيش المصري كعمود فقري رادع لكل المخططات التقسيمية التي تستخدم فيها كتائب التنظيمات الإسلاموية من داعش والنصرة والقاعدة وحتى الإيرانية.

وتمثل ذلك - حسب الرؤية والتسريبات الأمريكية - في ضربات الطيران الخاطفة المصرية بمشاركة إماراتية ضد أهداف تكفيرية وإرهابية دعمتها أمريكا وسمحت ببروزها على السطح وتجذير قوتها في ليبيا.

وكعادة أمريكا في التلاعب.. فقد بادرت بالتراجع - بعد عدة أيام - عن تصريحاتها بتورط مصر والإمارات في هذه الغارات.

جاء ذلك نتيجة الالتجاء الليبي للحضن المصري ثقة في حسن نواياه للجارة الشقيقة، والمتمثل في زيارات ليبية رسمية لرئيس البرلمان «عقيلة صالح»، و«عبد الرازق الناضوري» قائد الجيش الجديد وقتها، ووزير الخارجية، وتصريحاتهم عن حقهم على مصر في الدعم والحماية، والذي وصل إلى درجة عالية من الوضوح في تصريح «رمزي رميح» مستشار سابق بالجيش الليبي: «إن الشعب الليبي لا يثق في الاتحاد الأوروبي وأمريكا ومجلس الأمن قدر ثقته في مصر، التي أصبح عليها واجب شرعي وقانوني وأخلاقي تجاه ليبيا».

وجاءت فكرة التحالف لتنفيذ هذا المخطط للعمل على تشظي المنطقة بإعادة المحاولات لتفجيرها.. وهنا مكمن الخطورة؛ لأنه لن ينتهي خلال ثلاث سنوات، ولكن بعد عشر. بالنتائج المرجوة؛ وهي التقسيم، وإعلان إسرائيل دولة دينية، وطرد كل العرب من فلسطين «مسيحيين ومسلمين»؛ لأنها ستتخذ «داعش» التي ستكون بالفعل قد أحكمت قبضتها على مقاليد الحكم في سوريا والأردن،

والسعودية بعد تفكيكها.. مما سيجبر هذه الدويلات العربية على الانصياع لكل ما يملى عليها، سواء أكان أمنيًا، أم اقتصاديًا، وتقسيم المنطقة ليس بالأمر الجديد.

ولم تعد مسألة التوجيه الاختراقي لـ«داعش» من المسائل المخفية، لبروز دلائل عدة عليها، ومنها توجيه «داعش» إلى مناطق الأكراد سواء في العراق في جبل سنجار، والذي كان بمثابة حساب التوافق ومعرفة حجم ومدى قوة رد الفعل لدى الأكراد، والذي ظهر فورًا بتصدي البشمركة له فتم استخدامها فيما بعد في حصار عين العرب «كوباني» واحتلال القرى المحيطة بها لاستنفار الأكراد، ليمثلوا القوات البرية حتى تقرر أمريكا تجييش العرب بريًا، رغم أن «أبو محمد العدناني» الناطق الرسمي لـ«داعش» قد أعلن قبل بدء عمليات التحالف - بعد استيلاء داعش على المثلث السني - الزحف إلى بغداد ثم مدن الشيعة: النجف وكربلاء والكوفة، وإذ بهم يتوقفون ويستديرون نحو مناطق الأكراد، لإرباك كل حسابات المنطقة بإقحام الأكراد!

وقصف «داعش» الذي سيستمر لسنوات في المناطق التي تسيطر عليها، أسهم في جلب كثير من الإرهابيين الجدد والمتشددين السذج من الإسلامويين الأبرياء من كل دول العالم على «داعش» للانضمام إليه، وشهدت شهور بعد بَدْء الضربات توافد ألف شاب شهريًا تقريبًا، وسيزداد القصف عنفًا، وتتزايد أعداد الوافدين عبر تركيا وإيران للانضمام، وبدأ التفكير في دعم بري وبالطبع ستنهار في النهاية شبكة «داعش» في الموصل والرقة والمناطق الأخرى التي تسيطر عليها، وسينتهي في الوقت الذي تراه أمريكا والغرب، وبالتالي سيراه العرب كذلك رغم أنوفهم، ولكن سيشهدون تشظي التنظيم إلى تنظيمات وكيانات أخرى أكثر تدريبًا واحترافًا، وأشد حقدًا وغضبًا على الجميع وأولهم «العدو القريب» وهو حكومات وأنظمة وجيوش الدول الإسلامية بسبب ما تم فعله فيهم في «داعش».

ولن يعدم هؤلاء الإرهابيون طرق العودة إلى بلادهم، كما حدث من قبل في

أفغانستان - الجيل الأول من القاعدة - وعادوا وكونوا جماعات ونشروا الفكر التكفيري على نطاق أوسع مما كان عليه مستخدمين حكايات البطولات والشهادة والجهاد!! وهو ما سيحدث مرة جديدة.. وإذا استمر انهيار الاقتصاد في الدول العربية والتهميش والفساد خصوصًا في مصر والسعودية، بالتأكيد سيعمل الغرب على تحقيقه في بلادنا، وممارسة ضغوط اقتصادية واحتكارات لدفع الأسعار للارتفاع، ودعم تفشي الفساد وتوسع وتمدد المناطق العشوائية التربة الخصبة الحاضنة والمفرخة للإرهاب.

هذا مع العمل على الدعم الإعلامي لمنهجية «داعش» ونشر ما برعوا فيه من تسيير وإدارة مرافق الدولة، كما في محافظة الرقة.. بدأ بالفعل وهوالترويج الذي بدأ ينتشر على أنه في إطار الحرب الإعلامية عليها، ولكنه في الحقيقة يعمل على ترسيخ وتجذير تطورها الإداري كدولة في أذهان شباب كثيرين مما جعلهم يفكرون في صحة الحركة الداعشية.

ولعلني من خلال تجربتي مع هذه التنظيمات أختلف فيما ذهب إليه البعض من أن «داعش» لا يقبله المسلمون في أغلبيتهم، ولذا فإنه لن ينجح في إقامة دولة، وسينكمش، كما حدث مع «القاعدة»، وهو افتراض وهمي فيما أظن، فالقاعدة لم تكن تمتلك أرضًا، ولا هذا الكم الهائل من الآليات العسكرية، ولا هذه الأعداد الكبيرة من العناصر ولا المال الوفير، وأدوات الإنتاج والإدارة كما لـ«داعش»، وواقع الحال يؤكد أن الناس قد قبلته على خلفية الأمن الذي وفَّره لهم التنظيم سواء في «الرقة» أو في ريف حلب، نتيجة مطاردته اللصوص من عناصر الجيش الحر[290] الذين قاموا بأعمال سلب ونهب وسرقة، سواء لمبانٍ وإدارات حكومية، أو مصانع ومحال وبيوت، وشركات لأفراد، ويشهد السوريون خصوصًا في حلب على العديد من المعامل والمصانع التي تم نهبها وتفكيكها وبيعها في تركيا.

وعندما احتل «داعش» هذه المناطق ترصد هؤلاء اللصوص، ووجد لديهم مخازن بضائع وسيارات ومعامل وأموالًا مسروقة، صحيح أن داعش استولى

عليها، ولم يرجعها إلى أصحابها، ولكنه بالمقابل منع «بلطجة» الجيش الحر وكتائبه ضد الناس فأمن المجتمع، وهو ما أحدث ارتياحًا لدى الناس، وهي تجربة حدثت في «تمبكتو»، و«جاوا»، ولاقت قبولًا من غالبية المواطنين، صحيح أنهم لن يستمروا كثيرًا في اطمئنانهم إلى «أنصار الدين» في «تمبكتو» ولا «التوحيد والجهاد» في «جاوا»، كما لا يطمئن الكثيرون لـ«داعش»، ولكن مرور الوقت سيعمل على ترسخه وتزايد سطوته، والعامة في العادة لن تهتم كثيرًا بمن يحكم ما توافر لهم الأمن والطعام.

وقد أقام «داعش» هيكلًا مشابهًا إلى حد ما لحكومة محلية حديثة بعد أقل من عام من سيطرتهم على «الرقة» وهو أمر في غاية الخطورة حيث إن هذا التطور قد يغري الرافضين من السكان على قبول سيطرته، وهو ما أقر به إليّ محمد أمين أحد أقربائه المقيمين في «الرقة» بقوله إن من يعارضون «داعش» من المدنيين الذين لا يحملون فكرًا أيديولوجيًا، أو انتماءات سياسية أصبحوا متكيِّفين مع وجود «داعش» خصوصًا وقد عمل التنظيم على حماية المستهلك، وضمان وجود خدمة جيدة وعدم الغش، وهو من أهم الأمور الحياتية التي يطلبها المواطن في دولنا العربية التي لا يضمن فيها أقل حقوقه وهو جودة بضاعة مشتراة، ولا يضمن ردها إن وجدها مزجاة.. ولذلك فإن قيام التنظيم بإعادة هيكلة وتفعيل مكتب حماية المستهلك في الرقة أدى إلى رضا المواطنين، هذا فضلًا عن تحقيق العدل بين المواطنين وضمان عدم الجور أو الظلم بينهم.

وهذا تطور في فكر هذه التنظيمات في جيلها الجديد، فبعد أن أحكم تنظيم «داعش» سيطرته على كامل تراب محافظة الرقة في الشمال السوري عسكريًا ومدنيًا عمل على تسيير الحياة المدنية في المحافظة بضمان توفير الكهرباء والمياه، وتنظيم حركة المرور وضمان عمل المخابز والبنوك والمدارس، وأسهم ذلك في قبول الشعب لمثل هذه الأفكار ظنًا في براءتها، بل إن المناهج الفكرية والدعاية المحترفة الموجهة للمجتمع ستعمل على تدجينه وصولًا إلى الرضا

والقبول به كدولة، وعلى سبيل التطور بدأ «داعش» في وضع منهج وصف بـ«الشرعي» للتدريس لطلاب التعليم في المدارس، وتم نشره على شبكة حسابات التنظيم وصفحات أعضائه على الفيس بوك، وطالب «الإخوة» في جميع الدول العربية بتدريسه لأبنائهم بديلًا عن مناهج «الكفار» في مدارس الحكومات «الكافرة»، وقد رصدت أجهزة الأمن في مصر والسعودية انتشار شعارات «داعش» على جدران المدارس وبعض الشوارع المحيطة بها في كلا البلدين، وهو ما يؤكد أن «داعش» يعرف جيدًا كيف يتحرك وكيف يلتقط النشء، بمهارة في استخدام الوسائل المختلفة لالتقاط المتطرفين.

وهو تطور يؤكد أن أجيالًا جديدة تستفيد من تجارب فاشلة أو أخطاء لسابقيهم، وهو ما أكده مركز محاربة الإرهاب في كلية «ويست بوينت» العسكرية في نيويورك الذي عمد إلى تطبيق نظرية «أبو مصعب السوري» التي جاءت في كتابه «التجربة الجهادية في سوريا».. وبالتالي فلا عجب أن ضم التنظيم 15 ألف مقاتل أجنبي من نحو 81 دولة - حسب مسئولين بمنظمة الإنتربول - منهم 3 آلاف من الغرب.

وأن تجد لهم صدًى في حسابات مئات الألوف للشبان العرب، وربما أكثر الذي يستطيع إيصال لقطات الفيديو والأخبار التي يريد ترويجها بينهم خلال ساعة، واستخدام مواقع أخرى غير «يوتيوب» مبنية على حسابات سرية يوفرها التنظيم بتدويناته المتناثرة في شتى المواقع للدرجة التي دفعت بلدانًا أوروبية والولايات المتحدة لتجييش أعداد من خبراء المواقع الإلكترونية لمتابعته ورصد وحذف ما يمكن أن يسهم في تأجيج عواطف مواطنيها والتعاون مع شركات التقنية وشبكات التواصل الاجتماعي، فقامت بريطانيا بإزالة 45 ألف مادة إلكترونية[291].

هذا ومع ما يستجد من جدول أعمال أمريكا وإسرائيل والغرب في أنوفنا.. ستنفجر البلاد «متدعوشة» من الداخل، وهذا ما قاله لي رجل القاعدة في جماعة أنصار الدين عندما سألته: هل ستصدرون الفكر القاعدي الإرهابي؟

فقال: لا، سيظهر من داخل مجتمعاتكم مشددًا على مصر والسعودية والخليج.

لذلك فقصف داعش خطيئة ثالثة، بعد ما حدث في أفغانستان ومالي، وتزامن البَدْء في قصف «داعش» مع بدء عمليات أخرى ضد كتائب وكيانات «القاعدة» في مناطق أخرى لإثارة حميتهم وحنقهم ورغبتهم في الانتقام.

وهو ما حدث في مالي أيضًا بضرب الطيران الفرنسي لمواقع جماعتي «أنصار الدين» و«التوحيد والجهاد» فتمددت قواتها وكتائبها إلى تنظيم قاعدة بلاد المغرب الإسلامي: الملثمون، والموقعون بالدم.. وتحقق ذلك أيضًا بعد الحرب الفرنسية على جماعتي التوحيد والجهاد وأنصار الدين في شمال مالي يناير 2013م، فقد عاد الليبيون منها إلى ليبيا وبرفقتهم مصريون وتشاديون وسودانيون.. ومنهم من تسرب إلى مصر مثل حمدي سعد فتوح وقد أجاد استخدام جميع الأسلحة النارية والصواريخ وتصنيع المتفجرات ليقوم بتكوين مجموعتين إرهابيتين في ميت غمر والمنصورة، وتدريب مجموعة ثالثة في دمياط، وتواصل مع أحد عناصر «داعش» وأسهم في تسفير عدد من الشباب إلى تركيا ومنها إلى سوريا للانضمام[292] وهو ما حذر منه وزير الخارجية المالي - إبان الحرب - بأن هذه الضربات ستؤدي إلى انتشار المقاتلين والأسلحة في كل أنحاء الساحل.. وقال «إيريك دينيس» رئيس المركز الفرنسي لأبحاث الاستخبارات إنه سينتشر نفوذ المتطرفين في المنطقة من نيجيريا إلى الصومال.

وإن كان التدخل الفرنسي في شمال مالي منع التمدد والانتشار لهذه الحركات صوب الجنوب «باماكو» فقد أسهم في تمددهم شمالًا وشرقًا في النيجر وليبيا ومصر.

ولا أدري إن كان أحد قد لفت نظره ورود اسم «أبو عبد الله الشنقيطي» «الموريتاني» الذي أصدر بيانًا من سيناء في فبراير 2014م.. وهو نفس التوجه الذي بدأت فرنسا تنحو نحوه في ليبيا، ما ألمح إليه «جان إيف» وزير الدفاع

الفرنسي مذكرًا أن عملًا مشابهًا كُلل من قبل بالنجاح في مالي، وهي الضربات التي ألجأت المتشددين والتكفيريين في جماعتي «التوحيد والجهاد» و«أنصار الدين» إلى الانتشار والتمدد في ليبيا وتونس، وما شهدته ليبيا من توافد كل هذه العناصر مع عناصر أخرى من موريتانيا وجبهة البوليساريو إلى إخوانهم في ليبيا في الكتائب والتكوينات التكفيرية المتعددة.

وكان هناك خياران لمواجهة هذا المشروع التكفيري في شمال مالي: الأول هو قيام دول المنطقة المعنية بالأمر مثل: النيجر وموريتانيا وبوركينا والجزائر بعمل موحد تحت راية «إيكواس» مجموعة غرب إفريقيا الاقتصادية تنسيقًا مع حركة أزواد التي يتخذ قياديوها موريتانيا ملجأ لهم، أو اللجوء إلى الضربات العسكرية الأجنبية، كما حدث في ليبيا من خلال الناتو، وخشيت الدول المجاورة التورط في هذا العمل خصوصًا موريتانيا، وهي تعد القوة العسكرية الأقوى والأكثر انضباطًا، ولكن جاء إحجامها خشية تفجر الأوضاع داخلها لكثرة العناصر التكفيرية، بها، وانتشار التشدد، وتجذر الجماعات «الإسلاموية» ومنها ذو الوجه السياسي.

والسبب الثاني غياب الجنرال الرئيس «محمد ولد عبد العزيز» في فرنسا للعلاج من إصابة بطلق ناري[293].. فكان الخيار الثاني وهو الاستعانة بالقوى الأجنبية الذي انحصر في القوة الفرنسية التي بدأت ضربات الطيران في يناير 2012م فألجأ كل هذا الجماعات إلى الهرب خصوصًا إلى ليبيا مع دول أخرى مثل السودان والنيجر وتونس.. فمثلًا هربت مجموعة من أنصار الدين بعدد من عربات الدفع الرباعي المزودة بأسلحة ثقيلة ومدافع بصحبة «أبو دجانة» عنصر سوداني - وعدد من رفاقه السودانيين الذين هرعوا لمناصرتهم مع بداية الضربات الفرنسية، وقد وفد منهم أكثر من 150 سودانيًّا بعد 48 ساعة من بداية الحرب إلى شمال دارفور، وتحديدًا في مدينتي «كتم» الحدودية مع ليبيا، و«كساب» التي عالجوا فيها جرحاهم، وإلى النيجر بصحبة «حبيب ولد يوسف» أحد قادة التوحيد والجهاد في «جاوا».

وهو ما قد لفت إليه «محفوظ ولد الوالد» منطلقًا من قناعته الثابتة بفكر هؤلاء فقال - والحديث كان عن الحرب في مالي[294] - لا أدري من هؤلاء الذين يأتون لشمال مالي ولا من أين جاءوا وماذا سيكون مصيرهم بعد الحرب، ولكن الشيء المؤكد قطعًا هو أن الحرب ستمتد ألسنة نيرانها إلى الدول المجاورة كما رأينا في تجربة أفغانستان.

وأكدت هذا الانتشار والتمدد الحوادث في ليبيا، فالشاب الذي أطل ملثمًا على شاشة التليفزيون ليعلن «درنة» إمارة إسلامية لم يكن سوى «يوسف الشنقيطي» مسئول الإعلام في جماعة أنصار الدين في «تمبكتو»، كما أن الأربعة الذين اشتبه بهم بعض صيادي الطيور الجارحة جنوب مدينة طبرق وقُبض عليهم، لم يكونوا سوى عناصر التوحيد والجهاد أيضًا - ثلاثة يمنيون وتونسي - استبدل بهم خمسة شباب من طبرق تم خطفهم بعد يوم من تسليم هذه العناصر إلى الجهة الأمنية بالمدينة يوم 10 سبتمبر 2014م.

وقد تأكد ذلك جليًّا من خلال الشريط المسرب للمختطف البريطاني «ديفيد ريتشارد بولدوم» من قبل «جيش الإسلام» في درنة والذي لم يذع إلا في موريتانيا[295].

وبالتالي فإن ضرب «داعش» من خلال هذا التحالف الدولي «الكافر» كما يقول المتشددون والإرهابيون سيفخخ المنطقة كلها ويستنهض عزيمة المؤيدين له في البلدان العربية مما سيتيح لهم التمدد والانتشار، وهو لا شك جزء من مخطط التنظيم ولا أدل على ذلك من تحرشه واحتكاكه بحزب الله في منطقة «عرسال» اللبنانية وجرودها كمخطط دقيق للانطلاق منها إلى ساحل لبنان في عكار وطرابلس والذي بدأ من خلال التفزيع بإرهاب أهالي البلدة بخطف عدد من اللبنانيين منهم جنود بالجيش وذبح بعضهم، ثم خطف مواطنين من البلدة وقتلهم مثل «كايد غدادة» بتهمة التعاون مع حزب الله الرافضي الشيعي!! ونشر قائمة تضم عشرات الأسماء كمطلوبين للتنظيم للمحاسبة والمحاكمة بنفس التهمة مما أدى إلى حالة فزع بين السكان، ونزوح جماعي خصوصًا بعد

تهديدات «أبو مصعب البغدادي» في تغريدات «أرى رءوسًا قد أينعت.. واعلموا يا روافض أنَّا جئناكم بالذبح».. وتوعد بحرق الحسينيات وتدمير الصليب.. وبالتالي بدأت تحقق هدف «داعش» بتفريغ «عرسال» من سكانها إلى أن يتمكن من التمترس بها، ثم ينطلق وثوبًا إلى عكار، وبذلك يتحقق له هدف استراتيجي مهم في ظل ضعف البنية العسكرية للجيش اللبناني وهو خلق نافذة بحرية له على المتوسط توفر له المدد والحرية في الحركة، وربما تصدير منتجات، ومنها النفط واستقبال مقاتلين وبضائع.

وهنا تتجلى نظرية «التوسع الدلالي» نتيجة التطور في فكر التكفيريين.. وهذا التمدد التكفيري هو مشروع إقليمي تتبناه أمريكا وعدد من الدول الأوروبية بشراكة إسرائيلية، ومن الواضح تمامًا أن هذا هو مشروعهم بعد انتهاء الحرب الباردة وتفكك الاتحاد السوفييتي أول العقد الأخير من القرن العشرين.

الملاحظ في التطور الفكري والأدائي لـ«داعش» هو اعتراف قادة وعناصر كتائب القاعدة في بلاد المغرب الإسلامي وباقي المناطق «العراق.. سوريا.. اليمن.. السعودية» بسيادة زعيم تنظيم القاعدة[296] أيمن الظواهري وتعظيمهم له وأخذهم عنه الرسائل - أصبح أمرًا غير واقع أو موجود في التنظيم وأيضًا التراجع عن الزي الأفغاني الذي سبق أن انتشر في بلاد العالم الإسلامي فقط من خلال المؤمنين بفكر هذا التنظيم في مالي ومصر والسعودية والجزائر وموريتانيا وفي ليبيا، وكنت أصادف عددًا كبيرًا يرتدونه أصبحوا الآن يرتدون الأزياء العربية والأوروبية الحديثة، وبالتالي فإن الزي كان يمثل رمزًا لمرحلة، وتغييره إيذانًا بفكر جديد ومرحلة تختلف، وكذلك كان رفضهم القاطع والحاسم لالتقاط صور لهم، فلم أفلح في تصوير أي منهم في درنة ولا بنغازي.. وفي «أزواد» وفي سيناء واليمن رفض أغلبهم أن ألتقط لهم صورًا حتى الصبية الذين كانوا يحرسون بوابات المدن أو مقدمات ومؤخرات «الكتائب» كان انتباههم للعدسات ملحوظًا ولو كان وجودهم في المكان مصادفة. حدث لي في درنة كما حدث عندما كنت أسير في شوارع «تمبكتو»

وطلبت من مرافقي «عثمان أج محمد عثمان» التقاط عدة صور لي في نفس الوقت الذي مر علينا فيه أحد العناصر فألقيت عليه السلام فلم يلتفت بل أخفى وجهه بإسدال لثامه عليه وإدارة ظهره لنا.

وهو ما حدث في طونكي وحتى في مستشفى «الملك المؤسس عبد الله ابن الحسين» في محافظة «المفرق» بالأردن عندما ذهبت لإجراء تحقيق حول معاناة الجرحى منهم - رفض أغلبهم التقاط الصور، كانوا يقظين لعدسات الكاميرات[297] خوفًا من كشف حقيقتهم وحقيقة شخصياتهم، أما في «داعش» فالجميع لا يرفض التقاط أي صورة له وهو ما يعني جرأتهم أو إيمانهم العميق بأنهم أصبحوا دولة حقيقية وفي ذلك خطورة شديدة.

وكذلك كان التعدد الانتمائي الجغرافي لأعضائها يؤكد الشكل الأمني للتنظيم وينتحل كل منهم جنسية غير جنسيته، حتى لا يعرف الغريب عنهم جنسيته الحقيقية، وكان بعض من العناصر يحاول الإيحاء بنطق لهجة بلاد أخرى غير وطنه تعمية على أصله وصحيح جنسيته كما في حالة «الجولاني» سعودي الأصل الذي اتخذ لقبه للإيحاء بجغرافية سورية ومحاولته إظهار اللهجة السورية.. وهو ما كان «أبو دجانة» يحاول الإيحاء لي به، فبعد أن قضيتُ ساعات في النهار معه أبانت لي جنسيته المصرية جاءني ليلًا في الفندق ليكمل حديثًا ينطق خلاله تعمدًا بعدد من المفردات السودانية للإيحاء لي بكونه سودانيًا، ولعل صورة «يوسف الشنقيطي» مسئول المكتب الإعلامي للجماعة وغيره من القيادات والعناصر في «تمبكتو» و«كيدال» لا تفارقهم بنادقهم، ولذا فقد استحضرت صورة «أسامة بن لادن» عندما رأيته أول مرة، ولاحظت ذلك أيضًا من تصرفات القاضي وغيره من قيادات الجماعة، فطوال حركته أو جلوسه معي كانت البندقية على كتفه أو بين يديه أو أمامه على بعد لا يزيد على سنتيمترات قليلة حتى في «مدرسة الجهاد» أو الحوش الذي انتظم فيه أعضاء الجماعة على الأرض أمام أمير الحسبة «أبو تراب» كانت بنادقهم بين أيديهم، هذا الشكل اختفى تقريبًا بما كان عليه لتمثيل نموذج

«أسامة بن لادن»، وهي الصورة النمطية التي تغيرت الآن، وهو ما يدلل على تجاوز فكرة الخوف والاختباء والتقليد أو تبعيتهم للقادة التاريخيين للقاعدة؛ بن لادن والظواهري.

وبدأ في الجيل الجديد من الخوارج التكفيريين بما يمثلهم «داعش» والنصرة تطور واضح في التشابه والتشابك بين هذه الجماعات، على امتداد مساحة الوطن الإسلامي، تتفق في عدة عوامل أولها الاندماج والتغلغل السكاني المحليان بتعليم في بيئات تتسم بالأميَّة في سيناء، كما في شمال مالي التي كانت بعض القبائل تهب غلمانها الصغار وأطفالها لـ«المختار بلمختار» لتحفيظهم القرآن وتعليمهم الفقه، وهذه الفكرة مأخوذة من نموذج حركة الأعضاء الأولى للتنظيم المؤسس في أفغانستان عندما أرسل «عبد الله عزام»[298] زوج ابنته «عبد الله أنس»[299] إلى شمال أفغانستان بناء على طلب «أحمد شاه مسعود» القائد الأفغاني لتعليم المجاهدين الفقه الإسلامي وعلوم القرآن، ولذلك استغلت عناصر كتائب تنظيم القاعدة حاجة الفقراء - في قرى وبوادي ومدن «أزواد»؛ من طوارق وعربٍ إلى مساعدات؛ صحيح أنها بسيطة وقليلة؛ وبعض معلبات الطعام والشراب والزيوت المستوردة، ولكنها مهمة ومؤثرة في حياة الفقراء، وهو ما شهد تطورًا في «جبهة النصرة» و«داعش» بوفود الشباب المتعلم والبعض منهم حاصل على أعلى شهادات العلم فضلًا عن المميزات المالية.

جاءت الأممية اللغوية لتعبر عن تطور الحركة الإسلاموية القاعدية، فلم تعد هذه الحركة المتفجرة إرهابًا في العالم تعتمد فقط - في خطابها على التثوير والتهييج الديني وحث الشبان على الانضمام إليها - على العرب واللغة العربية فقط، وإنما تجاوزتها إلى اللغات والأمم الأخرى حتى تلتقط المهووسين بالجهاد من كل مكان، ونجد مثال ذلك في «منتدى شبكة الحسبة» وهو حسب «مراد بطل الشيشاني» أحد أهم المنتديات التي تنتشر فيها مواد ترتبط بـ«القاعدة»، فأصدرت حركة «شباب المجاهدين» الصومالية مثلًا شريطًا يظهر فيه مقاتلون يوجهون رسائل تحث الشباب على الانضمام لهم باللغتين

الإنجليزية والأُردية، ولغة محلية صومالية، ويفسر ذلك أيضًا كثرة عدد «التكفيريين» الأوروبيين في سوريا والعراق.. خصوصًا في تنظيم «داعش».. وغالبًا هؤلاء - وقد التقيت بعضهم في باريس - لا يعرفون من العربية إلا السلام عليكم وسورة الفاتحة وبعض قصار السور بلكنة أوروبية متضعضعة، ويتم التقاطهم بشكل احترافي من خلال المراكز الإسلامية في الولايات المتحدة الأمريكية والدول الأوروبية وأستراليا، وأول ما يتم تلقينه - حتى يسبغ المسلم الجديد على نفسه صفة الإسلام - هو الإيمان بقدسية وضرورة الجهاد، وأول نصيحة تقدم له حسب ما رصده خبير التنمية البشرية الدكتور «عصام خليفة» في المركز الإسلامي بمدينة «لويفل» بمقاطعة «كنتاكي» الأمريكية، والذي يديره باكستاني - هو الالتزام بالمظهر - اللحية والجلباب القصير وغطاء الرأس والإيمان بالجهاد وذلك يعني أن هذا الراغب في دخول الإسلام يجيء صفحة بيضاء، هربًا من مجتمعه وأزماته النفسية أو رغبة حقيقية في التدين، ويتم تشكيله حسب مفهوم هذا الذي يقوده ويعلمه الدين، وغالبًا فإن هذه المراكز الإسلامية في أوروبا وأمريكا يسيطر عليها إما مسلمون من الجزائر والمغرب أو باكستان وأفغانستان - لايقدمون من الإسلام سوى ذلك، وهو مكمل، والتطور الحادث في هذه التنظيمات التكفيرية في الأرض العربية أنهم باتوا يوفرون متعلمين على مستوى عالٍ من الدراسات الجامعية أو العليا واللغات الأجنبية، مما ساعد على توفير فرص التحاور وسهولة التواصل، كما نلحظ تطورًا آخر على نفس المستوى في المنضمين العرب، ويمثلهم في ذلك السوريون ثم السعوديون بنسبة أكبر، ثم الجزائريون والتونسيون خصوصًا في اللغة الفرنسية.

فضلًا عن الأموال - الرواتب - والميزات الأخرى المادية التي وفرها تنظيم «داعش» والنفسية التي تظهر في التباهي بالقوة أمام سكان القرى التي يحتلونها، ويعد ذلك عاملًا مهمًّا في جذب المقاتلين عكس ما كان في «أزواد» شمال مالي - الذي عمد «أياد» وبلمختار وأبو زيد وغيرهم من القادة إلى جمع كل موارد التنظيم والمساعدات المالية التي كانت تصل إلى أيديهم لإيمانهم

بأن الاعتقاد الديني ونصرة الإسلام لدى العامة أقوى من عوامل الجذب بالمال، عكس تنظيم التوحيد والجهاد أو كتائب الصحراء؛ طارق بن زياد والملثمون - والتي كانت أموال الفديات عن المخطوفين والحماية والاشتراك في تجارة المخدرات تمنحهم القدرة على دفع الرواتب والتكفل بكل متطلبات المعيشة - وهي في هذه المناطق بسيطة قدر بساطة حياة أبناء الصحراء المغايرة تمامًا لحياة المدن القديمة في دول مثل سوريا والعراق، وبالتالي فإن التطور الملحوظ في «داعش» - المرتبات الكبيرة، وإشباع رغبات المعيشة المرفهة - أمر فرضته الوقائع والظروف، ودعمته الاختراقات المخابراتية والحماية التي وفرتها لهم قوات التحالف والطيران الأمريكي بعدم التعرض لمصافي البترول والبنوك والبنايات الاقتصادية.

وقد أهمل «داعش» «العدو البعيد.. اليهود والأمريكان»، وهذا أمر طبيعي نتيجة التأسيس والاختراق، فيكشف إنتاجه الإعلامي سواء المطبوع الورقي أو الإلكتروني عن إهمال الدعوة لشن هجمات ضد الغرب «العدو البعيد» مؤكدًا أن هدفه الأول هو تأمين «الدولة الإسلامية» وتوسيع حدودها، ولذلك فهم مثلًا في سوريا لا يواجهون قوات النظام، وقد أعلنوا أن إسقاطه ليس من أهدافهم لأن تطهير المناطق التي سيطروا عليها من العملاء - يقصدون الجيش الحر - أولى لهم حتى لا تفاجئهم طعنات غادرة منهم؛ يفرغون بعدها لحرب النظام «العدو القريب».. مستندين في ذلك إلى فتوى اتباع مبدأ «أبي بكر الصديق» الذي حارب المرتدين أولًا قبل التوجه لمحاربة الفرس والروم، ولأن الجيش الحر لم يبايع «البغدادي» بالخلافة فهو مرتد وقتاله أولى من قتال النظام و«الفرس والروم».

ونتيجة لذلك قبلهم الكثير من الناس فضلًا عن سبب جوهري آخر، وهو إرهابهم الذي أشاعوه تهديدًا للنفوس بالذبح والقتل لكل من تعاون مع «الجيش الحر» وقاتل «داعش» معهم، فهو يُذبح أو يُعدم بالرصاص فور القبض عليه، وكذا من تقاعس عن نُصرتهم ضد هذا الجيش، اعتمادًا على شبكة تجسس

ومخابرات - يصفها «عبد القادر جابر» ابن قرية حور النهر 5 كم من دابق - على مستوى رفيع من الحرفية، وهو ما ألجم ألسنة سكان المناطق التي احتلوها عن الحديث ضدهم، خوفًا من الوشاة، وبالتالي أصبح الرضوخ قدرًا مقدورًا.. وتلك خطوة استراتيجية أولى، الخطوة التالية تتمثل في محاولات تجذير وترسيخ الوجود، بالدعاية الاحترافية المبرمجة والممنهجة بأحدث التقنيات.. وقيامه بمأسسة الإعلام من خلال مؤسسة الإنتاج البصري «الفرقان».. وكان باكورة إنتاجها «شريط فيديو» خطبة الجمعة التي أعلن فيها زعيمهم أبو بكر البغدادي «الخلافة»، وقد صُور بخمس كاميرات عالية الجودة والدقة، ومن زوايا عدة ركزت فيها على تعابير وجهه وحركة يديه وساعته الثمينة بتركيز في نقل الصورة كما يجب أن تكون وإتقان لتفاصيل وتأثير الحرب النفسية الإعلامية وأصول العمل الإعلامي المحترف، بمهارات تفوق - في الحقيقة - كل ما نراه من إعلام على شاشات الفضائيات العربية مما يذكرنا بقناة الجزيرة ومنشئيها، وكيف استُخدمت كمِعْول لهدم المنطقة العربية، وترويج لوجهة النظر الإسرائيلية في كل قضايا المنطقة، ويؤكد خبراء الإعلام أن ما يصدر عن «داعش» يدل على تمرس بالعمل الدعائي، وتأكيد على مدى حرفية من يديره مستفيدًا من الفضاء الإلكتروني كوسيلة للحشد والترويج، ومن المعلوم أن وراء ذلك شخصًا أمريكيًا من أصل سوري يدعى «أحمد بو سمرا»، يدعمه ويقف وراءه ولا شك، تخطيط مخابراتي.

وتنتشر مئات الحسابات على موقع «تويتر» وينشر خطبه الرئيسية بسبع لغات، وكذلك صور المقاتل الذي يمسك بيديه نوعًا آخر من الشيكولا السويسرية - نوتيلا - ، ومجموعة أخرى وهي تلعب البلياردو، ومقاتل يرتدي نظارات شمسية فاخرة، ويلهو مع الأطفال، وهي الدعاية التي تعمل «داعش» بها على إظهار مقاتليها وفكرها المتطور المغاير لصور مقاتلي القاعدة، أو أنصار الدين، أو أنصار الشريعة، أو جبهة النصرة، في الكهوف، أو الصحراء عابسي الوجوه، حادِّي النظرات، رثِّي الثياب، عكس ما يظهر به المقاتل الداعشي «دينيس كوسبرت» قائلًا: «لسنا أولئك السلفيين الأشرار» في خطاب يدعو مواطنيه

الألمان «أدعوكم للجهاد.. الجهاد ممتع جدًّا»، ثم يضحك ويرمي بكرة ثلجية على رفاقه.. وإجادة استخدام «هاشتاج» وهو ما حدا بالرئيس الأمريكي أوباما للتصريح لشبكة CBS الإخبارية بأن مسئولي الدعاية في تنظيم «داعش» أصبحوا ماهرين للغاية في التعامل مع وسائل التواصل، واستقطبوا مجندين جددًا من أوروبا وأمريكا وأستراليا، وبالفعل توسع الحضور الداعشي في هذه الوسائط الإلكترونية الجديدة وكثافة استعمالها لشبكات التواصل الاجتماعي اعتمادًا على استراتيجيات إعلامية متطورة جدًّا وخطط ترويجية لم تشهد كل الجماعات «الإسلاموية» ولا حتى الإعلام الخاص وشركات الإعلانات ولا الفضائيات مثلها باستثناء شبكة الجزيرة.

ميزها في ذلك تخطيها لكل أفكار الإعلام القديمة للجماعات مثل المنتديات المغلقة لأنه رأى أن التمدد والانتشار يجذب مقاتلين جددًا وينشر الفكرة لدى غير المقاتلين ولا شك أنهم يعنون بسيكولوجية الانعزال والتمرد والاختلاف عن المجتمع والرغبة في الانسحاب منه، إما نتيجة للإحساس بالتميز والفوقية نتيجة جهل المجتمع بأصول دينه مقابل لفظهم لبعض النصوص وقراءاتهم لبعض الكتب القديمة، وإما وجود مساحة جديدة للتجديد بالنسبة لشباب المجتمعات الأوروبية والأمريكية. والاستمتاع بالدخول في ثقافة جديدة كمفردات وطرق حياة وأيضًا لأن المرجعية الدينية حقيقية بمعنى العقيدة - التي يستشهد من أجلها - كما تأخذ بتلابيب العقل الغربي أو نصف الغربي في حالة الجيلين الثاني والثالث من أبناء المسلمين في المجتمعات الغربية فكرة الأسطورية.

أما التطور النوعي الأخطر في فكر التنظيم فهو الميل إلى العنف الحاقد بكل الطرق، وهو ما جاء على لسان «أبو محمد العدناني» عندما أعلن استهداف تنظيمه لمواطني 50 دولة انضوت في تحالف الائتلاف الدولي الذي أعلنت عنه وقادته واشنطن لضرب التنظيم.

فقال داعيًا إلى اعتماد كل وسيلة للقتل في حال عدم توافر أدوات القتل

العسكرية: إن عجزت عن العبوة أو الرصاص، فارضخ رأسه بحجر، أو انحره بسكين أو ادهسه بسيارتك، أو ارمه من شاهق، أو اكتم أنفاسه أو دس له السم، وإن عجزت فاحرق منزله أو سيارته أو تجارته أو زراعته.

ولم ينس طبعًا أن يخص مصر بمطالبة متطرفيه بتنفيذ عمليات ضد جنود مصر، وتفخيخ طرقهم، ومهاجمة مقراتهم وقطع رءوسهم.. وهي دعوة فيها إشاعة فوضى.

أما كيفية التخلص من «داعش» بغير قصف مواقعها، والمفترض دعم العناصر المحليـة فـي العـراق وسـوريا مثـل الجـيش الحـر لتـأكل النـيران بعضـها فـي موضعها، ويبقى رماد الأمم المنساقة وراء وهم الخلافة، فتذروه الرياح.. على أن تنتبه مصر والسعودية إلى القادمين من اليمن برًّا وبحرًا، فبعضهم يستطيع قطع مفاوز السعودية إليها، ثم العودة من اليمن، والقادمين من تركيا والأردن، وكثـير منهم سيأتي إلى مصر عبر الحدود مع السودان أو ليبيا.. فالأمر جد خطير، والشعوب عادة مغلوبة على عقلها وأمرها، ومجبرة بحكم الخوف على الاستكانة، ثم التأييد.

***



مع حلاتكنا أحد القادة العسكريين لتنظيم «القاعدة في بلاد المغرب الإسلامي»

الإرهاب أزمة هوية

يُعَبِّرُ الإرهاب من خلال هذه الجماعات المدعومة من الغرب النافذ فيها عن أزمة هوية حقيقية وقع فيها العالم المسلم، نتيجة حقب استعمارية واضحة المعالم، عملت على تغيير هويته الدينية والتعليمية، فهذه أزواد وشمال نيجيريا موطن بوكو حرام.

وبين حقب كان الاستعمار فيها - إن جاز التعبير - محليًا - كما يتمثل في العالم العربي من خلال حكام محليين شكّلوا بذواتهم المستعارة والمُسيّرة من خلال مراكز التحكم في أمريكا والغرب حقبًا استعمارية وطنية.

تلك الأزمة نراها واضحة في استيراد الفكر والهوية والبطل من خلال اتخاذ كثير جدًا من عناصر التنظيمات التكفيرية لقب «الأفغاني» والشيشاني وارتداء الزي القندهاري الذي دأب منتسبو الجماعات على ارتدائه، وقد صادفتُهُ في «درنة» شرق ليبيا أول مرة عند اشتعال أحداث 17 فبراير، ثم شاهدتُهُ فيها وبصورة أكثر عددًا في زيارتي لها عامي 2012، و2014، وشاهدتُهُ في مواقع القتال في إجدابيا والبريقة، ثم في بنغازي 2014، وأيضًا في تمبكتو، وجاوا، وفي موريتانيا، ونواكشوط والنعمة، وكيفا، وباسكنو.. وفي السودان، واليمن، وسوريا والعراق وفي مصر منذ أكثر من عشرين عامًا.. وهو ما يعبر عن أزمة هوية حقيقية تؤكد رفضهم لمجتمعاتهم ورغبتهم الدفينة في الانسلاخ منها نموذج الشاب المصري الذي ما إن لاقاني في تمبكتو حتى سبَّ مصر والمجتمع المصري.

وفي هذا الانتحال صورة من نظرية التوسع الدلالي في كل البلاد العربية والمواقع وهو يبرهن على الخواء الفكري المجتمعي، والاحتياج النفسي لإنتاج أو إعادة إنتاج البطل الذي عجز المجتمع العربي في عصريه الحديث والمعاصر عن إفرازه،وتصويره كما في عنترة بن شداد وسيف بن ذي يزن والزير سالم وحتى أبطال السيرة الهلالية، فراحوا يستلهمون النموذج الأفغاني الذي تجلى

في إطالة مدة الحرب الروسية على الأفغان، وما زعم عن صمود هؤلاء الأفغان، رغم أنه صمود وهمي، فالأفغان في الحقيقة لم ينتصروا على الروس، لأن العالم كله كان يدعمهم، بل يحارب معهم، فضلًا عن سوس التفكك الذي كان ينخر في جسد «الاتحاد السوفييتي» ولكن الانسحاب السريع في آخر مدة الاحتلال الروسي أنتج هذه الأسطورة التي استهوت السذج من أبرياء الشباب المسلم[300]، في ظل سيادة ثقافة مرتبكة أنتجتها أزمة النكسة عام 1967م، ونتائج قرارات حكومات يوليو، فأفرزت أجيالًا تحمل في ذاتيتها الدونية والشعور بالإهانة والاستهانة مع متلازمات الفن الذي ساد المجتمع بعدها من عدوية وكتكوت الأمير.. وصولًا إلى شعبولا، وأحا الشبشب ضاع.

والسينما: فرافيرو وشنبو، وأفلام عادل إمام ونادية الجندي.. وصولًا إلى السبكي الجزار ومحمد سعد نموذج التخلف في سينما العاهات والبلادة.

ومع الجيل الحالي من الإرهابيين، تتخذ السذاجة متلازمة مع عقدة نفسية لكل تكفيري شكل العقيدة الواضحة التعقيد، شديدة الانحياز إلى نمط فكري واحد، لم يغادر حدودًا جغرافية ضيقة في الجزيرة العربية، ولا حدودَ زمنية أكثر غرابة وبعدًا عن عالمنا الحالي.

وقد عجز ما يُسمَّى «التيار السلفي الجهادي» في مجمله حتى من لم يكفِّر مجتمعه أو يحمل سلاحًا فيه عن تقديم رؤية متكاملة لدولة دينية، تخيلوا فقط أنهم سيقيمونها، فقط عاشوا في الوهم الساذج تصورًا أو تمنيًا فقط - الدولة - على الطريقة التي صورتها لهم الكتب القديمة بما حوت من انتصارات لدولة الخلافة مع تكرار نطق الكلمات شديدة الزهو التي ساهمت في صياغة عقل الأمة مثل الله مولانا ولا مولى لكم وانتصار المعتصم لسيدة النداء «وامعتصماه»، وبلاغة السب عند الرشيد - أو في الحقيقة وقاحته في رسالته إلى «كلب الروم» وتغييبهم باتساع حدود الدولة الإسلامية دون النظر في كيفية إنشائها وإقامتها - بعيدًا عن السيف والجزية - وإدارتها، لم يدركوا اختلاف معطيات العصور، ولا انحطاط العرب وسذاجة التصورات لديهم

ولكنهم - السذج - دأبوا على العمل في نموذج ماضوي تاريخي داخل إطار حديث دون التركيز على الجوهر.

لم يدركوا أن أفكارهم لم تخرج إلا من رحم إخفاقات النماذج التي تخبط فيها القوم ما بين اشتراكية - غير حقيقية - أيضًا مزورة ومدجنة بالفساد - وقومية لم تهتم إلا بالسباب والصراخ، ومن خلال تجارب لحكومات غائبة الوعي، عبرت في قراراتها وسلوك إدارتها عن التخلف مما أدى إلى التراجع والانهيار العلمي والقيمي والاقتصادي والديني، بالتزامن مع حدثين هما الأهم في محركات أزمة الهوية تلك، وكانا سببين رئيسيين فيها: أولهما نجاح الثورة الإسلامية في إيران عام 1979 مردفة ببروز حركة جهيمان العتيبي، ومقتل السادات في مصر 1981 وإعلان جماعات متطرفة عن نفسها في عدة حوادث عنف، وأحداث حماة في سوريا1982، الثاني هو غزو السوفييت لأفغانستان وإتاحة الفرصة للأمريكان لتجنيد العرب بدافع الدين لحرب السوفييت.

ورغم وجود البذور الأولى للقاعدة في بيشاور وأفغانستان، بُعيد الوجود العربي - السعودي - الكويتي - الإخواني - وظهور أو بلورة الفكر التنظيمي المعتمد على العنف الذي حظي بشرعية مقاومة الاحتلال.. وقتها - بداية من 1988 فإنها ظلت منذ الظهور الأول، حتى نهاية الثمانينيات تتخمر وتتفاعل بوفود كل التكفيريين من الأصقاع الإسلامية ممن أفرزهم المجتمع البائس وخرجوا من عباءة المنظومة الإخوانية لتتبلور كجسم جديد ينفصل عن رحم الأم «الإخوان»، وبمعطيات تلك السنوات وبطء الحركة زادت الفترة لعقد كامل، أو أكثر حتى بدت تتضح معالمها بالمال السعودي والخليجي وبشخصيات هذه المجتمعات، مع تفشي وتجذر تأثير راديكالية عناصر الإخوان مثل عبد الله عزام[301] والظواهري وغيرهما.. وانتشار الأفراد التكفيريين من مصر والجزائر والسعودية والشام في كتائب أو فصائل عربية مقاتلة لتصبح بهذا الدعم المالي والسياسي «السعودي الكويتي» أكثر تنظيمًا وظهورًا، خصوصًا بعد بروز المقاتلين العرب في عدة مواقع، ثم أصدر التنظيم فتوى تبيح قتل الأمريكيين

واليهود في أي مكان في العالم معلنًا في مدينة «بيشاور» الباكستانية تأسيس «الجبهة العالمية الإسلامية لقتال اليهود والصليبيين»[302]، وكانت هذه هي النواة لبروز التيار السلفي التكفيري الذي قام على مساهمات تاريخية بُنيت على مرتكز الخضوع لنصوص سواء من الكتاب أو السنة مع اقتطاعات محددة، والتمسك بفهم ضيق وتأويل حاد ورفض التأويل في تفسير عدم جواز تكفير أهل القبلة وتكفيرهم بذنب ضمن التصور الذي نظَّروه لفقه الأقدمين مثل ابن تيمية «1261ـ 1328م» لإحياء عقيدة السلف الصالح، وهنا وقعوا في فخ التفسير الضيق للعقيدة ولفقه السلف الصالح مستندًا على الأثر الماضوي المضيء مع اعتماد أفكار محمد بن عبد الوهاب المتشددة التي رسخت بسعيها لإعادة إنتاج أفكار ابن حنبل وابن تيمية بشكل أكثر تشددًا باتخاذ نصوص مجتزأة، دون النظر لكل جوانب الصورة أو مقدمات النص ونتائجه، مع ما يواجهه العرب - والمسلمون عامة - من حالة شك في ذاتهم وشعور بانعدام الثقة نتيجة احتقانات سببتها إخفاقات متتالية، آخرها غزو العراق للكويت، ثم تدمير العراق واحتلاله وإعدام رئيسه صبح عيد المسلمين مع توسع دائرة الشك فيهم بعد 11 سبتمبر ومحاولات إشغال المنطقة بحروب سواء داخلية أو أممية.

وبالنظر إلى متواليات الأحداث نستطيع القول باطمئنان إن كل حرب حقيرة يسبقها إعلام مضلل تكون بؤرة الاهتمام فيه بعملاء مصنوعين غير قادرين على إدراك هدف التوجيه نتيجة الجهل الذي يوطن في عقولهم قناعات ساذجة عجيبة نظرية العدو القريب والتي تحدث بها كثيرون ومنهم أبو الغيث الموريتاني[303] الذي عبر عن فكر «القاعدة» حين أكد أن «الخلاص من المرتدين - هنا - أوجب حتى يفسح الطريق إلى كتائب المجاهدين للقضاء على أمريكا وإسرائيل».

ولعل جمود وسطحية الخطاب الديني في عالمنا العربي - أثناء تخمُّر هذا الفكر التكفيري - الذي ظهر في ضعف أداء الخطباء في المساجد وتواضع خطبهم، بل

أخطائهم البشعة في اللغة العربية، دفعت جماهير المصلين إلى الالتفاف حول نماذج بارعة الخطابة، تمثيلية الأداء، تخرج بهم من ضيق وملل التكرار لمحاور «خطبة الجمعة» في المساجد التي تحكي لهم عن نماذج لشخصيات أسطورية «أو هكذا حولوها»، سواء من الصحابة أو الأولياء أصحاب الكرامات، وقدامى الفقهاء وحكاياتهم القديمة التي غالبًا ما تختلف تفاصيلها الحياتية وظروفها عما يحياه الفرد المسلم في عالمنا الآن، فيستمع إليها كحكايات مسلية، ولتكرارها فقد بات النوم أثناء الخطبة - وإن كان نوم المتمكن - أو في أفضل الأحوال الانصراف الذهني إلى ما يشغل ويهم هذا المسلم من أمورخاصة أشبع الناس، فتشبعوا من هذه الحكايات، فأصبحت خُطب الجمعة فرصة للإغفاء حتى ينادي الخطيب «قوموا إلى صلاتكم»، معلنًا نهاية الخطبة، ولذلك وُجِدت نماذج جديدة فذة الأداء بارعة الإلقاء - مثل الشيخ عبد الحميد كشك - فرصتها الكاملة - مع هامش الديمقراطية الذي أتاحه عهد السادات بعد منتصف السبعينيات أن يصول ويجول بطريقة بارعة، وأداء تمثيلي متقن يستهويهم جميعًا، خصوصًا أنه كان يناقش ما يعرفون أو يلمسون، ويعرض بسخريته بأشخاص حقيقيين يرونهم رأي العين ويسمعونهم وتمثل رموزًا في المجتمع، تلك السخرية كانت تعوض ضعفهم وإحساسهم بالدونية أمام تلك الشخصيات، سواء كانوا كُتابًا أو فنانين أو زعماء سياسة وقادة دول، مثل السادات والقذافي وأم كلثوم والأبنودي وفايزة أحمد.. فصار يهزأ في كلماته من الخطب السياسية والأغاني ويعلق عليها ساخرًا متهكمًا عليهم.

وبها باتت خطبة الجمعة وكأنها جلسات على مقهى السخرية، لولا أنه كان يذكر الله بين فينة وأخرى، ويضمن هذا الاستهزاء الساخر بذكاء بعض الآيات والأحاديث لتحفظ السياق «المسجدي الجمعوي»، فكثرت وفود الناس عليه، وتداولت الأشرطة التي كان يسجلها بعض المصلين على «مسجلات» حملوها معهم لذلك، ونشط البعض في نسخها وتسويقها بجوار أشرطة القراء مثل: عبد الباسط، ورفعت، والمنشاوي، فصارت تجارة امتدت من بغداد وحلب إلى مراكش والخرطوم.

وأصبح مسجد «عين الحياة» بحدائق القبة بالقاهرة الذي يخطب به كشك يغلق أبوابه كل يوم جمعة بعد الثامنة صباحًا لامتلائه عن آخره بالمتسابقين لحجز مكان لسماع الخطبة وتسجيلها.

هذا النموذج شجع آخرين وجدوا في الأداء التمثيلي في الخطبة مجالًا للشهرة والثراء، خصوصًا بعد وفاته - رحمه الله.

ومع تنامي الفساد، وتراجع الدول عن ممارسة دورها التربوي والتعليمي والتثقيفي في مراكز الشباب وقصور وبيوت الثقافة.. وغيرها من الهيئات الحكومية المعنية بإنتاج الفكر بمختلف مسمياتها في كل دولة، بل وقصورها عن ممارسة ولو قدرٍ بسيطٍ من هذا الدور، وانتشار العشوائيات، وتراجع القيم لسيادة الفن الهابط، ظهر كشكيون جدد من نوعية «حسان، ويعقوب، والحويني.. وغيرهم» ممن انتشروا بين الناس، والدولة - مثلًا في مصر - في سبات عميق، ولا يقتصر هذا على مصر، فبرز في كل دولة كشكها الجديد ويعقوبها وحسانها.. وهلمَّ جرا، وكلهم يغرفون من أموال الخليج، ويتبنون المشروع الوهابي التكفيري.

ولذلك فإن على الدولة ومؤسساتها الدينية ومنابرها الإعلامية مسئولية تحديد مصير شعوبهم خلال مائة عام قادمة.. بصناعة نخبة جديدة من الفقهاء والخطباء والأئمة كنموذج مطور من الشيخ الشعراوي المعتدل الوسطي، وإفساح المجال والفرص لهم في الإعلام بجميع منافذه، وإزاحة النخبة الإعلامية الحالية، لما عليها من علامات وشبهات، فساد وضحالة فكر، وتواضع قدرات في توصيل المعلومة، حتى ولو كانت الرغبة هي مساعدة الدولة، فإن طريقة أغلب هؤلاء بما يظهر في كلماتهم من تشفٍّ، وشماتة واستهزاء بالآخرين وجهل، لتدفع الناس لكراهية دولتهم ونظامها.

فضلًا عن أنهم تشوبهم وتشوب تاريخ أغلبهم شبهات.. وبالتالي فإن الخطابين الديني والإعلامي الجديدين للدول العربية يجب أن يتغيرا ويعتمدا على وجوه

جديدة نظيفة تمتلك المعرفة الحقيقية، والقدرة الفقهية على معالجة نوازل المسلمين في عصرهم هذا، مع حرفية الأداء - بشكل مهني محترم - لأن القارئ والمشاهد العربي خصوصًا بعد هذه الهبات الثورية أصبح يمتلك وعيًا وقدرة على الالتقاط والفرز.

وبما أن الحال كذلك، فقد أصبحت المواجهة الحتمية مع هذا التمدد الانتشاري، والانشطاري للفكر التكفيري ضرورة ملحة، بتمكين منهج إصلاحي أمني توعوي، بمعنى حدة المواجهات الأمنية، وجدية الضرب بيد حديدية في قلب ورأس هذه الجماعات، وتصفية أطرافها، على أن يستبعد من الخلايا الأمنية الموجهة للمواجهة أمناء الشرطة ومن يماثلهم في البلدان العربية؛ لما عُرف عنهم من فساد ذممي يتيح للإرهابيين شراء ذممهم بالمال، مقابل تسريب معلومة، أو تسريب العنصر نفسه وتهريبه، أو على الأقل إفساد أدلة التورط، فترتبك الدعوى ضده، وكذلك بعض الضباط الفاسدين[304] هذا مع مراعاة عدم التلفيق الذي يحدث من قبل عناصر الشرطة سواء من الضباط أو الأمناء ممن لا خلاق لهم.

ولهذا.. فالتشديد على نظافة سلوك وحسن سمعة هذه الخلايا الأمنية أفرادًا وأمناء وضباطًا، جزء أساسي من الحل، يتبع هذا الأداء الأمني ضبط تشريعي يتشدد في الأحكام على أمثال هؤلاء، تُستمد نصوص عقوباته من الشرع الإسلامي والسيرة النبوية وأحكام دولة الخلافة الأولى دون انتهاكات أو تجنٍّ.

وهذا الإطار الأمني القضائي الضيق يكون ضمن إطار إصلاحي اقتصادي يعمل على توزيع البنية الخدمية والاستثمارية على كل مناطق البلاد، دون استئثار العواصم والمدن الكبرى في دول المعاناة مثل مصر بخدمات، أو ما يجب أن يوجه من خدمات لباقي المناطق، فعلاقة البنية الأساسية والخدمات الطبيعية والعدالة الاجتماعية بالإرهاب علاقة عكسية وثيقة؛ فإفراز البيئات العشوائية - في مصر مثلًا - كمنشية ناصر والدويقة وعزبة الهجانة وإمبابة للإرهاب لا يحتاج إلى إشارة، فالطبال «جابر» الذي سيطر على إمبابة، وصنع فيها

جمهوريته القابضة على الزمام، والمُلزِمة لدفع الإتاوات، لم تكن لتحدث مثلًا في الزمالك أو المهندسين.. وبالتالي فإن البيئات الحاضنة للإرهاب في مناطق الفقر والتهميش أكثر تفريخًا عدديًا لعناصره، حتى في الريف، فإذا قارنًا ريف المحلة الكبرى أو مدن وسط الدلتا بما ينعم به من فرص تعليم وبنية أساسية - حتى في الحدود الدُنيا - مع ريف محافظة الفيوم أو المنيا فسندرك لماذا كانت الأخيرتان أكثر تطرفًا، وأكثر تصويتًا في انتخابات الرئاسة 2012 مثلًا لمرشح الإخوان «محمد مرسي»، وينطبق ذلك على ليبيا التي انفجرت فيها التكوينات الهشة في أغلب مناطقها طافحة بالإرهاب، وبأكثر خصوصية لماذا كانت المناطق الفقيرة أكثر الحواضن والتفريخ لهذه العناصر؟ وهو أيضًا في الجزائر في مناطقه الجنوبية، وفي تونس في جبل الشعانبي، وفي مالي في منطقة أزواد، وفي موريتانيا كلها.

أما البعد الآخر، أو الوجه الثاني الملازم للعنصر الإصلاحي فهو التعليم والتوعية من خلاله، ومن خلال هيئات الاتصال والخدمات الجماهيرية، مثل وزارتي الثقافة والشباب.. والتعليم هو الأهم بمناهج حقيقية دون تزييف تعمل على خلق روح النقد والتفكير، حتى لا يستسلم النشء لفكر التكفير.

ولأن القوى الحاكمة والمهيمنة في كل الحقب هي المسئولة عن هذا الانفلات الديني بسبب اختلال النُظم والأُطُر المعرفية والتعليمية، وما يترتب عليها من انسداد وخلل للعقل الجمعي، وهو ما دأبت عليه الأنظمة العربية التي دفعت بها الإدارات الغربية «الولايات المتحدة وأوروبا» لموقع القرار عبر الآلة العسكرية، بداية من حركة الضباط «الأحرار» في يوليو 1952 إلى حركة الضباط «الأحرار الوحدويون» في ليبيا سبتمبر1969، وما بينهما، وما تلا الأخيرة.

ولا أدل على انهيار العقل النقدي النخبوي في عالمنا العربي وتسطيح التعليم من إفراز أجيال هشة التفكير قادها الفقر والفساد إلى التكفير.

وعلى هذا فإن الإصلاح الاقتصادي من أهم الأولويات في مواجهة هذا

التطرف، ولن يتأتى هذا الإصلاح، ولن تستطيعه دولة مثل مصر - مثلًا - إذا لم تجد تعاونًا من دول الخليج الغنية، وهذا لن يكون تسولًا من الفقير، ولا منةً من الغني، ولكنه خطوة من هذا الغني لحماية نفسه، فحالة مصر تحديدًا أنها يخرج منها ما هو مدمر إن كان شرًّا، ولعلنا بمسح بسيط لقيادات هذا الفكر التكفيري سنجد أكثرهم خرج من المناطق المهمشة والفقيرة في مصر - باستثناء حالة خاصة مثل «أيمن الظواهري» وبعض أفراد قلائل.

هذا ولا نختص مصر وحدها، ولكن فقراء المسلمين في مالي وموريتانيا والسودان واليمن والصومال، وغيرها من بؤر الإرهاب.

وهذا التكامل الاقتصادي لا بد أن يكون محورًا من ثلاثة محاور، والآخران هما الأمن والتعليم، فضلًا عن الإعلام الذي تنكبه إما جاهل أو حاقد أو فقير.

* * *

معلومات عن الكاتب



الصحفي .. أيمن السيسي

نائب رئيس قسم التحقيقات بالأهرام

* المؤهلات العلمية:

ليسانس آداب – قسم تاريخ جامعة بيروت العربية.
حاصل على الماجستير في رسالة بعنوان: «الفكر الديني لسلطان سكوتو» من جامعة القاهرة.

يستعد لمناقشة رسالة الدكتوراه المعنونة «نوازل الصحراء بين العُرف والشرع».

تخصص صحفيًّا في التحقيق الاستقصائي، وحاصل على عدة جوائز منها جائزة دبي كأحسن صحفي استقصائي عن حلقات نُشرت بالأهرام تحت عنوان: «الأهرام يخترق أوكار القراصنة» على ثلاث حلقات بداية من يوليو 2010.

نُشرت له عدة تحقيقات صحفية حول تنظيم القاعدة والجماعات التكفيرية الإرهابية في ليبيا وسوريا ومصر والصومال.. ومنها سلسلة تحقيقات تحت عنوان: «الأهرام في أرض الخوف»، خمس حلقات بداية من يناير 2013.

كتب عدة تحقيقات عن محاربة الفساد الذي استشرى في الحياة المصرية منها:

خطيئة الخصخصة.

ساهمت بعض تحقيقاته في استعادة الدولة لعدد من شركات القطاع العام التي تم بيعها بالغش والتدليس، واشتهر بتحقيقاته حول فساد الأغذية في مصر وأشهرها اللحوم الفاسدة واللبن المجنس.

يقوم بتدريب زملاء من الصحفيين على عمل التحقيقات الاستقصائية في المغرب وموريتانيا وليبيا ومصر.

صدرت له الكتب الآتية:

سلسلة إصدارات خاصة.

كتب تحت الطبع:



حاشية

[1] (1) إدلب محافظة سورية عاصمتها مدينة إدلب.

[2] (2) لي كتاب عنوانه: «29 يومًا في الصومال». صدر عن الهيئة المصرية العامة للكتاب.

[3] (3) جمعت حصيلة الرحلة في كتاب «ثورة 17 فبراير والوجه السري للقذافي». صدر عن الهيئة المصرية العامة للكتاب.

[4] (4) أروان: واحة تقع 250كم شمال «تمبكتو» على طريق القوافل إلى «توات» و«غدامس»، وكان عمارها إثر خراب مدينة السوق «تدمكت» أو «تادمكة» التي كان أول من أسسها قبيلة «إمقشرن» الصنهاجية.

[5] (5) حوض «تاوْدنِّي» 700كم شمال «تمبكتو» هو النقطة الأخفض عن سطح البحر في الكرة الأرضية، وهي صحراء قاحلة لا شجر فيها ولا نبات، درجة الحرارة فيها أغلب أيام السنة 50 درجة صيفًا نهارًا ومن 40 إلى 45 ليلًا، وما بين 20 إلى 30درجة في الشتاء نهارًا وما بين صفر إلى 10 درجات ليلًا، وعند سبخة تاودني تجد «حاسي صالح» أو بئر صالح، مالح المياه وعمقه 50 مترًا ويعد في هذه الصحراء القاحلة هدية السماء، يشربه الناس ولكن بعد خلطه بمواد تقلل درجة ملوحته مثل «نجمخت» المكون من دقيق ثمر شجر الدوم أو دقيق ذرة أو لبن رائب.

[6] (6) أسكيا محمد توري «899هـ/1493م .935هـ/1528م» لم يكن من الأسرة المالكة بل كان أحد قادة جيش «سُني علي». استولى على الحكم بعد رفض «سون بارو» ابن «سُني علي» اعتناق الإسلام، وقيل ارتد عنه بعد اختفاء «سُني علي» في ظروف غامضة عام1492، وتولى محمد توري الحكم انتزاعًا عام 1493، وكانت رحلته للحج «902هـ/1497.1496م» وفي عام 1528 قام أبناؤه بإبعاده عن الحكم.

[7] (7) د. ماهر عطية شعبان جامعة سنكري في تمبكتو ودورها الحضاري والثقافي في القرن السادس عشر 1491/1590. مجلة الدراسات الإفريقية - العدد 24(2002) - ص 37.

[8] (8) المصدر السابق ص 39 .

[9] (9) إبراهيم طرخان: إمبراطورية البرنو الإسلامية - القاهرة 1975 ص 168.

[10] (10) مالي بؤرة مفتوحة على كل الاحتمالات - د.عبد الله ولد سليمان شيخ سيديا - د. محمد سالم ولد الصوفي - الكويت ط أولى ص 8 .

[11] (11) الريال كلمة إسبانية مشتقة من كلمة «رويال» العربية التي تعني بالإسبانية «ملكي»، وكان أول ﷺ ضرب عام 1751، وكان يتداول في غرب إفريقيا وفي مصر كان يسمى الريال«أبو مدفع»، وفي عهد محمد علي كانت قيمته في مصر بين 19 - 34 قرشًا وكان يستخدم في نطاق واسع في غرب إفريقيا خصوصًا في تمبكتو وجاوا وبلاد الهوسا والبرنو «الوثنية والإسلام - ك مادهو بانيكار».

[12] (12) منسا موسى «707هـ/1307م .732هـ/1323م» وكان أشهر ملوك مالي على الإطلاق حيث بلغت في عهده قمة مجدها وهو أول من ضم «تمبكتو» إلى مملكة مالي وضم بعدها «ولاتة» ثم «جاوا» و«أروان» و«تادمكت» كانت رحلته للحج «724هـ/1324م).

[13] (13) ولاتة: إحدى أهم مدن الفقه والثقافة العربية فيما بين القرنين السادس عشر والثامن عشر وتقع حاليًا في منطقة الحوض الشرقي بموريتانيا تقع في الطرف الجنوبي من طريق القوافل على مسافة 10 أيام من تغازة وتمر الرحلة بها في أكثر مناطق الصحراء قسوة وجفافًا. فالحر فيها قائظ ولا يوجد بها سوى القليل من النخيل، وسكانها كانوا يزرعون القثاء ويقطنها المسوفة الذين يرتدون ملابس مستوردة من مصر - ابن بطوطة - ونساء ولاتة ذوات

جمال فائق وبها جوار حسان بيض الألوان منثنيات القدود لا تنكسر لهن نهود لطاف الحضور ضخام الأرداف واسعات الأكتاف.

[14] (14) ابن بطوطة: أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن محمد اللواتي الطنجي، ولد 24 فبراير 1304م/ 703هـ، ومات 1377م/779هـ. «تحفة الأنظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار» - دار الكتب العلمية - بيروت 1993.

[15] (15) الودع: كان إحدى عملات النقد في بلدان الغرب الإفريقي وإلى الآن يستخدم في بعض القرى الغرب إفريقية منها قرية «معط مولانا» 250 كم جنوب شرق موريتانيا، والودع موطنه الأول جزر المالديف، انتقل منها إلى الهند، وحمله التجار العرب إلى مصر ومنها انتقل إلى بلدان غرب إفريقيا خلال رحلات التجارة، وإن كان على نطاق ضيق، ولكن بعد التغلغل الأوروبي في المحيط الهندي انتقلت كميات هائلة منه على يد التجار الأوروبيين إلى موانئ غرب إفريقيا، ثم أخذ يتغلغل إلى الداخل، ويذكر محمود كعت في «تاريخ الفتاش» أن قيمته انخفضت بعد الغزو المراكشي «حملة المنصور الذهبي» إلى 3 آلاف ودعة لمثقال الذهب الواحد، في حين أن سعره قبل مائتي عام - كما ذكر الحسن الوزان «ليو الإفريقي» في «وصف إفريقيا» - كان 400 ودعة مقابل مثقال الذهب «وزن 4.238 جرام» وعند زيارة الرحّالة «بارث» في منتصف القرن التاسع عشر تدنى سعرها إلى 4 آلاف ودعة للمثقال، أما سعر الجنيه الإسترليني فكان 12 ألف ودعة.

[16] (16) العمري: ابن فضل الله العمري شهاب الدين أبي العباس أحمد بن يحيى «ت 749/1349» مسالك الأبصار في ممالك الأمصار.الجزء الرابع والعشرون ص 123. مركز زايد للتراث والتاريخ - الإمارات العربية 2001م.

[17] (17) السعدي: عبد الرحمن بن عبد الله بن عمران بن عامر «تاريخ السودان».

[18] (18) الساحلي: عبد الله الكومي الموحدي، الشاعر والمهندس «الغرناطي»

كان أحد علماء مدينة «غدامس» في ليبيا، درس علم الهندسة وبرع فيه .

[19] (19) ك. مادهو بانيكار: «الوثنية والإسلام وتاريخ الإمبراطورية الزنجية في غرب إفريقيا» ترجمة وتعليق د. أحمد فؤاد بلبع. المجلس الأعلى للثقافة - المشروع القومي للترجمة - القاهرة 1958م.

[20] (20) أحمد بابا: أبو العباس أحمد بابا بن أحمد بن أحمد بن عمر بن محمد أقيت بن على يحيى التكروري الصنهاجي، ينتسب والقاضي عمر إلى أسرة من العلماء، ولد بقرية«أروان» في نوفمبر 1553م، وقيل في أكتوبر1556م، يعتبر من كبار فقهاء المالكية، بعد عامين من حبسه في مراكش أطلق سراحه على ألا يغادرها، وبعد تولي السلطان «مولاي زيدان» 1605م أذن له بالعودة وتوفي عام 1627م - أهم أعماله الأربعين: نيل الابتهاج، وشرح خليل .

[21] (21) أبو بكر الأنصاري «الحدث الأزوادي - جريدة إلكترونية».

[22] (22) د.سيد فليفل «أزواد في العلاقات العربية الإفريقية» الكتاب التذكاري للاحتفال بالدكتور ماهر عطية شعبان، يوليو 2014م - ص 13.

[23] (23) يمثل إقليم أزواد ثلثي حدود دولة مالي ومساحته 845 ألف كم.

[24] (24) ما زال علي بلحاج يفتي بالإرهاب ويبرر الدم؛ ففي لقاء له مع قناة «مغاربية» المتطرفة يوم 24/6/2013 - برر الدم الذي فجره «الإسلاميون» بحجة اغتصاب النظام للإرادة الشعبية.

[25] (25) حبيب سويدية - الحرب القذرة - شهادة ضابط سابق في القوات الخاصة بالجيش الجزائري 1992 - 2000 - ترجمة روز مخلوف ورد للطباعة والنشر . سوريا. دمشق. الطبعة الأولى 2003م.

[26] (26) د.سيد فليفل مصدر سابق ص 8 .

[27] (27) مالي بؤرة توتر مفتوحة على كل الاحتمالات - د.عبد الله ولد سليمان

الشيخ سيديا - د.محمد سالم ولد الصوفي ص 37.

[28] (28) «مالي بؤرة توتر مفتوحة على كل الاحتمالات» - د.عبد الله ولد سليمان الشيخ سيديا - د.محمد سالم ولد الصوفي ص 37.

[29] (29) الشاي الصحراوي الأخضر المركز، كان أغلب الموريتانيين لا يعرفون غيره من أنواع الشاي قبل عشر سنوات.

[30] (30) الشيخ سيديا الكبير هو الشيخ سيديا بن المختار بن الهيبة الأبييري من أعلام الفقه والعلم فى غرب إفريقيا. ولد عام 1776 فى «بوتلميت - موريتانيا» وتوفي عام 1868 وما زالت أسرته من أهم أسر العلم والفقه والسيادة في موريتانيا ومنها القاضي الموريتاني الشاب محمد ولد أحمد شيخ سيديا.. للاستزادة: الشيخ سيديا - الموروث الثقافي والأدبي - 1190 - 1284هـ، «1776 - 1868م»، أعمال ندوة بوتلميت، إبراهيم بن إسماعيل بن الشيخ سيديا، جمعة أحمد ولد هارون، دار الكتب العلمية، بيروت، 2011..

[31] (31) الشاوي للإله البكاي أماهين أحد أمراء الطوارق نهاية القرن الماضي - الطوارق عبر العصور. دراسة وتحقيق صلاح محمد البخاري حمودة .

[32] (32) استولى الأمريكان على المجوهرات ونقلوها إلى متاحف بلادهم، وكذلك فعل الفرنسيون فى الهيكل العظمي.

[33] (33) وإن كانت الميثولوجيا الإغريقية تذهب إلى أن أثينا ابنة زيوس إله الحرب والسماء وأبي الآلهة الأوليمبية رغم أن أثينا أقدم من زيوس.

[34] (34) سورة الصافات الآية 125.

[35] (35) ما زالت هذه الطريقة التي صادفتها طوال رحلتي وكذلك رحلاتي فى الصحراء الليبية حيث يمسك أحدهم بعظام الكتف العريضة ويحاولون قراءة تشكيلات الخطوط فيها، وإن حدث على سبيل المزاح فإنه متوارث من

عادات الطوارق فى الصحراء.

[36] (36) سورة آل عمران - الآية 145.

[37] (37) طريق الأمل هو مسمى الطريق الرابط بين نواكشوط العاصمة ومدينة النعمة فى الحوض الشرقي، والذي لا تجد أكثره مرصوفًا ، ولذلك رأيت الطريق واسمه من المتناقضات، ولكن تلك رؤية الغريب الذي اعتاد الطرقات المرصوفة فى بلاده، ولذا أتصور أن الاسم له مدلوله عند الموريتانيين حيث كان الأسفلت تقريبًا منعدمًا قبل سنوات.

[38] (38) 380 كم غرب مدينة 6 أكتوبر في مصر.

[39] (39) رأيت مثلها عجوزًا وزوجها المسن فى منزل عبد الله ولد سيدي فى «باسكنو» كانا يعيشان فى هدوء وتحت رعايته لا يفعلان شيئًا سوى الصلاة.

[40] (40) فى مطلع القرن العاشر الهجري - السادس عشر الميلادي دخل مختصر خليل بن إسحاق «توفي 767هـ» إلى بلاد شنقيط وأصبح هذا المتن الفقهي المصري من أهم المتون الفقهية المتداولة في بلاد شنقيط «موريتانيا» الحالية وغرب حوض نهر النيجر «أزواد» وشرقه إلى بلاد الهوسا «شمال غرب نيجيريا الحالية»، ومثّل الاعتماد على مختصر خليل والتزام منظومته ومفهومه مصدرًا أوحد للأحكام الشرعية مظهرًا صارخًا لترسخ النزعة الفروعية، ومن أمثلة هذا الاعتماد تمثل فقهاء المنطقة قولة ناصر الدين اللقاني المشهورة: نحن قوم خليلون فإن ضل ضللنا. وتنسب فى مصدر آخر لأحمد بابا التمبكتي ود.حماه الله ولد السالم - حوار المركز والأطراف - بل يذهبون إلى أبعد من ذلك حين يعتبرون المختصر بمنطوقه ومفهومه ملخصًا لروح الكتاب والسنة، ويبدو أن التدرج في اعتماد هذه المتون كان وثيق الصلة بالتحولات التي عرفتها الاتصالات الفكرية بين غرب الصحراء إفريقيا وبين المشرق، وكان الفقهاء الشناقطة معجبين بطابع الثقافة المصرية ويعتبرون فقهاءها ومؤسساتها وتقاليدها المعرفية مثلهم الأعلى الذى يقيسون عليه،

وكان يحلو لفقهاء «تمبكتو» تأكيدًا على عظمة مساجدها أن يقارنوا مسجدها الأعظم «سنكري» بالجامع الأزهر فى مصر. ولذلك ليس غريبًا أن يكون هناك تشابه فى الخطوط العريضة بين نظم التعليم وأسلوبه فى مصر مع الساحل السوداني الغربي، فقد عرفت ثقافة مدن الساحل «تمبكتو وجنى وجاوا» حضورًا لأسر العلم العريقة وترسخ تقاليد الدرس الفقهي المالكي بمتونه المجلوبة عبر الرافد المصري.

[41] (42) عبد الله ولد سيدي حننا من أبناء داود وهو بيت علم قديم، ومنهم ومن أولاد الحسن بيتا العلم والعمل، وهما بيت شيخ المشايخ الحاج حسن بن آغيدي الزيدي وابنه الحاج سيد محمد بن الحاج الحسن وكانا عالمئن مشهوريْن وكانا يسكنان بقرية «تشيت» وكانت لهما رياسة العلم، سكنوا بلاد «نيت» فأدركوا فيها رفعة وقدرًا جليلًا فلما خلت بلاد «فيت» بفتنة أحمد لوبو انتقلوا إلى قرية «باسكن» باسكنو واحترمهم الفُلاّني وصاروا ملجأ جميع أولاد داود بالميرة وحفظ من أتاهم.

[42] (43) عبد الله ولد سيدي حننا - سبق التنويه عنه.

[43] (44) روزيتا فوربس - سر الصحراء الكبرى - الكفرة - ترجمة الطيب الزبير الطيب. مراجعة وتصحيح أبو بكر عمر هارون - الطبعة الأولى 2013م .طرابلس - ليبيا.ص 82.

[44] (45) إدريس السنوسي ملك ليبيا الذي قادها إلى الاستقلال والوحدة، انقلب عليه معمر القذافي عام 1969 ونفي إلى مصر التي عاش فيها حتى توفي عام 1982ودفن في البقيع بالمملكة العربية السعودية.

[45] (46) أول مدينة على الحدود المصرية تستقبل القادم من ليبيا.

[46] (47) هو جهل أعترف به وأعتذر عنه، ولكني كنت كحال الكثير من المثقفين والمتعلمين فى المشرق العربي الذي لا نعرف فيه إلا أنفسنا باستثناء

نخبة قليلة العدد من الأكاديميين والدبلوماسيين.

[47] (48) «كل السوق» وتعني أهل السوق: تقع على بعد 25 كم جنوب كيدال وكانت إحدى المدن العامرة وصل إليها عقبة بن نافع عام 61هـ وبنى بها مسجدًا.

[48] (49) أروان: واحة تقع على بعد 250 كم شمال مدينة تمبكتو، وتسمى «اينشقغنْ» بالطارقية، أما أصل كلمة أروان فهى «أهَرَانوَانْ» أي مملحة البقر، أو سبخة البقر، فكلمة «أهرا» بمعنى السبخة المملحة، وهي التي تعطى للبقر والغنم للحسها للاستشفاء بها، و«إيوان» بمعنى البقر، وكلمة «إن» بمعنى النسبة ثم طُوِّر اللفظ حتى صار «أروان» - الأوفى المختار فى تاريخ بني انفا الأنصار، د.عبد الله بن محمد بن مهدي الأنصاري، وكان أول من أسسها قبيلة «إمقشرن» وتعرف بمدينة العلماء أيضًا ومنها القاضي محمد محمود الأرواني.

[49] (50) تفتيش الوثائق عن تاريخ الطوارق وبعض الأمم والشرفاء المجاورين لهم فى المناطق - أبو بكر الصديق محمد المولود - ص 63.طبعة محدودة، الناشر يحيى إبراهيم الدسوقي.

[50] (51) تاريخ الصحراء والسودان وبلاد تنبكت وشنقيط وأروان - القاضي محمد محمود الأرواني. دراسة وتحقيق وتقديم د. الهادي المبروك الدالي - أكاديمية الفكر الجماهيري - ليبيا.

[51] (52) نثار الأخبار عن بقايا الأنصار في صحراء تمبكتو - الطبعة الأولى 1419هـ والكتاب لم يحمل اسم ناشر أو دولة وأهدانيه الصديق والزميل الصحفي عكرمة الأنصاري رئيس تحرير موقع الحدث الأزوادي.

[52] (53) الأوفى المختار فى تاريخ بني إنفا الأنصار - د.عبد الله بن محمد بن مهدي الأنصاري - دار الكتاب والسنة للنشر الدولي. الرياض - السعودية. الطبعة الأولى 1431هـ، ص 194 .

[53] (54) شرح ميارة سيدي محمد بن أحمد المالكي على تحفة الأحكام لابن عاصم ج1 .411، 413 ط1 - تحقيق عبد اللطيف حسن - بيروت - دار الكتب العلمية 1420هـ.

[54] (55) محمد محمد الشيخ الأنصاري - بعض علماء وأعيان الأنصار بصحراء تمبكتو 2011، دون ذكر بلد الطبع أو الناشر ص 208.

[55] (56) الجارة الأهرام - 9يوليو 2009 - أيمن السيسي.

[56] (57) نشرت عدة موضوعات عن الواحة وتكررت زياراتي لها ومن حسن الحظ أني احتفظت في أرشيفي بحديث الشيخ حسن خليفة، مما لم يكن مناسبًا نشره حيث نحوت فى التحقيق إلى الجانب التنموي فى الواحة ، وعندما أهداني الزميل عكرمة الأنصاري بعض الكتب عن قبيلتهم أثناء إعدادي لهذا الكتاب ربطت ما جاء بها مع موقع الجارة ومقام سيدي عبد الله، وما حكى لي شيخها عنه وعن سيدي ياجا فعدت إلى الأرشيف لربط الوقائع.

[57] (58) لي كتابان فى هذا الأمر، الأول «حكايات الصحراء». صدر عن الهيئة العامة لقصور الثقافة فى مصر ديسمبر 2014 - والثاني تحت الطبع «الخرافات والأساطير الشعبية» - حواديت من واحات الصحراء المصرية.

[58] (59) جوستاف ناختيجال - الصحراء وبلاد السودان - منشورات مركز جهاد الليبيين للدراسات التاريخية - ترجمة وتقديم عبد القادر مصطفى المحيشي - سلسلة نصوص ووثائق (35) - طرابلس .ليبيا ص 281.

[59] (60) سورة البقرة الآية 233.

[60] (61) سورة الأحقاف الآية 15.

[61] (62) الأوفى المختار في تاريخ بني إنفا الأنصار - د.عبد الله بن محمد الأنصاري.

[62] (63) تاريخ الصحراء والسودان بلد تنبكت وشنقيط وأروان - دراسة وتحقيق الهادي المبروك الدالي دار الكتب الوطنية - بنغازي - ليبيا ط أولى 2008، ص 57.

[63] (64) أسست الأميرة بلقيس في شمال مالي جمعية باسمها للسلام والتنمية ورعاية الشباب والمرأة والطفل ومن أهدافها المصالحة بين المتنازعين والمساعدة في تقديم الصحة والتعليم ومكافحة الجهل والمرض والفقر في الصحراء.

[64] (65) تفتيش الوثائق عن تأريخ الطوارق ص 2021.

[65] (66) الأوفى المختار في تاريخ بني إنفا الأنصار - د.عبد الله مهدي الأنصاري ص 312.

[66] (67) كانت وفاته 1423ه بعد أن ناهز التسعين - المصدر السابق.

[67] (69) يحيى بن إبراهيم ترجوت - من زعماء البربر - ذكر ابن الصيرفي في كتابه «الأنوار الجلية» - وهو من أهم مصادر تاريخ المرابطين - أنه لمتوني وليس جداليًا.

[68] (70) أحمدو لوبو«الطيب»: أحمد بن محمد بن سعيد باري المعروف بأحمد لوبّو «أي الطيب».ولد ببلدة «بامغاك» أقصى الشمال الأوسط «بجمهورية مالي الحالية» وقيل ولد بـ«كاياك» وربما «كيدال» عام1775م. نشأ يتيمًا وتعهده أخواله وكان يرعى لهم الماشية، تعلم القرآن وقواعد اللغة العربية والفقه.كان يميل إلى العزلة والزهد.فبدأ بوعظ أترابه ودعوتهم إلى التمسك بالإسلام والبعد عن الرذائل وأعراف الشرك.توجه إلى «جنى» مدينة العلماء وأهل اللغة والفقه آنذاك.ثم انتقل إلى «روندة» وبدأ يعظ الناس ويعلم الأطفال ثم سافر إلى «سوكوتو» وجاهد مع الشيخ عثمان بن فودي.ثم عاد إلى ماسينة وكانت عشيرته «باري» تنافس على زعامتها مع وجود سلطة شكلية «الرماة» من بقايا

السلطة المغربية. وقع أحمد في خلاف معهم فأبعد عن أرض «صنغي» فاتجه إلى «سيبيرا» وبدأ في تعليم الشباب فاحتشدوا حوله وزادت أعداد أتباعه إلى أن أجبرته الحوادث على إعلان الجهاد ضد زعيم الرماة فاحتل «جنى» وأسس دولة وبنى عاصمة لها أسماها «حمد الله» وتوسعت إلى أن شملت تمبكتو - للاستزادة «جذور الحضارة الإسلامية في الغرب الإفريقي». عثمان برايما باري - دار الأمين - القاهرة 2000م.

[69] (71) تاريخ الصحراء والسودان - محمد محمود الأرواني - دراسة د. الهادي المبروك الدالي. سلسلة التاريخ الثقافي المشترك لإفريقيا ما وراء الصحراء - أكاديمية الفكر الجماهيري - ليبيا.

[70] (72) سيدي المختار بن أحمد بن أبي بكر بن الوافي الكنتي الفهري، علم الصحراء في العلم والورع (ولد1135هـ/ 1729م)، وتوفي في 29 مايو عام 1811، عن عمر 84 عامًا، ودُفن في بولنوار بنر - أزواد - شمال مالي، وعرف بالشيخ سيد المختار الكبير، ودرس على يد علماء قبيلة «كل السوق» الطارقية في عهد انتقال مركز التثقيف الفكري نحو البوادي ومدن الساحل الصحراوية مثل ولاتة وتشيت، ويعتبر أبرز وأهم علماء غرب إفريقيا، كان شيخًا للطريقة القادرية، وهو مؤسسها الفعلي والمجدد الرئيسي لعصر تدوينها الثاني بعد شيوخها الأوائل في الشمال الإفريقي والصحراء الكبرى. امتد نفوذه الديني على جنوب الصحراء والسودان الغربي كله ، وله مصنفات جليلة زادت على المائة، إضافة لعشرات الرسائل والتقاييد في مختلف الفنون والمواضيع - «بول مارتي» ترجمة وتعليق محمد محمود بن ودادي «الكنتي»، وزير وسفير موريتاني سابق - مكتبة زيد بن ثابت - دمشق - 1985.

[71] (73) سورة النساء، الآية 78.

[72] (74) سورة الأعراف، الآية 34.

[73] (75) د. ماهر عطية شعبان - مصدر سابق - 1/67.

[74] (76) مسجد سنكري أحد أهم مساجد «تمبكتو».

[75] (77) الحسن الوزان: الحسن بن محمد الوزان الفاسي الملقب بـ«ليو الإفريقي»، ولد 1495م/901هـ، مات 1550م/957هـ، «وصف إفريقيا» - تحقيق محمد حجي - دار الغرب الإسلامي - بيروت 1403 هـ.

[76] (78) محمود كعت هو ابن الحاج المتوكل كعت الفقيه التمبكتي البارز.. ولد عام 1468م صادقه أسكيا محمد واصطحبه في رحلته للحج عام1497م..سجل تاريخ تمبكتو والطوارق ومملكة مالي في كتابه الشهير «الفتاش في معرفة أخبار الدول وأكابر الناس».

[77] (79) عبد الرحمن السعدي - تاريخ السودان.

[78] (80) الأبدال رتبة للأولياء دون رتبة الأوتاد والنجباء والأقطاب، يقول الصوفيون إن الأرض لا تخلو من القطب الكبير وأربعة أوتاد وأربعين بدلًا وسبعين نجيبًا وثلاثمائة وستين صالحًا.

[79] (81) أدركت بعد ذلك لماذا تفحصت ورقة النقد ثم أعادتها لي، السبب أن عملة الدولار تتداول هناك فى أضيق نطاق عكس عملة اليورو التي يمكن أن تشتري بها أي شيء.

[80] (82) الساحل تطلق على الشمال في العرف المحلي: البلاد الصحراوية الجنوب شرقية المتاخمة لبلاد غرب إفريقيا وهي حسب التحريف الفرنسي لكلمة «سهل» التي تشمل مجالًا يمتد من ساحل موريتانيا الأطلسي (SAHEL) غربًا حتى تشاد شرقًا، وفيه يحدث التداخل بين منطقة الأمطار الموسمية. حماه الله ولد السالم، المجتمع الأهلي الموريتاني ص 248،63.

[81] (83) كلمة «كل» تعني «أهل» باللغة الطارقية.و«كل انصر» تعني أهل الأنصار.

[82] (84) نهر النيجر أحد أنهار العالم الكبرى يمتد لأكثر من1200كم، ينبع من سلسلة جبال تمتد من بلاد «سويلما» شمالًا إلى «كونو» جنوبًا، ونحو الشرق ثم يتحول إلى الجنوب الغربي ثم يصب في المحيط الأطلنطي، وكان يطلق عليه «نيل» الزنوج، وينطلق نهر النيجر من دولة غينيا كوناكري باتجاه مالي فيقسم جزءها الجنوبي إلى نصفين حيث يمر بـ«باماكو» ثم «سيقو» أو«سيجو» ثم «موبتي» ومنها إلى «تمبكتو» ثم «جاوا»، ويتدفق إلى نيجيريا ليصب في خليج غينيا على الأطلسي.

[83] (85) تستخرج شعوب الصحراء المياه من الآبار بطريقة بدائية وهي ربط الحبال في رقاب الحيوانات سواء كانت حميرًا أو بقرًا أو جمالًا والطرف الآخر من الحبل يعلق به وعاء جلدي ينزعون به الماء من البئر فإذا امتلأ تبتعد الحيوانات عن البئر مسافة من 70:30 مترًا حتى يخرج الوعاء ممتلئًا بالماء فيصبونه في أحواض أو «براميل» بجوار البئر.

[84] (86) محمد محمود ودادي.أوراق مسافر، حلقات على الإنترنت:

http://ewrag.blogspot.com/2010/ 05/blog_post.Html

[85] (87) محمد محمود ودادي - مصدر سابق.

[86] (88) محمد محمود ودادي - مصدر سابق.. وقد شاهدت وتعاملت مع كثير منهم خصوصًا ممن استقر بهم مقام العيش في مدن: النعمة وباسكنو وفصالة في الحوض الشرقي. «المؤلف».

[87] (89) نصت الاتفاقية القنصلية بين ليبيا وموريتانيا على حق مواطني الدولتين في مزاولة كل المهن الحرة في كلا البلدين والدخول بدون تأشيرة، وتم توقيعها في 10 سبتمبر 1973 وصدر بها قانون ليبي رقم 99 لسنة 1973.

[88] (90) البيضان يطلق على مجموعتين كبيرتين من الشعوب: الأولى شعب صنهاجة الملثمون، والثانية قبائل بني حسان العربية الهلالية وهم من عرب

المعقل المنحدرين من كعب بن الحارث من قبائل مذحج اليمانية. وكان وصولهم إلى شمال إفريقيا في القرن الخامس الهجري. وفي نهاية القرن الثامن انتشروا في صحراء صنهاجة وسيطروا عليها، وإن كان مصطلح البيضان أطلقه الجغرافيون العرب منذ القرن الرابع الهجري على قبائل صنهاجة تمييزًا لها عن الشعوب السوداء جنوب الصحراء. ثم أصبح يطلق على الناطقين باللهجة الحسانية «العربية» منذ القرن الحادي عشر الهجري - السابع عشر الميلادي.

[89] (91) المعلومة من السيد خالد الثني أثناء لقاء بمنزل المناضل الشاب محسن ونيس القذافي في بنغازي إبريل 2014.

[90] (92) الساقية الحمراء إقليم من أقاليم المغرب كان يعج بالعرب النازحين.

[91] (93) يقصد بها إقليم الصحراء المغربية أو الجمهورية الصحراوية.

[92] (94) خالد المهير: الطوارق بليبيا بين حقيقة الوجود وأزمة الهوية، 10 مايو 2008.

[93] (95) وثائق مخابرات القذافي - الشرق الأوسط - الخميس 21/12/2013 ص 11.

[94] (96) سورة سبأ آية 14

[95] (97) يقصد وجود الإخوان فى موقع الحكم وتبوؤ محمد مرسي سدة الرئاسة.

[96] (98) سورة النساء آية 59

[97] (99) كان من بين عناصر أنصار الدين عناصر كثيرة من الدول العربية وهو ما رأيته. «المؤلف».

[98] (100) محمود كعت - «تاريخ الفتاش في أخبار البلدان وأكابر الناس»

مخطوطات الغرب الإفريقي.

[99] (101) أحمد بابا – أبو العباس أحمد بابا أحمد بن أحمد بن عمر بن محمد أقيت بن علي، نوفمبر 1553م، أو أكتوبر 1556م، فى مصدر آخر. ويعتبر من كبار فقهاء المالكية فى الغرب الإفريقي، وكان إعلان رفضه للاحتلال المغربي «المراكشي» «حملة المنصور الذهبي» لبلاده من أسباب التنكيل به، فقبض عليه مع أفراد أسرته وسيق مكبلًا بالحديد فى قدميه إلى مراكش. سقط أثناء الرحلة من على ظهر الجمل فكسرت ساقه. وقضى عامين فى السجن، ثم أُطلق سراحه بعدها على ألا يغادر مراكش، وبعد وفاة يحيى التكروري الصنهاجي - من العلماء وكُتّاب السير وينتسب إلى أسرة من العلماء، ولد بقرية «أروان» في أحمد المنصور الذهبي - وتولي خليفته مولاي زيدان السلطنة 1605 ميلادية أذن له بالعودة إلى تمبكتو وتوفي عام 1627. وتزيد مؤلفاته على 40 مؤلفًا أهمها: نيل الابتهاج بتطريز الديباج. وشرح مختصر خليل الذي يعد عمدة الفقه المالكي فى غرب إفريقيا حتى الآن.

[100] (102) محمود كعت - «تاريخ الفتاش فى أخبار البلدان وأكابر الناس» مخطوطات الغرب الإفريقي.

[101] (103) المغيلي: هو محمد بن عبد الكريم المغيلي ينسب إلى «مغيلة» قبيلة من قبائل البربر، كان أحد أعلام القرن التاسع عشر وقد وصل المغيلي إلى مملكة كاتسينا على رأس نخبة من العلماء في عهد الملك محمد زنفا «1463 - 1499م»، وأحضر المغيلي معه إلى «كنو» عددًا من الكتب، وكان تأثيره على الملك محمد زنفا كبيرًا مما جعله يأمر باجتثاث شجرة كانت مقدسة لديهم وبناء مئذنة مكانها ومسجد لصلاة الجمعة، وكتب المغيلي للملك كتابه المشهور «تاج الدين فيما يجب على الملوك» وينسب المغيلي إلى مغيلة وهي قبيلة من قبائل البربر - التلمساني، أحد أعلام علماء القرن التاسع الهجري. عرف بمناوأته وكراهيته لليهود وهدم كنائسهم. سافر إلى بلاد السودان الغربي ووصل إلى «كانو»و«كاتسنه» كتب لسلطان «كانو» رسالة في أصول الحكم والسياسة

الشرعية ومنها استمد الشيخ عثمان الكثير من أفكاره واستشهد بآرائه وأجوبته في كثير من مؤلفاته، ولِّي القضاء والإفتاء في «تمبكتو»، من مؤلفاته «البدر المنير في علوم التفسير» و«مصباح الأرواح في أصول الفلاح» و«شرح مختصر تلخيص المفتاح»، ألف قصيدة له أو «لردية» على وزن بردة البوصيري - توفي عام 909هـ /1504م.. للاستزادة راجع ترجمته في «البستان في ذكر علماء تلمسان» لابن مريم - المطبعة الثعالبية - الجزائر 1369 ص 253 - الإسلام في نيجيريا لـ عبد الله الألوري ص 88 - 89.

[102] (104) أسكيا محمد الذي عُرف بـ«أسكيا الحاج محمد بن أبي بكر» تولى السلطة عام 1494م وحمل لقب أسكيا هو وخلفاؤه من بعده. وأصلها أنه عندما وصلت الأخبار إلى بنات «سن علي» بأنه تولى الملك صحن «أس كيا» وتعني في لغة البمبارا ليس هو وقيل «المغتصب»، ولما شاعت هذه الكلمة قرر عدم ذكر اسمه إلا بعد كلمة أسكيا، قام بأداء فريضة الحج في رحلة شهيرة عام 497 وبرفقته ألف جندي من المشاة وخمسة آلاف من الفرسان وحمل معه ثلاثمائة مثقال ذهب وكان مؤسس دولة الصنغي وأول ملوكها الذين عُرفوا بـ«الأساكي» وحكموا حتى عام 1591 عندما أسقط دولتهم المنصور الذهبي. للاستزادة: ابن بطوطة «تحفة الأنظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار»، و«الوثنية والإسلام. تاريخ الإمبراطورية الزنجية في غرب إفريقيا»
كمادهو بانيكار ترجمة وتعليق أحمد فؤاد بلبع، المشروع القومي للترجمة. المجلس الأعلى للثقافة. القاهرة 1958م.

[103] (105) أيمن السيسي: «الفكر الديني لعثمان بن فودي من خلال مخطوطاته» - رسالة ماجستير - معهد البحوث والدراسات الإفريقية - جامعة القاهرة.

[104] (106) د.ماهر عطية شعبان:جامعة سنكري - مصدر سابق ص 51.

[105] (107)

[106] (108) «الأغلال» ينسبون إلى "محمد غلي" وهو زاهد مشهور من مؤسسي مدينة «شنقيط» ويوجد أول ذكر مكتوب لقبيلة «الأغلال» فى السعدي «تاريخ السودان» ص 62 في معرض حديثه عن المرأة، وفي المحاضرات لليوسي - المقدمة - أنه ولد فى حارة الأقلال كانوا هناك. وحول أولية الأغلال فى شنقيط يقول ابن حامد أنه كانت لـ«إدوا علي» الرئاسة ولـ«الأغلال» الخطط الدينية كالإمامة والقضاء والفتوى فقامت لهم جميعًا دولة علم ودين وثروة، عن - حماه الله ولد السالم - المجتمع الموريتاني ص 202.

[107] (109) الجنود الذين اغتالتهم يد الغدر التكفيرية في رمضان (5 أغسطس2012).

[108] (110) يقصد محمد مرسي.

[109] (111) حبيب سويدية - الحرب القذرة ص 61.

[110] (112) في حوار للنهار الجديد 5 يناير 2011.

[111] (113) حبيب سويدية - الحرب القذرة ص 105.

[112] (114) المصدر السابق - ص106.

[113] (115) المصدر السابق ص 107.

[114] (116) وصلت إلى موقع الحدث بعد ثماني ساعات ونشرت تحقيقًا صحفيًا عنه فى جريدة الأهرام 7 أغسطس2012. «المؤلف».

[115] (117) جريدة الوطن المصرية - الأربعاء 24 يوليو2013 العدد 451.ص 9.

[116] (118) سبق الإشارة إليه في ص 155.

[117] (119) حبيب سويدية - الحرب القذرة ص 113.

[118] (120) كلمة «أج» تعني في اللغة الطارقية «ابن» كما أن كلمة «كل» تعني

«أهل» مثل «كل السوق» تعني أهل السوق.

[119] (121)

[120] (122) «في قبضة الأخطبوط» - من بيروت إلى لوكيربي - دونالد كودارد «ليستر كولمان» العميل السابق للمخابرات الأمريكية - ص 34 - مؤسسة آدم للنشر والتوزيع - مالطا - لندن 1996م.

[121] (123) حبيب سويدية - الحرب القذرة، ص 159 (صادر عن دار ورد للطباعة والنشر 2003).

[122] (124) حبيب سويدية - الحرب القذرة، ص 160.

[123] (125) مراد بطل الشيشاني - تنظيم القاعدة الرؤية الجيو سياسية - مركز الإمارات للدراسات والبحوث الاستراتيجية - الطبعة الأولى - أبو ظبي، 2012.

[124] (126) أوليفيه روا.. القاعدة تنظيم أم مجرد تسمية؟ «لوموند دبلوماتيك» - الطبعة العربية - سبتمبر2004.

[125] (127) محمد بن حبيب الله المجيدري اليعقوبي «توفى 1204 هـ / 1790م» كانت له صلة بالزبيدي المصري، سافر إلى الحج واتصل بالمحدث الشهير الفلاني وتأثر بآراء علماء الحجاز واليمن منهم محمد سعيد صفر والشوكاني وزين العابدين الجمل مفتي المدينة.

[126] (128) يذهب الدكتور حماه الله السالم فى كتابه «حوار المركز والأطراف» - ص 168 - إلى أن حكم المختار الكنتي «ت 1226هـ - 1811م»، جاء بناء على ما وصل إليه عن هذه الحركة من أخبار مركبة: منها تعرض حجاج الآفاق لغارات البدو والرحل فى الحجاز، نظرًا لصراعهم مع العثمانيين وولاتهم «يقصد محمد علي» وأنه كان يصرح بولائه للباب العالي «السلطان العثماني التركي»، ولذلك فإن لتصريحاته أو آرائه ضد الوهابية دوافع سياسية. وكذلك

فإن أخبار المشرق غالبًا ما تصل إلى المغرب الإسلامي والصحراء مضطربة أو مصوغة فى إجمال يشوش على الخبر في طابعه الأصلي،«رغم أن هذا لم يثبت عليه الدليل الواضح فى تراث المنطقة - المؤلف» ومن نفس المنطق - كما يقول حماه الله - يمكن فهم الرأي الذي ساقه ابنه وخليفته الشيخ سيدي محمد الخليفة الكنتي «ت 1242هـ - 1826م»، فى قصيدة مدح لمحمد علي باشا تقديرًا لما قام به فى تحجيم المد الوهابي وربما ينطلق ولد السالم من قاعدة انتشار الوهابية وترسخها فى نفوس الموريتانيين حاليًا عبر مناهج المحاضر «الكتاتيب» التى تلقوا فيها تعليمهم الأول ودليلنا على ذلك كثرة أعداد الموريتانيين فى تنظيم القاعدة الإسلامي في أفغانستان وغلبتهم العددية فى كتائب تنظيم القاعدة فى بلاد المغرب الإسلامي. للاستزادة انظر حلقات «الأهرام فى أرض الخوف» - أيمن السيسي - جريدة الأهرام خمس حلقات نشرت فى شهر يناير 2013م.

[127] (129) والي مصر من عام 1805 حتى 1848م، والذي أرسل جيشه لصد الحركة الوهابية والقضاء عليها وإبعادها عن الحرمين الشريفين.

[128] (130) محمد محمود الأرواني: «تاريخ الصحراء والسودان وبلد تنبكت وشنقيط وأروان»، ص 63 وكان قاضيًا لتمبكتو فى أربعينيات وخمسينيات القرن العشرين، دراسة وتحقيق الهادي المبروك الدالي، سلسلة التاريخ الثقافي المشترك لإفريقيا فيما وراء الصحراء، أكاديمية الفكر الجماهيري، ليبيا.

[129] (131) آثرت عدم ذكر أسماء من حدثني بذلك - احترامًا لرغبتهم حتى لا أسبب لهم حرجًا قد يجرهم إلى أزمات قبلية حيث تتحيز القبيلة لأبنائها بشكل أعمى - هكذا قيل لي - المؤلف.

[130] (132) الشيخ سيديا الكبير ولد في عام« 1190هـ 1776م» وتوفي «1285هـ 1868م» ويعد من أقطاب العلم والفقه والتصوف في غرب إفريقيا، سلك مسلك شيوخه من الكنتيين في العلم والعمل فقام بنشر العلم وحفر

الآبار .وللاستزادة «سيديا باب كتاب الأخبار، نواكشوط 2011». وتبلغ المسافة بين بوتمليت وتمبكتو ألفي كيلو متر قطعها الباحث خلال شهر نوفمبر الماضي في خمسة أيام سفر متواصل لوعورة الطرق، وبوتمليت إحدى أهم المدن الموريتانية 150كم من نواكشوط وتمبكتو عاصمة شمال مالي ومدينة العلم الشهيرة، كانت من أهم عواصم الثقافة الإسلامية خلال قرون عديدة، مضت وتقع بالقرب من الضفة اليسرى لنهر النيجر.

[131] (133) موقع صحراء ميديا - حوار سيدي محمد ولد يونس - 12 ديسمبر 2012م.

[132] (134) د. حماه الله ولد السالم - المجتمع الأهلي الموريتاني. مدن القوافل - مركز دراسات الوحدة العربية - بيروت - مارس2008م، والتفسير لاسم موريتانيا مأخوذ من آتمرتناغ - تمورتنات وتعني بالأمازيغية أرضنا.

[133] (135) حديث لإذاعة نواكشوط الحرة 29 ديسمبر2012.في برنامج «حوار بلا أسوار».

[134] (136) تقرير صادر عن الأمم المتحدة في أول أكتوبر2014 استند إلى 450 مقابلة وشهادة تؤكد منح داعش لمقاتليها عند وصولهم نساء وأطفالًا لقاء مبالغ مالية متواضعة لتحفيزهم على «الجهاد» وبيع 650 فتاة أيزيدية ومسيحية لممارسة الجنس.

[135] (137) تاريخ الصحراء والسودان وتنبكت وشنقيط وأروان - محمد محمود الأرواني.

[136] (138) وهي المنطقة النفطية حاليًا والتي يستخرج منها أكثر من 80 % من إنتاج النفط والغاز فى الجزائر وترتبط جغرافيًا بحوض تاودني الأزوادي.

[137] (139) إلى وقت قريب، والبعض أكد لي أنه يحمل بطاقات تعريفية جزائرية ويلحق أولاده بالمدارس الجزائرية في تمنراست وبرج باجي مختار

فضلًا عما رأيت من انخفاض أسعار السلع - المستوردة من الجزائر - بعد إعلان انفصال أزواد «فى إبريل2012» بنسبة لا تقل عن 25 % عما كانت عليه قبله.

[138] (140) اتخذت فرنسا اسم «الهر الوحشي» لعملياتها، وموطن «الهر الوحشي» هو الصحراء الكبرى وهو يبول 30 مرة فى الدقيقة حتى يهتدي إلى مكانه ويُعرف عند الطوارق بـ«القط المحارب» ويوجد نقش له فى وادي «متخندوش» في جنوب «وادي الآجال» في ليبيا وهو مكان غني بالنقوش من حروف التيفيناغ ورسوم لقصص من حياة الأمازيغ عمرها آلاف السنين.

[139] (141) أفريكوم: يو إس أفريكوم هي واحدة من ست قيادات عسكرية أمريكية مقاتلة مسئولة عن العمليات العسكرية الأمريكية في إفريقيا وكذلك العلاقات العسكرية الأمريكية مع 53دولة إفريقية، وتغطي كل إفريقيا بما فيها الدول العربية والإفريقية باستثناء مصر، وتدير أفريكوم أكبر قاعدة عسكرية أمريكية في إفريقيا من جيبوتي وهي قاعدة «ليمونير» التي وقع إسماعيل جيلي رئيس جيبوتي تجديد عقدها في منتصف 2014 لعشرين عامًا جديدة.

[140] (142) د. سيد فليفل مصدر سابق ص 12.

[141] (143) رواه البخاري عن عمرو بن جرير عن أبي هريرة في صحيحه .باب الجهاد. رقم 36.ورواه الترمذي في سننه الصغرى عن عبد الرحمن بن صخر.. ورواه مسلم أيضًا عن عبد الرحمن ابن صخر.

[142] (144) الفُلان :يطلقون على أنفسهم «فلاني» و«فوله» و«فولبي» وينطقه جيرانهم بأحرف مختلفة فالزنوج يسمونهم «فلا» والهوسا في نيجيريا ينطقونه مولاني والبامبارا يسمونهم فولا، والكانوري يسمونهم «فلاتا» للاستزادة انظر «إنفاق الميسور» لـ محمد بلو، و«تزيين الورقات وضبط الملتقطات» للوزير جنيد، ويقال إن لفظ فولان أو فلان محرف من العربية من لفظ فلاح.

[143] (145) عبد الرحمن السعدي مصدر سابق.

[144] (146) قام «أحمد المنصور السعدي» بغزو «مملكة الصنغي» في شهر ذي الحجة998هـ/1590م، ودخل «تمبكتو» في شعبان عام 999هـ.

[145] (147) محمود كعت «كعتي» تاريخ الفتاش فى أخبار البلدان وأكابر الناس.

[146] (148) جامعة سنكري «في تمبكتو» ودورها الحضاري والثقافي - د.ماهر عطية شعبان. ص 39.

[147] (149) عبد الرحمن السعدي مصدر سابق.

[148] (150) د. ماهر عطية شعبان مصدر سابق ص 18.

[149] (151) حدد المؤرخون العصر الصنهاجي الأول من بداية الفتح الإسلامي في القرن الأول الهجري السابع الميلادي وحتى قيام دولة المرابطين في القرن الخامس الهجري.

[150] (152) بنو حسان من المعاقلة عرب المعقل المنحدرين من نسل كعب بن الحارث من قبيلة مذحج اليمنية، وبذلك فليسوا قرشيين؛ إذ لا وجود لمعقل في أنساب قريش عمومًا والطالبيين خصوصًا - حماه الله «المجتمع الأهلي في السودان» - توغل منهم ذوو كمصور وذوو عبد الله وذوو حسان في بلاد الملثمين وخاضوا حروبًا ضد الصنهاجية، وكانت آخر حروبهم بين إبدوكل وأولاد الناصر أهم صدام بين بني معقل وصنهاجة الصحراء. والتي غيرت حسب - حماه الله - وجه تاريخ الصحراء إلى الآن، فسيطر بنو حسان على أتباع القبائل اللمتونية، وفرض التخصص الفئوي على جماعات المتعلمين من الزوايا والتعرب اللغوي والنسبي وتقدمت القبائل الحسانية مشكلة أربع فصائل منها البرابيش والرحامنة.

[151] (153) الغزو العثماني لمصر 1517م وإسقاط دولة المماليك الحاكمة في مصر والشام بهزيمة السلطان قنصوه الغوري في «مرج دابق» شمال حلب

وطومان باي في الريدانية جنوب الجيزة. الساقية الحمراء ومعها وادي الذهب ضمن حدود المغرب الجنوبية الحالية، وتندوف ضمن حدود الجزائر.

[152] (154) هو سيدي حبيب الله «حيبل» بن الشيخ عابدين بن سيدي محمد الكنتي بن الشيخ سيدي محمد ابن الشيخ سيدي المختار الكنتي، وكان الأخير من أئمة الصحراء وأسيادها، وكان حيبل سيد الحلة التي يعيش فيها بالقرب من كيدال وينتمي إليها أغلب الثوار ضد الحكم المالي.

[153] (155) هو لقب إمبراطور قبيلة الموشي الذي كان كالنمرود «يحيي ويميت» مصير شعبه بيده ويقال إنه لم يكن يعرف أطوال قامات الرجال لديه لأنه لم يكن يراهم إلا سجدًا له.

[154] (156) د.محمد محمود ودادي - أوراق مسافر. الحلقة السادسة.

[155] (157) يقصد إقليمي الإلزاس واللورين الفرنسيين.

[156] (158) يقصد باريس العاصمة الفرنسية.

[157] (159) د.محمد محمود ودادي - أوراق مسافر.

[158] (160) كلمة «كل» أو«كيل» فى اللغة الطارقية - تماشق - تعني «أهل».

[159] (161) صحيفة «لوموند الفرنسية» - الأربعاء 23 يناير 2013.

[160] (162) مورينيوز - وكالة أخبار موريتانيا - 6 يونية 2013.

[161] (163) نقلًا عن وكالة رويترز الخميس 24 يناير 2013.

[162] (164) أيمن السيسي - سلسلة تحقيقات تحت عنوان «الأهرام في أرض الخوف» - يناير 2012.

[163] (165) تقرير المدعي العام للجنائية الدولية 18 يوليو2012.

[164] (166) أعلنت «مانيلا» حركة تحرير أزواد انفصال شمال مالي في 6 إبريل 2012، وكانت زيارتي للمخيم فى شهر نوفمبر من نفس العام.

[165] (167) جيرهارد رولف -1831 1896. رحلة عبر إفريقيا. مشاهدات الرحالة الألماني رولف في ليبيا وبرنو وخليج غينيا 1865 - 1867. ص168، دراسة وترجمة د. عماد الدين غانم. مركز جهاد الليبيين للدراسات التاريخية، فريدريش جير هارد رولف من ألمانيا. تقدم للانتساب إلى الفرقة الأجنبية التي أسستها فرنسا في الجزائر 1831 وشارك في معارك الأوراس 1856 - 1857، ذهب إلى المغرب بعدها محاولًا الانخراط في جيش سلطان مراكش مولاي محمد بن عبد الرحمن «1859 - 1873» ولكن لم يتم له ذلك لكونه نصرانيًا، فبدأ رولف تعلم الإسلام ودراسة العربية مدركًا أن التوغل في دواخل المغرب لن يُتاح إلا بالإسلام فقرر اعتناقه ظاهريًا وذهب إلى وزان ومنها حمل توصية شريفها سيدي عبد السلام إلى قائد مراكش لقبوله كطبيب ثم عمل في البلاط الملكي وافتتح عيادة في مكناس باسم مصطفى، وبدأ رحلته عام 1862 من طنجة إلى إفريقيا عبر الصحراء.

[166] (168) أبو عبيدالله عبد الله بن عبد العزيز البكري - المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب - جزء من كتاب المسالك والممالك. تحقيق دوسلان - الجزائر (د.ن)11958 ص 170.

[167] (169) د.حماه الله ولد السالم - حوار المركز والأطراف إصدارات دائرة الثقافة والإعلام - حكومة الشارقة2004. ص 47.

[168] (170) محمد محمود ودادي - أوراق مسافر.

[169] (171) رياض النفوس للمالكي ص 29، و«البيان المغرب في أخبار المغرب» لابن عذاري أبو عبد الله.

[170] (172) عثمان سعدي: «البربر الأمازيغ، عرب عاربة وعروبة الشمال

الإفريقي عبر التاريخ» ص 76. 78 دار الملتقى للطباعة والنشر - ليماسول، قبرص، الطبعة الأولى سبتمبر 1998م.

[171] (173) ابن عذاري: «البيان المغرب في أخبار المغرب»ص 37 .ج 1 .

[172] (174) تاريخ ابن خلدون ج7 - ص 18 - طبعة بيروت .

[173] (175) عثمان سعدي: مصدر سابق ص 79 ، 80 .

[174] (176) تاريخ ابن خلدون ج 6 - ص 186 - طبعة بيروت.

[175] (177) المرجع السابق ج 6 - ص 183 - طبعة بيروت .

[176] (178) تاريخ ابن خلدون ص 83.

[177] (179) محمد بلو بن عُثمان بن فُودي«1195هـ/1780م 1253هـ /1837م» من أولاد الشيخ عُثمان، نشأ في بيئة علم وجهاد وعبادة ونسك على سيرة حسنة متأثرًا بوالده في كل حياته. أخذ عنه التفسير والحديث وأصول الدين وقرأ عليه التصوف، وعلى عمه الأستاذ عبد الله البلاغة والنحو وعلى أخيه الكبير محمد سعد بن الشيخ عُثمان، منَّ الله عليه بدراسة الألفية ومعرفة الكتاب والسنة معرفة صحيحة. من إنتاجه «الإنفاق الميسور في تاريخ بلاد التكرور» طبع في القاهرة سنة1383هـ/1964م بتحقيق لجنة من علماء الأزهر تحت إشراف وزارة الأوقاف وشئون الأزهر في 240 صفحة من القطع الكبير وطبع مرة أخرى في المغرب بتحقيق الدكتورة بهيجة الشاذلي وله مؤلف آخر في السياسة الشرعية «مفتاح السوداء في أقسام أهل هذه البلاد» مخطوط ومن أهم مؤلفاته التي زادت على 20 مؤلفًا. وثيقة أمير المؤمنين محمد بلو، لازم والده في جهاده ودعوته وقاد جيوشه وبعد إعلان الدولة«سُكُتُو»ولاه على جميع الجهات الشرقية من البلاد، وبويع له بالإمارة عام 1817م بعد وفاة الشيخ عُثمان بعهد سابق من الشيخ وظل أميرًا للمؤمنين سُلطانًا على «سُكُتُو» حتى وفاته عام 1837م - د. حسن عيسى عبد الظاهر - الدعوة الإسلامية في

غرب إفريقيا - ص 368 وما بعدها.

[178] (180) عثمان سعدي مصدر سابق ص 114.

[179] (181) Gauter - EF:Lepasse de l,Afrique du nord P.23

[180] (182) للاستزادة: عثمان سعدي «البربر الأمازيغ عرب عاربة وعروبة الشمال الإفريقى عبر التاريخ» - دار الملتقى للطباعة والنشر - ليماسول. قبرص. الطبعة الأولى. سبتمبر 1998م.

[181] (183) الآية 125 سورة الصافات.

[182] (184) أحيل القارئ الكريم إلى كتابات الكاتب البربري الأمازيغي العربي عثمان سعدي رئيس الجمعية الجزائرية للدفاع عن اللغة العربية والمؤرخ الجزائري الشهير. قضية التعريب في الجزائر كفاح شعب ضد الهيمنة الفرنكوفونية - البربر الأمازيغ عرب عاربة .

[183] (185) بعد سقوط القذافي نادى أمازيغ ليبيا بمطالبهم الثقافية ونجحوا في انتزاع الموافقة عليها من الحكومة حيث قررت المجالس المحلية لمناطق الأمازيغ يوم الثالث عشر من يناير «أول أيام السنة الأمازيغية المرتبط بانتصار شيشنق الأمازيغي على فرعون مصر عام 950 ق.م» وجعل اليوم عطلة رسمية في زوارة وسبها وأوباري.

[184] (186) قام أمير قطر السابق حمد بن خليفة بالانقلاب على أبيه والاستيلاء على الحكم في عملية غريبة جدًا، لم يكن لها مبرر خصوصًا أن خليفة كان قد أطلق يد ابنه بشكل كبير في أمور الحكم، وفي ظل صمت ومباركة عربية جماعية.. وقد تكرر نفس الفعل مع حمد نفسه على يد ابنه تميم «أمير قطر الحالي» وهو نفس ما فعله الشيخ خليفة مع الشيخ محمد بن علي آل ثان.

[185] (187) وهنا نتساءل: إن كان قلب قطر رحيمًا بالفقراء إلى هذا الحد فلماذا لم توجه مساعداتها وإعاناتها لأكثر من 300ألف لاجئ هربوا إلى المخيمات في بوركينا والنيجر وموريتانيا.ليعيشوا ظروفًا سيئة؟!

[186] (188) صحيفة الخبر الموريتانية 4/11/2012.

[187] (189) تكونت في ليبيا كيانات ميليشياوية مسلحة للعناصر التكفيرية تحت قيادة الإخوان؛ أعطيت الصفة العسكرية من قبل المؤتمر الوطني العام - أول جسم تشريعي منتخب - تحت سيطرة الإخوان والجماعة الليبية المقاتلة وأطلق عليها الدروع .

[188] (190) جريدة الشروق الجزائرية 16 أكتوبر 2010.

[189] (191) حبيب سويدية - الحرب القذرة ص 19.

[190] (192) ليس ثمة شك في فساد الحكومات العربية التي حدثت فيها هذه الأحداث وكراهية غالبية شعوبها لها ولكن ما تم بدأ بترتيبات مخابراتية دولية باستخدام خونة في هذه الدول شاركوا مظاليم الشعوب ومقهوريها واستخدمت هذه المشاركات للتصوير بأنها ثورات شعبية، وهو ما لم يكن؛ بدليل أن شعب مصر مثلًا انتخب نصف المشاركين منه في الانتخابات الرئاسية الفريق أحمد شفيق وهو أحد أبرز وجوه نظام مبارك.

[191] (193) أثناء رحلتي إلى الصومال بطريق البحر عبر ميناء المكلا - حضرموت - لإنجاز ملفات القراصنة، والتي نشرت في حلقات تحت عنوان «الأهرام تخترق أوكار القراصنة» ونلت عنها: جائزة أحسن صحفي عربي في مجال التحقيق الاستقصائي - جائزة الصحافة العربية في دبي - ثم جمعتها مع تفاصيل الرحلة في كتاب صدر عن الهيئة المصرية العامة للكتاب تحت عنوان «29 يومًا في الصومال» - المؤلف .

[192] (194) يعيش آلاف الصوماليين الذين هربوا من الصومال إلى اليمن عن

طريق البحر في مدينة المكلا في أحياء وشوارع تقتصر عليهم.

[193] (195) تقرير جين لويس بروجر مدير سابق للمركز الأمريكي الأوروبي المشترك لمكافحة تمويل العمليات الإرهابية - الشرق الأوسط 2014.10.3.

[194] (196) مؤسسة راند هي مؤسسة بحثية أنشأها البنتاجون عام 1948 وتدير مركز «السياسة العامة لمنطقة الشرق الأوسط «ICMEPP» الذي يركز على التطوير السياسي والاجتماعي ويديره دافيد أرون مستشار الأمن القومي للرئيس الأسبق كارتر ويعمل بها بول برايمر قائد قوات التحالف في العراق ومُفَكِك الجيش العراقي بعد الاحتلال الأمريكي، وراي مابوس سفير أمريكا الأسبق في السعودية ضمن الفريق الاستشاري ، وتتبع المؤسسة الجيش الأمريكي.

[195] (197) تم الدفع به كرئيس لتحرير الأهرام بصورة شبه سرية بعد أحداث 25 يناير ورغبة عدد من الصحفيين في تغيير أسامة سرايا الذي اتخذ موقفًا صلبًا ضدها مؤيدًا الرئيس الأسبق حسني مبارك، فقام عدد من صحفيي الأهرام بالدعوة إلى انتخاب رئيس تحرير جديد ورشحوا عبد العظيم وفي غيبة أغلب الصحفيين وتردد بعدها أنه تم حدوث تزوير في الأصوات، وبعض متزعمي هذا الأمر لهم علاقات مشبوهة بالأمريكان ومنهم من اتهم في قضايا ضد الأمن القومي المصري!!

[196] (198) نشر أشرف بدر رئيس تحرير مجلة الأهرام العربي السابق هذه العريضة الاسترحامية!! وأسماء الموقعين عليها في المجلة«الأهرام العربي تنشر وثيقة الخيانة 21 مايو 2014» وحاول رئيس مجلس الإدارة آنذاك أحمد السيد النجار إثناءه عن النشر فلما أصر أشرف بدر طلب منه النجار توقيع خطاب تحمل النتائج من تعويضات إن قام حماد برفع دعوى تعويض وهو ما وقعه أشرف بدر لتأكده منها ولم يعقب حماد أو يقم دعوى أو يتحدث في الأمر من الأساس!!

[197] (199) اجتماع لجنة الخبراء العرب في تونس في الفترة من 20 - 22محرم 1410هـ/22 - 24أغسطس 1989م لوضع تصور عربي وتحديد مفهوم الإرهاب، والإرهاب الدولي، والتمييز بينه وبين نضال الشعوب من أجل التحرير.

[198] (200) الإرهاب المقدس - ص 201.

[199] (201) الدكتور محمد السعيدي في حديث لقناة العربية مساء 19 يوليو 2014.

[200] (202) مراد بطل الشيشاني - تنظيم القاعدة - الرؤية الجيو سياسية والاستراتيجية والبنية الاجتماعية - مركز الإمارات للدراسات والبحوث الاستراتيجية - الطبعة الأولى - 2012 أبو ظبي ص 35.

[201] (203) مشاري الزايدي - هيئة مكافحة الإرهاب السعودية - جريدة الشرق الأوسط 8 سبتمبر 2014.

[202] (204) الحياة اللندنية - 22سبتمبر 2014، الدمام، منير الهديب، «تويتر» وسيلة تجنيد السعوديين ص 18.

[203] (205) د.محمد فؤاد شكري - مصر في مطلع القرن التاسع عشر - الطبعة الثانية - الهيئة العامة لقصور الثقافة - القاهرة - 2010 - ص 100.

[204] (206) الحياة اللندنية - 22سبتمبر 2014، الدمام، منير الهديب، «تويتر» وسيلة تجنيد السعوديين ص 18.

[205] (207) وكأن الأمر يتوقف على «خلع البيعة» فقط دون التطرق لعمق الفكرة ولا خطورتها، فضلًا عن أن فكرة البيعة نفسها ليس لها حيز في الواقع الإجماعي والاجتماعي للشعب السعودي فلم نر أو نسمع عن مبايعته لملك بالخلافة أو الملك.

[206] (208) الحياة اللندنية - 22سبتمبر 2014 ، الدمام، منير الهديب، «تويتر» وسيلة تجنيد السعوديين ص 18.

[207] (209)

[208] (210) لعبة الشيطان - دور الولايات المتحدة في نشأة التطرف الإسلامي، روبرت دريفوس - ترجمة أشرف رفيق - تقديم ومراجعة مصطفى عبد الرازق .مركز دراسات الإسلام والغرب - الطبعة الأولى سبتمبر 2010 ص 247.

[209] (211) المصدر السابق.

[210] (212) لعبة الشيطان ص 310.

[211] (213) مراد بطل الشيشاني - مصدر سابق ص 68.

[212] (214) جريدة الشرق الأوسط - ناصر الحقباني - «سيدات القاعدة» ينقلن الفكر الإرهابي من قندهار إلى غرب السعودية .عدد 13067 - 7سبتمبر2014، والعجب كل العجب في العنوان لأني أرى نقل هذا الفكر كان من السعودية إلى قندهار «المؤلف».

[213] (215) الإرهاب المقدس ص 289.

[214] (216) عقد الاجتماع في 26 شوال 1422هـ/10 يناير 2002بمكة المكرمة.

[215] (217) المصدر السابق ص 312.

[216] (218) دانيال بايمان: «تحالف مستبعد..علاقة إيران السرية بتنظيم القاعدة». مقال صدر عن مؤسسة IHS لاستشارات الدفاع والمخاطر والأمن 2011.

[217] (219)

[218] (220) واجهت المرشد العام بذلك في حوار صحفي أجريته معه عام

2011 - أيمن السيسي - الأهرام.

[219] (221) اسمه الحقيقي عبد العزيز خليل - من مواليد حماة 1982، وقد رصدت أمريكا 10 ملايين دولار لمن يدلي بمعلومات عن مكانه للقبض عليه، وكانت تهمته نقل الأموال من القاعدة وإيران إلى جبهة النصرة في سوريا.

[220] (222) تم إعداد التقرير بناء على طلب من الرئيس الأمريكي وصدر عن الكونجرس عام2004م.

[221] (223) ديلي تليجراف 14/11/2006.

[222] (224) سيف العدل أبو عيد مصري الجنسية، أحد المطلوبين الـ22 من قيادات القاعدة للجهات القضائية الأمريكية ورفضت إيران تسليمه، وهو شخصية استخباراتية قاعدية غامضة كما ذكر لي عدد من أبناء التنظيم.

[223] (225) جريدة الشرق الأوسط 2/8/2014 الحكم على 12 سعوديًّا وفلسطيني بالسجن حتى 10 سنوات.

[224] (226) حبيب سويدية - الحرب القذرة ص 61.

[225] (227) حوار عبد الإله حيدر شايع - صحيفة الناس .

[226] (228) الإرهاب المقدس - أمير الطاهري - تقديم وتعريب د.عبد الله سرور - المكتب العربي للمعارف1989 - القاهرة ص202.

[227] (229) المصدر السابق ص 198.

[228] (230) كنت أثناء زيارتي إلى ليبيا في إبريل 2014 قد باغتُّهم في «درنة» ونجوت فيها من محاولات قتل أو اختطاف وهربني منها سليمان عزوز وفي بنغازي تعرضت للذبح الذي لم يقوموا به حتى يقتلوني بالرصاص خارج المعسكر وليس معي جواز سفر - كانوا قد احتجزوه بعد إطلاق سراحي، وتلك تفاصيل أخرى عن ليبيا - قيد الطبع.

[229] (231) إيجال كرمون - ضابط موساد سابق من 1968 إلى 1998.

[230] (232) سورة المائدة الآية 23.

[231] (233) جريدة الوطن المصرية - 19 مارس 2013 - عدد 324

[232] (234) كان يعيش فيها قبل الانضمام إلى «أنصار الدين» وعاد إليها في مايو 2013 بعد أن نجا من قبضة «مانيلا» التي اعتقلت زميله محمد أج موسى ورفضت السلطات الجزائرية تسليم نفسه لهم في «برج باجي المختار» على الحدود الجنوبية للجزائر لكونه غير مطلوب لديها ، فآثر اللجوء إلى «باسكنو» في موريتانيا لأنه كما قال لم يجد مكانًا آمنًا سواها.

[233] (235) حبيب سويدية «الحرب القذرة».

[234] (236) لعبة الشيطان ص 352.

[235] (237) الحرب القذرة. حبيب سويدية ص 120.

[236] (238) وكالة نواكشوط للأنباء.

[237] (239) القدس العربي - 22 أكتوبر2012 الإسلامي بلمختار يعلن الحرب على تنظيم القاعدة.

[238] (240) ألقاها يوم 5/10/2014 أمام طلبة العلوم السياسية، وبالتالي فهي ليست زلة لسان قد يقع فيها أثناء رد على أسئلة مباغتة في حوار تليفزيوني أو مؤتمر صحفي بل محاضرة معدة سلفًا.

[239] (241) محمد بريالي أفغانستاني الأصل يمت بصلة قرابة لآخر ملوكها ظاهر شاه.. هربت به أسرته طفلًا عام 1981 - الشرق الأوسط 29/9/2014 .

[240] (242) جريدة الشرق الأوسط - خراسان تنظيم جديد يفوق زلزال «داعش» - مارك زيتى - مايكل شميدت - عدد 13082 - 9022 - 2014 - ص 12.

[241] (243) شمس الدين الذهبي «ميزان الاعتدال في نقد الرجال» - المطبعة الحسينية - ص 354 - القاهرة 1325 هـ.

[242] (244) عبدالرحمن بن خلدون، المقدمة من كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر فى أيام العرب والعجم والبربر، ص555 ، 656، طبعة بيروت، 1967، دار الساقي.

[243] (245) المصدر السابق ص 662.

[244] (246) هو عثمان بن محمد «ولقب أبيه فودي ومعناه بلغة الفُلْفُلدي» بن عُثمان بن صالح بن أيوب بن هارون بن محمد غورط بن محمد جب بن محمد ثنب بن أيوب «بوب باب» بن ماسر بن أيوب ابن موسى جكلو، وجده لأمه هو محمد بن عُثمان بن حم بن عال «وعال أو علي هو أخو محمد غورط الجد الخامس للشيخ عُثمان من جهة أبيه»، وجدته لأبيه هي مريم بنت جبريل بن حم «الجد الثالث من جهة أمه» كلمة فوديو أو اختصارها فودي تعني الفقيه، ودان تعني ابن، وهو الاسم الذي عرف به عثمان بن فودي كما ننطقه في مصر والشرق العربي، أو عثمان دان فوديو كما ينطقه بنو جنسه من الفلاتة في السودان وغرب إفريقيا. وإن كان الأصح هو ابن فودي كما قال هو نفسه، فودي بفاء مضمومة ضمة إشمام، وبعد الواو دال مهملة مضمومة، وبعدها ياء ممالة، مخطوط «الشيوخ الذين أخذت عنهم» - نهل الشيخ عُثمان من علوم شيوخ وعلماء أجلاء، وبدأ رحلته الدعوية وهو في سن العشرين من العمر، ثم اختتم حياته بالجهاد المسلح حتى تمكن من تأسيس دولته «سكوتو».

[245] (247) بروفيسور يوسف فضل حسن، أثر حركة الشيخ على دعوة المهدية - كتاب الندوة العالمية للاحتفاء بالشيخ عُثمان بن فودي - جامعة إفريقيا العالمية - السودان 1995م.

[246] (248) «سوكوتو» أو «صوكوتو» هي الدولة التي أسسها الشيخ عثمان بن

فودي عام 1219هـ/1804م بعد دعوة وجهاد بدأ عام 1181هـ/1774م وبعد وصول الإنجليز واحتلالهم دولة «سكوتو» بدأت هجرة أحفاده إيمانًا بفكرتين كان الشيخ قد أسهب في الحديث عنهما وهما: وجوب الهجرة من البلد مادام غلب علىها «ملك كافر» - الاحتلال الإنجليزي، والثانية: ظهور المهدي المنتظر في الشرق - وادي النيل.. وقد استشهد الطاهر الأول في معركة « بورمي (2)» مع الجيش البريطاني، وخلفه أول السلاطين في بلاد الهجرة محمد بلو بن الطاهر الأول، والذي استقر في منطقة على النيل الأزرق جنوب شرق مدينة «سنار» بالسودان وأسموها «مايرنو»، وتعني في اللغة الفُلانية «صاحب الرباط» وكان ذلك لقبًا لمحمد بلو ابن الشيخ عثمان، وتتكون من كلمتين «مي» و«ورنو».وحكم محمد بلو بن الطاهر الأول شعب الفلاتة أو الفُلانيين في «مايرنو» من عام 1903 وحتى عام 1941،للاستزادة «مآسي الاستعمار الإنجليزي على الخلافة التي أسسها ابن فودي..وكان السلطان «رقم 14» في آل عثمان وهو محمد الطاهر بن محمد بلو «1941 – 1969»، وزار مصر عام 1954 والتقى الرئيسين محمد نجيب وجمال عبد الناصر... السلطان الخامس عشر بلو بن محمد الطاهر «1969 - 1972»، والسادس عشر وهو السلطان الحالي أبو بكر محمد الطاهر منذ عام 1972، وكان عمره 25 عامًا. أما أمراء المؤمنين السلاطين الذين تعاقبوا على خلافة سوكوتو فهم على الترتيب: عثمان بن فوديو«1804 - 1817م». محمد بلو بن الشيخ عثمان «1817 - 1837».أبو بكر عتيق بن الشيخ عثمان «1837 - 1842». علي الكبير بن محمد بلو «1842 - 1859».أحمد زروق بن أبي بكر عتيق «1859 - 1866». علي الصغير بن محمد بلو «1866 - 1867».أحمد الرفاعي بن الشيخ عثمان بن فودي «1867 - 1873»، وكان أصغر أبناء الشيخ عثمان.أبو بكر بن محمد بلو «1873 - 1877»، حفيد الشيخ عثمان. معاد بن محمد بلو «1877 - 1881»، شقيق أبي بكر وابن الخليفة الثاني. عمر بن علي الكبير «1881 - 1891». عبد الرحمن بن أبي بكر عتيق «1891 - 1902». الطاهر الأول بن أحمد زروق «1902 - 1903»... وهكذا نجد أن نظام الخلافة في الأسرة العثمانية لم يتخذ الأرشد من أبناء الخليفة، بل اعتمد

نظام انتقال الخلافة الوراثي على نمط الخلافة العباسية، وكان الخليفة الثاني محمد بلو ابن الشيخ عثمان هو الذي وضع أسس إدارة الدولة وانتقال الخلافة، واختار لها النظام العباسي «من حديث مصطفى بلو ولي عهد السلطنة إلى المؤلف بدار السلطنة - مايرنو - السودان - مايو - 2009 م.. وتدار «سلطنة مايرنو» بواسطة «مجلس الوزير» المكون من وزير السلطان رئيسًا للمجلس، ويضم قائد الجيش، وليس شرطًا أن يكون من الأسرة، وصاحب القضاء، وصاحب الشرطة، وصاحب الحسبة، وأعيان السلطنة من زعماء العشائر والعلماء البارزين. وهذا المجلس هو الذي يختار الخليفة من بين أبناء وأحفاد الشيخ عثمان على شروط الاستقامة والتدين والقيادة، وهي نفس شروط الإمامة.

وتتكون «مايرنو» من 17 حيًا، ويسكنها 60 ألف مواطن وتمتد على مساحة تزيد على10كم تنتهي عند ضفة النيل الأزرق وكوبري مايرنو«سينجار»، وبها 11 مدرسة تعلم أساسي«ابتدائي وإعدادي»، و 2 مدرسة ثانوية بنين وبنات، ومستشفى ريفي، و2 مستشفى حضري.

سلطات السلطان: إدارية: وتتمثل في أمور الأعمال الإدارية المماثلة لأعمال الوحدات المحلية القروية، من متابعة تراخيص البناء «تصدر تراخيص البناء من السلطات السودانية، ويراقب عمال السلطان حركتها»، ويأمر بوقف البناء فيما لم يصدر له ترخيص أو ضد من تعدى على الحق العام سواء طرق أو أراضي ملك الدولة. ويمنح شهادات السكن للسكان أو الوافدين، وشهادات الوفاة... وأمنية: وتتمثل في مراقبة الأمن وحفظ النظام والسلوك العام وضبطه ومحاربة الجرائم الجنائية، وتنفذ الشرطة «قسم الشرطة التابع للدولة» أوامره، وتعمل بتوجيهاته... وقضائية: ويفصل في القضايا المدنية والشرعية والجنائية، ويصدر الأحكام بالسجن أو الجلد أو الغرامات، وعلى الشرطة تنفيذ أحكامه، وتعترف الدولة السودانية بأحكام السلطان، حيث إنه الجهة القضائية المعترف بها، ولا توجد محاكم مدنية في «مايرنو».. المصدر - أيمن السيسي -

الفكر الديني للشيخ عثمان بن فودي - دراسة وثائقية - رسالة ماجستير - معهد البحوث والدراسات الإفريقية - القاهرة.

[247] (249) محمد إبراهيم أبوسليم، الحركة الفكرية في المهدية، السودان، ص 204، دار جامعة الخرطوم للنشر، 1970.

[248] (250) السيوطي: أبو الفضل جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي الشافعي ولد بمصر سنة 845 وقيل سنة 849 نشأ يتيمًا وحفظ القرآن في صغره، ارتحل إلى الشام واليمن والحجاز، وصار له باع طويل في التفسير والفقه والأدب والحديث وكتب في فنون كثيرة من فنون الآداب والكتابة، بدأ التأليف وعمره سبعة عشر عامًا ومن أشهر مؤلفاته: كتاب التفسير المعنون بـ«الدر المنثور في التفسير بالمأثور»، وجامعاه «الكبير» و«الصغير» في الحديث، و«الإتقان في علوم القرآن»، وتوفي عام 911هـ، ويبلغ عدد مؤلفاته أكثر من مائتي مؤلف. للاستزادة: راجع ترجمته في «الضوء اللامع لعصريه السخاوي»، و«شذرات الذهب» لابن العماد، و«الأعلام» للزركلي.

[249] (251) الشيخ عثمان بن فودي: مخطوط بمكتبة المؤلف «تحذير الإخوان من ادعاء المهدية» ورقة رقم 18.

[250] (252) أيمن السيسي - الفكر الديني للشيخ عثمان بن فودي - دراسة وثائقية - رسالة ماجستير - معهد البحوث والدراسات الإفريقية - القاهرة.ص 162.

[251] (253) الشيخ عثمان بن فودي: مخطوط بمكتبة المؤلف «النبأ الهادي إلى أحوال الإمام المهدي» ورقة رقم 24.

[252] (254) الكشف في مصطلح الصوفية: هو رفع الحجاب عن بصيرة المتصوف وبصره ليعلم صاحب الكشف ما خفي على العامة والخاصة ومنها اكتشاف معان جديدة في القرآن والسنة ويتبين الحقيقة التي لا يعلمها حتى

علماء الشريعة. والكشف حالة من الشفاف الروحي يصل إليها المؤمن الصالح - بإذن الله واصطفائه - فيحدث ببعض الغيبيات، كما حصل لسيدنا الفاروق عمر بن الخطاب عندما مد بصره وهو واقف على المنبر في خطبة الجمعة وتوقف عنها وقال: يا سارية الجبل! وبعد شهر جاء بريد الجيش يعلن أن سارية سمع صوت عمر فالتفت إلى الجبل.. راجع صحيح البخاري.

[253] (255) الشيخ عثمان بن فودي: مخطوط «النبأ الهادي إلى أحوال الإمام المهدي» ورقة رقم 13.

[254] (256) جلال الدين السيوطي: «العرف الوردي في أخبار الإمام المهدي» ص 191.

[255] (257) الشيخ عثمان بن فودي: مخطوط «تحذير الإخوان من ادعاءات المهدية الموعودة آخر الزمان» ورقة رقم 18.

[256] (258) محمد بلو: «الإنفاق الميسور في بلاد التكرور» تحقيق د.بهيجة الشاذلي - معهد الدراسات الإفريقية، الرباط، المغرب، مطبعة المعارف الجديدة، الطبعة الأولى، 1996م، ص 256.

[257] (259) بروفيسور يوسف فضل حسن - مصدر سابق: ص 296.

[258] (260) عبدالله التعايشي الذي أصبح وزيرًا للمهدي وخليفة له.

[259] (261) يوسف فضل حسن «أثر حركة الشيخ عُثمان دان فوديو على دعوة المهدية في سودان وادي النيل»، الندوة العالمية للشيخ عُثمان بجامعة إفريقيا العالمية - إصدار الجامعة مع اليونسكو - الخرطوم 1995م.

[260] (262) «كشف الحجب والأسفار» إعجاز حسين الكنتوري. كلكتا - الهند - المطبعة العربية 1330هـ /1905م.

[261] (263) إعجاز حسين الكنتوري، مصدر سابق - ص 182 .

[262] (264) أحمد بن يوسف القرماني، أخبار الدول، ج1، ص248، دار الفكر العربي، دمشق، 1984م.

[263] (265) رحلة ابن بطوطة: أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن محمد اللواتي الطنجي، ولد 24 فبراير 1304م /703هـ، ومات 1377م/779هـ ، «تحفة الأنظار فى غرائب الأمصار وعجائب الأسفار» - دار الكتب العلمية - بيروت 1993.ص 358.

[264] (266) نور الله القاضي الششتري: «مجالس المؤمنين»، ص 412، دار المعرفة الجديدة، طهران، 1368هـ.

[265] (267) عبد العزيز جواهر الكلام، آثار الشيعة الإمامية، ص 382، طهران، دون اسم ناشر أو مطبعة 1348 هـ.

[266] (268) كتاب الغيبة، محمد بن إبراهيم النعمان، ص 312 - 313.

[267] (269) قرب الإسناد للحميري القمي: ص 374 - بحار الأنوار للمجلسي ج 52، ص 182 - مسند الإمام الرضا للشيخ عزيز الله عطاردي ج1، ص 217.

[268] (270) كمال الدين وتمام النعمة للشيخ الصدوق: ص 651.

[269] (271) المصدر السابق.

[270] (272) المصدر السابق.

[271] (273) مختصر بصائر الدرجات للحسن بن سليمان الحلي، ص 199.

[272] (274) كتاب الغيبة للشيخ الطوسي، ص 463.

[273] (275) بحار الأنوار للعلامة المجلسي، ج 52، ص 254.

[274] (276) كمال الدين وتمام النعمة للشيخ الصدوق: ص111.

[275] (277) لم تكن خطة التقسيم التي اتفق عليها الوزيران سايكس وبيكو المعروفة باسم «خطة سايكس بيكو» هي الأولى لتفتيت المنطقة ولكي تكون خريطة الشرق الأوسط الكبير أو الجديد التي وضعها «برنارد لويس» أستاذ التاريخ الصهيوني الأمريكي نهاية سبعينيات القرن العشرين هي الأخيرة، أما الأولى فكانت في بنود اتفاق «تلست» في 7 يوليو عام 1807م بين نابليون بونابرت «إمبراطور فرنسا» وإسكندر الأول «قيصر روسيا» ثم في العام التالي عرضها «نابليون» على «ميترنخ» سفير النمسا في باريس مقترحًا - مرة أخرى - تقسيم الإمبراطورية العثمانية «منها الدول العربية». للاستزادة:مصر في مطلع القرن التاسع عشر، الجزء الثالث، د.محمد فؤاد شكري، ص 925 وما يليها، الهيئة العامة لقصور الثقافة، الطبعة الثانية، القاهرة 2010، وكانت خطة هذا التقسيم الأول بغرض الامتلاك أما التقسيم الثاني - سايكس بيكو والثالث وهو الحالي من أجل إسرائيل والاستغلال الاقتصادي أيضًا.

[276] (278)

[277] (279) في ليبيا تم رصد وصول 7 إيرانيين إلى طرابلس الغرب ضمن فريق الهلال الأحمر الدولي وأيضًا ضلوع قاسم سليماني قائد فيلق «القدس» في الحرس الثوري في تفجيرات السفارة الأمريكية في بنغازي.. هذا حسب تسريبات أمريكية. انظر: جريدة الشرق الأوسط، 12 سبتمبر2014.

[278] (280) يرأس «الخلية» الشيعية في موريتانيا بكار ولد ركار الذي يقول إنه شيعي ينتمي إلى طائفة المرجع الشيعي علي السيستاني وقد هاجم المذهب الوهابي التكفيري مؤكدًا أن الوهابية ترتعد خوفًا من الشيخ النمر «شيعي سعودي» فتحكم عليه بالإعدام - المصدر جريدة الحرية الإلكترونية الخميس 6 نوفمبر2014م.

[279] (281) الشيخ علي الكوراني العاملي «عصر الظهور» ولد عام 1944م في ياطر بجبل عامل:

[280] (282) نسبة إلى المنافق ابن سلول.

[281] (283) كان هذا الحديث في ديسمبر 2012م ما بين تمبكتو وطونكي في مالي وباسكنو في موريتانيا .

[282] (284) الشيخ علي الكوراني العاملي «عصر الظهور»، مصدر سابق.

[283] (285) سورة الفتح، الآية 16.

[284] (286) تحدثنا عن جزء منها فى فصل «طريق الأمل».

[285] (287) رواه الحاكم بسنده عن سهل عن أبي صالح عن أبيه عن أبي هريرة.. وإذا سلمنا بصحة هذا الحديث فبالتالي لا بد أن نعترف حسب نصه أن الدواعش سيكونون أفضل من شهداء بدر!!

[286] (288) رواه الحاكم بسنده عن سهل عن أبي صالح عن أبيه عن أبي هريرة .

[287] (289) مجلة الوطن العربي. عدد 1444 - 5 نوفمبر2004م.

[288] (290) لعبة الشيطان - دور الولايات المتحدة في نشأة التطرف الإسلامي - روبرت دريفوس - مراجعة وتقديم مصطفى عبد الرازق.

[289] (291) جريدة «وورلد تريبيون» 14 إبريل 2014.

[290] (292) فكرت أن أقول: ممن ينتمون زورًا للجيش الحر أو يتخذون اسم الجيش الحر وهم عصابات ولكن واقع ما سمي بالجيش الحر يؤكد كثرة هذه النوعية به أو بمعنى أدق لا يستطيع كائن من كان أن يَقْصُر «الجيش الحر» على عدد أو مجموعات معينة أو ينفيه عن مجموعات أخرى فالكل أصبح جيشًا حرًّا!!

[291] (293) جريدة الشرق الأوسط - 6أكتوبر 2014م - عدد 13096، تويتر ويوتيوب سلاحا داعش لتجنيد المتطرفين.

[292] (294) جريدة الوطن المصرية - 27 أغسطس2014م - ص 5 اعترافات قيادات أول خلية لداعش في مصر، خالد محمد.

[293] (295) أطلق أحد ضباطه النار عليه على سبيل الخطأ، وسافر إلى فرنسا للعلاج في نوفمبر 2012م.

[294] (296) حوار لسيدي محمد ولد يونس - صحراء ميديا ديسمبر 2012م.

[295] (297) وكالة الأخبار الموريتانية في 13/9/2014م.

[296] (298) قال لي أبو دجانة وعبد الله :«ترحيبنا بك وتعاوننا معك لكونك سميًّا ومن بلد شيخنا وأستاذنا الدكتور أيمن الظواهري».

[297] (299) نشر في حلقات في الأهرام تحت عنوان «الأهرام على الحدود الأردنية - السورية».

[298] (300) فلسطيني كان يعمل أستاذًا للفقه في جامعة إسلام آباد في باكستان وتعرف إلى أسامة بن لادن في أول توجه لتقديم الإغاثة الإنسانية لسكان مخيمات اللاجئين الأفغان في بيشاور ثم أصبح موجهًا له ومنظرًا لفكر القاعدة .

[299] (301) جزائري سافر إلى أفغانستان للجهاد عام 1986م وتعرف إلى عزام وتزوج ابنته.

[300] (302) باعتباره انتصارًا تمامًا كما حدث بعد انسحاب دول الاعتداء في العدوان الثلاثي على مصر عام 1956 والذي صُوِّر بعد ذلك كنصر!!

[301] (303) ولد عبد الله عزام في جنين - فلسطين عام 1948 وانضم للإخوان المسلمين عندما كان شابًّا في سوريا، وانضم إلى منظمة التحرير الفلسطينية

ثم انشق عنها تأييدًا للملك حسين - حسب توجيهات الجماعة - أثناء أحداث سبتمبر «أيلول الأسود» وسافر إلى القاهرة لاستكمال دراسته في الأزهر بعد إفساح السادات المجال لعودة الإخوان، وانتهى به المجال مدرسًا للشريعة الإسلامية في جامعة الملك عبد العزيز في السعودية وكان من تلاميذه أسامة بن لادن الذي سينتدبه فيما بعد للعمل في مكتب الخدمات الذي أنشأه في بيشاور عام 1984، وحينئذ أقنع أسامة بتمويل مجلة «الجهاد» لنشر الفكر الجهادي والدعوة إلى حمل السلاح وكتب فيها مؤكدًا أن الجهاد فرض عين على كل مسلم إلى أن تعود الأراضي التي كانت تحت سيطرة المسلمين إلنا ويسود فيها الإسلام مرة أخرى مثل فلسطين والفلبين وبخارى ولبنان وتشاد والأندلس وأريتريا والصومال وبورما وطشقند.

[302] (304) مراد بطل الشيشاني - تنظيم القاعدة الرؤية الجيو سياسية والاستراتيجية والبنية الاجتماعية - مركز الإمارات للدراسات والبحوث الاستراتيجية - أبو ظبي - الإمارات. الطبعة الأولى 2012 ص 14.

[303] (305) لقاء صحفي - صحراء ميديا.

[304] (306) عملية هروب عادل حبّارة قاتل جنود رفح الثانية التي تكتم الأمن على المتورط فيها ولحسن الحظ أنها لم تكتمل، ولكن بالمصادفة.. والذي قال لأحد الجنود أثناء ترحيله في ثقة وسخرية: ابقى فكرني أسقيك ميه قبل ما ادبحك.